

المصابيح الساطعة الأنوار
تفسير أهل البيت عليهم السلام
الامام زيد بن علي (ع)
(٧٢هـ - ١٢٢هـ)
الامام القاسم بن ابراهيم (ع)
(١٩٦هـ - ٢٤٦هـ)
الامام محمد بن القاسم (ع)
(٢٨٤هـ)
الامام الهادي الى الحق يحيى بن الحسين (ع)
(٢٤٥هـ - ٢٩٨هـ)
الامام ابو الفتح الديلمي (ع)
(٤٥٠هـ)
الامام الحسين بن القاسم العياني (ع)
(٣٧٦هـ - ٤٠٤هـ)
الصافات - الروم
الجزء الرابع
جمع وتاليف
العلامة عبدالله بن احمد بن ابراهيم الشرقي (١٠٦٢هـ)
تحقيق
محمد قاسم الهاشمي
عبد السلام عباس الوجيه
اشرف عليه
السيد العلامة صلاح بن محمد الهاشمي
مكتبة التراث الإسلامي
الجمهورية اليمنية - صعدة

المصابيح الساطعة الأنوار

تفسير أهل البيت عليهم السلام

الطبعة الأولى

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

منشورات

مكتبة التراث الإسلامي

الجمهورية اليمنية - صعدة

ت: ٥١٣١٥٠

المصابيح الساطعة الأنوار

تفسير أهل البيت عليهم السلام

الامام زيد بن علي (ع)
(٧٢هـ - ١٢٢هـ)

الامام القاسم بن ابراهيم (ع)
(١٩٦هـ - ٢٤٦هـ)

الامام محمد بن القاسم (ع)
(٢٨٤هـ)

الامام الهادي الى الحق يحيى بن الحسين (ع)
(٢٤٥هـ - ٢٩٨هـ)

الامام أبو الفتح الديلمي (ع)
(٤٥٠هـ)

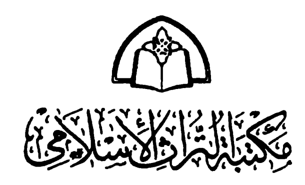
الامام الحسين بن القاسم العياني (ع)
(٣٧٦هـ - ٤٠٤هـ)

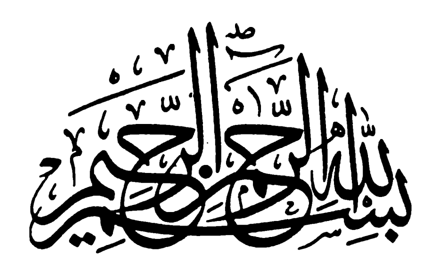
الصافات ـــ الروم

جمع وتاليف
العلامة عبدالله بن احمد بن إبراهيم الشرقي (١٠٦٢هـ)

الجزء الرابع

تحقيق
محمد قاسم الهاشمي		عبد السلام عباس الوجيه
اشرف عليه
السيد العلامة صلاح بن محمد الهاشمي




بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الصافات

(مكية) مائة وإحدى وثمانون، وقيل: اثنتان وثمانون

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١﴾ قال الهادي عليه السلام: والصافات فهي الملائكة، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ ومعنى (صافون) فهو وقوف صفوفا لله تعالى عابدون[1] . اهـ

أقسم الله **بطوائف** الملائكة الصافات أقدامها في الصلاة، أو الصافات أجنحتها في الهواء منتظرة لأمر الله تعالى .

قال في البرهان [2]: لأنها تصطف في صلاتها وعبادتها، وتنتظر

---

(١) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٣٣، وفيه (ومعنى (صافات). عوضا عن (ومعنى صافون)..

(٢) **وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي ما لفظه:**

أخبرنا أبو جعفر، قال: حدثنا علي بن أحمد، قال: حدثنا عطاء بن السائب، عن أبي خالد، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١﴾ أي: الملائكة ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢﴾ أي: الملائكة ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ أي: الملائكة، والتالي: القارئ .

وقوله تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ۝٧﴾ معناه: متمرد عات . وقوله تعالى: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾ معناه: يتسمعون ولا يسمعون . وقوله تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا﴾ معناه: يرمون من كل جانب . دحورا: أي: إبعادا .

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ معناه: دائم . وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ معناه استلب .

﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ معناه: مضيء بين . وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ معناه: فسلهم . =

. . . .

= وقوله تعالى: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ معناه: لازم لازق، واللازب من الطين اللزج، ويقال: الجيد.
وقوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ معناه: استعظمت. وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ معناه: صاغرون أذلاء.
وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ معناه: يوم الجزاء. وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ معناه: يوم قطع القضاء.
وقوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ معناه: وأمثالهم وأشياعهم وضرباؤهم.
وقوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ معناه: دلوهم. وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ معناه: يعطون بأيديهم.
وقوله تعالى: ﴿بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ فالكاس: الإناء بما فيها من الخمر.
وقوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ معناه: أذى، وذهاب عقل، وقال: وجع البطن ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ معناه: لا ينقطع ذلك عنهم، ولا تنزف عقولهم.
وقوله تعالى: ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ معناه: راضيات بأزواجهن لا تطمح عيونهن إلى غيرهم، والعين: الواسعات العين، واحدها: عيناء. وقوله تعالى: ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ معناه: مصون.
وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ معناه: صاحب. وقوله تعالى: ﴿أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ معناه: لمجزيون.
وقوله تعالى: ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ معناه: وسط الجحيم. وقوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ معناه: تهلكني.
وقوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ وهو نبت قبيح المنظر.
وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ فالشوب: الخلط بين الشيئين.
وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ معناه: وجدوا.
وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ معناه: يستحثون، ويسرع بهم.
وقوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾ معناه: في السماء.
وقوله تعالى: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ معناه: مطعون، والسقيم: الهالك.
وقوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ معناه: احتال عليهم ضربا باليمين التي حلف بها وهو قوله تعالى: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ وقال: باليمين: أي: بالقوة والقدرة.
وقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ معناه: يسرعون. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ معناه: أطاق العمل. =

= وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾ معناه: صرعه، فالجبين هاهنا الجهة من يمين وشمال، وأسلما، معناه: اتفق أمرهما. وقوله تعالى: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧﴾ فالذبح: المذبوح، والذبح: الفعل، والعظيم: المتقبل.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٧٨﴾ معناه: الثناء الحسن.

وقوله تعالى: ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا﴾ يعني ربا، وهي لغة يمانية، والبعل في غير هذا الموضع الزوج، والبعل: العِذْيّ من الأرض، و البعل: اليابس من التمر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾ فأبق: قرع، والفلك: السفينة، والمشحون: المملوء الموقر ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ١٤١﴾ أي: قارع والمدحض: المبطل الحجة.

وقوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢﴾ معناه: أتى أمرا يلام عليه، وقال: التقمه الحوت غدوة، ولفظه عشية، ويقال: لبث في بطنه سبعة أيام، ويقال: أربعون يوما.

وقوله تعالى: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ﴾ معناه: بالفضاء من الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦﴾ معناه: من قرع، وقال: إن اليقطين كل شجرة لا تقوم على ساق.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧﴾ معناه: ويزيدون.

وقوله تعالى: ﴿فلولا أنه كان المسبحين﴾ معناه: من المصلين.

وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام ما لفظه:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا﴾ هذا قسم من مولانا عز وجل بسادتنا الملائكة صلوات الله عليهم ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ هي جمائع الملائكة وصفوفهم، ومعنى ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ المسبحات زجرا بأصواتهن وجهرا، قال الشاعر:

يا حادي الليل مليح الزجر

أي: حسن الجهر.

ومعنى قوله: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣﴾ الذين يتلونه ويقولونه.

ومعنى قوله: ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ أي: مطالع النجوم من المشرق، ومعنى قوله: ﴿وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ٧﴾يعني بذلك أن النجوم تحفظ السماء بإذن الله من الشياطين المردة، المتمردون اللاعبون العبثون المعتادون للقبائح الماجنون، وقيل: إن المارد هو المارن، وهو الساقط للقبائح الماجن ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ أي: إلى الخلق الأعلى، وهم سادتنا الملائكة عليهم السلام، ومعنى قوله: ﴿وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ٨ دُحُورٗا﴾ القذف: هو الرمي والرجم، ومعنى قوله: ﴿دُحُورٗا﴾ أي: إبعادا وتنفيرا ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾ أي: =

. . . .

= متعب، قال الشاعر:

هام بها قلبي وقلبي لم يثب منها فتيلا غير إعراض وصب

أي: التعب والنصب، والأوصاب: جماعة النصب والتعب، قال الشاعر يصف مطيته:

إن تسلم العوجاء من الأوصاب فلا أبالي جفوة الأصحاب

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ يريد المار من الشياطين حثيثا ليسمع الكلمة من كلام الملأ، وهو مسرع خائف، والخطف: هو الإسراع، قال الشاعر يصف الفرس:

يختطف الأرض اختطافا وترى سنبكه يقدح في المرو الشرر

﴿شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أي: نجم مبين، قال الشاعر:

واري الزناد وثقوب النار

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: سلهم، ومعنى قوله: ﴿مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ أي: لازم لزج، قال الشاعر:

ولا تحسبون الخير لا شر بعده ولا تحسبون الشر ضربة لازب

ومعنى قوله: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ أي: يستهزئون ويسخرون ويتلعبون، ومعنى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: صاغرون ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ﴾ أي: صيحة وجهرة ونهرة، ومعنى قوله: ﴿يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ هو يوم القطع بالحكم ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ يريد الأمر للملائكة بحشر الكافرين وأزواجهم من الفاسقات ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ أي: وما كانوا يطيعون من شياطينهم الظلمة المنافقين، قال الله عز وجل ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ وقد علم أنهم لم يصلوا له ولم يصوموا، ولكن أطاعوه وكفروا، ومعنى قوله: ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: منقادون، قال الشاعر:

هربا ولا مستسلم

أي: لا منقاد، ومعنى قوله: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: لم يكذبهم، ولم يقف عن أحد منهم، كما فعلت اليهود والنصارى، كذبوا كثيرا من الرسل، إذا لم يطيعوهم إلى الجهل بالله عز وجل، ولم يوافقوا مذهبهم في التشبيه لله.

ومعنى قوله: ﴿رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ أي: محدود ومعلوم. ومعنى ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: لا أذى، ولا هلاك، قال الهادي صلوات الله عليه:

إن المنية قد تغول وتصرع

ومعنى قوله: ﴿بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ أي: محفوظ مستور مصون، والبيض: هو بيض النعام، والعرب تشبه حسان النساء بالبيض في النقاء والنظافة، وحسن الألوان والصفاء قال الشاعر:

فهن كبيض الرمد في دمث الربا أجزن عليه بكرة بمدام =

= وقال آخر:

كأنها يوم حلُّوا بطن ذي سلم تفاحة في يدي نشوان عطار

أو بيضة لظليم بات يكنفها في ليلة من جمادى ذات أمطار

وقال آخر:

كأن بيض الرمد في الأداحي بيض حسان نهد الشديين

ومعنى قوله: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي: مجازون محتكمون، ومعنى قوله: ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: في وسط النار، ومعنى ﴿إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ أي: لقد أردت أن تهلكني.

ومعنى قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أي: من المعذبين الحاضرين للعذاب المهين، ومعنى قوله: ﴿فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: عذابا للجائرين، ومعنى قوله: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ أي: ثمرها، كأنه رؤوس الحيات، وهي الحنشان والثعابين، قال الشاعر يصف الراحلة:

تلاعب مثنى حضرمي كأنه كحبل لشيطان بذي جزع مقفر

شبه حبل الراحلة بالحية، وهي الحنش، بلغة أهل اليمن، وأهل الحجاز يسمون الثعبان حية، وثعبانا، والشياطين هاهنا هي الحنشان، قال الشاعر:

كمثل شيطان الحماط أعرف

أي: كمثل حية الحماط، والحماط شجر معروف، وأهل اليمن يسمونه البلس العربي.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ أي: تخلط بماء حار، قال الشاعر:

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

أي: خلطا بماء، والعرب تقول: شيبا اللبن بالماء، أي: اخلطاه، ومعنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: وجدوهم كافرين ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي: يسرعون، قال الشاعر:

فجاؤا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا

وقد يكون معنى قوله: ﴿يُهْرَعُونَ﴾ أي: يسوقهم رؤساؤهم وكبراؤهم على آثار آبائهم، ويحضونهم على ذلك ويحثونهم، ويستعجلونهم، قال الشاعر:

أتونا يهرعون وهم أسارى نسوقهم على رغم الأنوف

والقول الأول أحسنهما وخيرهما، وهو أنهم يسرعون، وكلاهما حسن

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ أي: نوح ونسله وبقيته ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: من أتباعه وذريته ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ أي: هاجر إلى ربه بقلب سالم كريم، لم يدخله الشك والارتياب في الله رب العالمين، وروي عن ابن عباس: أن إبراهيم من شيعة محمد صلى الله عليهما وآلهما ؛ لأن دينهما واحد، وإن كان متقدما =

= له، كقوله تعالى: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ وهم قبلهم في سفينة نوح، وذلك جائز عند العرب، فالقصة لنوح في شيعته لمحمد ؛ لأنه صاحب الدار والكبار، فجاز إضماره بين قصتين، والله أعلم، ومن سره أن يسلم قلبه من الأوهام، ويعتقد حقيقة اليقين والإسلام حتى لا يجوز على عقله ما يجوز على الطغام، فليحرص على ما وضعت من كتب الملحدين في المعقول، ودفع الجاحدين ليحكم عقله على الشكوك، فإنه يعرف رب الأرباب، ومالك الملوك، ويوقن به إن حكم عقله حق اليقين، ويظهر بأحق حقائق الحق المبين.

ومعنى قوله: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: كذبا ابتدعتموه غير الله ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾ أي: فكر فكرة في عبادتهم للنجوم، فقال لهم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: مريض مغموم من عبادتكم لما لا ينفعكم من النجوم ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ أي: يفروا عنه وأدبروا عن طاعته ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ أي: انقلب إلى أصنامهم فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ يريد صلى الله التعجب من ضعف عقول هؤلاء الذين يعبدون ما لا يأكل ولا ينطق، ولا يعي، ولا يعقل، ويمكن. والله أعلم. أن يكونوا أكرموا آلهتهم بالطعام كما يكرمونها باللباس، قد بلغني أن قوما من الأعاجم يفعلون ذلك في هذه العصور والله أعلم وأحكم، وليس حمقهم في تقديم الطعام إلا دون عبادتهم وخشوعهم للأصنام.

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ أي: تكسيرا لأصنامهم باليمين، فأقبلوا إليه يزفون أي: يسعون ويسرعون، قال الشاعر:

وزفوا إلينا في الحديد كأنهم   أسود عرين ثم عند المبارك

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ أي: ما تبرون بالحديد من الحجارة، والعيدان وتصنعون ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ هذا مجاز معروف، تقول العرب: فلان يعمل الحديد، أي: يعمل فيه على الحقيقة، ولا يعمله إلا على المجاز ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾أي: مهاجر إلى طاعة ربي، قال الشاعر:

إليك ربي قلق وضينها   قد ذهب الشحم الذي يزينها

مخالف دين النصارى دينها

يعني الراحلة، فقال: إليك ربي، أي: إلى طاعتك واتباع أمرك، ومعنى قوله: ﴿حَلِيمٌ﴾ أي: عاقل لبيب، قال الشاعر:

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم   من الناس والأحلام غير غوارب

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي: العمل بطاعة الله، ومعنى ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: سلما لأمر الله، وتله: أي: جبذه وقاده إلى المذبح ليقتله، وروي أنه لما عزم على=

. . . .

= قتله، قال إسماعيل: يا أبت إني أخاف أن تنظر إلى وجهي فتلحقك رقة الأبوة، فألقني على وجهي واذبحني من قفاي، فألقاه على جبينه، وهو حر وجهه، ومعنى ﴿لِلْجَبِينِ﴾ أي: على الجبين، فقامت اللام مقام على، قال الشاعر: فخر صريعا لليدين وللفم.
وإنما أراد على اليدين والفم، ولكنه على سبيل ما ذكرنا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ أي: المحنة البلية والإختبار ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ أي: بذبح جسيم ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ﴾ أي: تفضلنا عليه، وعلى هارون، ومعنى ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أي: صنما، ومعنى ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ أي: خلقا، ولكنه اختصر ولم يتم الكلام لعلم المخاطب أن الله عز وجل لا يوصف بالحسن، لأن الحسن عرض من صفات الأجسام، والخالقون: هم الصانعون، قال الشاعر:

حروب دهت منا الجميع وفرقت   كما فرقت صدر الأديم حوالقه

أي: صوانعه، وقال آخر:

وأراك تفري ما خلقت وبعـ   ـض القوم يخلق ثم لا يفري

ومعنى قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ أي: سلام على إلياس، وقد زعم بعض المفسرين أن آل ياسين هم آل محمد ﷺ، وزعموا أن ياسين هو محمد صلى الله عليه وآله، فأحسب والله أعلم أن المعنى غير ما توهموا في ذلك ؛ لأن الخبر متصل غير منفصل عن إلياس عليه السلام، وإنما هو هجاء الإسم لا يخفى ذلك على أحد يفهم، ألا تسمع إلى قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ ويحتمل هذا الكلام وجها آخر، أن يكون سلام على آل إلياس وهم محمد وآل بيته ؛ لأن إلياس عليه السلام بمنزلة الوالد لمحمد وآله عليهم السلام، وإلياس هو من نسل إبراهيم صلوات الله عليه، ونحن من نسل إبراهيم، ومعنى قوله: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ أي: في الماضين في لعنة الذاهبين، قال الشاعر:

سألت عن غابر الأيام ماضية   وما بقي من زمان فهو محسوب

والغابر أيضا على وجه آخر: وهو الباقي، وهما ضدان، قال الشاعر:

أنا عبيد الله ينميني عمر   خير قريش من مضى ومن غبر

ومعنى قوله: ﴿دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ أي: أهلكناهم ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يقول عز وجل: إنكم لتمرون بالليل والنهار على المدمرين الهالكين أفلا تعقلون وتذكرون الموت، وتتأهبون وتستعدون له وتشمرون وتفكرون في هلاكهم، وتعتبرون، وتتغفلون عن غفلتكم وتنظرون، ومعنى قوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ أي: هرب إلى السفن المملو المثقل المشحون، قال الشاعر:

شحنا أرضهم بالخيل حتى   تركناهم أذل من الصراط

أي: ملأنا أرضهم بالخيل، ومعنى قوله: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ روي أن السفينة لم =

= تجر بهم، فظنوا أن مولانا عز وجل قد كادهم فقالوا: إن فينا رجلا عاصيا لله فتساهموا بنا فمن خرج سهمه فليخرج من سفينتنا، فساهم عليه السلام فوقع السهم عليه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ أي: المسقطين، فروي أنه وثب من السفينة، فوقع في فم الحوت، وهو مليم، أي: مذنب، قال الشاعر:

ولكن المسيء هو المليم

أي: الذنب، وإنما عصى الله على سبيل ال حسبان، وحسب أن الله لا يسخط عليه في ترك قومه، وهربه عنهم، ولم يكون يجوز له الترك لهم إلا بأمر الله كما أمره بدعوتهم، ولا يخرجه من الدعوة إلا الأمر الإلهي، فغفل صلى الله عليه وسهى، ولم يميز الأمر ولها، ولم يرد بذلك المقاطعة لمولاه، ولكنه اتبع في الهجرة هواه.

ومعنى قول مولانا عز وجل: ﴿ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾أي: طرحناه من بطون الحوت، بالعراء: أي: في العراء، وهو الموضع الذي لا ستر فيه، ولا ملجأ ولا ذرا ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ قيل: شجرة الدباء، وبعض الناس يسميها القرع، ومنهم من يسميها الدلاع، وهو شجرة لينة باردة، ويمكن أن يكون مولانا أضله بها وفرشه إياها لضعف جسمه، وعراء عظامه صلوات الله عليه وعلى روحه، ورحمة الله على لحمه ودمه.

﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ المعنى: ويزيدون وليس الله يشك في ذلك، تعالى عما يتوهم الجاهلون، ولكن أو قامت مقام الواو ؛ لأنهما جميعا من حروف العطف والنسق، وهن الفاء والواو، وما أشبههن وشاكلهن من الكلام، قال الشاعر:

بني عامر فهم الأكرمون والأكثرون حصى أو نفيرا

يريد حصى ونفيرا، أو قال للغة التي ذكرا، وقال آخر:

فلو كان البكاء يرد ميتا بكيت على عمير أو عقاق

يريد على عمير أو عقاق.

ثم بين ما قلنا بقوله:

على القرمين إذ هلكا جميعا لشأنهما بحزن واحتراق

ومعنى قوله: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾ أي: حجة بينة، ومعنى قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ أي: شبها لأنهم يتعوذون بالجن كما يتعوذون بالله، فنسبوا إلى الجن صفة خالقهم ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ أي: ما أنتم به فاتنون، أي: مضلون ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ والفتنة: هي الضلال، قال الشاعر:

يا عمرو إنك بالضلال فاتن

أي: مضل.

أوامر الله عز وجل فيما يأمرهم به من إنعام على خلقه، أو انتقام منه، أو قبض أرواح، أو إرسال مطر ورياح، أو إنزال كتب، أو حمل شرائع وأحكام، واصطفافهم[(١)]: فهو دال على الخضوع، واستعمال العبودية، وانتظار الأمر[(٢)] . اهـ

وعن ابن عباس: الملائكة صفوف في السماء لا يعرف كل ملك منهم من إلى جانبه، لم يلتفت منذ خلقه الله عز وجل .

= ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ هذا قول أمر به سادتنا الملائكة المقربين، والمقام: هو الموضع الذي يقومون فيه بطاعة خالقهم، قال الشاعر: أقسمت لا أزول عن مكاني، أي: عن موضعي، والمقامات أيضا هي المجالس في لغة العرب، قال الشاعر:

وكالمسك ترب مقاماتهم وترب قبورهم أطيب

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ قيل: إن الصافين هم الملائكة الواصفون لله بالعدل والإحسان، والعظمة والجلال والسلطان، والله أعلم بصحة ذلك. فأما الذي يذكر في لغة العرب فإن الصف هو تقارب الصفوف، قال مولانا عز وجل: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ ومعنى قوله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: لقد كانوا يقولون: لو أن عندنا ذكرا ووحيا مثل الأولين ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: تقدمت كلمة الميعاد لأوليائه بالنصر على الكافرين، ومعنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ أي: المعانون المؤيدون ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾﴾ أي: هاجر عنهم إلى حين ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ أي: ابصر ما سيحل بهم من نصر الله لك عليهم فسيبصرون ذلك في أنفسهم ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي: بفنائهم وحول دورهم، وقرب منهم لهلاكهم، والساحة في لغة العرب: هي الفناء القريب من المنازل، قال الشاعر:

ألما بالديار فحيياها لتقرى أهل ساحتها السلام.

ومعنى قوله: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: قبح، وهذا مأخوذ من السوء والعذاب إذا صبحهم في أول النهار بمشيئة رب الأرباب بعد إنذار النذر لهم، و تحذيرهم للمعذب.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾ أي: بعدان سيدك يا محمد مما يقول الجاهلون، ويتوهم الضالون ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ أي: مالك القوة التي أعز بها أولياءه من الدين والهدى ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ أي: سلام من الله للمرسلين.

(١) في المصابيح (واصطفافها) وفي البرهان (واصطفافهم).

(٢) في النسخة ب (وانتظار الأمر) وفي البرهان (وانتظار لأمره سبحانه). وفي النسخة أ (وانتظار الأوأمر). =

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ قال الهادي عليه السلام: فهي الملائكة أيضا الزاجرات للخلق عن معاصي الله الخالق، بما تنزل به من أمر الله ونهيه، ومؤكدات فرضه[١].

قلت: ومثل هذا في البرهان[٢].

قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى الزاجرات أي: المسبحات زجرا بأصواتهن وجهرا قال الشاعر:

يا حادي الليل مليح الزجر [بشر مطاياك بضوِّ الفجر]

[معنى (مليح الزجر)] أي: حسن الجهر[٣].

وقيل: الزاجرات: السائقات للسحاب زجرا، أي: سوقا لأنها تسوقه وتجمعه

قال الليث: يقال زجرت البعير، فأنا أزجره زجرا ؛ إذا حثثته ليمضي، وزجرت فلانا عن سوء فانزجر أي: نهيته فانتهى، فعلى هذا الزجر للبعير كالحث، وللإنسان كالنهي[٤].

ثم قال تعالى ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ قال الهادي عليه السلام: فهي الملائكة أيضا التي تتلو وحي الله على أنبيائه، وتنزل بزواجر آياته لأنبيائه[٥]. اهـ

وجواب القسم قوله ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾ أي: لا شريك له في الإلهية.

---

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٣٣.

(٢) لفظ البرهان: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢﴾ يعني بها الملائكة، وتحتمل الآية أن تكون في كل من زجر من معصية الله، وأمر بطاعته، وإنما اسم الملائكة ؛ لأنهم يردون بالنهي والأمر، ويزجرون عن معاصي العلي الذكر.

(٣) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليهما السلام أوائل هذه السورة. ولفظ المصابيح (أي: المسبحات بأصواتهن زجرا وجهرا) وما أثبتناه هو ما في تفسير الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام، وما بين القوسين من مصنف المصابيح رحمه الله.

(٤) وذكر الرازي أيضا قول الليث بلفظه (تفسير الرازي ٢٦/ ١١٤).

(٥) المجموع ص ٤٣٣.

واعلم أنه تعالى قرن التوحيد وصحة البعث والقيامة في سائر الصور بالدلائل اليقينية، فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها بذكر القسم تأكيدا لما تقدم، لاسيما والقرآن إنما نزل بلغة العرب، وإثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب.

ثم إنه تعالى لما أقسم بهذه الأشياء على صحة قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤﴾ ذكر عقيبه ما هو الدليل اليقيني في كون الإله واحدا، وهو قوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومالكهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من جميع الأشياء التي من جملتها بني آدم، وكلما أنعم عليهم به من الأنعام والحيوان وغيرها.

ثم قال ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهي ثلاثمائة وخمسة وستون مشرقا[١] ومثلها في المغرب، تشرق الشمس كل يوم في مشرق، وتغرب في مغرب لا تشرق ولا تغرب في واحد يومين.

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: المشارق: مطالع النجوم من المشرق، وذلك لأنه بين تعالى في قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٢] أن انتظام أحوال السموات والأرض يدل على أن الإله واحد، فهاهنا لما قال: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤﴾ أردفه بقوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ كأنه قيل: قد بينا أن النظر في انتظام هذا العالم يدل على كون الإله واحداً، فتأملوا في ذلك الدليل ليحصل لكم العلم بالتوحيد.

ثم قال سبحانه وتعالى ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: القربى منكم ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ أي: خلقنا الكواكب زينة للسماء.

---

(١) قال السدي: المشارق ثلاثمائة وستون مشرقا وكذلك المغارب، فإنه تطلع الشمس كل يوم من مشرق وتغرب كل يوم في مغرب، تفسير الرازي ٢٦/١١٨.

(٢) الأنبياء: ٢٢

قال في التجريد: يحتمل أن يراد بالزينة التي هي الكواكب، ويحتمل أن يراد زيناها بما تزينت به الكواكب من ضوئها وأشكالها، هذا على قراءة الإضافة، ومن نون ﴿بِزِينَةٍ﴾ وجر ﴿ٱلْكَوَاكِبِ﴾ كانت بدلا، أي: زيناها بالكواكب، ومن رفع أو نصب الكواكب فالتقدير: بأن زيَّنتها الكواكب، أو بأن زين [الله] الكواكب(١) ذكره ابن الجوزي عن الزجاج.

وقال في البرهان: لأن من الكواكب ما خلق للزينة، ومنها ما هو لغير الزينة، وروينا عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال: خلقت النجوم

(١) قال في الرازي: قال صاحب الكشاف: وقوله: ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ يحتملهما فإن أردت المصدر فعلى إضافته إلى الفاعل، أي بأن زينتها الكواكب، أو على إضافته إلى المفعول، أي: بأن زان الله الكواكب وحسنها، لأنها إنما زينت السماء بحسنها في أنفسها، وإن أردت الإسم فللإضافة وجهان: أن تقع الكواكب بيانا للزينة ؛ لأن الزينة قد تحصل بالكواكب وبغيرها، وأن يراد ما زينت به الكواكب. الرازي ١١٩/٢٦، ١٢٠.

وقال السيد العلوي في حاشيته: قال ابن الحاجب: الزينة تطلق على ما يتزين به، وعلى المصدر، كقولك: زانه يزينه زينة، فمن قرأ بالإضافة احتمل أن يرادُ ما تزين به من أصناف متعددة، فأضيف إلى صنفه، ليتبين أنه المراد، وأن يراد المصدر على التزين بما اشتملت عليه الكواكب من ا لصفات المخصوصة من النور والترتيب والهيئة المخصوصة التي هي مصدر، ومن نصب قدر فعلا، أي: أعني الكواكب، والزينة أيضا بمعنى ما يتزين به ؛ لأن الكواكب كالتفسير لها، إلا أن يقدر أعني زينة الكواكب، وحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، ويجوز في قراءة النصب أن تكون الكواكب بدلا من السماء على أنه بدل اشتمال، كأنه قيل: إنا زينا الكواكب في السماء الدنيا بزينة، فتكون الزينة بمعنى المصدر، واستشهد بقول ابن عباس، على أنه يجوز أن يراد ما زينت به الكواكب ؛ لأن ما زينت به الكواكب هو الضوء، وأشكالها المختلفة، ومطالعها ومسايرها.

ثم قال: قوله: (ويجوز في نصب الكواكب أن يكون بدلا من محل ﴿بِزِينَةٍ﴾) أي: أنه في موضع نصب، وهو قول الزجاج، وقال ابن الحاجب: هو ضعيف، ضعف قولهم: مررت بزيد أخاك، فلا ينبغي أن يحمل عليه قراءة ثابتة صحتها، ووجه ضفعه أنه إذا جعل بدلا كان في المعنى معمولا للعامل الأول، ولا يجوز أن يكون العامل الأول مسلطا عليه باعتبار المعنى بنفسه، ألا ترى أنك لو قلت: في مررت بزيد أخاك، مررت أخاك لم يجز، كذلك هذا. (حاشية العلوي مخطوط ص ١٩٣، ١٩٤).

لثلاث: رجوما للشياطين، وأدلة يهتدى بها في العبادات، ويستدل بها على مرور الأيام والأوقات وزينة لسماء الدنيا.

قال في التهذيب[١]: وتدل الآية على أن الكواكب في السماء، خلاف ما يقوله أهل النجوم.

وقوله ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ معطوف على ما فهم من المعنى، أي: جعلناها زينة، ﴿وَحِفْظًا﴾ أو وحفظناها حفظا[٢].

ومعنى ﴿مَّارِدٍ﴾ خارج عن الطاعة متجرد من الخير، من قولهم: شجرة مرداء لا ورق فيها، والمراد أن النجوم تحفظ السماء بإذن الله من الشياطين المردة.

وقيل: إن المارد هو المارن، وهو الساقط للقبائح الماجن

ثم قال تعالى ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قرئ بتخفيف السين وتشديدها، وهي قراءة حمزة، والكسائي، وحفص، وأصل التشديد يتسمعون، فأدغمت التاء في السين، والتسمع: طلب السماع سمع أو لم

---

(١) التهذيب: هو اسم كتاب في التفسير، وهو للحاكم الجشمي المحسن بن كرامة، وهو تحت التحقيق، ولم تكتمل لنا أجزاؤه بعد، نسأل الله أن يسهله لنا، وأن يعيننا على إخراجه لينتفع الناس به، والمفقود لدينا هو من سورة الشعراء. إلى غافر.

(٢) أي أن ﴿وَحِفْظًا﴾ عطف ومنصوب، ولا بد له من معطوف عليه، أو من ناصب، فإما أن يعطف على ﴿بِزِينَةٍ﴾ من حيث المعنى ؛ لأنه في الحقيقة مفعول له: لقوله: ﴿زَيَّنَّا﴾ والتقدير خلقنا الكواكب زينة وحفظا، وإما أن يقدر الناصب ويؤخر، وهو زيناها ليفيد الاهتمام بالمفعول له المقدم، وهو ﴿وَحِفْظًا﴾ والمراد بالناصب هنا زيناها ؛ لأنه نصب حفظا على المفعول له، أو يقدم، بأن يقال: التقدير: وحفظناها حفظا، ليفيد التوكيد، قال المبرد: إذا ذكرت فعلا، ثم عطفت عليه مصدر فعل آخر نصب المصدر ؛ ليدل به على فعل آخر، نحو قولك: افعل وكرامة، أي: افعل ذلك وأكرمك كرامة، قال الطيبي: وفيه توكيد آخر من هذه الحيثية، ودلالة على أن الحفظ أهم من التزيين وأعني، ولذلك أتبعه الله عز وجل ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾. أفاد هذا السيد العلوي في حاشيته ص ١٩٤.

يسمع، وعن ابن عباس: هم يتسمعون ولا يسمعون[١]، والمعنى: حفظا لئلا يسمعوا، فلما حذف الناصب عاد الفعل إلى الرفع.

والذي اختاره صاحب الكشاف أنه كلام مبتدأ منقطع عما قبله، وهو حكاية حال المسترقة للسمع، فإنهم لا يقدرون أن يستمعوا إلى كلام الملائكة أو يسمعوا، وهم مقذوفون بالشهب مدحورون عن ذلك المقصود[٢]. اهـ

والملأ الأعلى: هم الملائكة ؛ لأنهم يسكنون السموات، والإنس والجن الملأ الأسفل ؛ لأنهم سكان الأرض.

وقال القاسم بن إبراهيم عليه السلام: الجن يسكنون الهواء، ما بين الأرض والسماء.

﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أي: يرمون بالشهب ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي: من كل مكان من جوانب السماء.

ومعنى ﴿دُحُورًا﴾ أي: طردا، أي: يقذفون لأجل الدحور، وهو الطرد عن التسمع، والدحور: الدفع بعنف، قال المبرد: والدحور أشد الصغار، وأبين الذل، وقال ابن قتيبة: دحرته دحرا ودحورا، أي: دفعته وطردته.

ثم قال عز وجل ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: دائم،

---

(١) كلام ابن عباس، ينصر قراءة التخفيف.

(٢) وإنما اختار الزمخشري هذا الوجه ؛ لأنه لا يخلو إما أن يكون متصلا بما قبله، على أن يكون صفة لكل شيطان، أو استئنافا، فلا تصح الصفة، لأن الحفظ من شياطين لا يسمعون ولا يتسمعون لا معنى له، وكذلك الإستئناف ؛ لأن سائلا لو سأل: لم تحفظ من الشياطين ؟ فأجيب بأنهم لا يسمعون. لم يستقم، قال الزمخشري: فبقي أن يكون كلاما مبتدأ اقتصاصا لما عليه حال المسترقة للسمع، وأنهم لا يقدرون أن يسمعوا إلى كلام الملائكة، أو يتسمعوا، وهم مقذوفون بالشهب مدحورون عن ذلك إلا من أمهل حتى خطف خطفة، واسترق استراقة، فعندها تعاجله الملائكة بإتباع الشهاب الثاقب (٤/ ٣٥)

يقال: وصب الأمر وصوبا، يعني أنهم في الدنيا مرجومون بالشهب، وقد أعد لهم في الآخرة نوع من العذاب دائم.

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى واصب: أي: متعب، قال الشاعر:

هام بها قلبي وقلبي لم يبت منها فتيلا غير إعراض وصب

أي: التعب والنصب .والأوصاب: جماعة النصب والتعب، قال الشاعر يصف مطيته:

إن تسلم العوجا من الآصاب فلا أبالي جفوة الأصحاب

ثم قال تعالى ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ أي: إلا من استرق السمع من كلام الملائكة، وهو مسرع خائف مأخوذ من الاختطاف، وهو الاستلاب بسرعة والمعنى: إلا من أمهل حتى خطف خطفة من السمع فعاجله ملك عند ذلك بإتباع شهاب ثاقب، أي: مضيء، يقال: اثقب نارك أي أضئها.

قال في التجريد: فإن قيل: فما يقتضي هذا الاستثناء أيسمعون أم لا؟ قلنا: أما بعد مبعث النبي ﷺ فلا يأخذون شيئا من الوحي لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾[1] الآية، وأما قبل مبعثه ﷺ فكانوا يأخذون الكلمة ويكذبون عليها مائة كذبة كما جاء في الحديث.

قال في الكشاف: ﴿مَنْ﴾ في محل الرفع بدل من الواو في ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾ أي لا تسمع الشياطين، إلا الشيطان الذي خطف الخطفة[2].

أي: اختلس الكلمة على وجه المسارقة ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ وهو شديد الإضاءة من النجوم يحرق الشيطان، أي: ينفصل من النجم قبس، وهو قار في مكانه كما ينفصل من لهب النار، قيل: من الشياطين من

(١) الجن: ٩.

(٢) الكشاف ٤/٣٦.

يقتله الشهاب، ومنهم من يخبله ويزيغ عقله ولا يقتله.

ثم اعلم أنه تعالى افتتح هذه السورة بإثبات ما يدل على الصانع، ويدل على علمه وقدرته وحكمته، ويدل على وحدانيته، وهو خلق السموات والأرض وما بينهما، وخلق المشارق والمغارب، فلما أحكم الكلام في هذا الباب فَرَّع عليه إثبات القول بالحشر والنشر والقيامة، فقال سبحانه ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ يعني مشركي مكة، أي: استخبرهم ﴿أَهُمْ أَشَدُّ﴾ أي: أصعب ﴿خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ مما ذكره، من الملائكة والسموات وغيرها، وغلب أولي العقل، فجاء بمن، يؤيد ذلك قراءة من قرأ (أم من عَدَّدْنا)[1] هي واردة للرد لإنكارهم البعث، وأن من هان عليه خلق هذه الخلائق العظيمة كان خلق البشر للإعادة عليه أهون، والاستفهام للتقرير، والهمزة وإن خرجت إلى معنى التقرير فهي لمعنى الاستفهام في أصلها، فلذلك قيل: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ ولم يقل: فقررهم[2].

قال الهادي عليه السلام: معنى ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ يقول: من الملائكة والجن وغير ذلك [يريد أن الذي خلق من اللائكة والجن وغير ذلك] ممن خلقنا، هم أشد خلقا وأعظم أمرا، وأبين في القدرة من خلق الإنسان.

ثم أخبر سبحانه بالذي خلق منه الإنسان، من هذا الطين اللازب

---

(١) بالتخفيف، والتشديد. واللفظ في النسخة أ (من عددنا) والمراد قولهم لأنكارهم البعث. وما أثبتناه هو النسخة ب.

(٢) قال السيد العلوي: قوله: والهمزة وإن خرجت إلى معنى التقرير. قال الطيبي: أي: الهمزة في ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ وإن خرجت عن موضوعها الأصلي، وهو الاستفهام ؛ لأنه طلب لما في الخارج لينتقش مثل ذلك في الذهن، إلى تقدير الثابت ؛ لأن هذا الأمر المسؤل عنه مقرر معين، غير محتاج إلى أن يستفهم عنه، لكن أجريت على الاستفهام ظاهرا ؛ ليجعل المقرر غير مقرر، فيصح دخول استفتهم عليه، والفائدة: الإنكار والتوبيخ، كأنه لم يعلم ذلك فاستفهم، وهو معين مقرر، والأسلوب من باب سوق المعلوم مساق غيره، ولي فيما ذكره من معنى التقرير في الاستفهام نظر، والمراد بالتقرير: تقرير خلاف ما أنكر، وهو كونهم أشد خلقا. (حاشية العلوي خ ص ١٩٥).

«فقال ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ واللازب»: فهو الطين العلك الشديد الملتصق[١].

قال في البرهان: وفي اللازب أربع[٢] تأويلات، أحدها: اللاصق، والثاني: لزج، والثالث: لازق، والفرق بين اللاصق واللازق. أن اللاصق هو الذي قد لصق بعضه ببعض، واللازق: هو الذي يلزق بما أصابه. والرابع: لازم، والعرب يقولون: طين لازب ولازم، قال النابغة:

ولا تحسبون الخير لا شر بعده ولا تحسبون الشر ضربة لازب

والمعنى: أنا خلقناهم من تراب لازب، أي: لازم، لَزِج يلزم باليد وغيرها، فكيف يستنكرون أن يبعثوا من مثله، حيث قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ الآية.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: يضحكون من أمر البعث ويستهزئون.

قال في البرهان: يسخرون من النبي ﷺ حين دعاهم، ويجوز أن يكون من القرآن حين تلي عليهم[٣].

وفي ﴿عَجِبْتَ﴾ قرآتان، إحداهما بضم التاء، ويكون التعجب مضافا إلى الله سبحانه، وإن كان لا يتعجب من شئ ؛ لأن التعجب من حدوث العلم بما لم يعلم، والله تعالى عالم بالأشياء قبل كونها، وفي هذا التعجب

---

(١) مجموع تفسير الأئمة مخطوط ص ٢٣٣، وما بين قوسي الزيادة منه، ومابين القوسين المكررين ليسا منه.

(٢) في البرهان: (أربعة تأويلات). قلت: وهذا بالنظر الى أن تأويل مفرده مذكر.

(٣) لفظ البرهان: وتفسير قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ بل عجبت يا محمد، وفيما عجب منه تاويلان، أحدهما: من الحق حين جاءهم، ولم يقبلوه، والثاني: من القرآن وإكرامه حين أعطيه. وقد روى المصنف ما في البرهان، وهو تفصيل القرآت بالمعنى، وأما الحديث فليس في البرهان.

وجهان، أحدهما: بل أنكرت، والثاني[١]: أنهم قد حلوا محل من يتعجب منه، وقد جاء في الحديث (عجب ربكم)[٢].

والقراءة الثانية: بفتح التاء، كأنه قال: ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ يا محمد من إنكارهم البعث، أو من الحق حين جاءهم ولم يقبلوه، أو من القرآن وإكرامه حين أعطيته.

ثم قال تعالى ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: وإذا وعظوا لا يتعظون، ولا يبصرون، ولا يتفكرون ﴿وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ عن ابن عباس: الآية في انشقاق القمر، ومعنى ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يبالغون في السخرية، أي: يستدعي بعضهم من بعض السخرية بالآيات؛ لأن معنى السين الطلب، قاله في الكشاف[٣].

وقال ابن قتيبة: يقال: سخر واستسخر، كما يقال: قر واستقر،

---

(١) قوله: والثاني: .. الخ. هذا هو معنى ما ذكره الزمخشري بقوله: والثاني: أن يتخيل العجب ويفرض .. الخ ٣٧/٤. قال السيد العلوي: أي: يجعل من باب الاستعارة المكنية المستلزمة للتخييلية، كما في قولهم: لسان الحال ناطق بكذا، فيتصور لله تعالى معنى يليق بجلاله، وإن لم يعرف موافق للأمر المتعارف، وهو التعجب، ثم انطلق على هذا المتصور اسم المت عارف، والقرينة نسبته إلى ذاته المنزهة عن صفات المخلوقين.
قوله: (عجب ربكم) وتمامه (عجب ربكم من إلكم وقنوطكم) قيل: الإل . شدة القنوط، وعلى هذا يكون عطف القنوط عليه من قبيل عطف التفسير، وقيل: هو رفع الصوت بالبكاء .، قال أبو عبيد: المحدثون يروونه بكسر الهمزة، والمحفوظ عند أهل اللغة الفتح، وهو أشبه بالمصادر. (حاشية العلوي خ ١٩٥).

(٢) في الرازي، وأما الخبر: (عجب ربكم من إلكم وقنوطكم) و(عجب ربكم من شاب ليست له صبوة) ١٢٦/٢٦.
وذكره الزمخشري في الكشاف ٣٧/٤. قال ابن حجر: أخرجه أبو عبيد في الغريب، عن محمد بن عمرو يرفعه، ثم قال: فقال: الإل: رفع الصوت بالدعاء، وقال: بعضهم يرويه: الأول. وهو الشدة.

(٣) لفظ الكشاف ٣٨/٤: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يبالغون في السخرية، أو يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر بها.

وعجب واستعجب، وقال أبو عبيدة: سخر واستسخر سواء.

والمعنى: أنه ﷺ ثبتت صحة رسالته بالمعجزات، ثم يقول: لما ثبت بالمعجز كوني رسولا صادقا من عند الله، فأنا أخبركم بأن البعث والقيامة حق، ثم أن أولئك المنكرين لا ينتفعون بهذا الطريق أيضا إذا رأوا معجزة قاهرة، وآية باهرة حملوها على كونها سحرا، واستسخروا بها، واستهزءوا [منها][(١)].

﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا الذي رأوه من الآيات ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بَيِّنٌ ظاهر وقولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ إنكار للبعث بعد موتهم، ثم قالوا: ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ على زيادة الاستبعاد لبعث آبائهم الأقدمين، والمعنى: أن نبعث أو آباؤنا، وهذه ألف الاستفهام دخلت على حرف العطف[(٢)].

وقرأ نافع هاهنا وفي سورة الواقعة ساكنة الواو[(٣)].

ثم إنه تعالى لما حكى عنهم هذه الشبهة قال ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: صاغرون.

قال الرازي: وإنما اكتفى سبحانه بهذا القدر من الجواب ؛ لأنه بين في الآية المتقدمة بالبرهان اليقيني القاطع أنه أمر ممكن، وإذا ثبت الجواز العقلي فلا سبيل إلى القطع بالوقوع إلا بإخبار المخبر الصادق، فلما قامت المعجزات على صدق محمد ﷺ كان واجب الصدق، فكان مجرد

(١) ما بين قوسي الزيادة غير موجود في النسخة ب.

(٢) والعطف هنا على محل إن واسمها، أو على الضمير في ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ والذي جوز العطف عليه الفصل بهمزة الاستفهام، والمعنى: ايبعث آباؤنا أيضا. على زيادة الاستبعاد، يعنون: أنهم أقدم فبعثهم أبعد وابطل. انظر الكشاف ٣٨/٤

(٣) على هذه القراءة يتعين العطف على محل إن واسمها. (حاشية العلوي). قلنا: وإنما امتنع العطف على الضمير في مبعوثون لعدم الفاصل.

قوله: ﴿نِعَمَ﴾ دليلا قاطعا [على الوقوع] ومن تأمل في هذه الآيات علم أنها وردت على أحسن وجوه الترتيب، وذلك أنه بَيَّنَ الإمكان بالدليل العقلي، وبين وقوع ذلك الممكن بالدليل السمعي، ومن المعلوم أن الزيادة على هذا البيان كالأمر الممتنع(١).

واعلم أنه تعالى لما بين ما يدل على إمكان البعث والقيامة، ثم أردفه بما يدل على وقوع القيامة ذكر بعد ذلك أنواعا من تفاصيل أحوال يوم القيامة، فقال عز وجل ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ﴾ قوله: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ﴾ أي: البعثة، وهو جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان ذلك [كذلك] فما هي إلا زجرة واحدة، أي: صيحة، من زجر الراعي الغنم إذا صاح بها وارتاعت لصوته، وتلك النفخة الثانية، كما ذكر الله سبحانه وتعالى، في قوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ فبالنفخة الأولى يموت كل شيء، وبالثانية يحيون ويقومون.

[قال الرازي: وهاهنا سؤآلات، الأول: ما الفائدة في هذه الصيحة فإن القوم في تلك الساعة، أموات لأن النفخة جارية مجرى السبب لحياتهم، فتكون متقدمة على حصول حياتهم، فثبت أن هذه الصيحة إنما حصلت حال كون الخلق أمواتا، فتكون تلك الصيحة عديمة الفائدة، فهي عبث، والعبث لا يجوز في فعل الله تعالى.

قال: والجواب . أما أصحابنا فيقولون: يفعل الله ما يشاء، فأما المعتزلة فقال القاضي [عبد الجبار] فيه وجهان . الأول: أن تعتبر بها الملائكة، الثاني: أن تكون الفائدة التخويف والإرهاب.

السؤال الثاني: هل لتلك الصيحة تأثير في إعادة الحياة ؟ الجواب: لا بدليل أن الصيحة الأولى استعقبت الموت، والثانية: الحياة، وذلك يدل

(١) تفسير الرازي ١٢٨/٢٦. وما بين أقواس الزيادة منه.

على أن الصيحة لا أثر لها في الموت، ولا في الحياة، بل خالق الموت والحياة هو الله تعالى كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾[1]]

قلت: والمراد بالزجرة الواحدة في الآية إنما هو تمثيل، وعبارة عن سرعة إحياء الله الموتى، وإعادة الأرواح في الصور في أسرع وقت، كقوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾[2] والله أعلم.

ثم قال تعالى ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۝١٩﴾ أحياء بعد أن كانوا لا ينظرون، يحتمل: ينظرون سوء أعمالهم، ويحتمل: ينظرون البعث الذي كذبوا به، أو ينتظرون ما يحدث بهم.

ثم أخبر الله تعالى عن حال الكفار وقولهم بعد القيام من القبور فقال ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا﴾ أي: يا هلاكنا، قال الزجاج: الويل. كلمة يقولها القائل وقت الهلكة، والمقصود أنهم لما شهدوا القيامة قالوا ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝٢٠﴾ الذي ندان فيه، أي: نجازى بأعمالنا، أخبر الله سبحانه أنهم إذا أحياهم يوم القيامة وشاهدوا القيامة تذكروا ذلك اليوم، وقالوا: هذا اليوم يوم الدين، أي: يوم الجزاء الذي ذكر الله الدلائل الكثيرة عليه في القرآن، وكفرنا بها.

وقالوا أيضا: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾ أي:

---

(١) ما بين أقواس الزيادة، من قوله: قال الرازي .. إلى هنا غير موجود في النسخة أ، وهو ثابت في النسخة ب. ولم يذكر المصنف رحمه الله السؤال الثالث، الذي ذكره الرازي، وهو قول الرازي: السؤال الثالث: تلك الصيحة صوت الملائكة، أو الله تعالى يخلقها ابتداء ؟ الجواب، الكل جائز، إلا أنه روي أن الله تعالى يأمر إسرافيل حتى ينادي: أيتها العظام النخرة، والجلود البالية، والأجزاء المتفرقة، اجتمعوا بإذن الله تعالى. انظر الرازي ٢٦/١٢٩، ١٣٠.

(٢) سورة القمر: ٥٠.

العبارة من قوله قلت: .. إلى هنا، مشوشة في النسختين أ، ب. وقد أصلحنا اللفظ من مجموع النسختين.

القضاء، والفرق بين المؤمنين والكافرين، وقيل: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ من كلام الملائكة عليهم السلام جوابا عليهم، واحتج أهل هذا القول بوجهين، الأول: أن قوله: ﴿كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [من كلام بعضهم البعض] خطاب مع جميع الكفار، فقائل هذا القول لابد وأن يكون غير الكفار، والثاني: أن قوله تعالى ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ كلام غير الكفار، فكما أنه لا نزاع في أن هذا من كلام الملائكة عليهم السلام، كذلك قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾[1].

فقوله: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أمر عام لكل ظالم، خطاب من الله للملائكة، أمَرَهم بحشر ثلاثة أشياء: الظالمين، وأزواجهم. وهم أشباههم من العصاة، أهل الزنى مع أهل الزنى ونحوهم. وقيل: نساؤهم اللاتي على دينهم. وقرناؤهم [من] الشياطين - ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[2] أي: ما كانوا يطيعون من شياطينهم الظلمة المنافقين، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[3].

---

(١) أي: يجب أن يكون من كلام الملائكة جوابا لهم، وعلل الرازي ذلك، بأن قوله تعالى ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ منسوق على قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ فلهذا حكم على الكلامين بأنه من كلام غير الكفار.

(٢) في بعض النسخ (وقيل: نسائهم .. وقرنائهم) وهو مبني على أنه تفسير للأزواج، وهو مجرور، فالمفسر مثله. وفي النسخة ب: نساؤهم .. وقرناؤهم.
وقد أراد المصنف رحمه الله بهذا الكلام أن يبين أن الله أمر الملائكة بحشر ثلاثة أشياء، وهم الظالمون، وأزواجهم، والثالث: هو قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: الأشياء التي كانوا يعبدونها، وقد بين المصنف الأزواج أيضا بثلاثة أشياء: وهم الأشباه، ونساؤهم اللاتي على دينهم، والثالث: قرناؤهم من الشياطين، لقوله تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾. وما بين أقواس الزيادة زيادة لتوضيح المعنى.

(٣) يس: ٦٠.

واعلم أنهم لم يصلوا له ولم يصوموا، ولكن أطاعوه وكفروا.

قال في البرهان: وما كانوا يعبدون من دون الله من الرؤساء المتبوعين في الكفر . اهـ وقيل: الأصنام والأوثان.

ثم قال تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾ أي: دلوهم وعرفوهم يسلكون ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ أي: طريق النار، يقال: هديت الرجل إذا دللته، وإنما استعملت الهداية ههنا لأنه جعل بدل الهداية إلى الجنة، كما قال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] فوقعت البشارة بالعذاب لهؤلاء بدل البشارة بالنعيم لأولئك.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾ سوقوهم.

ثم قال ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ مناقشون عن أقوالهم وأفعالهم، قيل: لما سيقوا إلى النار أمر الملائكة بإيقافهم عند الصراط ؛ لأن السؤال عنده.

واختلف عم يُسْأَلُون، فقيل: عن ولاية علي أمير المؤمنين وأهل البيت الطاهرين عليهم السلام، كما وردت الأخبار بذلك[2]، وأنه عليه السلام محف لكم في المسألة.

(١) آل عمران: ٢١. التوبة: ٣٤، الإنشقاق: ٢٤. وهذا من باب التهكم بهم والتوبيخ لهم بالعجز عن التناصر بعدما كانوا على خلاف ذلك في الدنيا.

(٢) قال الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ٢/١٠٦: أبو النضر العياشي في تفسيره، عن علي بن محمد، قال: حدثني محمد بن أحمد بن يحي، عن الهيثم بن أبي مسروق، عن جندل بن والق التغلبي، عن مندل العنزي يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ قال: عن ولاية علي.

عبيد الله بن محمد العباسي، عن مسلم بن إبراهيم الفراهندي، وقيس بن حفص الدارمي، قالا: حدثنا عيسى بن ميمون، عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري في قوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ قال: عن إمامة علي بن أبي طالب.

وروي كذلك أحاديث عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. وعن الشعبي عن ابن عباس، وعن سليمان بن داود بن حسن بن حسن عن أبيه عن أبي جعفر، وغيرهم. راجع شواهد التنزيل ٢/١٠٦، ١٠٧، ١٠٨.

وعن أعمالهم أيضا في الدنيا وخطاياهم، وقيلْ: هو قوله ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: مالكم لا ينصر بعضكم بعضا، وقيل: مسؤلون ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾[1] يقال ذلك تهكما بهم.

ولما كان وقوفهم لسؤالهم فيه تقريع وتوبيخ كان نوعا من العذاب ؛ فلذلك صار بعد الأمر بالعذاب، فعلى هذا سؤالهم بعد حشرهم، وقيل: إيقافهم[2] للسؤال مقدم على حشرهم، لأن الواو لاتوجب الترتيب.

ثم قال تعالى أي: منقادون، قال الشاعر:

لا ممعنا هربا ولا مستسلم

أي: ولا منقاد.

وقيل: أسلم بعضهم بعضا، وخذله لعجزه عن نصرته، والمقصود أنهم صاروا منقادين لاحيلة لهم في دفع تلك المضار لاالعابد ولا المعبود.

ثم قال ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: الأتباع على الرؤساء ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يتخاصمون، يسأل بعضهم بعضا سؤال توبيخ ولوم ومعاتبة، وقيل: الإنس على الشياطين.

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم أقبل بعضهم على بعض يتسآلون شرح كيفية تلك المسآءلة فقال ﴿قَالُوٓاْ﴾ الأتباع للرؤساء، أو الإنس للشياطين ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ قال الهادي عليه السلام: هذا إخبار من الله سبحانه وتعالى عن تساؤل أهل النار وتلاومهم، فقال التابعون للمتبوعين: بل ﴿كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ [ومعنى ﴿تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: تأتوننا عن الأمر الميمون المبارك، الذي فيه - لو اتبعناه - اليمن والنجاة، كنتم تأتوننا دونه، أي: تغووننا في تركه، فهذا معنى إتيانهم [إياه] - عنه، أي: دونه،

(١) الزمر: ٧١.

(٢) في النسخة أ، وقيل: لا بل السؤال. وفي النسخة ب: وقيل: إيقافهم

يصرفونهم منه، وينأون بهم عنه قَالُوٓاْ﴾ أي: فقال المتبوعون للتابعين ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: لم تكونوا مهتدين، ولا بالذي كذبنا به مصدقين[1] . اهـ

وفي البرهان ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ يعني: من قبل النصيحة واليمين، والعرب تتيمن بما جاء عن اليمين ؛ لأنهم كانوا يلبسون الأمر على أتباعهم، ويشبهون الباطل بالحق، والكفر بالإيمان، والغش بالنصيحة.

وفي التجريد: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: عن الدين والخير فتصدوننا عنه، لما كانت اليمين أشرف اليدين، وكانوا يتيمنون بها، وبها كانوا يصافحون ويماسحون، ويزاولون أكثر الأمور، ويتشآمون بالشمال، ولذلك يسمونها الشؤمى. استعيرت لجهة الخير[2]، فقيل: أتاه عن اليمين، أي: من جهة الخير وناحيته، فصده عنه.

قلت: وهذا هو معنى كلام الهادي عليه السلام الذي مر.

وقيل: استعيرت للقوة، أي: تقهروننا بقولكم، وقيل: كنتم تحلفون لنا فصدقناكم حتى حكى الله تعالى عن الرؤساء أنهم أجابوا الأتباع من وجوه، الأول: أنهم قالوا: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: بل تركتم الإيمان مختارين لتركه غير ملجئين، فما كنتم موصوفين بالإيمان حتى يقال: إنا أزلناكم عنه.

الثاني: قوله ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: من قهر وتسليط بقوة وقدرة تبطل اختياركم، وقيل: لم نأتكم بحجة على ما دعوناكم إليه.

والثالث: قوله: ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: مختارين للطغيان على الإيمان.

---

(١) المجموع ص ٢٣٣ . ٢٣٤، وما بين أقواس الزيادة منه.

(٢) قال السيد العلوي: ليست هذه الاستعارة من التي مبناها التشبيه، بل هي من إطلاق السبب على المسبب.

والرابع: قولهم ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ أي: وجب علينا ولزمنا ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ۝٣١﴾ أي: بأنا ذائقون لعذابه نحن وأنتم لامحالة، لعلمه بحالنا.

والخامس: قولهم: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ أي: دعوناكم إلى الغي فأجبتم مختارين له على الرشد ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ۝٣٢﴾ أي: لتكونوا أمثالنا في الغي، وكان من حقكم ألا تتبعونا وقد تبين لكم غينا، بقول الله والرسل وأدلة العقل.

ولما حكى الله تعالى كلام الأتباع للرؤساء وكلام الرؤساء للأتباع بين الله حكمهم، وهو أن الإعتذار والتلاوم لم ينفعهم فقال ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝٣٣﴾ كاشتراكهم في الغي، فالمتبوع والتابع، والمخدوم والخادم مشتركون في الوقوع في العذاب، كما كانوا في الدنيا مشتركون في الغواية.

ثم قال تعالى ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٤﴾ أي: مثل ذلك الفعل نفعل، أي: العذاب.

ثم بين تعالى أنهم إنما وقعوا في ذلك العذاب لأنهم كانوا مكذبين بالتوحيد والنبوة، أما التكذيب بالتوحيد فهو قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥﴾ عن الإقرار بالتوحيد، ويأبون إلا الشرك والإنكار.

وأما التكذيب بالنبوة فهو ما أخبر الله عنهم في قوله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝٣٦﴾ أي: لقول شاعر مجنون، يعنون محمدا ﷺ وقولهم: ﴿أَئِنَّا﴾ استفهام معناه إنكار التوحيد والنبوة

ثم إنه تعالى كذبهم في ذلك الكلام فقال ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي يعلم صحته.

قال في التجريد: هو من قول الله تعالى، أي: ليس كما يقولون من

أنه شاعر مجنون، بل هو رسول صادق جاء بالحق، وهو القرآن، لابالشعر، وقيل: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالتوحيد.

﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ قَبْلَهُ فيما أتوا به، أي: وافقهم، وجاء بمثل ماجاء به مَنْ قبلَه من المرسلين، يعني صدقهم في مجيئهم بالتوحيد ونفي الشرك، وهذا تنبيه على أن القول بالتوحيد دين لكل الأنبياء.

ولما حكى الله تعالى عنهم تكذيبهم بالتوحيد وبالنبوة نقل الكلام من الغيبة إلى الحضور، وخاطب المشركين فقال ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ أي: شديد الألم، ولما كان المعنى كأنه قيل: كيف يليق بالرحيم الكريم المتعالي عن النفع والضر أن يعذب عباده ؟ أجاب عنه وبين أن ذلك ليس بظلم لهم بقوله ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ معناه إلا ماعملتم، أي: جزى سيئا بعمل سيئ، ثم استثنى من قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ فقال ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ فإنهم لايذوقونه، يعني: ولكن عباد الله على الإستثناء المنقطع، والمخلصون: الموحدون، الذين أخلصوا العبادة لله، وبفتح اللام: الذين أخلصهم الله لطاعته بتوفيقه.

ثم قال تعالى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ أي: محدود معلوم قال قتادة: هو الجنة، وقال السدي: هو الرزق في الجنة، وقوله: ﴿مَّعْلُومٌ﴾ فيه أقوال، أحدها: أنه مقدر لكل أحد ما يستحقه وما يتفضل به عليه ربه، والثاني: أنه يأتيهم حين يشتهونه، والثالث: أنه يأتيهم بالغداة والعشي كقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[١] [قال الكلبي: والأولان أولى.

ثم لما ذكر تعالى أن لهم رزقا فسر ذلك الرزق[٢]، وبين ما هو فقال

---

(١) مريم: ٦٢.

(٢) يعني أن ﴿فَوَٰكِهُ﴾ عطف بيان للرزق، أو بدل منه بدل البعض من الكل ؛ لأن الفواكه بعض رزقهم، أو بدل الكل ؛ على أن المراد منعوت بخصائص.

﴿فَوَٰكِهُ﴾ الفاكهة][١]: كل ما يتلذذ به ولا يتقوت لحفظ الصحة، يعني أن أرزاقهم كلها فواكه ؛ لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات ؛ لأن أجسامهم محكمة مخلوقة للأبد، فكل ما يأكلون فعلى سبيل التلذذ، أو ﴿مَّعۡلُومٌ﴾ منعوت بخصائص خلق عليها من طيب طعم ورائحة ولذة وحسن منظر.

واعلم أنه تعالى لما ذكر الأكل بين أن ذلك الأكل حاصل مع الإكرام والتعظيم فقال: ﴿وَهُم مُّكۡرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: معظمون يعظمهم الله تعالى ؛ لأن الثواب يستحق على وجه الإجلال والتعظيم، وهو من أعظم ما تتوق إليه نفوس ذوي الهمم ؛ لأن الأكل الخالي عن التعظيم يليق بالبهائم.

ولما ذكر تعالى مأكولهم وصف مساكنهم فقال ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ لأن تقابلهم أتم لسرورهم، وقيل: لاينظر بعضهم إلى أقفاء بعض، بل تسير بهم أسِرَّتُهم إذا أرادوا ووجوههم متقابلة، من شأن الأدب، والمراد أنه لاكلفة عليهم في التلاقي للأنس والتخاطب، وفي بعض الأخبار إذا أرادوا القرب سار السرير تحتهم، والله أعلم.

ولما شرح الله تعالى صفة المأكل والمسكن، ذكر بعده صفة المشرب فقال ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ﴿٤٥﴾﴾ أي: من شراب معين، يقال للزجاجة التي فيها الخمر: كأس، وتسمى الخمر نفسها كأسا، وقيل: كل كأس في القرآن فهي الخمر، وقال ابن الجوزي عن الزجاج: يقع الكأس على كل إناء مع شرابه، فإن كان فارغا فليس بكأس.

ثم وصفها تعالى فقال: ﴿وَمَعِينٖ﴾ قال الهادي عليه السلام: المعين ههنا: فهي خمر الجنة المباركة الطيبة . اهـ

والمراد بالمعين: الجاري على وجه الأرض، الظاهر للعيون ؛ لأنها

(١) ما بين أقواس الزيادة ساقط من أ، وثابت في ب.

تجري في الجنة كما تجري الأنهار، فوصفت الخمر بما وصف به الماء، ثم قال ﴿بَيْضَآءَ﴾ صفة للكأس التي هي الخمر، يعني أن شراب أهل الجنة أبيض في اللون أشد بياضا من اللبن، وله لون بخلاف هذا المسكر الذي يذهب بالعقول، ويحسن القبيح، ويورث العداوة والبغضاء، ويصد شاربيه عن طاعة خالقهم، نعوذ بالله من غضبه، وأليم عذابه.

ثم قال ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ قال الهادي عليه السلام: يصف حسنها وصفاءها، ويخبر أنها بيضاء يلتذ بها كل من شربها، ويستطيب طعمها . اهـ

يقال: شراب لذ إذا كان طيبا، ولذة: تأنيث لذ، كأنها نفس اللذة وعينها لعظم لذتها.

وقال الزجاج: لذة: مصدر وصف به على تقدير ذات لذة، فعلى هذا حذف المضاف

ثم قال تعالى ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: فساد من مغص[1] أي: وجع أمعاء، أو صداع رأس كما في خمور الدنيا، أو خمار، أو عربدة، أو لغو، أو تأثيم، وهو من غاله يغوله إذا أهلكه وأفسده، وإنما سمي الوجع غولا ؛ لأنه يؤدي إلى الهلاك.

قال الهادي عليه السلام يقول: لافيها أمر يغتال عقولهم، ولا يزيل أفهامهم، ولا يضعف أبدانهم، بل هي تشد أعضاءهم وتحسن حالهم.

ثم [قال ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾][2] أخبر أنهم لاينزفون عنها، والنزف: فهو ما ينزل بِشَرَّاب الخمر في الدنيا من القيئ الذريع، وغير ذلك مما يكون منهم من الفضائح الشنيعة والأمور القبيحة، فأخبر الله سبحانه أن خمر الآخرة بريئة من كل غول وبلاء، أو آفة، أو ردى . اهـ

(١) المغص: ساكن الغين تقطيع في المعاء ووجع. تمت مختار الصحاح

(٢) ما بين القوسين ثابت في المصابيح النسختين، وساقط من المجموع ص ٤٣٤ .

وقيل: ﴿يُنزِفُونَ﴾ يسكرون، وهو من أعظم مفاسدها، فأفرده بالذكر، ويقال للسكران: نزيف، والمعنى: ما فيها فساد قط مما مر آنفا، والعربدة: سوء الخلق، واللغو: سقط الحديث كما يفعل شاربها في الدنيا، والتأثيم: ما ينسب به صاحبه إلى الإثم والكذب.

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى صفتة شِربهم ذكر عقيبه صفة منكوحهم من ثلاثة أوجه الأول: قوله ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: حور قصرن أبصارهن على أزواجهن فلا ينظرن ولا يردن غيرهم، مأخوذ من قولهم: اقتصر على كذا إذا قنع به، وعدل عن غيره، قال امرء القيس:

من القاصرات الطرف لو دب محول من الذر فوق الأنف منه لأثَّرا

وقيل: المعنى: أنهن قصرن طرف الأزواج عن غيرهن لكمال حسنهن.

الصفة الثانية: قوله تعالى ﴿عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾ أي: عظام الأعين، جمع عيناء، أي: واسعات العيون حسانها.

الصفة الثالثة قوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ والمراد بالبيض المعروف في قشره، شبههن ببيض النعام المكنون في الأداحي، وهي مواضع النعام التي يفرخ فيها، والمكنون: المستور في مواضعه ؛ لأنه أبيض إلى صفرة، وهو أحسن ألوان النساء، والعرب تشبه حسان النساء بالبيض في النقاء والنظافة، وحسن الألوان والصفاء، قال الشاعر :

فهن كبيض الرمد في دمث الربا أجزن عليه بكرة بمدام

وقال آخر :

كأنها يوم حَلُّوا بطن ذي سلم تفاحة في يدي نشوان عطار
أو بيضة بظليم بات يكنفها في ليلة من جمادى ذات أمطار

وقال آخر:

كأن بيض الرمد في الأداحي[١] بيض حسان تهز الثديين

وقيل: المراد بالبيض هنا اللؤلؤ عن ابن عباس، وبه قال أبو عبيدة، وقيل: إنه البيض حين يقشر قبل أن تمسه الأيدي، قاله السدي، وقتادة وابن جرير.

ومعنى ﴿مَّكۡنُونٞ﴾ فهو مصون في صدفه، ومكنون بقشره، ومعنى هذا التشبيه أن ظاهر البيض بياض يشوبه قليل من الصفرة، فإذا كان مكنونا كان مصونا عن الغبرة والتغيير[٢]، فكان هذا اللون في غاية الحسن، والعرب كانوا يسمون النساء بيضات الخدور.

ولما تمم الله صفات أهل الجنة، قال ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٥٠﴾ على الشراب عما جرى بهم وعليهم في الدنيا، كعادة الشَّرب[٣]، وهو معطوف على ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ لكن جيء به ماضيا على عادة الله في أخباره، والمعنى: يشربون ويتحادثون على الشراب، قال الشاعر:

وما بقيت من اللذات إلا محادثة الكرام على المدام[٤]

واعلم أنه لما ذكر الله تعالى أن أهل النار يتسآلون كذلك، ذكر في أهل الجنة أنهم يتسآءلون عند الإجتماع على شراب خمر الجنة.

واعلم أن محادثة العقلاء بعضهم مع بعض على الشراب من الأمور

---

(١) الأداحي: هي أداحي النعام، وهي مواضعها التي تفرخ فيها، وهي جمع ادحي، إفعول، من دحوت ؛ لأنها تدحوه برجلها ثم تبيض. شبه بيض النعام في أداحيها، بالمرأة التي برز ثديها في صدرها

(٢) في الرازي (كان مصونا عن الغبرة والقترة) ،

(٣) شَرْب: جمع شارب، كصحب وصاحب.

(٤) البيت للفرزدق: يقول: وما بقيت لذة من اللذات إلا لذة أحاديث الكرام. وفي الكشاف (إلا أحاديث الكرام) بدل محادثة.

اللذيذة، وتذكر الخلاص عند اجتماع أسباب الهلاك من الأمور اللذيذة، فأخبر تعالى أن أهل الجنة إذا اجتمعوا على الشراب، وأخذوا في المكالمة والمساءلة كان من جملة تلك الكلمات أنهم يتذاكرون أنه قد كان حصل لهم في الدنيا ما يوجب لهم الوقوع في عذاب الله، ثم أنهم تخلصوا عنه، وفازوا بالسعادة الأبدية فقال سبحانه ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ﴿٥١﴾﴾ أي: مقارن ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾ قيل: نزلت في رجل تصدق بماله لوجه الله فاحتاج بعد، فاستجدى بعض إخوانه، فقال: أين مالك ؟ قال: تصدقت به ليعوضني الله في الآخرة خيرا منه . فقال: ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ﴾ المقرين بيوم الدين، والله لا أعطيتك شيئا.

وقيل: هما اللذان قص الله خبرهما في الكهف.

والمعنى: أنه كان يوبخني على التصديق بالبعث والقيامة، ويقول ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: مجزيون، من الدّين الذي هو الجزاء، أي: محاسبون ومجزيون، والمعنى: أن ذلك القرين كان يقول هذه الكلمات على سبيل الإستنكار[1] والجحد للبعث.

ثم إن ذلك الرجل المؤمن من أهل الجنة يقول لجلسائه يدعوهم إلى كمال السرور بالإطلاع إلى النار لمشاهدة ذلك القرين ومخاطبته، كما حكى الله سبحانه عنهم في قوله عز وجل ﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ إلى النار لأريكم ذلك القرين، وقيل: القائل الله، وقيل: بعض الملائكة . يريد: هل تحبون أن تطلعوا فتعلموا أين منزلتكم من منزلة أهل النار.

وفي هذه الآية الكريمة يقول الهادي إلى الحق عليه السلام: هذا إخبار من الله سبحانه عن مخبر يريد خبرا عما كان فيه أهل الدنيا من الكفر

---

(١) في النسخة أ، وقال متعجبا.

(٢) في النسخة ب (على سبيل الاستكبار).

والتكذيب، فأخبر عن هذا المخبر أن المؤمن سيقول هذا القول يخبر به عن قرينه، الذي كان يصده عن التصديق بوعد الله ووعيده، وبعثه لخلقه من قبورهم بعد موتهم وزوالهم، فأخبر أنه كان يقول: أئنك لتصدق بما يقول به محمد، من أنك تبعث بعد موتك، هذا ما لايكون، لن نبعث بعد الموت، ولن ندان، أي: نجازى على أعمالنا ونحاسب، فكان المؤمن مصدقا بما كذب به الكافر، غير مطيع له في قوله، ثم ذكره في الآخرة فأحب أن يدري أين صار، فأطلعه الله على أمره، وأراه موضع محله من النار، وسوء القرار والدار، وذلك قوله عز وجل: ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ بمعنى: أشرف ﴿فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ أي: في وسط النار، فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ المؤمن لقرينه توبيخا له ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾ يقال: كدت أن تهلكني بما كنت تغويني به في الدنيا، وتأمرني أن أكفر بربي ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ أي][1]: فلولا رحمة الله ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ في العذاب معك، غير أن رحمة الله تخلصتني مما أوقعت فيه نفسك، إذ كنت عند الله من المكذبين، وكنت أنا بوعيده من المصدقين . اهـ

قال المرتضى عليه السلام: والإطلاع فلا يكون إلا لمن هو تحت المطلع وقريبا منه، وقد يكون إطلاعهم بالإخبار من الله لهم بما فيه أعداؤه، من أليم عقابه، وشديد عذابه لا إطلاع معاينة لهم . اهـ

وقيل: إن في الجنة كوى ينظر أهل الجنة منها إلى أهل النار، والله أعلم.

ولما تم ذلك الكلام مع الرجل الذي كان في الدنيا قرينا له، وهو الآن من أهل النار عاد إلى مخاطبة جلسائه الذين هم من أهل الجنة، فقال ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ التي في الدنيا، والهمزة للتقرير

---

(١) المجموع ص ٤٣٤، ٤٣٥. وما بين القوسين ثابت في المصابيح، وغير موجود في المجموع.

[أي: حمل المخاطب على ما يعرفه من الحكم في المسألة، فالمطلوب منه الإقرار لما ذكر، فيقول: نعم، وهي تقرير][١] لما سبقها من الخلود، ونفي الموت، والمعطوف عليه محذوف، والتقدير: أنحن مخلدون فما نحن بميتين، يقوله المؤمن اغتباطا بحاله، ويسمع من قرينه ليزداد تعذبا وتوبيخا، ثم قال ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩﴾.

واعلم أن الذي يتكامل خيره وسعادته إذا عظم تعجبه بها قد يقول: أفيدوم هذا لي، وإن كان على يقين من دوامه، ثم عند فراغهم من هذه المباحث يقولون ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: مانحن فيه ﴿لَهُوَ ٱلْفَوْزُ﴾ أي: الظفر ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ وهذا من تمام قولهم.

وأما قوله ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾ فقيل: إنه من قصة القرين وقرينه، وقيل: إنه ابتداء كلام من الله، أي: لطلب مثل هذه السعادات يجب أن يعمل العاملون.

ثم رجع إلى ذكر الرزق المعلوم فقال: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ الرزق ﴿خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ أي: خير ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢﴾.

اعلم أنه تعالى لما قال بعد ذكر ثواب أهل الجنة وصفتها: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾ أتبعه قوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢﴾ فأمر رسوله ﷺ أن يورد ذلك على كفار قومه ؛ ليصير ذلك زاجرا لهم عن الكفر، وكما وصف من قبل مآكل أهل الجنة ومشاربهم. وصف أيضا في هذه الآية مآكل أهل النار ومشاربهم، وأصل النزل: الفضل والريع في الطعام، يقال: طعام كثير النزل بضم الزاي وسكونها، فاستعير للحاصل من الشئ، وحاصل الرزق المعلوم اللذة والسرور، وحاصل شجرة الزقوم الألم

(١) ما بين القوسين ساقط من النسخة أ، وثابت في النسخة ب.

والغم، والمعنى: أن للرزق المعلوم نزلا، ولشجرة الزقوم نزلا، فأيهما خير نزلا، ولا خير في شجرة الزقوم، ولكن لما اختار المؤمنون[١] ما أدى إلى الرزق المعلوم، والكافرون ما أدى إلى شجرة الزقوم. قيل لهم ذلك توبيخا على سوء اختيارهم، وتهكما بهم.

وانتصاب ﴿نُزُلًا﴾ على التميز، ولك أن تجعله حالا للرزق نفسه[٢]، لما يحصل من فروعه، والمعنى: أن هذا الرزق المعلوم نزل أهل الجنة، وشجرة الزقوم نزل أهل النار، فأيهما خير في حال كونه نزلا، والنزل: ما يقام للنازل بالمكان من الرزق، ومنه أنزال الجند، أي: أرزاقهم، جمع نزل، أي: رزق.

ثم قال تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا﴾ أي: الشجرة ﴿فِتْنَةً﴾ أي: سبب فتنة وضلال ﴿لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾ في الدنيا، أو عذابا في الآخرة، أو محنة وابتلاء لهم في الدنيا، وذلك أنهم قالوا: كيف يكون في النار شجرة، والنار تحرق الشجر، فوقعت تلك شبهة في قلوبهم، وصارت تلك الشبهة سببا لتماديهم في الكفر.

قال الرازي في الجواب عنها: إن خالق النار قادر على أن يمنع النار

---

(١) قوله: (ولكن لما اختار المؤمنون) يعني: لما كان مؤدى فعل الكافرين إلى شجرة الزقم كمؤدى فعل المؤمنين إلى الرزق المعلوم حمل ذاك على هذا حملا للنقيض على النقيض تهكما للتوبيخ، ويجوز أن يكون من المشاكلة المعنوية. (حاشية العلوي)

(٢) قوله: (وانتصاب نزلا على التمييز، ولك أن تجعله حالا) والفرق بين المعنيين أنك إذا جعلته حالا، فالرزق المعلوم هو النزل، وأما إذا جعلته تمييزا، فلا يكون الرزق المعلوم هو النزل، بل يكون متعلقا به ؛ لأن التقدير نزله، والضمير للرزق المعلوم، والمضاف غير المضاف إليه، قال الطيبي _ طاب ذكره. فإن قلت: فلم فرق بين المعنى في العبارتين ؟ فإنه جعل نزلا تمييزا في الأول، وحالا في الثاني ؟ قلت: لأنه لما استعار النزل للحاصل من الشئ تعين أن يكون تمييزا لا حالا، لأن حاصل الشئ لا يصدق عليه، ومن شأن الحال صدقها على ذي الحال، ويجوز أن يحمل في الثاني على التمييز أيضا، نحو لله دره فارسا. (حاشية العلوي).

من إحراق الشجر لأنه إذا جاز أن يكون في النار زبانية، والله تعالى يمنع النار عن إحراقهم، فلم لايجوز مثله في هذه الشجرة، ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وصفها بصفات.

الصفة الأولى: قوله ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ﴾ أي: تنبت ﴿فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أي: في قعر جهنم، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها، وهي سبع.

الثانية: قوله ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)﴾ أي: حملها والطلع للنخلة، فاستعير لما طلع من حمل شجرة الزقوم ؛ لأن الطلع ينطلق عليه اسم الثمرة، كما أن حمل هذه الشجرة ينطلق عليه اسم الثمرة، لايقال: إنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله، وهذا لم يعرف ؛ لأنا نقول: إن الله عز وجل كلم العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرء القيس(١):

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

ولم يروا الغول، ولكنه لما كان أمر الغول يهولهم، أوعدوا، كذلك هذا شبه بذلك دلالة على تناهيه في قبح المنظر والكراهة ؛ لأن الشيطان مستقبح

---

(١) قال السيد العلوي رحمه الله . بعد أن حكى كلام نور الدين الحكيم . قال الطيبي . ونعم ما قال: وقلت: يمكن أن يقال: أما اللفظية فهي أن الطلع موضوع لحمل الشجرة، ومع قيد أن تكون تلك الشجرة نخلة، فاستعمل في غيرها كالمرسن فإنه موضوع للأنف بشرط أن يكون أنف مرسن، فإذا استعمل في أنف إنسان كان مجازا لفظيا، ليس فيه مبالغة ؛ لأنهما كالمترادفين، وأما المعنوية، فهي أن يشبه حمل تلك الشجرة بالطلع الحقيقي تشبيها بليغا، ثم يطلق على ذلك الحمل اسم الطلع، والقرينة الإضافة إلى ضمير شجرة الزقوم، والإستعارة على هذا تحتمل أن تكون تحقيقية، وأن تكون مكنية مستلزمة للتخييلية، كقوله:

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعري أفراس الصبا ورواحله

وفي تسمية الأولى استعارة تسامح ؛ لأنها من المجاز المرسل الخالي من الفائدة، فسماه استعارة مبالغة .(حاشية العلوي).

في طلوع الناس لا عتقادهم أنه شر محض، فيقولون في القبح والصورة: كأنه وجه الشيطان، وعكس ذلك كله في المَلَك.

قال الرازي: قد أجابوا عنه من وجوه . الأول . وهو الصحيح: أن الناس لما اعتقدوا في الملائكة كمال الفضل في الصورة والسيرة، واعتقدوا في الشياطين نهاية القبح والخساسة في الصورة والسيرة، فكما حسن التشبيه بالملك عند إرادة تقرير الكمال والفضيلة في قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ وجب أن يحسن التشبيه برؤوس الشياطين في القبح، وسوء الخلقة.

والحاصل: أن هذا من باب التشبيه لا بالمحسوس، بل بالمتخيل[١]، كأنه قيل: إن أقبح الأشياء في الوهم والخيال هو رؤس الشياطين، فهذه الشجرة تشبهها في قبح المنظر، وتشويه الصورة، والذي يؤكد هذا أن العقلاء إذا رأوا شيئا شديد الاضطراب، منكر الصورة، قبيح الخلقة قالوا: إنه شيطان، وإذا رأوا شيئا حسن الصورة والسيرة قالوا: إنه ملك . ومنه قول امرء القيس: (كأنياب أغوال)

والثاني: أن الشياطين حيّات لها رؤوس وأعراف طوال[٢]، وهي من أقبح الحيات، وبها يضرب المثل في القبح، قال الشاعر[٣]:

[عجوز تحلف حين أحلف]   كمثل شيطان الحماط أعرف

---

(١) أراد أنه استعير لحمل شجرة الزقوم اسم الطلع، وشبه برؤوس الشياطين، فالتشبيه تخييلي؛ لأن المشبه لا حقيقة له في الخارج، باعتبار أنه غير مرئي، ولكنهم استشعروا أنه أقبح ما صور باعتبار أنه لو روي لرؤي على أقبح صورة، ومثله قول أمرء القيس: أيقتلني والمشرفي مضاجعي .. ولم ير الغول، ولا أنيابها، ولكنه تخيلها وتخيل أنيابها، فشبه السهام بها .(حاشية العلوي).

(٢) على هذا لا يكون التشبيه تخييليا، بل تحقيقيا.

(٣) ما بين أقواس الزيادة من تفسير البرهان للديلمي، قال فيه: قال الشاعر: وهو يذم أمرأة له، انظر البرهان تفسير الصافات.

أي: كمثل حية الحماط، والحماط: شجر معروف، وأهل اليمن يسمونه البلس العري.

والقول الثالث: أن رؤوس الشياطين نبت معروف قبيح الرأس، والأول هو الوجه.

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الشجرة، وذكر صفتها أخبر تعالى عن الكفار فقال ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾ لشدة جوعهم، ثم أخبر عز وجل بزيادة عذابهم وتكميله، فقال ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ يعني: أنهم إذا شبعوا عطشوا فيسقون من صديد، شوبُه أي: مزاجه ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: ماء[1] حار يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم.

قال المفسرون: إذا أكلوا الزقوم، ثم شربوا عليه الحميم شاب الحميم الزقوم في بطونهم فصار شوبا له، وكل شئ خلطته بغيره فهو مشوب وشوب للآخر.

قال الزجاج: الشوب اسم عام في كل ما خلط بغيره. والحميم: الماء الحار المتناهي في الحرارة. والمعنى: أنه إذا غلبهم ذلك العطش الشديد سقوا من ذلك الحميم فحينئذ يشوب الزقوم بالحميم. نعوذ بالله من ذلك ..

واعلم أن الله تعالى وصف شرابهم في القرآن بأشياء منها: كونه غساقا، ومنها: قوله ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[2] ومنها: ما ذكره في هذه الآية

فإن قيل: ما الفائدة في كلمة [﴿ثُمَّ﴾ في قوله] ﴿إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾ قال الرازي: فيه وجهان. الأول: أنهم يملأون بطونهم من

(١) في النسخة أ (أي: من ماء حار).

(٢) محمد: ١٥.

شجرة الزقوم، وهو حار يحرق بطونهم فيعظم عطشهم ثم [إنهم][(١)] لا يسقون إلا بعد مدة مديدة، والغرض [من ذلك][(٢)] تكميل العذاب.

والثاني: أنه تعالى ذكر الطعام بتلك البشاعة والكراهة، ثم وصف الشراب بما هو أبشع منه، فكان المقصود من كلمة (ثم) بيان أن حال المشروب في البشاعة أعظم من حال المأكول[(٣)].

ثم قال تعالى ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ أي: بعد الزقوم، وشراب الحميم، وذلك أن الحميم خارج من الجحيم، فيردونه كما ترد الإبل الماء، ثم يردون إلى الجحيم، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾[(٤)].

ثم إنه تعالى لما وصف عذابهم في أكلهم وشربهم علل استحقاقهم لذلك العذاب بتقليد آبائهم في الضلال، فقال ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا﴾ أي: وجدوا ﴿ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾﴾ فعلل ما وقعوا فيه من البلاء بتقليد الآباء ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ أي: على طريقتهم ﴿يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ والإهراع: الإسراع، كأنهم يحثون حثا، وقد يكون معنى ﴿يُهْرَعُونَ﴾ أي: يسوقهم رؤساؤهم وكبراؤهم على آثار آبائهم، ويحضونهم على ذلك، ويحثونهم ويستعجلونهم قال الشاعر:

أتونا يهرعون وهم أسارى نسوقهم على رغم الأنوف

والقول الأول أحسنهما وخيرهما، وهو أنهم يسرعون، وكلاهما حسن.

---

(١) ما بين القوسين ثابت في الرازي، وساقط من المصابيح.

(٢) ما بين القوسين ثابت في أ، وساقط من ب، ومن الرازي ٢٦/١٤٣.

(٣) والفرق بين الوجهين في ثم: هو أن الوجه الأول، مبني على أن ثم للتراخي في الزمان والأسلوب من الترقي من الحار إلى الأحر، والوجه الثاني: أن (ثم) للتراخي في الرتبة والأسلوب من التكميل، أي: كمل عذاب الأكل بالشرب. (علوي)

(٤) الرحمن: ٤٤.

قال ابن الجوزي: قال الكسائي والفراء: لايكون الإهراع إلا إسراعا مع رعدة، قال: ويقال أُهْرِعَ الرجل إذا أُسْرِعَ على لفظ مالم يسم فاعله، كما يقال: أرعد.

قال ابن الأنباري : الإهراع: فعل واقع بالقوم، وهو لهم في المعنى، كما قالت العرب: قد أُولِعَ الرجل بالأمر فجعلوه مفعولا، وهو صاحب الفعل، ومثله أُرعِدَ زيد، وَسُهِي عمرو من السهو، وكل واحد من هذه الآفاعيل خرج الإسم معه مقدرا تقدير المفعول، وهو صاحب الفعل، لايعرف له فاعل غيره.

قال: وقال بعض النحويين: لايجوز للفعل أن يجعل فاعله مفعولا، وهذه الأفعال المذكورة فاعلوها محذوفون، وتأويل أولع زيد، ولعله طبعه وجبلته، وأرعد، أرعده غضبه، وسهي عمرو جعله ساهيا جهله، وأهرع: أهرعه خوفه ورعبه، قال: وقال بعض اللغويين لايكون الإهراع إلا إسراع المذعور الخائف، حكى هذا في التجريد.

والمقصود من الآية أنه تعالى علل استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء في الدين، وترك اتباع الدليل، ولو لم يوجد في القرآن أية غير هذه الآية في ذم التقليد لكفى.

ثم إنه تعالى ذكر لرسوله صلى الله عليه وآله ما يوجب التسلية له في كفرهم وتكذيبهم، فقال ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ يعني قريشا ﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ ممن تقدمهم ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم﴾ أي: في الأولين أنبياء ﴿مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ ينذرونهم عواقب الكفر والمعاصي، فأخبر الله تعالى أن إرساله للرسل قد تقدم، وتكذيب أممهم لهم قد سلفهم، ويجب أن يكون له صلى الله عليه وآله أسوة بهم حتى يصبر كما صبروا، ويستمر على الدعاء إلى الله وإن تمردوا، فإنه ليس عليه إلا البلاغ.

ثم قال تعالى ﴿فَانظُرْ﴾ يامحمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ

﴿٧٣﴾ أي: هلكوا جميعا لإعراضهم عن الإنذار، واستثنى عز وجل المؤمنين بقوله ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾ الذين أخلصهم الله لدينه بتوفيقه وتسديدة.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾(١) وإن كان في الظاهر خطابا مع الرسول ﷺ إلا أن المقصود منه خطاب الكفار ؛ لأنهم سمعوا بالأخبار جميع ما جرى من أنواع العذاب على قوم نوح، وعلى عاد وثمود وغيرهم، فإن لم يعلموا ذلك فلا أقل من(٢) أن يكون زاجرا لهم عن كفرهم.

والإستثناء في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ فيه قولان، أحدهما: أنه استثناء من قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ والثاني: أنه استثناء من قوله: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ فإنها كانت أقبح العواقب وأفظعها، إلا عاقبة عباد الله المخلصين.

ثم اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ وقال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أتبعه بشرح وقائع الأنبياء وقصصهم.

[قصة نبي الله نوح عليه السلام]

فالقصة الأولى: حكاية حال نوح عليه السلام فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ أي: دعانا للنصرة على قومه لما أيس عن أيمانهم ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: فوالله لنعم المجيبون نحن(٣).

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ الكرب: الغم الذي يأخذ

---

(١) في المصابيح النسختين (فانظر كيف كان عاقبة المكذبين) والآية (المنذرين)، وفي الرازي (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين)

(٢) في الرازي (فلا أقل من ظن وخوف يكون زاجرا لهم .. (٢٦/ ١٤٣، ١٤٤).

(٣) هو جواب قسم محذوف، والمخصوص بالمدح محذوف، أي: فلنعم المجيبون نحن .

بالنفوس، عبر به عن الغرق .والفاء في قوله: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ يدل على أن حصول هذه الإجابة مرتب على ذلك النداء [والحكم المرتب على الوصف المناسب يقتضي كونه معللا به، وهذا يدل على أن النداء][1] بالإخلاص سبب لحصول الإجابة.

ثم إنه تعالى لما بين أنه سبحانه نعم المجيب على سبيل الإجمال . بين أن الإنعام حصل في تلك الإجابة من وجوه، الأول: قوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الحاصل بسبب الخوف من الغرق، والكرب الحاصل من أذى قومه.

والثاني: قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ المتناسلين إلى يوم القيامة، يفيد الحصر دون ذرية غيره ممن ركب معه، والناس كلهم أولاد نوح عليه السلام، وروي أنه مات[2] كل من كان معه في السفينة غير ولده، وكان لنوح ثلاثة أولاد سام، وحام، ويافث، فسام أبو العرب، وفارس، والروم، وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب، ويافث أبو الترك، وياجوج ومأجوج، ومثل هذا ذكر ابن عباس.

والنعمة الثانية: قوله ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ أي: تركنا عليه في الأمم المتأخرة هذه الكلمة، وهي ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ يعني يسلمون عليه تسليما، ويدعون له، وهو من الكلام المحكي[3]، نحو قراءة ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾

---

(١) ما بين قوسي الزيادة ثابت في ب، وساقط من أ. وهو أيضا ثابت في الرازي ٢٦/ ١٤٥.

(٢) قوله: (وروي أنه مات ..) الخ. جعله الزمخشري تعليلا لوجه آخر غير الوجه الأول، وهو أن معنى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أنهم هم الذين بقوا وحدهم وقد فني غيرهم.

والفرق بين الوجهين: هو أن قوله: (المتناسلين إلى يوم القيامة) يفيد البقاء إلى يوم القيامة. وعلى الوجه الثاني الذي ذكره الزمخشري، يفيد البقاء بعد هلاك من هنٰلك بالإغراق. والاختصاص: مستفاد من ضمير الفصل.

(٣) فمعناه: أنا تركنا عليه في الآخرين هذه الكلمة، فـ﴿تَرَكْنَا﴾ واقع على قوله: ﴿سَلَٰمٌ..﴾ =

وقوله: ﴿فِي ٱلْعَٰلَمِينَ (٧٩)﴾ كل واحد منهم، يعني أن الدعاء بالتحية والتسليم ثابت في العالمين، كأنه قيل: أثبت الله التسليم على نوح وأدامه في الملائكة والثقلين، فهم يسلمون عليه كلهم إلى آخر الدهر.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٨٠)﴾ علل مجازاة نوح عليه السلام بتلك التكرمة من تبقية ذكره، وتسليم العالمين عليه، بأنه كان محسنا.

وقيل: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أبقينا له ذكرا حسنا، وثناء جميلا، في من بعده من الأنبياء والأمم، وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ كلام آخر، ليس مفعولا لتركنا، ولكن استئناف كلام، ثم علل كونه محسنا بكونه مؤمنا فقال ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨١)﴾ ليريك أن الإيمان أعلى صفات المدح والتعظيم[1].

وقوله ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ (٨٢)﴾ يريد: الكافرين من قومه، والمعنى في ذلك: أنا خصصنا نوحا عليه السلام بتلك التشريفات الرفيعة من جعل الدنيا مملوءة من ذريته، ومن تبقية ذكره الحسن في أَلْسِنَةِ جميع العالمين ؛ لأجل أنه كان محسنا، ثم علل كونه محسنا بأنه كان عبدا مؤمنا، والمقصود منه

= الآية وهو مفعول به، كأنه قيل: تركنا قولنا: سلام على نوح من كل أحد من العالمين، كما يقال: السلام على زيد في جميع الأمكنة والأزمنة، ففي العالمين متعلق بالجار والمجرور المتقدم. (علوي).

وفائدة ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ التي هي كالتكرار لقوله: ﴿فِي ٱلْءَاخِرِينَ﴾ أن في إعادة ذكر في العالمين معنى الشمول والاستغراق، لئلا يخرج أحد ممن يسمى بالعالمين، من الملائكة والثقلين عنه .، والحاصل: أن ﴿فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كالتتميم للمعنى السابق والمبالغة.

(١) قال الطيبي: يعني أن نوحا ليس ممن لا يؤمن حتى يوصف بالإيمان تمييزا، وإنما جئ به للمدح، بمعنى أن صفة الإيمان من الصفات التي تصلح أن يمدح بها النبي المرسل ترغيبا للمؤمنين، وأقول: الظاهر أنه عنى بذلك أن الله تعالى لما علل مجازاة نوح عليه السلام بتلك التكرمة السنية بكونه محسنا، ثم علل كونه محسنا بأنه كان مؤمنا دل ذلك على غاية الاعتداد بشأن الإيمان والاعتناء به، وذلك استفيد من تخصيصه بالذكر، وأنه لم يذكر غيره، فلم يقل: إنه من عبادنا المرسلين مثلا، فتخصيصه بالذكر يومهم أنه . أعني الإيمان . أشرف صفاته. والله أعلم. (علوي).

بيان أن أعظم الدرجات وأشرف المقامات الإيمان بالله، والإنقياد لطاعته.

[قصة نبي الله إبراهيم عليه السلام]

ثم ذكر تعالى القصة الثانية قصة إبراهيم عليه السلام فقال سبحانه ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: ممن تابعه على أصول الدين، وإن اختلفت شرائعهما، أو شايعه في التصلب في الدين في مصابرة المكذبين، وكان بين نوح وإبراهيم الفان وستمائة سنة وأربعون سنة، ولم يكن بينهما من الأنبياء إلا هود وصالح، ومعنى ﴿إِذْ جَآءَ﴾ أي: حين جاء ﴿رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ أي: مخلص عن جميع آفات القلوب، ومعنى المجيئ بالقلب إخلاصه لله، فضرب المجيئ مثلا لذلك[١]، وقيل: سليم عن الشرك، وقال الإصوليون: المراد أنه عاش ومات على طهارة القلب من كل ما يدنسه من المعاصي، فيدخل فيه كونه سليما عن الشرك، وعن الشك، وعن الغل والحسد.

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن إبراهيم جاء ربه بقلب سليم، ذكر أن من جملة آثار تلك السلامة أنه دعا أباه وقومه إلى التوحيد فقال ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾ أي: ما الذي تعبدونه، تجاهل عن الأصنام فسأل عنها، والمقصود من هذا الكلام تهجين تلك الطريق وتقبيحها.

ثم قال ﴿أَئِفْكًا﴾ مفعول له، أو به، والإفك: الكذب، وأصله الصرف، ثم فسر الإفك بقوله ﴿ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ وأصل الكلام أتريدون آلهة من دون الله إفكا، أي: كذبا وباطلا، فيما أنتم عليه من الشرك، وقدم المفعول على الفعل للعناية به، وقدم الإفك ؛ لأنه كان الأهم عند إبراهيم، يكافحهم بأنهم على إفك وباطل، ويجوز أن يكون

---

(١) قوله: (فضرب المجيئ مثلا لذلك) أي: لكونه أخلص لله قلبه، وفي المطلع: ومعنى مجيئه ربه: أنه أخلص لله قلبه وعرف ذلك منه، كما يعرف الغائب وأحواله بمجيئه وحضوره، فضرب المجئ مثلا، وقال الإمام: معناه أنه أخلص لله تعالى قلبه، فكأنه أتحف حضرة الله بذلك القلب. (علوي) ومراده بالإمام (الرازي).

المعنى أتريدون إفكا، ثم فسر الإفك بآلهة دون الله على أنها إفك نفسها للمبالغة في إبطالها.

ثم قال ﴿فَمَا ظَنُّكُم﴾ أي ظن ظننتموه ﴿بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ حين تركتم عبادته إلى عبادة الأصنام.

ثم قال ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾ أي: فكر فكرة في عبادة النجوم ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ أي: مريض مغموم من عبادتكم لما لا ينفعكم من النجوم.

قال الهادي عليه السلام: ومعنى ذلك أن قومه كانوا يعبدون النجوم السبعة، فلما نظر إلى جهلهم، وما هم عليه من عبادتهم لما هو مخلوق مربوب، تدخل عليه الزيادة والنقصان، وأنه آفل، زائل، منتقل، حائل ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي: سَقِمُ القلب لما أنتم عليه من عبادة هذه المخلوقات المحدثات، وإضرابكم على الله في كل الحالات، وقلة نظركم وتدبركم وفكركم في عظمة خالقكم، وجهلكم في عبادة أصنامكم، واجتنابكم عن طاعة ربكم وإلهكم، وخالق هذه التي تعبدون، ونظره في النجوم: فإنما هو فكره وتدبيره فيما هم عليه من عمايتهم، وقلة نظرهم لأنفسهم، لاكما يقول الجاهلون من أنه كان مُنَجِّماً، وأنه كان يستعمل النجوم ويحسب بها، وليس ذلك كذلك، ولا يجوز على نبي الله شئ من ذلك . اهـ

ومعنى ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ أي: نفروا عنه وأدبروا عن طاعته ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ أي: ذهب في خفية من روغة الثعلب[1]، يريد: انقلب إلى أصنامهم فقال لها مستهزئا بها دون عبدتها ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ فقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني الطعام الذي كان بين أيديهم،

---

(١) قوله: ذهب إليها في خفية. أراد أنه ضمن ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ معنى ذهب إليها، وعدي بإلى كما ضمن ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ معنى الإقبال، وعداه بعلى، ولذلك قال: ذهب في خفية [في الأول]. أقبل عليهم مستخفيا [في الثاني] بعد استعارة الروغان للخفية.

يريد عليه السلام التعجب من ضعف عقول هؤلاء الذين يعبدون ما لا يأكل، ولا ينطق، ولا يعي، ولا يعقل، ويمكن والله أعلم أن يكونوا أكرموا آلهتهم بالطعام كما يكرمونها باللباس، قد بلغني أن قوما من الأعاجم يفعلون ذلك في هذه العصور، والله أعلم ذكره الحسين بن القاسم عليه السلام.

ثم قال ﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: أقبل [عليهم]مستخفيا يضربهم ﴿ضَرۡبَۢا﴾[١] شديدا ﴿بِٱلۡيَمِينِ ۝٩٣﴾ لأنها أقوى اليدين وأشدهما، أومعناه: بالقوة والشدة[٢]، وقيل: معناه ـ بسبب اليمين، وهي حلفه بالله لأكيدن أصنامكم.

ثم قال تعالى ﴿فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ۝٩٤﴾ بفتح الياء وكسر الزاي، وتشديد الفاء، معناه: يسرعون، من زفيف النعام، وهو أول عدوها، يقال: جاء يزف زفيف النعامة، أي: أقبل إلى إبراهيم قومُه بعد رجوعهم من عيدهم، وسؤالهم عن الكاسر، وعلمهم به، وقرأ حمزة، بضم الياء، أي: يحملون دوابهم على الجد والاسرع في المشي، وقيل: الضمير في ﴿إِلَيۡهِ﴾ لبيت الأصنام.

فإن قيل: مقتضى هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام لما كسرها عمدوا إليه

---

(١) وعلى هذا، فضربا مفعول مطلق لفعل مقدر من لفظ راغ، وقد قدره هنا يضرب. وجملة يضربهم ضربا حال من الفاعل. وهذا هو الوجه الثاني الذي ذكره الزمخشري في كشافه، وقد جوز وجهين آخرين، أحدهما: أن يكون ضربا مفعولا مطلقا من غير لفظه، كقولك: قعدت جلوسا، فراغ ضربا. وثانيهما: أن يكون ضربا بمعنى ضاربا، فضربا حال.

(٢) قوله: (أو معناه: بالقوة والشدة) قال الطيبي: فعلى هذا ﴿بِٱلۡيَمِينِ﴾ متعلق بضربا، وعلى الأول: متعلق بمحذوف صفة لضربا. قال السيد العلوي: أقول. والظاهر أن ﴿بِٱلۡيَمِينِ﴾ متعلق بضربا على الوجهين، ولكن الفرق بين الوجهين أنه جعل اليمين في الثاني بمعنى القوة، تسمية للقوة باسم محلها، وهذا كتسمية النعمة يدا، وعلى هذا يجوز أن يكون الضرب حاصلا بغير اليد اليمين، بل لو فرض أنه لا يمين للضارب لجاز أن يقال: ضرب باليمين، أي: بالقوة، وفي الأول جعل اليمين بمعنى الجارحة المخصوصة، وعبر بذلك عن قوة الضرب، وإلى هذا أشار بقوله: لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما. (علوي)

وأخذوه، وقال في سورة أخرى في غير هذه القصة ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾(١) وهذا يقتضي أنهم في أول الأمر ما عرفوه، فبين هذين الأمرين تناقض.

أجاب الرازي فقال: لا يبعد أن يقال: إن جماعة عرفوه فغدوا إليه مسرعين، والأكثرون ما عرفوا أن ذلك الكاسر من هو، واعلم أن القوم لما عاتبوا إبراهيم على كسر الأصنام، وأوضح لهم الدليل الدال على فساد المصير إلى عبادتها، حيث ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥﴾ أي: تنجرون بأيديكم، وتبرون بالحديد من الحجارة والعيدان، وتصنعون.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ قلت: وهذه الآية من أعظم شبه المجبرة التي يتعلقون بها، ولا حجة لهم فيها بل الحجة فيها عليهم من وجوه.

الأول: أنه تعالى قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ فأضاف العبادة والنحت إليهم، إضافة الفعل إلى الفاعل، ولو كان ذلك واقعا بتخليق الله لاستحال كونه فعلا للعبد.

الثاني: أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية توبيخا لهم على عبادة الأصنام؛ لأنه تعالى بين أنه خالقهم [وخالق لتلك الأصنام، والخالق هو المستحق للعبادة دون المخلوق، فلما تركوا عبادته سبحانه مع أنه خالقهم](٢) وعبدوا الأصنام، لاجرم أنه سبحانه وبخهم على هذا الخطأ العظيم، فقال: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ولو لم يكونوا فاعلين لأفعالهم لما جاز توبيخهم عليها، وأما قولهم: النحويون اتفقوا على أن لفظة ما مع ما بعدها في تقدير المصدر ممنوع، وبيانه: أن سيبويه والأخفش

---

(١) الأنبياء: ٥٩.

(٢) ما بين الأقواس ساقط من النسخة أ، وثابت في النسخة ب، وهو موجود بلفظه في الرازي ٢٦/١٤٩.

اختلفا في أنه هل يجوز أن يقال: أعجبني ما قمت أي قيامك، فجوزه سيبويه، ومنعه الأخفش، وزعم أن هذا لا يجوز إلا في الفعل المتعدي، وذلك يدل على أن ما مع ما بعدها في تقدير الفعل عند الأخفش، سلمنا أن ذلك قد يكون بمعنى المصدر، ولكنه أيضا قد يكون بمعنى المفعول، ويدل عليه وجوه، الأول: قوله تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ والمراد بقوله: ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾ المنحوت ؛ لا النحت ؛ لأنهم ما عبدوا النحت، وإنما عبدوا المنحوت، فوجب أن يكون المراد بقوله: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ المعمول لا العمل، حتى يكون كل واحد من هذين اللفظين على وفق الآخر.

الثاني: أنه تعالى قال: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[(١)] وليس المراد أنها تلقفت نفس الإفك، بل المراد العصي والحبال التي هي متعلقات ذلك الإفك، فكذا ههنا.

الثالث: أن العرب تسمي محل العمل عملا، يقال في الباب والخاتم: هذا عمل فلان، والمراد محل عمله، فثبت بهذه الوجوه الثلاثة أن لفظة ما مع ما بعدها كما تجيء بمعنى المصدر فقد تجيء أيضا بمعنى المفعول، فلِمَ كان حمله ههنا على المصدر أولى من حمله على المفعول، بل نقول: حمله ههنا على المفعول أولى ؛ لأن المقصود في هذه الآية تزييف مذهبهم في عبادة الأصنام لا بيان أنهم لا يوجدون أفعال أنفسهم ؛ لأن الذي جرى ذكره من أول الآية إلى هذا الموضع هو مسألة عبادة الأصنام لا مسألة خلق الأعمال[(٢)].

(١) الأعراف: ١١٧. الشعراء: ٤٥.

(٢) هذا المبحث بلفظه موجود في الرازي ٢٦/ ١٥٠. ثم ختم هذا الكلام بعد أن ذكر أن أصحابه يستدلون بهذه الآية على أن الله خالق أفعال هؤلاء الكفار، والرد عليهم، فقال: واعلم أن هذه السؤالات قوية، وفي دلائلنا كثرة، فالأولى ترك ترك الإستدلال بهذه الآية، والله أعلم.

وفي هذه الآية يقول الهادي عليه السلام: الذي عنى بذلك سبحانه فهو[1] الحجارة التي ينحتونها أصناما، ويعملونها آلهة لهم، وما أشبه ذلك من الأنصاب التي يعبدونها، فهذا معنى ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ فالله خلقهم ومفعولهم، ولم يخلق سبحانه فعلهم، والمفعول هو الصنم الذي ينحتونه من الحجارة، وفعلهم فهو الحركة التي كانت منهم من الرفع والوضع والنحت، والله خالق الحجر الذي عملوه صنما، ولم يخلق الذي كان منهم في نحت الحجر . اهـ

وهذا مجاز معروف تقول العرب: فلان يعمل الحديد، أي: يعمل فيه على الحقيقة، ولا يعمله إلا على المجاز، فاحتج الله عليهم بأن العابد والمعبود خلق الله فكيف يعبد المخلوق المخلوق، ولو كان كما تقوله المجبرة: إن التقدير خلقكم وخلق عملكم الذي هو عبادة الأصنام لكان قد لقنهم الحجة على نفسه، وذلك لا يفعله حكيم.

واعلم أن إبراهيم عليه السلام لما أورد عليهم هذه الحجة القوية، ولم يقدروا على الجواب عدلوا إلى طريقة الإيذاء ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾ هو موضع النار في كوثى قريب من الكوفة، قال ابن عباس: بنوا حائطا من حجارة طوله في السماء ثلاثون ذراعا، وعرضه عشرون ذراعا، وقيل: طوله وعرضه ثمانون في ثمانين، وملأوه من الحطب وأوقدوا فيه النار، وألقوه فيها، رواه الثعلبي والواحدي، والله أعلم.

ومعنى ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ فهو رموا به في النار الشديدة الوقود، وقال الزجاج: كل نار على نار، وكل جمر فوق جمر فهو جحيم.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ أي: الأذلين حيث لم يقدروا على إحراقه، وظهر بذلك ما أراهم من المعجز

---

(١) في المجموع (فهي).

وهو كون النار لم تضره، والمعنى: أن وقت المحاجة حصلت الغلبة له، وعندما ألقوه في النار صرف الله عنه ضرر النار فصار هو الغالب عليهم.

واعلم أنه لما انقضت هذه الواقعة أخبر الله سبحانه عن قول إبراهيم في قوله ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي: مهاجر إلى ربي، يريد إلى حيث أمرني ربي من العراق إلى الشام، أي: مهاجر إلى طاعة ربي، قال الشاعر:

إليك ربي قلق وضينها قد ذهب الشحم الذي يزينها
مخالف دين النصارى دينها

يعني الراحلة، فقال: إليك ربي . أي: إلى طاعتك واتباع أمرك.

قال المرتضى عليه السلام: وهذا إخبار من الله سبحانه عن خليله إبراهيم صلى الله عليه وآله حين عصاه قومه وباينوه بالعداوة، فلما رأى عليه السلام شدة كفرهم وبعدهم من ربهم إذن الله له بالخروج منهم، فقال صلى الله عليه وآله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أراد أني مهاجر في طاعة ربي، وخارج من بينكم وتارك لصحبتكم، فلما كان خارجا بأمر ربه مطيعا لخالقه، صابرا حيث أمره، فاعلا لما حكم به عليه، قال عليه السلام: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أراد مهاجر في أمر ربي معتزل لفعلكم . اهـ

ثم قال ﴿سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ أي: سيرشدني في ديني، ويوفقني، ويرزقني من المعرفة وبما أمر من حلاله وحرامه، ويهديني إليه وإلى غيره مما يرضيه.

ثم قال عليه السلام ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ أراد هب لي ولدا صالحا يؤازرني ويعينني على طاعتك، فلما كان منه صلى الله عليه وآله الاعتزال لقومه بشره الله عز وجل بقوله ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ وهو إسماعيل . اهـ

ومعنى ﴿حَلِيمٌ﴾ عظيم الحلم، يريد: الصبر، والرجاحة، وفسحة الصدر، تضمنت البشارة أنه ذكر، وأنه حليم، ومن حلم ولده أنه صبر حين عرض عليه أبوه الذبح ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي: بلغ أن يسعى مع أبيه في

حوائجه وكان حينئذ ابن ثلاث عشرة سنة، وقيل: ابن سبع سنين، وقيل: بلغ أن يعمل مع أبيه ويعينه، قاله ابن قتيبة، وقيل: بلغ العبادة مع أبيه، فهي المراد بالسعي، فعلى هذا يراد بلوغ التكليف، قاله ابن زيد، والحسن، ومقاتل.

قال المرتضى عليه السلام: فلما افترض الله سبحانه على إبراهيم الحج، وأمره به، وبلغ ذلك إسماعيل معه صلى الله عليهما، كان من محنة الله سبحانه لإبراهيم في ابنه ما ابتلاه به من ذبحه حين ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾. اهـ

أي: تدبر ما ترى من صبرك، أو جزعك، وقيل: ما ترى في الرأي والمشورة، ولم يشاوره ليرجع إلى رأيه في أمر حتم من الله سبحانه[١]، بل ليعلم ما عنده فيما نزل به من بلاء الله، فيثبت قدمه ويصبره، ويأمن عليه الزلل[٢] وليلقى البلاء وقد تصبر له وهو كالمستأنس، وليكسب المثوبة بالانقياد لأمر الله قبل نزوله، ولأن المغافصة[٣] بالذبح سامج.

قرأ حمزة والكسائي [ما ذا تُرِي]بضم التاء وكسر الراء، وياء بعدها، أي: ماذا تريني من صبرك ؟ وقيل: ماذا تشير ؟ وكانت رؤيا الأنبياء في المنام وحيا من الله، قيل: رأى أنه يؤمر بذبحه ؛ لا أنه يذبحه، أي: قيل له في المنام اذبح ابنك بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ به[٤] من ذبحي ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ على بلاء الله، أصل الصبر الحبس على ما تكره النفس، ومنه قولهم: قتل صبرا . إذا حبس

---

(١) قوله: ولم يشاوره ليرجع إلى رأيه. هذا جواب عن سؤال مقدر، كأنه قيل: لم شاوره في أمر هو حتم من الله.

(٢) عبارة الزمخشري: فيثبت قدمه ويصبره إن جزع، ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلم.

(٣) المغافصة: الأخذ على غرة.

(٤) فحذف الجار في الآية كما حذف من قوله: أمرت الخير فافعل ما أمرت به. وقد قرئ (ما تؤمر به).

للسيف بحيث لا يتمكن من دفاع، ولا يقدر على امتناع، ولا فرق عندهم بين قولك: صبرت نفسي على كذا وكذا، وحبستها، قال طرفة بن العبد:

واعطف النفس على مكروهها حيث لا يعطفها إلا الصُّبُر

يريد: الحابسين لها على المكاره التي فيها معالي الأمور، ولا يتم ذلك إلا بمنعها عن الجزع، وصرفها عن الفزع عند نزول الخطوب المهمة، وهجوم النُّوَبِ المؤلمة الملمِّة، وتضاعف المشاق الجليلة الحادثة، والأمور الناتجة الكارثة، فحينئذ يفرق بين الصابر والجازع، والمريع والرائع، ومن حلمه صلى الله عليه وعلى أبيه تعليقه الأمر بمشيئة الله لتوفيقه للصبر.

قال في التجريد: قيل: رأى ليلة التروية كأن قائلا يقول: إن الله يأمرك أن تذبح ابنك هذا، فلما أصبح روّى في ذلك [اليوم] من الصباح إلى المساء أمِنَ الله هذا الحلم أم من الشيطان ؟ فمن ثم سمي يوم التروية، فلما أمسى رأى مثل ذلك، فعرف أنه من الله، فمن ثَمَّ سمي يوم عرفة، ثم رأى في الليلة الثالثة فهم بنحره، فسمي يوم النحر، وقيل: إن الملائكة بشرته بغلام حليم، قال: هو إذن ذبيح الله، فلما بلغ معه السعي قيل له: أوف بنذرك، والله أعلم بصحته.

ثم قال تعالى ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ أي: الأمر لأمر الله تعالى، وانقادا إليه، يقال: سلم لأمر الله، وأسلم، واستسلم بمعنى واحد، أي: انقاد، وحقيقة معناه: أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له خالصة . عن قتادة: أسلم هذا ابنَه، وهذا نفسَهُ.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: جبذه وقاده إلى المذبح ليقتله، وروي أنه لما عزم على قتله، قال إسماعيل: يا أبت إني أخاف أن تنظر إلى وجهي فتلحقك رقة الأبوة، فألقني على وجهي واذبحني من قفاي، فألقاه على جبينه، وهو حر وجهه، ومعنى ﴿لِلْجَبِينِ﴾ على الجبين، فقامت اللام مقام على، قال الشاعر:

فخر صريعا لليدين وللفم

وإنما أراد على الفم، والمعنى: صرعه على شقه فوقع أحد جنبيه على الأرض، قيل: مكانهما عند الصخرة التي بمنى، وقيل: في المشرق على مسجد منى، وقيل: في المنحر، وجواب لما محذوف، أي: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ كان ما كان مما تنطق به الحال من استبشارهما وغبطتهما، وحمدهما الله تعالى، وشكرهما له بما أنعم من دفع البلاء، هذا عند البصريين.

وقال في البرهان: وجواب ﴿فَلَمَّآ﴾ في قوله: ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ﴾ [قلت: وهذا قول الكوفيين، والواو زائدة، قال فيه]: والعرب تدخل الواو في جواب حتى، ولما وتلقيها، وذلك قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾(١) وفي قراءة عبد الله ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾(٢) . اهـ

ومعنى ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ أي: قد عملت ما أمرت به، وذلك أنه قد قصد الذبح بما أمكنه وطاوعه الابن، إلا أن الله صرف ذلك، أو أنه رأى في المنام معالجة الدم، ولم ير إراقة الدم، فلما فعل في اليقظة ما رأى في المنام قيل: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾.

وقال إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد عليه السلام: قوله تعالى حاكيا ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ معناه: فقد أمرت بذبحك، بدليل قوله تعالى حاكيا: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [به]حذف لدلالة سياق الآية عليه، كما في قوله تعالى حاكيا ﴿فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ الآية، أي: يا يوسف،

---

(١) الزمر: ٧٣.

(٢) يوسف: ٧٠.

لفظ البرهان: ويقال: أين جواب قوله: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ وجوابها في قوله: ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ﴾ والعرب تدخل الواو في جواب حتى ولما وتلقيها .. الخ ما نقله المصنف. انظر البرهان تفسير الصافات. وما بين قوسي الزيادة هو من كلام المصنف لا من البرهان.

فهذا معنى الآية أنه أمر بالذبح، وكان لقوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ فائدة ومعنى؛ إذ لم يكن الفداء لمقدمات الذبح، ولا لذلك معنى ولا فائدة، وأنكر ذلك المعتزلة، ومن قال بقولها، وقالوا: إنما أمر إبراهيم عليه السلام بمقدمات الذبح فقط، وهذا باطل؛ لأنه مع ذلك لا معنى لقوله تعالى حاكيا: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ وإنما فِعْلُ مقدمات الذبح مع العلم أن لا ذبح شبه اللعب، من غير صبر ولا بلاء، قالوا: يستلزم البدا. والجواب. والله الهادي إلى الصواب.: إنما يلزم البدا الجاهل الذي يبدو له من الرأي ما كان جاهلا له، وأما عالم السر وأخفى، وعالم ما كان وما يكون فإنه لا يلزم البدا، ولكنه سبحانه رحم عبديه، ومحا ما كتب وأوجب عليهما، بعد أن كان منهما ما كان، وظهر من عزمهما على امتثال ما ألزمهما الله وأمرهما به من البلاء المبين، وهو الذبح، وذلك محو لا نسخ ولا بدا، وقد قال الله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾(١) أي: العلم بكل شئ.

وروي عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (الدعاء يرد القضاء) الخبر، وروى الترمذي والحاكم، وابن البيّع، عن سلمان الفارسي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (لا يرد القضاء إلا الدعاء) الخبر، ونحوهما (الدعاء يمحو الله به ما قد قضاه وقدره) وليس ذلك ببدأٍ ولا نسخ، فهذا الذي ندين به ونلقى الله عليه، ونقطع به في هذه المسألة، والله ولي التوفيق. اهـ

وللقاضي العلامة شمس الدين أحمد بن سعد الدين. أسعده الله وأبقاه. في معنى هذه الآية كلام حسن، وذلك أنه قال: إبراهيم عليه السلام رأى في المنام أنه ذبح ولده، وأنه وقع منه الذبح، وقوله: اذبح حكاية حال ماضية، واستحضار لها، كقوله: (أرى) المتفق على أنه عبارة عن ماض،

(١) الرعد: ٣٩.

فلما رأى ذلك وقد علم صلوات الله عليه وعلى آله أن للرؤيا تعبيرا يحتمل أن يكون ذبحا حقيقيا [طابقت تعبيرها](١) وأن يكون على خلافه، ومثال الأول قول الله عز وجل: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾(٢) الآية فإن الرؤيا طابقت تعبيرها.

ومثال الثاني: رؤيا يوسف عليه السلام سجود الشمس والقمر والنجوم، المعبر بها عن سجود أبويه واخوته، ورؤيا الملك البقر والسنابل المعبر بها عن السنين، تردد عليه السلام في التعبير، فقصها على ولده صلوات الله عليهم، فقال ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ يعني: افعل ما تؤمر من تعبيرها من ذبح حقيقي أو غيره، ثم وطنا أنفسهما على الامتثال، وفعلا من ذلك أقل ما يكون به الامتثال، وأدنى تعبير الرؤيا، من الإسلام، والتل للجبين الذي هو من مقدمات الذبح، ويمكن أن يَصْدُقَ تأويلا له مع العزم على المضي على الذبح إن أمرا بذلك، وذلك هو البلاء المبين الذي حكاه الله عز وجل، فناداه الله كما قال عز وجل: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ أي: فعلت تعبيرها، فليس عليك غير ذلك، ثم زاده وولده كرامة بأن فداه بالذبح العظيم، وحينئذ ليس هذا من البدا ولا من النسخ في شئ والله أعلم . اهـ

وللفقيه العلامة يحي بن حسن بن موسى القرشي في العقد كلام يريد هذا المعنى

والسبب في هذه التكاليف كمال طاعة إبراهيم عليه السلام لتكاليف الله تعالى، فلما كلفه عز وجل هذا التكليف الشاق الشديد، وظهر منه كمال الطاعة، ومن ولده كذلك لا جرم قال: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ تعليل لما أنعم عليهما من الفرج بعد الشدة.

(١) ما بين القوسين ثابت في النسخة أ، وساقط من ب.

(٢) الفتح: ٢٧.

قال الرازي: وهو ابتداء إخبار من الله تعالى، وليس يتصل بما تقدم من الكلام، والمعنى: أن إبراهيم عليه السلام وولده كانا محسنين في هذه الطاعة، فكما جزينا هذين المحسنين، فكذلك نجزي كل المحسنين.

ثم قال تعالى ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ أي: الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم، أو المحنة البينة الصعوبة، التي لا محنة أصعب منها(١).

ثم قال سبحانه وتعالى ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ قال السدي: نودي إبراهيم فالتفت فإذا هو بكبش أملح انحط من الجبل، فقام عند إبراهيم فأخذه وذبحه وخلى عن ابنه، ثم اعتنق ابنه وقال: يا بني اليوم وهبت لي، وأما قوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ فقيل: عظيم الجثة، وقيل: عظيم لأنه قد رعى في الجنة، قاله ابن عباس، وقيل: لأنه متقبل، قاله مجاهد، وقيل: لأنه وقع فداء على ولد إبراهيم، قيل: هو الكبش الذي تقبل من هابيل عن ابن عباس، كان يرعى في الجنة أربعين خريفا، فأعظم به كبرا حتى فدي به إسماعيل وهو السنة في الأضاحي، والذِّبح: كلما أعددته للذَّبح(٢)، فهو ذِبح.

وفي قصة الذبيح أنه لما أمر بالذبح قال إسماعيل: اشدد رباطي لا أضطرب، واكفف ثيابي لا ينتضح فيها شئ من دمي، فينقص من أجري، وتراه أمي فتحزن، واشحذ شفرتك، وأسرع إمرارها ليهون علي، فإن الموت شديد، وأقْرِ أمي سلامي. فقال إبراهيم عليه السلام: نعم العون أنت يا بني على أمر الله، ثم أقبل يقبله، وقد ربطه، وهما متكيان، ثم وضع السكين على حلقه فلم يعمل، فقال: كبني على وجهي فإنك إذا نظرت إلى وجهي رحمتني، وأدركت رقة تحول بينك وبين أمر الله، ففعل، ثم وضع

(١) إلى هنا انتهى كلام الرازي. انظر تفسير الرازي ١٥٨/٢٦. وقد أصلحنا اللفظ منه.
(٢) في نسخة ب (كلما أعددته للمذبح)

السكين على قفاه فانقلبت السكين، ونودي يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، قد فعلت ما أمرت به، فإذا جبريل عليه السلام معه كبش أقرن أملح، فذبحه فداء لولده.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: إبراهيم ﴿فِي الْآخِرِينَ (١٠٨)﴾ من الأمم ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩)﴾ أي: هذه الكلمة المحكية عنهم، فهم يسلمون عليه إلى آخر الدهر ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠)﴾ ثم قال ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١)﴾ الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُ﴾ عائد إلى إبراهيم، ثم قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ أي: بوجود إسحاق.

وقوله ﴿نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢)﴾ صفة أخرى على سبيل المدح، وإلا فكل نبئ لابد أن يكون من الصالحين، وفي هذه الآية دلالة على أن الذبيح هو إسماعيل، وذلك لأن قوله: ﴿نَبِيًّا﴾ حال، ولا يجوز أن يكون المعنى: وبشرناه بإسحاق حال كون إسحاق نبيئا ؛ لأن البشارة به متقدمة على صيرورته نبيئا، فوجب أن يكون المعنى: وبشرناه بإسحاق حال ما قدرناه نبيئا، وحال ما حكمنا عليه بكونه نبيئا، وإذا كان الأمر كذلك فحينئذ كانت البشارة بشارة بوجود إسحاق لا بنبوته، وإذا كان الأمر كذلك كانت البشارة بوجود إسحاق حاصلة بعد قصة الذبح، فوجب أن يكون الذبيح غير إسحاق[١].

ثم قال تعالى ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾ أفضنا عليهم بركات الدين والدنيا

(١) هذا اللفظ بعينه موجود في تفسير الرازي، باختلاف في قوله: (وحال ماحكمنا عليه بكونه نبيئا) في الرازي، وحال ماحكمنا عليه فصبر. وزاد فيه: أقصى ما في الباب أن يقال: لايبعد أن يقال: هذه الآية وإن كانت متأخرة في التلاوة عن قصة الذبيح، إلا أنها كانت متقدمة عليها في الوقوع والوجود، إلا أنا نقول: الأصل رعاية الترتيب وعدم التبرر في النظم. والله أعلم بالصواب. تفسير الرازي ١٥٨/٢٦.

ثم قال ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ أي صالح مطيع ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ ظَلَمَها حظَّها من خير الإيمان، ومَنَعَها شرف الطاعة، ومعنى ﴿مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ بين الظلم.

[القصة الثالثة قصة نبي الله موسى عليه السلام]

ثم أخبر سبحانه بالقصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة فقال ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ﴾ أي: تفضلنا عليه من المن الذي هو الإنعام، ﴿و﴾ على ﴿وَهَٰرُونَ﴾ بالنبوة والنصرة ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾ بني إسرائيل ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾ هو الغرق، أو سلطان فرعون وقومه وظلمهم وغشمهم.

واعلم أن وجوه الإنعام وإن كانت كثيرة إلا أنها مخصوصة في نوعين إيصال المنافع إليه، ودفع المضار عنه، والله تعالى ذكر القسمين ههنا فقوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ إشارة إلى إيصال المنافع إليهما، وقوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾ إشارة إلى دفع المضار عنهما.

أما القسم الأول: وهو إيصال المنافع، فلا شك أن المنافع على قسمين: منافع الدنيا، ومنافع الدين، أما منافع الدنيا فالوجود، والحياة، والعقل، والزينة، والصحة، وتحصيل صفات الكمال في ذات كل واحد منهما، وأما منافع الدين فالعلم، والطاعة، وأعلى هذه الدرجات النبوة الرفيعة، المقرونة بالمعجزات القاهرة الباهرة.

ولما ذكر الله تعالى هذه التفاصيل في سائر السور لا جرم اكتفى ههنا بهذا الرمز.

وأما القسم الثاني: وهو دفع الضرر فهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾.

واعلم أنه تعالى لما أخبر أنه مَنَّ على موسى وهرون فَصَّلَ أقسام تلك المنة.

فأولها: قوله: ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ أي: هما وقومهما ﴿فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾ لفرعون وقومه في كل الأحوال بظهور الحجة، وفي آخر الأمر بالدولة والرفعة.

وثانيهما: قوله ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾ وهو كتاب التوراة، المشتمل على جميع العلوم التي يحتاج إليها في مصالح الدين والدنيا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾(١).

وثالثها: قوله ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ أي: الثابت المعتدل، يريد الصراط المذكور في الفاتحة، أي: طريق الحق الواضحة، والصراط والطريق واحد، ومعنى ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا﴾ أي: دللناهما على طريق الحق عقلا وسمعا، وأمددناهما بالتوفيق والعصمة، وتشبيه الدلائل الحقة بالصراط المستقيم واضح.

ورابعها: قوله ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ أي: تركنا هذه الكلمة عليهم يسلمون عليهما، ويدعون لهما، والمراد تركنا عليهما في الآخرين، وهم أمة محمد الثناء الحسن، والذكر الجميل.

ولما ذكر تعالى هذه الأقسام الأربعة من أبواب التعظيم والتفضيل قال ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾ وقد مر تفسيره.

ثم قال تعالى ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ والمقصود التنبيه على أن الفضيلة الحاصلة بسبب الإيمان أشرف وأعلى من كل الفضائل، ولولا ذلك لما حسن ختم فضائل موسى وهارون بكونهما من المؤمنين.

---

(١) المائدة: ٤٤.

[القصة الرابعة قصة النبي إلياس عليه السلام]

ثم أخبر الله سبحانه بالقصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة فقال: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ قيل: هو إدريس، قاله ابن مسعود وقتادة، وقيل: هو نبي من بني إسرائيل، هو إلياس بن ياسين، من ولد هارون أخي موسى ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أهل بعلبك[1] من بلاد الشام، وبه سميت مدينتهم، والتقدير اذكر يا محمد لقومك حين قال لهم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ الله بترك الشرك والمعاصي.

واعلم أنه لما خوفهم أولا على سبيل الإجمال ذكر ما هو السبب لذلك الخوف فقال ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ ﴿بَعْلًا﴾ اسم صنم لهم قيل: كان من ذهب طوله عشرون ذراعا، وله أربعة أوجه، فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن، وقيل: اسم ملكهم، والاستفهام للإنكار، وقيل: البعل: الرب في لغة اليمن، عن عكرمة، ومجاهد، وقتادة، والسدي، قال الفراء: هو لغة هذيل، يقولون: من بعل هذه الدار؟ أي: من ربها؟.

قال الضحاك: كان ابن عباس قد أعياه هذا الحرف، فبينا هو جالس إذ مر أعرابي قد ضلت ناقته، وهو يقول: من وجد ناقة أنا بعلها، فتبعه الصبيان، يصيحون به: يا زوج الناقة، يا زوج الناقة . فدعاه ابن عباس فقال: ويحك ما أردت ببعلها ؟ فقال: أنا ربها . فقال ابن عباس: صدق الله ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾[2].

قال الهادي عليه السلام: فكان إلياس عليه السلام نبيا مرسلا عاتب قومه وزجرهم

(١) أي: الصنم الذي اسمه بعلبك، ولذا قال بعده: وبه سميت مدينتهم.

(٢) لفظ القصة في النسخة أ، غير واضح، واللفظ هنا من النسخة ب.
والقصة في البرهان، ولفظ البرهان (وذكر عن ابن عباس أن ضالة أنشدت فجاء صاحبها فقال: أنا بعلها أنا صاحبها، فقال ابن عباس: هذا قول الله عز وجل: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾.

عن عبادة هذا الصنم الذي يعبدون من دون الله، الذي اسمه بعل، فقال صلى الله عليه: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أي: صنمكم هذا، فمعنى ﴿تَدْعُونَ﴾ هو تعبدون وتطيعون، هذا المعبود من دون الله الذي لا ينفع ولا يضر، تدعونه إلها لكم ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ أي: أحسن الفاعلين، والصانعين، الذي هو رب العالمين، الله إله الأولين والآخرين][1] والعرب تسمي كل من فعل شيئا خالقه، تقول: خلق فلان ثوبا، أي: خيطه، وخلق فلان جدارا أي: بناه، وفي ذلك ما يقول الشاعر:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ... ـض الناس يخلق ثم لا يفري

قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أي: خلقاً، ولكنه اختصر ولم يتم الكلام لعلم المخاطب أن الله عز وجل لا يوصف بالحسن ؛ لأن الحسن عرض من صفات الأجسام . والخالقون: هم الصانعون قال الشاعر:

حروب أذهبت منا الجميع ... وفَرَّقَت صدرَ الأديم خوالقُه

أي: صوانعه[2].

واعلم أنه لما عابهم على عبادة غير الله، صرح بالتوحيد ونفي الشركاء فقال ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ فلا تجوز العبادة إلا له، وقرئ بنصب اسم الله، ورب، على البدل من ﴿أَحْسَنُ﴾ وكان حمزة إذا نصب وصل وإذا وقف رفع ؛ لأنه مع الوقف ابتداء كلام.

---

(١) وفي مجموع تفسير أئمة أهل البيت عليهم السلام زيادة بعد قوله: (والآخرين): ومعنى قوله: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ فهو: أحسن الفاعلين والصانعين. انظر المجموع ص ٤٣٥.

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام أوائل هذه السورة. والمخطوط ص ٢١٦. ولفظ البيت فيه:

حروب دهت منا الجميع ... وفرقت صدر الأديم خوالقه

ولما حكى الله عنه أنه قرر مع قومه التوحيد قال تعالى ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٢٧﴾ أي: في عذاب الآخرة.

ثم قال ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝١٢٨﴾ الذين أخلصهم لدينه بما منحهم من التوفيق؛ لأن قومه ما كذبوه بكلِّيَتِهم، بل كان فيهم من قَبِلَ ذلك التوحيد

ثم قال تعالى ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝١٢٩﴾ من الأمم ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ۝١٣٠﴾ هو أبو إلياس أضيف إليه إل؛ لأنه إلياس بن ياسين، وآل ياسين: هم أهله، أي: تركنا عليه هذه الكلمة.

وفي تفسير الرازي[١]: آل ياسين: آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

قلت: ومثله في البرهان[٢].

ورواه أيضا الإمام المرشد بالله عليه السلام في أماليه، قال فيه: أخبرنا أبو محمد محمد بن علي المكفوف بقراءتي عليه، قال: أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان، قال: حدثنا موسى بن هارون، قال: حدثنا عباد الحضرمي، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ قال: على آل محمد[٣]. اهـ

وروى مثل هذا أيضا الإمام أحمد بن سليمان عليه السلام في كتاب الحكمة الدرية بإسناده إلى القاسم بن إبراهيم عليه السلام.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ١٦٢، ولفظه: الثاني: آل ياسين آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولفظ البرهان وجاء في التفسير عن الكلبي (على آل ياسين على آل محمد صلى الله عليه وآله).

(٢) ولفظ البرهان: وجاء في التفسير عن الكلبي ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ على آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

(٣) أمالي المرشد بالله عليه السلام. وانظر أيضا تخريج الحديث وشواهده، في شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني ٢/ ١٠٩، ١١٢.

وأما الحسين بن القاسم عليه السلام فقال في تفسيره، وقد زعم بعض المفسرين أن آل ياسين هم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وزعموا أن ياسين هو محمد صلى الله عليه وآله وأحسب والله أعلم أن المعنى غير ما توهموه في ذلك؛ لأن الخبر متصل غير منفصل عن إلياس عليه السلام، وإنما هو هجاء الاسم لا يخفى ذلك على أحد [يفهم] ألا تسمع إلى قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾[1].

ويحتمل هذا الكلام وجها آخر: أن يكون ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ وهم محمد وأهل بيته ؛ لأن إلياس عليه السلام بمنزلة الوالد لمحمد وآله عليهم السلام، وإلياس هو من نسل إبراهيم عليه السلام، ونحن من نسل إبراهيم [عليه السلام] . اهـ

ثم قال تعالى ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ علل مجازاة إلياس بتبقية ذكره، والسلام عليه إلى آخر الدهر بأنه كان محسنا، وكونه محسنا بكونه مؤمنا، ليظهر جلالة الإيمان، وأنه أبلغ صفات المدح والتعظيم ترغيبا في تحصيله، وفائدة التكرار في هذه القصص تحقيق المعاني في النفوس بكثرة الترديد.

[القصة الخامسة قصة النبي لوط عليه السلام]

ثم أخبر تعالى بقصة قوم لوط، وهي القصة الخامسة فقال ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ﴾ أي: حين نجيناه ﴿وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ مما فعل بقومه من الإئتفاك والرجم بالحجارة ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ هي امرأته التي كانت موالية لأهل سدوم، ومعنى ﴿فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: الهالكين من قوم لوط ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ الذين لم يؤمنوا من قوم لوط، وإنما ذكر الله تعالى هذه القصة ليعتبر بها مشركوا العرب، وأن الذين كفروا من قومه هلكوا، والذين آمنوا نجوا، وقد نبههم الله تعالى بقوله تعالى ﴿وَإِنَّكُمْ

---

(١) لفظ المصابيح (إنه كان من عبادنا المؤمنين) وليس في الآية لفظ كان.

﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِ﴾ أي: تمرون على منازلهم وآثارهم في متاجركم إلى الشام ليلا ونهارا.

ثم قال ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٣٨﴾ أفليس لكم عقول تعتبرون بها.

[القصة السادسة قصة النبي يونس عليه السلام]

ثم أخبر تعالى بقصة يونس عليه السلام فقال: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٣٩﴾ هو يونس بن متى، وقرئ بضم النون وكسرها ﴿إِذۡ أَبَقَ﴾ أي: حين هرب من قومه بغير إذن ربه وسمي هربه بغير إذن ربه إباقا مجازا ؛ لأنه أشبه إباق العبد من سيده[1] ﴿إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ۝١٤٠﴾ هو المملوء المثقل، أي: السفينة إذا جهزت وملئت، قال الشاعر:

شحنا أرضهم بالخيل حتى تركناهم أذل من الصراط

أي: ملأنا أرضهم بالخيل.

ثم قال تعالى ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ۝١٤١﴾ قال المرتضى عليه السلام: ومعنى ﴿ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾ فهم المغلوبون الذين لم تقم له دولة، ولم تثبت لهم حجة، والعرب تسمى كل مهلك وتارك للرشد مدحضا، ودَحِض، يقال: دحض فلان في الخطيئة، أي: وقع فيها، وتقول: دحض فلان في البلاء أي: توسط ونزل به . اهـ

وحقيقة المدحض: هو المُزْلَقُ عن مقام الظفر، ومعنى ﴿فَسَاهَمَ﴾ فهو قارع.

﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ۝١٤٢﴾ يقال: التقمه، والتهمه، وابتلعه،

(١) أي: أن تسمية هربة بالإباق على طريق الاستعارة، تصويرا لقبحه ؛ لأن الإباق يستعمل في المملوك إذا هرب من سيده، ويجوز أن يكون على طريقة استعمال المرسن في الأنف للإنسان.

والكل بمعنى واحد، ومعنى ﴿مُلِيمٌ﴾ أي: داخل في الملامة.

وفي البرهان: مليم: اكتسب اللوم، والملوم: الذي ليم باللسان، وهو مثل قول العرب: أصبحت محمقا ومعطشا، أي: عندك الحمق والعطش.

قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿مُلِيمٌ﴾ أي: مذنب، قال الشاعر:

ولكن المسيء هو المليم

أي: المذنب، وإنما عصى على سبيل الحسبان، وحسب أن الله لا يسخط عليه في ترك قومه وهربه عنهم، ولم يكن يجوز له الترك لهم إلا بأمر الله، كما أمره بدعوتهم، ولا يخرجه من الدعوة إلا الأمر بالهجرة، ففعل صلى الله عليه وسهى، ولم يميز الأمر، ولم يرد بذلك المقاطعة لمولاه، ولكنه اتبع في الهجرة هواه . اهـ

ثم قال تعالى ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ الذاكرين الله بالتسبيح والتقديس[1] ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ﴾ حيا ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ وقيل: لكان بطن الحوت قبره إلى يوم القيامة، وقيل: التسبيح هو قوله في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقيل: من المصلين، ابن عباس: كل تسبيح في القرآن فهو صلاة.

قيل: لبث في بطنه أربعين يوما، وقيل: عشرين يوما.

ومعنى ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾ أي: رمى به الحوت بأمرنا ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ وهو المكان العاري عن الشجر، وكلما يغطي ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ قد اعتل مما وقع

(١) وتخصيص يونس بكثرة التسبيح من دون سائر الصفات، فيه حث على إكثار المؤمن من ذكر الله، والإكثار من جعله من جملة المسبحين، على نحو قولهم: فلان من العلماء، فإن المراد وصفه بالعراقة في العلم. (علوي).

فيه، روي (أن بدنه عاد كبدن الصبي حين يولد).

ثم قال تعالى ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦﴾ هو كلما ينبسط على الأرض ولا يقوم على ساق، وقيل: هو الدبا ؛ لأن الذئاب لا تجتمع عنده، وهو شجرة لينة باردة، ويمكن أن يكون الله أظلَّه بها، أو فرشه إياها لضعف جسمه، وعري عظامه صلوات الله عليه، وقيل: كانت وعلة تختلف إليه فيشرب من لبنها، والشجرة تظلله.

ثم قال تعالى ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ﴾ المراد ما سبق من إرساله إلى قومه وهم أهل نينوى، وقيل: هو إرسال ثان بعد ما جرى إلى الأولين[1]، أو إلى غيرهم.

وقوله ﴿أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧﴾، معناه: ويزيدون[2]، وليس الله يشك في ذلك تعالى عما يتوهم الجاهلون، ولكن (أو) قامت مقام الواو ؛ لأنهما جميعا من حروف العطف والنسق، قال الشاعر:

بني عامر فهم الأكرمون   والأكثرون حصى أو نفيرا

يريد حصى ونفيرا، فقال: أو، للعلة التي ذكرنا، وقال آخر:

فلو كان البكاء يرد شيئا   بكيت على عمير أو عقاق

---

(١) على الأول قوله: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ﴾ عطف على قوله: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩﴾ على سبيل البيان ؛ لأنه دل على ابتداء الحال، وعلى اتيانها، وعلى المقصود من الإرسال، وهو الإيمان، واعترض بينهما بقصة من قصصه، اعتنى بشأنها لاحتوائها على أمر عجيب. وأما الوجه الثاني: فهو ظاهر، بأن هذا الإرسال وقع بعد نجاة يونس. (علوي).

(٢) وقد قرأ جعفر بن محمد عليهما السلام ﴿يَزِيدُونَ﴾ بالواو، قال السيد العلوي: وفيه إعراب حسن، وذلك أن قوله: ﴿يَزِيدُونَ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: هم يزيدون، والواو لعطف الجملة على الجملة، كقولك: مررت برجل مثل الأسد، وهو والله أشجع، ويفسد أن يقال: ﴿يَزِيدُونَ﴾ عطف على ﴿مِاْئَةِ﴾ لأن إلى لا تعمل في ﴿يَزِيدُونَ﴾ فلا يجوز أن يعطف يزيدون على معموله. (علوي)

يريد على عمير وعقاق. ثم بين ما قلنا بقوله:

على القرمين إذ هلكا جميعا   لشأنهما بحزن واحتراق

وقيل: معنى ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ في مرأى الناظر.

ثم قال تعالى ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨)﴾ أي: نفعناهم بمنافع الحياة بسبب الإيمان، ومعنى ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ هو أَجَلُ موتهم، وقوله: ﴿فَآمَنُوا﴾ ظاهر الفاء بعد الإرسال الثاني وبسببه.

[قصة نبي الله يونس عليه السلام برواية الإمام الهادي عليه السلام]

ويدل عليه أيضا ما ذكره الهادي عليه السلام في تفسيره لقصة يونس عليه السلام حيث قال: فلما صار يونس عليه السلام في السفينة، وركب أهلها، واستقلت بهم وطابت الريح لهم، أرسل الله حوتا فحبس السفينة، فلم تجر فعلم القوم عند احتباسها أنها لم تحبس بهم إلا بأمر من الله قد نزل بهم، فتشاور القوم بينهم وتراجعوا القول في أمرهم، وما قد نزل بهم، وأشفقوا، فقال لهم يونس: يا قوم أنا صاحب المعصية، وبسببي حبست بكم السفينة، فإن أمكنكم أن تخرجوني إلى الساحل فافعلوا، وإن لم يمكنكم ذلك فألقوني في البحر وامضوا، فقال بعضهم لبعض، هذا صاحبنا وقد لزمنا من صحبته ما يلزم الصاحب لصاحبه، وليس يحسن بنا أن نلقيه في البحر فيتلف فيه على أيدينا ونسلم نحن، ولن هلموا نستهم، فمن وقع عليه السهم ألقيناه في البحر، فتساهم القوم، فوقع السهم على يونس، ثم أعادوا ثانية فوقع السهم عليه، ثم أعادوه ثالثة فوقع السهم عليه، فرمى بنفسه [في] البحر، فالتقمه الحوت ومضى في البحر، فكان يونس عليه السلام ينظر إلى عجائب البحر من بطن الحوت، وجرت سفينة القوم بهم، ولبث يونس عليه السلام في بطن الحوت ما شاء الله من ذلك فاشتمط شعره وجلده، حتى بقي لحمه ومنع الله منه الموت، فلما علم الله توبته، وقد نادى بالتوبة ﴿أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فاستجاب له، وقبل توبته، ورحم

فاقته، وأرسل ملكا من الملائكة فساق ذلك الحوت إلى جزيرة من جزائر البحر، فألقى يونس من بطنه، وقد ذهب شعره وجلده، وذهبت قوته، فرد الله عليه جسمه على ما كان عليه أولا من تمام صورته وحسن تقويه، وأنبت الله له شجرة اليقطين وهي الدباء، فكان يأكلها، فلما اشتدت قوته، واطمأن من خوفه وإشفاقه أرسله إلى قومه، وكانوا في ثلاث قرى، فمضى إلى أول قرية فدعاهم إلى الله وإلى دينه، فأجابه نصفهم أو أكثر من النصف، وعصاه الباقون، فسار بمن أطاعه إلى العصاة لأمره فحملهم عليهم، وقاتلهم فقتلهم وأبادهم، ثم سار إلى القرية الثانية فدعا أهلها واعذر إليهم وأنذرهم، فأجابه منهم طائفة فحمل المطيع على العاصي، فقتلهم وأبادهم، ثم سار إلى القرية الثالثة وكانت أعظم القرى وأشدها بأسا ومنعة، فدعاهم إلى الله، وأعذر إليهم وأنذرهم، وحذرهم ماحل بإخوانهم، فلم يجبه منهم أحد، واستعصموا على كفرهم، فسار إليهم وخرجوا إليه، فحاربهم فلم يقدر عليهم، فلما كان بعد وقت، وعلم الله منه الصبر على ما أمره به من طاعته، والإعذار إلى خلقه. أمر الله جبريل عليه السلام، فطرح بينهم نارا، ثم أرسل الله الرياح فأذرت النار عليهم، وعلى منازلهم ورحالهم فأحرقتهم جميعا ودمرتهم. اهـ

واعلم أنه تعالى لما ذكر أقاصيص الأنبياء عليهم السلام عاد إلى شرح مذاهب المشركين وبيان قبحها وسخافتها فقال ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ أي: فاستخبر يامحمد قريشا، وهومعطوف على ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أول السورة، أمر الله رسوله باستخبار قريش على وجه إنكار البعث أوّلاً، ثم ساق المواعظ بقصص الأنبياء وما جرى على مكذبيهم، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى(١)، حيث جعلوا لله الإناث ولهم

(١) قال السيد العلوي رحمه الله: قوله: أمر الله رسوله باستفتاء قريش .. إلى قوله: ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى). أراد: أن الله تعالى أمر رسوله أن يستفتي قريشا في هذه السورة مرتين، مرة عن وجه إنكارهم البعث، بقوله ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ﴾ =

الذكور، في قولهم: الملائكة بنات الله، مع شدة كراهتهم لهن، ووأدهن لهن، واستنكافهم من ذكرهن، فقال عز وجل: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾[١] ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ فعلموا ذلك عن مشاهدة، فقالوا: هم بنات الله وهذا استهزاء بهم[٢]، وتجهيل لهم ؛ لأنهم ماشاهدوا تخليق الملائكة.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ أي: من أجل كذبهم ﴿لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ في أقوالهم هذه.

ثم قال ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ أصطفى بفتح الهمزة استفهام فيه توبيخ لهم، وإنكار لحكمهم في اختيار الله البنات على البنين، وقوله سبحانه ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ إنكار لحكمهم هذا الجائر، ثم

= الآية، ثم ساق الكلام في أمر الحشر والنشر، ومآل الخلائق من المصدقين به، والمكذبين، ثم ذكر أن إنكارهم ما نشأ إلا من التقليد، بقوله: ﴿إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم ..﴾ الآية فلا فائدة في الحرص على إيمانهم، تسلية للرسول، وقرر ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ وذكر أن دأب قومه معه كدأب سائر الأمم السالفة مع أنبيائهم، وبين وخامة عاقبة المكذبين، وحسن عاقبة المرسلين ومصدقيهم مفصلا، فبدأ بنوح، وختم بيونس، ثم شرع في نوع أخر من الإستفتاء، وهو الكلام في الإلهيات، وختم السورة بما يتصل بها. فإن قلت: قد علم وجه اتصال الاستفتاء الأول بفاتحة السورة، وأنه من جهة الخالقية، وأن المخلوقات السابقة أشد خلقا من خلق المنكرين للبعث، فما وجه اتصال هذا الاستفتاء بها ؟ قلت: من جهة كونه تعالى: رب السموات والأرض وما بينهما، وأنه مناف للمجانسة، كما تقرر في قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية. (علوي).

(١) الصافات: ١٤٩.

(٢) قوله: (وهذا استهزاء بهم) أراد أنه نفى المشاهدة للاستهزاء بهم لا ستحالة مشاهدة خلق الله للملائكة، لأن الملائكة غير مشاهدين حتى يشاهد خلقهم، وقد نبه بذلك على انتفاء سائر طرق العلم ؛ لأنها لو لم تكن منتفية لما تأتى الإنكار، الذي استفيد من قوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ ولا الاستهزاء المستخرج من قوله ﴿وَهُمْ شَـٰهِدُونَ﴾ وكأنه قيل: ما حصل لكم العلم الضروري بذلك، ولا أخبركم به صادق، ولا دليل عليه، فبقي أنكم شاهدتموه، فأخبروا هل شاهدتم ذلك. (علوي)

قال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٥٥﴾ في قبح فعلكم، أي: أتجهلون فلا تتفكرون ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ۝١٥٦﴾ أي: هل لكم حجة بينة قاطعة نزلت من السماء بأن الملائكة بنات الله ﴿فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ﴾ المنزل عليكم في ذلك ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝١٥٧﴾فيما تقولون.

واعلم أنه تعالى لما طالبهم على صحة مذهبهم دل ذلك على أن التقليد باطل، وأن الدين لايصح إلا بالدليل، ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ﴾ أي: شبها ؛ لأنهم يتعوذون بالجن كما يتعوذون بالله، فنسبوا إلى الجن صفة خالقهم.

وقال مقاتل: أراد بالجن الملائكة، ومعنى ﴿نَسَبٗا﴾ أنهم بناته، أي: جعلوا بين الله وبين الملائكة نُسْبَةً، وأثبتوا جنسية جامعة له وللملائكة.

قال الرازي: وهذا القول عندي مشكل ؛ لأنه تعالى أبطل قولهم: الملائكة بنات الله، ثم عطف عليه قوله:﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ﴾ والعطف يقتضي كون المعطوف مغائرا للمعطوف عليه، فوجب أن يكون المراد من هذه الآية غير ماتقدم.

قال: وروينا في تفسير قوله تعالى:﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ﴾[1] أن قوما من الزنادقة يقولون: الله تعالى وإبليس أخوان، فالله هو الأخ الخيِّر الكريم، وابليس هو الأخ الشرِّير الخسيس، فقوله:﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ﴾ المراد منه هذا المذهب، قال: وعندي أن هذا القول أقرب الأقاويل، وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان وإهْرَمَن[2] . اهـ

---

(١) الأنعام: ١٠٠.

(٢) انظر الرازي: ١٦٨/٢٦.

يزدان وإهرمن: هما إلها الخير والشر، أو النور والظلمة، وهذا المذهب هو المعروف بمذهب المانوية نسبة إلى ماني، أول من قال به، وهو من المذاهب الباطلة الإلحادية. والذي ذم رسول الله ﷺ من قال: بأن الأفعال من الله، وفيها الخير والشر، والعمل الصالح، والعمل السيء، فقال فيهم (القدرية مجوس هذه الأمة).

والجنُّ سموا جنا لاجتنانهم، أي: استتارهم ؛ لأنه مأخوذ من الإجتنان والإستتار فسموا بذلك لمَّا كانوا يستترون عن أعين الناس.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ أي: القائلين لهذه المقالة محضرون للعذاب لأجل هذا القول، والمعنى: يقولون مايقولون في الملائكة وقد علم الملائكة أنهم مفترون، محضرون النار [معذبون] بما يقولون(١).

وقيل: المراد علمت الجنة أنهم سيحضرون في العذاب، فعلى القول الأول الضمير عائد إلى قائل هذا القول، وعلى القول الثاني عائد إلى الجِنّة أنفسهم.

ثم إنه تعالى نزه نفسه عما قالوا من الكذب فقال ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾من اتخاذ الولد ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ أي: الذين أخلصهم الله لدينه بتوفيقه، وهو استثناء منقطع من المحضرين، وما بينهما اعتراض لتأكيد التنزيه، أي: لكنَّ عباد الله المخلصين ناجون.

ويجوز أن يكون الاستثناء من ضمير الواو في يصفون، أي: يصفه هؤلاء ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ فهم براء من أن يصفوه بذلك(٢).

---

(١) وفي هذا مبالغة في التكذيب، وذلك أن الله حكى عن المشركين أنهم جعلوا بينه وبين الجنة نسبا، كان القياس أن يقال: كذبوا، فلما اريد المبالغة في التكذيب، أضيف التكذيب معنى إلى علم الجنة، وجئ بلام القسم وحرف التحقيق متعقبين بالجملة الإسمية مقترنة بإن واللام بعد فعل العلم، وقال الطيبي. طاب ذكره. يعني كذبهم الله تعالى بقوله: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًاۚ﴾ حيث سماهم بالجنة، ولما أريد التتميم ومزيد المبالغة قيل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ حيث أوقعت الجملة القسمية حالا، وأعيد لفظ الجنة للتوضيع والتكذيب، وجعلهم عالمين بأن م عظميهم معذبون بتلك المقالة، كما تقول: إن الذي مدحته وعظمته هو الذي يعلم أنك كاذب، وهو يعلم مؤاخذتك به. (علوي). وما بين القوسين من الكشاف.

(٢) وهذا الوجه مذكور في التبيان للطوسي [٣٨٥هـ ٤٦٠هـ] ٨/ ٥٣٤. والاستثناء على هذا أيضا منقطع. واللفظ في أ: أي يصفه هؤلاء لكن المخلصين براء من أن يصفوه بذلك.

واعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل على فساد مذاهب الكفار وبطلانها أتبعه بما نبه به على أن هؤلاء الكفار لا يقدرون على حمل أحد على الضلال إلا من اختار الضلال بنفسه فقال ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ يا قريش ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ من الأصنام ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على الله ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ أي: بمفسدين عليه بإغوائكم . من (فتن فلان على فلان امرأته): أفسدها عليه، أو ما أنتم عليه بمضلين، والفتنة: هي الضلالة قال الشاعر: يا عمرو إنك بالضلالة فاتني

أي: مضلي.

وأما قوله تعالى ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ فقيل: معناه الذي سبق في علمه لسوء اختيارهم أنهم يعذبون في النار[1] كالشاة المصلية في حفرة، والنار فوقها وتحتها، وما كان فوقها فقط فهو شواء، وظاهر هذا كما يقول أبو علي الجبائي: إن الله لا يجوز منه أن يمكن الشيطان من إضلال أحد إلا من كان ضالا بنفسه لو لم يكن الشيطان، وأما أبو هاشم وجمهور الشيوخ فجوزوا أن يضل الشيطان من كان يهتدي لولا الشيطان، وقالوا هذا يجري مجرى الزيادة في التكليف، كتقوية الشهوة.

وللآية على قول أبي هاشم تأويلان أحدهما: أن يريد ما أنتم

---

(١) واحتجت الجبرية بالحديث المشهور في البخاري وغيرهم، وهو أنه حج آدم موسى، قال القاضي: هذا الحديث لم يقبله علماء التوحيد ؛ لأنه يوجب أن لايلام أحد على شئ من الذنوب ؛ لأنه إن كان آدم لا يجوز لموسى أن يلومه على عمل كتبه الله عليه قبل أن يخلقه، فكذلك كل مذنب، فإن صحت هذه الحجة لآدم عليه السلام فلم قال موسى عليه السلام في الوكزة: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ ولماذا قال: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ ولمذا لام فرعون وجنوده على أمر كتبه الله عليهم ؟ ومن عجيب أمرهم أنهم يكفرون القدرية . المجبرة يسمون من ينفي القدر قدريا والعكس هو الصحيح . وهذا الحديث يوجب أن آدم كان قدريا فلزمهم أن يكفروه، وكيف يجوز مع قول آدم وحواء عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أن يحتج على موسى بأنه لالوم عليه، وقد كتب عليه ذلك قبل أن يخلقه. اهـ [فليت شعري ماهو مدى ادعاء صحة هذه الصحاح نعوذ بالله من الخذلان]. تمت من تفسير الرازي ٢٦/ ١٧٠.

بمكرهين أحدا على الضلال، إلا من اختار صلي النار بعد البيان البالغ بأدلة العقل والسمع، وبعثة الرسل، فكأن هذا الذي أضلوه مختار لدخول النار ؛ لأنه قد علم أنه ضال، ونظيره ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾[١].

وثانيهما: أن المراد ما أنتم بمضلين على الله أحدا، أي: صادين له بذلك، لكن من ضرر ضلاله على نفسه ولا يضر الله تعالى.

ثم حكى عز وجل عن الملائكة عليهم السلام قولهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ أي: وما منا أحد إلا له مقام، وصفوا أنفسهم بالمبالغة في العبودية، وأنهم مصطفون للصلاة والتسبيح، والغرض منه التنبيه على فساد قول من يقول: إنهم أولاد الله، وذلك لأن مبالغتهم في العبودية تدل على اعترافهم بالعبودية، والمعنى: أن لكل واحد منهم، أو لكل جماعة مقاما معلوما في العبادة، والانتهاء إلى أمر الله مقصوراً[٢] عليه لا يتجاوزه، كما روي (أن منهم راكعا لا يقيم صلبه، وساجدا لا يرفع رأسه، وقائما لا يركع).

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ أقدامنا في الصلاة، وأجنحتنا في الهواء، منتظرين ما نؤمر به ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ المنزهون لله، أو المصلون.

واعلم أن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ يفيد الحصر، ومعناه: أنهم هم الصافون في مواقف العبودية لا غيرهم، وأنهم هم المسبحون لا غيرهم، وذلك يدل على أن طاعات البشر ومعارفهم بالنسبة إلى طاعات الملائكة وإلى معارفهم كالعدم، حتى يصح هذا الحصر، وبالجملة فهذه الألفاظ الثلاثة تدل على أسرار عجيبة من صفات

(١) إبراهيم: ٢٢.

(٢) مقصورا. على النصب صفة لمقام. في قوله: مقاما معلوما.

الملائكة عليهم السلام، فكيف يجوز مع هذا الحصر أن يقال: البشر تقرب درجته من الملك فضلا عن أن يقال: هل هو أفضل منه أم لا؟[١].

ثم ذكر أعمالهم وأنهم الذين يصطفون في الصلاة، ويسبحون الله، وينزهونه مما يضيف إليه من لا يعرفه.

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: هذا قول أمر به ساداتنا الملائكة عليهم السلام المقربين، والمقام: هو الموضع الذي يقومون فيه بطاعة خالقهم، قال الشاعر:

أقسمت لا أزول عن مقامي

أي: عن موضعي، والمقامات أيضا: هي المجالس في لغة العرب، قال الشاعر:

وتـرب قـبـورهـم أطـيـب وكـالـمـسـك تـرب مـقـامـاتـهـم

وفي هذه الآية يقول الهادي إلى الحق عليه السلام ما لفظه: هذا قول من الملائكة صلوات الله عليهم، تخبر الآدميين أنهم وما يعبدون، ما هم عليه بفاتنين لمن يفتنون، فأخبرت [أنهم لا يفتنون في دينهم، أي: لا يدخلون معهم، فأخبرت] عليهم السلام أنه لا يطيعهم على شركهم ولا يدخل معهم في عبادة غير الله ربهم إلا من هو شريك في الضلال والعذاب معهم، ثم أخبرت أنها صلوات الله عليها وجميع الخلق لهم كلهم مقام معلوم، أي: موقف ومحشر مفهوم، يحشر فيه الخلق من ملك، أو جني، أو إنسي.

ثم أخبرت عليهم السلام أنهم الصافون، وهم المسبحون، ومعنى الصافون: فهم الوقوف صفوفا صفوفا في عبادة الله يجتهدون، وعلى طاعته بالتهليل والتكبير والتعظيم والتقديس يسبحون الليل والنهار لا يفترون[٢] . اهـ

(١) وقد اختار هذا الكلام وأن الملائكة أفضل من جميع البشر الرازي في تفسيره ٢٦/ ١٧١.

(٢) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام .خ ص ٤٣٦.

ثم عاد إلى أخبار المشركين وهم قريش فقال ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ أي: كتابا من كتبهم كالتوراة، والإنجيل ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ أي: لأخلصنا لله العبادة، ولما كذبنا كما كذبوا ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: فلما جاءهم أفضل الأذكار، وهو القرآن الذي هو سيد الأذكار، والكتاب المهيمن على كل كتاب كفروا به ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم بعقوبة كفرهم وتكذيبهم، و(إن) في قوله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ هي المخففة من الثقيلة.

واعلم أنه تعالى لما هدد الكفار بقوله ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ عاقبة كفرهم أردفه بما يقوي قلب الرسول ﷺ فقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ أي: تقدمت كلمة الميعاد لأوليائه بالنصر على الكافرين، والكلمة هي قوله ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ أي: المعانون المؤيدون ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ وسماها كلمة، وهي كلمات انتضمت في معنى واحد، فكانت في حكم الكلمة المفردة، وقرئ (كلماتنا) والمراد علوهم على عدوهم في القتال، ولو ظفر بهم في بعض الأحوال كانت العاقبة لهم، ولمن بعدهم، أو المراد نصرهم وغلبتهم في الدنيا بظهور الحجة، وقد يكون بالدولة والاستيلاء، وقد يكون بالدوام والثبات، والمؤمن وإن صار مغلوبا في بعض الأوقات بسبب ضعف أحوال الدنيا فهو الغالب، فلا يلزم على هذه الآية أن يقال: فقد قتل بعض الأنبياء، وقد هزم كثير من المؤمنين، وأما في الآخرة فبالأمرين جميعا، ظهور الحجة، وغلبت الأعداء.

وعن ابن عباس: إن لم ينصروا في الدنيا نصروا في الآخرة.

فإن لم يغنك هذا في حل ما أوردوه من الشبهة فاسمع كلاما للإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام فإنه قال: النصر يكون من قبل الله عز وجل لأوليائه على أحد وجهين، إما بأن يظهرهم على الأعداء، بتقوية قلوبهم، وتضعيف قلوب عدوهم، فيسفكوا دماءهم، ويتحكموا في أموالهم

وأولادهم بحكمهم وهذا نصر معجل، وإما بأن يخلى بينهم وبينهم في العاجل، فيصل إلى أوليائه من الضرر ما ينقطع لا محالة، أعظمه القتل، فهو ألم بعض ساعة، وفي مقابلته من الثواب ما لو خير جميع العقلاء بين تحمل تلك المشقة، ووصول ذلك الضرر ونيل ذلك الثواب، أو الظهور على العدو وفقد ذلك الثواب لاختار جميع العقلاء ذلك الثواب بلا طائل نظر، وفي الحديث (ما من أحد من أهل الآخرة يتمنى الرجوع إلى الدنيا إلا الشهيد فإنه يتمنى الرجوع إلى الدنيا ليقتل في الله مرة أخرى لعظم ما يراه من الثواب الأوفى).

وقد روي عن النبي ﷺ أنه حكي عن عبد الله بن عمرو بن حزام، وهو أبو جابر بن عبد الله، وكان من خيار عباد الله، وهو أحد قتلى أحد رضي الله عن حمزة وعنهم أن الله تعالى أحياه، وقال له: يا عبد الله بن عمرو ما تحب أن أعمل لك، فقال: (يا رب رُدَّنِي إلى الدنيا فأقاتل فيك، فأُقْتَلَ مرة أخرى) . وذلك لعظم ما شاهد من ثواب الله تعالى، وهذا هو النصر الكبير، والفتح المبين أن يصبح عدوه ذليلا، حقيرا، معذبا، مهينا بعينه وعلمه، ويصبح وليه ملكا، أميرا، عزيزا، خطيرا بعين عدوه وعلمه، فلا تأثير لتراخي الأوقات ؛ إذ الواصل في حكم الحاصل، والأمور بخواتمها، وفي الحديث (إن بني أمية يحشرون يوم القيامة في صورة الذر في موقف القيامة يطأهم الناس) فأي نصر في سرور ساعة، يتعقبها غم الأبد وذله، أو ذل في غم ساعة يتعقبه سرور الأبد وعزه، فلعن الله العادلين بالله تعالى، الجاعلين هذا شبهة في دينه، أما يخافون العقول السليمة تبكتهم، والعترة الحفظة تسكتهم، فعلى المعنيين المتقدمين يحمل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] إلى ما شاكل ذلك من آيات القرآن الكريم.

---

(١) الروم: ٤٧.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] فإذا عرف العاقل حقيقة النصر هان عليه الأمر في استظهار المبطلين على المحقين في دار الدنيا، وعلم أن المحق في الحقيقة منصور وإن كان مقهورا، ومن عرف حقيقة المعرفة هانت عليه الشدائد.

وقد روينا أن عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو بن هميص بن كعب، وكان من جُلَّةِ المهاجرين، وسادة المؤمنين، كان في جوار الوليد بن المغيرة (لعنه الله) وقت الجوار بمكة، وذلك أن كثيرا من المؤمنين لم يتمكن من الإقامة في مكة إلا بذمة وجوار، إلا من كبر فيهم مكانه، فأما ضعفة الناس ففي العذاب الشديد، فلما نظر عثمان بن مظعون ما فيه إخوانه من المشقة في الله والضرر، قال: إني لمغبون، إخواني يعذبون في الله، وأنا من ذلك بمعزل ومفازة بجوار رجل كافر، إني لفي ضلال، فأتى الوليد فقال: يا عم إني قد برئت من جوارك، فقال: يا بن أخي هل عرض لك أحد بمكروه ؟ فقال: ما كان ذاك، ولكني أحببت أن أكون من جملة أصحابي، فقال الوليد: إني أجرتك علانية، ولا أبرأ من جوارك إلا علانية، فأت بنا البيت فجاء إليه، فقال: يا معشر قريش إنكم تعلمون جواري لعثمان بن مظعون، وأنا أحب الخروج منه لغير أمر يلحقه من أحد من الناس، كذلك يا عثمان ؟ قال: نعم، فجلسوا وكان في القوم لبيد بن ربيعة العامري فاستنشدته قريش فأنشد قصيدته التي أولها:

ألا كل شئ ما خلا الله باطل

فقال له عثمان: صدقت . فقال:

وكل نعيم لا محالة زائل

فقال له عثمان: كذبت، إن نعيم أهل الجنة لا يزول، فالتفت إليهم لبيد فقال: لقد عهدتكم ولا يؤذى جليسكم، فقام رجل من القوم إلى عثمان

---

(١) الأعراف: ١٢٨. القصص: ٨٣.

فلطمه على خده وعينه لطمة هائلة، وقاموا إليه، وقالوا: إن هذا رجل مجنون في أصحاب له مجانين، فقال له الوليد: ما كان أغناك عن هذه اللطمة يا عثمان ؟ فقال: يا عم أن عيني هذه لمحتاجة إلى مثل ما أصاب الأخرى في الله سبحانه.

وذلك لأن النبي صلى الله عليه وآله كان يخبرهم وهم لا يشكون في صدق حديثه بعواقب الأمور، وعظم الثواب . اهـ

ثم قال تعالى لرسوله وقد أخبره بما تقدم ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: هاجر عنهم، أو اعرض يا محمد عن قتالهم، وأغض على أذاهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾﴾ أي: إلى مدة يسيرة يتمتعون، ثم يحل بهم ما يورث لهم الحسرة والندامة، وهي مدة الكف عن القتال، وعن السدي إلى يوم بدر، وقيل: إلى الموت، وقيل: إلى القيامة.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ أي: أبصر ما سيحل بهم من نصر الله لكم، وما يقضى عليهم من القتل والأسر في الدنيا، والعذاب في الآخرة ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ أي: فسيبصرون ذلك في أنفسهم، أو يبصرونك وما يُقضَى لك من النصرة والثواب في العاقبة، والمراد. بإبصارهم على الحال المنتظرة. الدلالةُ على أنها كائنة لا محالة[1]، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ للوعيد لا للتبعيد.

ثم قال: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ والمعنى أن الرسول صلى الله عليه وآله كان

(١) قوله: (والمراد). مبتدأ. و(الدلالة) خبر. قال السيد العلوي: أراد أنه إنما أمر نبيه بقوله: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ والمبصر منتظر بعد. للدلالة على أن وعد الله الآتي بمنزلة الكائن استحضارا لتلك الحال الآتية، كما في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الآية فإنه جاء بلو التي المضارع معها بمعنى الماضي، لمثل ذلك، وقوله: ﴿فَسَوْفَ﴾ للوعيد، كما سلف في قوله: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ فإنه قال: وأبصرهم وما يقضى عليهم من الأسر والقتل، والعذاب في الآخرة، فبان أنه وعيد، ونحوه قولك: للعدو: سأنتقم منك، وأنت متهئ للقيام، فإنه للوعيد لا للتبعيد، وأظن أنه أراد بذلك الإشارة إلى ما ذكره في مواضع من هذا الكتاب أن سف للإيجاب، وكذا السين، سواء وردا في الوعد، أو الوعيد. (علوي).

يهددهم بالعذاب، وما رأوا شيئا فكانوا يستعجلون، يقولون: متى هذا الوعد بالعذاب ؟ تكذيبا له، فأنكروا ذلك كأنهم أمنوا نزوله، ثم قال تعالى في صفة هذا العذاب الذي استعجلوه ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي: بفناهم وحول دورهم، وقرب منهم لهلاكهم ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ أي: قَبُحَ صباحهم، كانت الغارة في الصباح، فسميت الغارة صباحا، وإن وقعت في غيره، فمثل العذاب النازل بهم بعد الإنذار الذي أنكروه بجيش أناخ بفنائهم بغتة فاستأصلهم، والساحة في لغة العرب: هي الفناء القريب من المنازل، قال الشاعر:

أَلِمّا بالديار فَحَيِّيَاها ... لتقريا أهل ساحتها السلاما

ثم أعاد قوله ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ تأكيدا على تأكيد، وتسلية على تسلية، وقوله ﴿حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ تأكيد أيضا لوقوع الميعاد، وفيه فائدة زائدة على إطلاق الفعلين على التقييد بالمفعول، وأنه يبصر وهم يبصرون مالا يوصف من صنوف المسرة وأنواع المساءة.

واعلم أن أهم المهمات للعاقل معرفة أحوال ثلاثة، أولها: معرفة الله الخالق العالم، وتنزيهه وتقديسه عن كل مالا يليق به، ويدل عليه قوله تعالى ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ أي: مالك العزة، التي أعز بها أولياءه، من الدين والهدى، أضيف الرب إلى العزة ؛ لأنها له وحده، لاختصاصه بها[١] ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[٢] تعالى ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ أي: تنزيها لربك عما يصفه المشركون.

---

(١) أضيف الرب إلى العزة لا ختصاصه بها، وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة، وهي مصدر، نحو رجل صدق. فإذا تجسم الرجل من الصدق، فلا يكون شيئا غيره، فيلزم أن يكون مختصا به، وإليه أشار المصنف بقوله: لاختصاصه بها، ويجوز أن تكون الإضافة بمعنى اللام، كقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والتعريف في العزة للجنس، فإذا كان مالك جنس العزة الله، فلا يكون غيره معتزا إلا به. (علوي).

(٢) النساء: ١٣٩

والمهم الثاني من مهمات العاقل: أن يعرف أنه كيف ينبغي أن يعامل نفسه، ويعامل الخلق في هذه الحياة الدنيا.

واعلم أن أكثر الخلق ناقصون، ولا بد لهم من مكمل يكملهم،ومرشد يرشدهم، وهاد يهديهم، وما ذلك إلا الأنبياء صلوات الله عليهم[١]، ومن أمروا بالتمسك بهم من بعدهم، من أوصيائهم، وغيرهم لقوله عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾وبديهة الفطرة شاهدة بأنه يجب على الناقص الإقتداء بالكامل، فنبه على هذا المعنى بقوله ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾ أي: سلام من الله للمرسلين، فإن هذا اللفظ يدل على أنهم في الكمال فاقوا غيرهم، فلا جرم يجب على من سواهم الإقتداء بهم.

والثالث من مهمات العاقل: أن يعرف كيف يكون حاله بعد الموت.

واعلم أنه لما اشتملت هذه السورة على ما قاله المشركون من إثبات الأنداد والأولاد، وعلى ما عاناه المرسلون من جهتهم،وما خولوه في العاقبة من النصر. ختمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عما وصفه المشركون، والتسليم على المرسلين.

ثم قال سبحانه: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ على ما قيض إليه من حسن العاقبة، وهذا تعليم للمؤمنين أن يقولوا ذلك، ولا يغفلوا عن مودعات قرآنه الكريم. وعن علي عليه السلام: (من أحب أن يكال له بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين).

---

(١) واللفظ في النسخة أ، بعد قوله: صلوات الله عليهم، وأوصياؤهم، من أمرنا باتباعهم من ذريتهم الطاهرين. والذي أثبتناه هو ما في النسخة ب.

سورة (يس)

اثنتان وثمانون آية، وقيل: ثلاث وثمانون آية (مكية).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[أما] قوله: ﴿يسٓ ۝١﴾ أبو عبدالله محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام: قَيَسُ والله أعلم. تفسيرها خفي ؛ لأنها من العلم المصون المخزون[المكنون] ؛ لأن من القرآن ما نزله الله للناس كافة، كالخبر عن خلق الأرض والسماء وما بينهما، وما ذكر الله من الآيات والعبر بما خلق فيهما وفي غيرهما، وماضرب الله فيه من الأمثال، وفرض من الفرض، وحرم من الحرام، وأحل من الحلال، وغير ذلك مما فيه من التذكير والقصص والأنباء، وما لا يحصي من البركات والخير، وأخبار الأنبياء، والوعد والوعيد الموصوفة، وما ذكر الله في الصور يوم القيامة من النفخة، ومن القرآن ما نزله الله للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، و[قد] جعل عِلْمُهُ له خاصة، وهو عن غيره من المؤمنين خفي، وقد زعم بعض من زعم أن (يس) هي: يا محمد، وهذا فما لا يفهمه من أهل اللسان العربي أحد(١)

(١) مجموع تفسير الأئمة مخطوط تفسير سورة يس لمحمد بن القاسم.

وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليه السلام ما لفظه:

أخبرنا أبو جعفر، قال: حدثنا علي بن أحمد، قال: حدثنا عطاء بن السائب، عن أبي خالد، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ قال محمد بن الحنفية: ﴿يسٓ ۝١﴾ =

= يا محمد، وقال زيد بن علي عليهما السلام: ﴿يسٓ ۝١﴾ يا إنسان.
وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ﴾ والأذقان: مجامع اللحى، والواحد: ذقن، وذقن الإنسان: مجامع لحييه، والمقمح: الرافع رأسه، وكذلك المقنع. وقوله تعالى: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾ معناه: ما سنوا من السنن.
وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ معناه: علمناه وحفظناه، والإمام: الكتاب.
وقوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ معناه: انطاكية، وقوله تعالى: ﴿فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾ معناه: قوينا.
وقوله تعالى: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ معناه: تشآءمنا بكم.
وقوله تعالى: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ﴾ [معناه] حظكم من الخير والشر، وقال: طائر الرجل: عمله، وقال: كتابه.
وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ فمستقرها تحت العرش.
وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ معاد معناه: صار، والعرجون: الذكر من النخل، ويقال: عذق النخلة
وقوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ معناه: يعاوضوه، هذا على هذا.
وقوله تعالى: ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ يجرون، والفلك: القطب الذي تدور عليه السماء، وقال: الفلك: السماء.
وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ۝٤٢﴾ معناه: السفن، وقال: الإبل.
وقوله تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ﴾ [معناه] فلا مستغيث لهم.
وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾ معناه: من القبور، واحدها: جدث، و﴿يَنسِلُونَ﴾ معناه: يسرعون. وقوله تعالى: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا﴾ معناه: من أهبنا ﴿مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ﴾ معناه: من منامنا.
وقوله تعالى: ﴿مُّحۡضَرُونَ﴾ معناه عندنا: يشهدون.
وقوله تعالى: ﴿فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ معناه: افتضاض العذارى، وقال: معجبون، وقال في شغل عما يلقى أهل النار.
وقوله تعالى: ﴿فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ فالظل: الكتاب، واحدها ظلة، والأرائك: السرر في الحجال، واحدها أريكة. وقوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ معناه: ما يتمنون.
وقوله تعالى: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ معناه: تميزوا. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ﴾ معناه: خلق كثير.
وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ﴾ فالمكان والمكانة واحد، ومسخناهم: =

. . . .

= معناه: أقعدناهم، و﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ معناه: تركناهم عميا يترددون.
وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ معناه: مطيعون.
وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ معناه: فاركبوا.
وقوله تعالى: ﴿وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ معناه: رفات.
وقوله تعالى: ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ معناه: ملكه.

وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام ما لفظه:

تفسير غريب سورة يس

بسم الله الرحمن الرحيم

تأويل قول مولانا عز وجل: ﴿يسٓ ۝١﴾ يا رجل، وقيل: إنه اسم لمحمد صلى الله عليه، وقيل: بلغة حمير يس يا إنسان، ويا رجل ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ أي: المحكم ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ يمكن أن يكون أراد قوما أنذر آباؤهم فجعل ما صلة للكلام؛ لأن الله قد أنذر جميع العباد، وحذر وأعذر، ووعد وأوعد، وبين، ويمكن أن يكون أراد ما أنذر آباؤهم إذ لم يكن أتاهم نذير في عصرهم ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ أي: وقع القول والوعيد بالعذاب على أكثرهم ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨﴾ يريد عوجل أنا سنجعل في أعناقهم أغلالا يوم القيامة، كما قال عز وجل: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ وهم لم يقولوا ذلك بعد، وإنما أراد سيقولون: يا مالك.

ومعنى قوله: ﴿إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ إلى مواضع اللحى، وذقن الإنسان: هو منبت اللحية، والأغلال: هي عمد من حديد تملأ رقابهم حتى ترتفع أذقانهم ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ أي: رافعون رؤوسهم، قال الشاعر يصف السفينة:

ونحن على جوانبها قعود   نغض الطرف كالإبل القماح

يريد أنهم يرفعون رؤوسهم عن البصر إلى الماء خوفا من السدر ودوران الرؤوس، ومعنى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ هذا كله في النار، وقيل: نزلت هذه الآيات في قوم هموا بقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فوافوه يصلي، فصدهم الله عنه بما ذكر من السدر والأغلال والعشى، ثم ابتدأ الخبر عن كفرهم فقال: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ يقول: إنك لا تنفع بإعذارك وإنذارك إلا من يخشى الله، ويؤمن بالغيب، أي: يصدق ما غاب عن الأبصار من الوعد والوعيد، فأما المشركون فإنذارك لهم حجة لرب العالمين، وقطع لعذرهم في يوم الدين. =

= ومعنى قوله: ﴿وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ أي: أخبارهم، ومعنى ﴿أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: عددناه جميعه، وأحطنا بعدده في كتاب مبين ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ ليحذروا مثل مانزل بهم في تكذيبهم.
ومعنى ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي: فكررنا وعززنا وشددنا في الإحتجاج عليهم ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: تشاءمنا بكم، قال الشاعر:

كأن رزيقا أم جرو مغارة لسحب السلا جوعا تصرف نابها

أي: تشاءمت بالجزاء حين قارب راحلتي والتصق إلى جنبها، ثم قال:

فيالهف كفيا على در ناقتي إذا روحه المضياق عنى ذبابها

ومعنى قول مولانا عز وجل فيما حكى عن الكافرين، ووعيدهم لأنبياء الله الطاهرين: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟﴾ عن دعوتنا إلى الحق ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ بالحجارة ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: وجيع، قال الشاعر:

نام من كان خليا من ألم وبقيت الليل طولا لم أنم

أي: من كان خليا من وجع، فرد عليهم الرسل فقالوا لهم: ﴿طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي: شؤمكم معكم، وهو كفركم الذي هو متعلق بصدوركم وجوارحكم ﴿فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ﴾ أي: أموات هامدون ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ أي: يبا قطيعة تقطع سرورهم، ويا مصيبة تطيل حزنهم، ويا ندامة تحل بهم، ومن العرب من يقول: يافارسا فلان، ويا فرسا مع فلان ما أجوده ! وما أسبقه ! على وجه التعجب لهم، والتنبيه على جودة الفرس وسبقه، وسمعت جهال العوام يتوهمون أن الله تحسر عليهم وتحزن على هلاكهم، وحاش لله مما يظن الجاهلون، ويتوهم الضعفة الضالون، والحزن لا يكون إلا في القلوب، وذلك فيتعالى عنه علام الغيوب، ومعنى قوله: ﴿مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي: من الأمم أمة بعد أمة، وطائفة بعد طائفة، ومعنى ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: وكل جميع لدينا محضرون، أي: عندنا، وأما قوله: وإن، ولماً فهما كلمتان صلتان للكلام، قال سيد العابدون في إن الخفيفة:

فما إن ترى إلا جثى قد ثوى بها مسنمة تسفي عليها الأعاصر

أراد فما ترى إلا جثا قد أقاموا بها، ولكنه زين الكلام ووصله بإن الخفيفة.
ومعنى قوله: ﴿جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ﴾ أي: ألفاف أعناب، وأفنان من نخيل وأعناب، فإذا التفت الأشجار سميت جنانا في لغة العرب، ومعنى قوله: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ يقول: ما عملته أيديهم ولا خلقوه ولا أنبتوه، ولا صوروه، ولكن نحن عملنا ذلك، وما في هذا الموضع حرف نفي مثل قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ أي: ما أنزلنا عليهما سحرا، ولا علمناهما كفرا على سبيل النفي لذلك وقد=

= تكون ما أيضا صلة وزينة وتحسينا للكلام، ويكون أيضا اسما ناقصا، ولكل موضع تفسير، والله الموفق للصواب.
ومعنى قوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ مالم لا يشكرون خالقهم، ولِمَ يكفرون به وقد أنعم اله عليهم ورزقهم قال الشاعر:

ألا تـبـيـن الـدلـو لـو أبـنـتـا   لـلـقـوم حـتـى يـعـلـمـوا مـن أنـتـا

أي: لا تبين الدلو، أي: مالك لا تبينه، وما الذي شغلك على وجه اللوم والتعنيف والأمر والتحريض والذم.
ومعنى قوله: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: نخرج منه النهار، والعرب تقول: سلخنا الشاة من جلدها سلخا، أي: أخرجناها من جلدها إخراجا ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾ أي: إلى مستقرها يوم سقوطها وتكويرها فقامت اللام مقام إلى وأعقبتها، وقد قرأ بعض القراء الشذاذ: (تجري لا مستقر لها) وهذا غلط منهم لا يتكل عليه، ولا يعمل به، ولا يركن إليه، و﴿قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ أي: على منازل، فحذف على والله أعلم ؛ لأنه ينزل كل ليلة في منزلة غير الأولى، وهي ثمانية وعشرون نجما فيما ذكر أهل الحساب، وسنذكر حكمة الله في ذلك إن شاء الله تعالى إن بلغنا الله ما نأمل في تأويل حكمه الكتاب، وما فيه من بواطن عجائب الأسباب والله الموفق والمسدد للصواب.
ومعنى قوله: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي: صار كالعرجون البالي المنحني المعوج، وهو العود الذي في طرفه ثمر النخل إذا قطع وترك انحنا واعوج ويبس، وهو أشبه شئ بالهلال في الإعوجاج، قال الشاعر:

صلاب النوى من طيب القسب أسبلت   شـمـاريـخـه أعـلـى عـري جـبـيـنـهـا

قوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ أي: ليس يتهيأ لها أن تدركه، ولا أن تلحق به في سرعة دورانه على المنازل اليمانية والشامية ؛ لأنه يقطع المنازل كلها في شهر، وهي لا تقطع المنازل كلها إلا في وفاة السنة ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ أي: ليس يفوته أبدا، فيكون النهار حينئذ باطلا، ومعنى قوله: ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: في موضع من الهواء يسيرون ويعومون، كما يسبح السابح في الماء، قال الشاعر:

إن الـنـجـوم الـسـابـحـات خـمـس   والـبـدر فـيـهـا سـادس والـشـمـس

والسابحات: هن المتحركات الجاريات، ومعنى قوله: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: جماعتهم الكثيرة ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي: لا مصرخ يمدهم ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ ولا هم ينجون ولا يخلصون.
ومعنى قوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أي: احذروا ما بين أيديكم من العذاب، وما خلفكم من اللعنة، وتعنيف الأبرار، قال عز وجل: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: =

= أتبعهم الله من خلفهم لعنة الأبرار لهم، وفي القول اختصار، و المعنى فيه واحد ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ثم لم يأت بجواب الخبر، والمعنى أنهم إذا قيل لهم لم يقبلوا ولم يتعظوا، قال الشاعر:

فإن المنية من يخشها فسوف يصادفها أينما

فأضمر واختصر، والمعنى: فسوف يصادفها أينما ذهب، وتحتمل الآية وجها آخر أن يكون معنى قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ أي: وإذ قيل اتقوا فقامت إذا مقام إذ، كما قامت أو مقام الواو، وإذا كان الأمر كذلك لم ثم خبر سوى ما ذكرنا لأنه خبر يحتاج إلى غيره، وأمر لا يحتمل غير ما ذكرنا من تفسير، قال الشاعر:

فتى جزاه الله عنا إذ جزى جنات وعدك في العلالي العلى

فقال: إذ جزى، وإنما أراد إذا جزى ؛ لأن كل واحدة منها تقوم مقام الأخرى.

ومعنى قوله: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي: يتناجون ويتحدثون، ويقبلون ويدبرون، ساهون، لاهــون ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝٥٠ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ التوصية: هي الوصية، أي: لا يقدرون على الوصية عند الصيحة الأولى يوم القيامة، ثم ينفخ في الصور، أي: في جماعة الصور، ويحيا جميع الخلق، وأصل النفخ هو هبب الرياح، والصيحة هي هيئة تقع بهم إما صوت يتحرك بمنزلة النفخ، وإما جسم ينفخ عليهم فيهلكهم، والنفخة الآخرة هي نفخة الأرواح، وهي النسمة المبرية، وهي المشتقة من الرياح، وهي تجري من صدر الإنسان وفيه [فمه] وأنفه كجري نسيم الرياح، وبها تثبت الحياة، وبفراقها تحضر الوفاة، وهي متعلقة بالروح، والروح غيرها، أو هو بعضها وكل واحد منها قوام الآخر، والدليل على أن الروح غيرها أن النائم تخرج روحه ويتوفى، والنسمة لا تخرج إلا عند الموت، وروي أن المرتضى لدين الله أمير المؤمنين محمد بن الهادي إلى الحق صلوات الله عليه كان يدعو النسمة روحا ؛ لأنها قوام الروح والجسد، ومعنى ﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾ هي القبور، قال الحسين بن علي صلوات الله عليهما السلام

من كان حين تمس الشمس جبهته أو الغبار يخاف الشين والشعثا
ويألف الظل كي تبقى بشاشته فسوف يسكن يوما راغما جدثا

أي: قبرا، قال العالم صلوات الله عليه يرثي أخاه رحمة الله عليه:

أصبحت يحثى عليك الترب في جدث حتى عليك لما يحثى به طبق

ومعنى قوله: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ أي: من أخرجنا من مضجعنا، ومعنى قوله عز وجل: ﴿فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ أي: في شأن و عمل عاجبون ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ أي: في خيام الديباج مضطجعون، والأرائك فيما ذكر خيام الديباج معروف ذلك، وعلى وفي=

. . . .

= حرفان متعاقبان، وهما من حروف الصفات، كما حكى الله عز وجل عن فرعون: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ وإنما أراد على جذوع النخل، فقامت في مقام على، قال الشاعر:

هم صلبوا العبدي في جذع نخلة فـلا ...... إلا مـا جـدعـا

والواحد من الأرائك: اريكة، والجماعة أرائك، قال الإمام صلوات الله عليه:

ليس همي صياح صنج ودف لا وشرب خندريس مدام

ومعنى قول مولانا عز وجل: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ أي: ما يطلبون ويتمنون ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩﴾ أي: اعتزلوا وتميزوا من بين المسلمين حتى تكونوا وحدكم منقطعين، وبينوا للناظرين منفصلين ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أي: ألم أوصل إليكم أن لا تطيعوا الشيطان ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ أي: خلقا كثيرا، تقول العرب: جبل فلان على خلق حسن تام، وجبل فلان على شجاعة وقوة، أي: طبع، قال الشاعر:

والموت أعظم حادث مما يمر على الجبلة

أي: على الخليقة، وقال آخر:

أشهد بالله وآلائه والمرء عما قال مسؤول

إن علي بن أبي طالب على التقى والبر مجبول

أي: مطبوع على ذلك، حتى كأنه مخلوق عليه. قوله: ﴿نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: نلزم على أفواههم بأمرنا ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ أي: محونا أعينهم في هذه الدنيا ﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي: فأسرعوا في الطريق ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ يقول مولانا وسيدنا عز وجل أنه لو أعماهم ومسخهم وغير صورهم وعقولهم لما قدروا على المضي في حوائجهم، ولا على الرجوع إلى أهلهم ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ أي: نرده في الخلق من الضعف حين كان طفلا، ومعنى قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ يمكن أن يكون لا يتهيأ له ؛ لأن الله منعه قبل النبوة، ويمكن أن يكون لا ينبغي له أن يرويه، ولا يصلح لمثله أن يشتغل به عن ذكر خالقه، والقول الأول أحسنهما، لأن الله نزهه عن الشعر، وروايته، ومنعه بما شاء من حفظه وتلاوته، ليكون ذلك بعدا له من قول أهل عداوته، وأكمل وأبين لحجته، ومعنى قوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي: من كان حي القلب من الهدى ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: يقع الوعيد بهم، ويمكن أن يكون أراد من كان حيا لم يمت، ويحق العذاب على الذين ماتوا من قريش وغيرهم على الشرك، والله أعلم وأحكم.

ومعنى قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ أي: قوتنا ﴿أَنْعَٰمًا﴾ أي: بهائم ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: =

وقال في البرهان[١]: روينا عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: ﴿يسٓ ۝١﴾ معناه: يا محمد، وروينا عنه عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (إن الله سبحانه سماني في القرآن بسبعة أسماء محمد، وأحمد، وطه، ويس، والمدثر، والمزمل، وعبد الله). اهـ

وقيل: معنى ﴿يسٓ﴾ يا إنسان في لغة طي، وقيل: اسم الله، والله أعلم.

قال محمد بن القاسم عليه السلام: ثم قال سبحانه: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ فأقسم تبارك وتعالى بالقرآن الحكيم صادقا لنبيئه وإنه لمن المرسلين، وكذلك هو صلى الله عليه وآله وسلم يقينا حقا، وذكر تعالى من حكمة القرآن ما قد بان به من الكتاب أكبر[٢] البيان)، فالقرآن في الحكمة غاية الغايات، قد حاز في حكمته وفضله جميع الصفات . اهـ

ـ ومعنى ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فهو ذو الحكمة، أي: العلم، أو سماه حكيما؛

= لينصروا ويغلبوا بعبادة الأصنام، قال الله عز وجل: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي: لا يقدرون على معونتهم ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي: وهم للأصنام جند حاضرون تعنيفا منه عز وجل لمن يخدم ويستعبد ويتذلل للأصنام ؛ لأنها لا تعي ولا تعقل ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي: متكلم للكلام، والخصيم هاهنا: هو الكليم، ومعنى قوله: ﴿وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي تراب ورفات، ومعنى قوله: ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ يريد أليس هو قادر على خلق مثلهم، يعني المشركين، وقد خلق من السموات والأرض ما هو أجل وأعظم، وأكبر منهم، ومعنى ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: بقوته ملكات كل شئ واحدها مَلَكَة على وزن بَرَكَة وبركات، والله أعلم.

الملكوت، والجبروت على وزن واحد فيما روي والله أعلم، والأصل في ملكوت فهو ملكات، ثم بدل الله الألف التي في ملكات واوا، فجاءت ملكوت كل شئ، وهي جماعة ملكه، فصار الواو أحسن في اللفظ، وأحلى في المنطق، وهو مثل الجبروت، فيما روي عن الإمام أبي عبدالله محمد بن القاسم صلوات الله عليهما

(١) في البرهان (روينا عن آبائنا عن أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام.

(٢) في نسخة (أكثر البينات.

لأنه دليل ناطق بالحكمة مجازا، وقيل: حكيم بمعنيمحكم[١].

محكم، وقوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤﴾ خبر بعد خبر، أي: إنك على طريق مستقيم، والمستقيم أقرب الطرق الموصلة إلى المقصد ..

قال عليه السلام[٢]: فأخبر تعالى أن نبيه على المستقيم من الصراط، والصراط: الطريق والمنهاج المعتدل في الدين، ليس فيه ميل ولا اعوجاج.

ثم أخبر سبحانه عن القرآن بأنه ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾ وكذلك فهو العزيز الرحيم، الذي جاز في العزة عز الأعزاء، وفي الرأفة والرحمة رأفة الرحماء، إذ لا يكون سواه عزيزا مَلِكاً عظيما، إلا وهو معرض عن من ملك، قاس عليهم، غير رؤوف ولا رحيم، والله تعالى في جلاله وعظمته وما هو عليه من كبريائهوملكه وعزته وملكه الأعظم المحيط بملك جميع الملوك؛ إذ لا مثل له في ملكه وربوبيته ولا ند ولا شريك، أَرْأَفُ من رَأَفَ، وأرحم من رحم، بلغ من رأفته بالإنسان ورحمته له ما لا يبلغه الأب والأم [كيف وهو سبحانه الذي غذاه في ظلم الأرحام، ولَيَّنَ له المهاد، وأمده بما لميكن يقدر على الوصول إليه بحوله، فأين يتاه به! ثم هيأ له الغذاء في صدر والدته سائغا عذبا مريا يلائم طباعه، ويسهل عليه تناوله، وتقبل إليه الوالدة ويحنو عليه الوالد حتى يصلحوا أمر شأنه، ويرمُّوا حاله، ولما كانت الحيوانات لا تحسن ما يحسن الناس جعل أولادها شدادا عند خروجهم، يعرفون الأم وتعرفهم، ويعينونها على نفع أنفسهم، وتناول أغذيتهم، فلا إله إلا هو، تعس الظانون به سوءاً عليهم دائرة السوء، وتعسا لأهل الطبع ونكسا، هذه مشاهده تفضحهم، وما هو الطبع إن طولبوا لم يرجعوا إلا إلى علة عند أهل التحصيل، ولا تؤثر في أكثر من معلول، وهذه أمور مختلفة، وأحوال منتقلة، تدل على صانع حكيم، مدبر عليم، يجب

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ١٤٧

(٢) عود إلى تفسير الإمام محمد بن القاسم الرسي عليه السلام.

في كل حال شكره، ويلزم في كل أوان ذكره][١].

ثم قال سبحانه منبئا على أنه بعث نبيه منذرا ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ قريش وغيرهم، وقوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾ متعلق بـ ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ كما تقول: أرسلتك إلى فلان لتنذره فإنه غافل، فالغفلة سبب الإرسال ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ تذكيرا.

قال عليه السلام: «ففي قوله سبحانه: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ تذكير لهم بالمنة التي من بها عليهم من بعثه رسوله صلى الله عليه وآله بالنذارة إليهم، فبعث صلى الله عليه وآله وسلم فيهم منذرا، وأتاهم وهم في غفلة ساهون عن الآخرة مخبرا، فخصهم من إرساله بما لم يمن على آبائهم بمثله».

قوله: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ دليل على أن البعثة لا تكون إلا عند الغفلة، أما إن حصل لهم العلم بما أنزل الله بأن يكون فيهم من يبلغهم شريعة ويخالفونه يحق عليهم الهلاك، ولا يكون ذلك تعذيبا من قبل أن يبعث الله رسولا، وكذلك من خالف الأمور التي لا تفتقر إلى بيان الرسل، يستحق الإهلاك من غير بعثة[٢].

وقال في البرهان: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ معناه: [لتنذرهم][٣] كما أنذر آباؤهم . اهـ فما موصولة، أي: الذين أنذر آباؤهم من العذاب.

---

(١) ما بين أقواس الزيادة غير موجود في النسخة التي فيها مجموع تفسير الأئمة، وهي نسخة قديمة.

(٢) تم تصحيح اللفظ من التفسير الكبير للرازي، فهو موجود فيه بلفظه، ثم قال الرازي بعد ذلك: وليس هذا قولا بمذهب المعتزلة من التحسين والتقبيح العقلي، بل معناه أن الله تعالى لو خلق في قوم علما بوجوب الأشياء وتركوه لا يكونون غافلين فلا يتوقف تعذيبهم على بعثة الرسل. الرازي: ٢٦/٤٣. أقول: إلى متى يكون بعض العلماء أسير التقليد في الأشياء الفكرية، ولو كان هذا في أهم ما يميز البشر عن غيرهم وهو العقل، فإذا كان العقل ليس له دور في التمييز، فما هو دوره يا ترى، ومتى سنعرف أن لنا عقولا يمكننا بها التمييز بين الحسن والقبيح.

(٣) مابين القوسين زيادة من البرهان.

فإن قيل: فإذا كانت موصولة ناقض قوله: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؟[١].

قلنا: أريد آباؤهم الأقدمون، حيث كانت بمعنى الذي، والأقربون حيث كانت نافية، وقيل: ما مصدرية أي: إنذار آبائهم.

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: يمكن أن يكون أراد قوما أنذر آباؤهم فجعل ما صلة للكلام ؛ لأن الله تعالى قد أنذر جميع العباد، وحذر وأعذر، ووعد وأوعد وبَيّنَ، ويمكن أن يكون أراد ما أنذر آباؤهم؛ إذ لم يكن أتاهم نذير في عصرهم . اهـ

وقيل: لم ينذروا بعد عيسى، فما نافية.

وقال الوالد العلامة شمس الإسلام طود العترة الكرام، أحمد بن محمد بن صلاح[٢] أطال الله بقاءه: لا يصح أن تكون ما نافية ؛ لأنه يؤدي إلى أن آباء قريش لم ينذروا، وهو تعالى يقول: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ الآية فإن إرسال الرسل لتثبيت حجة الله تعالى على خلقه ؛ لأنه تعالى لا يعذب على علمه بكفرهم وتكذيبهم بل على فعلهم، وهم أعني آباء قريش قد أرسل الله إليهم عيسى عليه السلام وغيره من الأنبياء عليهم السلام، ولا بد في وقت الفترات من أمارات وآثار شرائع يهتدي بها المهتدي على شريعة الرسول الأول، وإلا لذهبت حجج الله تعالى على عباده وهو لا يجوز عليه تعالى ـ والله أعلم ـ . اهـ

(١) وإنما ناقض، وكذلك في هذه الآية بين جعل ما موصولة ونافية، لأن الموصولة تفيد كون آبائهم منذرين، والنافية تفيد كون آبائهم غير منذرين، وقد أجاب المصنف عنها، بأن الموصولة تفيد بأن آباءهم الأقدمين منذرون، والنافية تفيد أن المتأخرين منهم غير منذرين، وبهذا اندفع إشكال التناقض. وهذا ايضا موجود في الرازي ٢٦/ ٤٢.

(٢) أحمد بن محمد بن صلاح الشرفي، صاحب شرح الأساس تقدمت ترجمته.

فإن قيل: ذلك يقتضي أن لا يكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم مأمورا بإنذار اليهود؛ لأن آباءهم أنذروا؟ قيل: ليس كذلك، أما على قولنا: ما للإثبات لا للنفي فظاهر، وأما على قولنا: هي نافية فكذلك ؛ لأن المراد أن آباءهم قد أنذروا بعد ضلالهم بعد إرسال من تقدم، فإن الله تعالى إذا أرسل رسولا فما دام في القوم من يبين دين ذلك الرسول ويأمر به لا يرسل الرسول في أكثر الأمر، فإذا لم يبق فيهم من يبين، ويضل الكل، ويتباعد العهد، وينشر الكفر يبعث رسولا آخر مقررا لدين من كان، أو واضعا شرعا آخر، فمعنى قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أي: ما أنذروا بعد ما ضلوا عن طريق الرسول المتقدم، واليهود والنصارى دخلوا فيه؛ لأنهم لم تنذر آباؤهم بعد ما ضلوا، فهذا دليل على كون النبي صلى الله عليه وآله وسلم مبعوثا إلى الخلق كافة، والله أعلم.

قال محمد بن القاسم عليهما السلام: ثم قال ـ لا إله إلا هو ـ منبئا عن علمه بكل غيب خبرا صادقا أنه يملأ جهنم من عصاة الجن والإنس، وأن هذا القول والخبر كان على أكثر أهل الجاهلية متحققا ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾ فكذلك كان أهل الجاهلية إذ هم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم مكذبون . اهـ

قال الهادي عليه السلام: القول الذي حق على الفاسقين فهو وعيد الله وما حكم به على العاصين من العذاب المهين، يقول: قد حق عليهم وعيدنا، ومعنى قوله ﴿حَقَّ﴾هو وجب ووقع وحق وصح، ولن ينفع بإدخالهم لأنفسهم في العصيان، وما به يحق عليهم القول من عذاب النيران.

وقوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فإخبار منه سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم باختيارهم لما هم عليه من كفرهم، وأنهم لا يتركون ما هم عليه من شركهم؛ لا أن الله تعالى فعل ذلك بهم، ولا أدخل شيئا من كفرهم عليهم.

وأما قوله: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

فهذا أيضا إخبار من الله لنبيئه ﷺ عن اختيارهم للكفر، وصدهم عن الهدى والإيمان، وأنهم لا يؤمنون، ولو أكثر من الإنذار، وأطال عن الإعذار، لما قد غلب عليهم من الحمية والجهل، وداخلهم من الحسد والدغل، لا أن الله أحدث ذلك فيهم، ولا قضاه . اهـ

ويحتمل أن يقال: لقد حق كلمة العذاب العاجل على أكثرهم فهم لا يؤمنون.

قال محمد بن القاسم عليه السلام: ثم أخبر عن عقابه سبحانه لهم بكفرهم وتكذيبهم في يوم الدين، ومثله لرقابهم بالأغلال التي جعل بعضها على بعض إلى أذقانهم ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾[1] . اهـ

اختلف في معنى الآية على أقوال، الأول: قول الحسين بن القاسم عليه السلام: إن معناه أنا سنجعل في أعناقهم أغلالا يوم القيامة كما قال عز وجل حاكيا: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[2] وهم لم يقولوا [ذلك بعد][3] وإنما أراد سيقولون: يا مالك.

والثاني: أن الله عز وجل مثل تصميمهم على الكفر وعدم الارعواء بالمغلولين المقمحين في أنهم لا يلفتون ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يخفضون رؤوسهم له، ومعنى ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ أن الأغلال واصلة إلى الأذقان، ومأزورة إليها ؛ لأن طوق الغل الذي في عنق المغلول يكون في

(١) مجموع تفسير الأئمة مخطوط تفسير محمد بن القاسم لسورة يس ١٤٨ . ١٤٩، والآيات مذكورة فيه بكمالها بدون اختصار.

(٢) الزخرف، الآية: ٧٧.

(٣) تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام مخطوط ص ٢١٩، وما بين القوسين منه.

ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادرا من الحلقة إلى الذقن فلا يخليه يخفض رأسه، ويغض بصره، يقال: قمح البعير إذا روي فرفع رأسه، وقيل: الضمير في ﴿فَهِيَ﴾ إلى الأيدي، أي: فالأيدي مجموعة إلى الأذقان، ومنه سمي الغل جامعة ؛ لجمعه اليد والعنق[١].

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قال في البرهان: هذا تمثيل بأن جعلهم كالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم، والسد: الحاجز المانع من رؤية ما وراءه، وقرئ بالضم والفتح وقيل: ما كان من عمل الناس فبالفتح، وما كان من الله فبالضم [وهذا ذكره في البرهان، ثم قال][٢]: والسد الذي كان من بين أيديهم ومن خلفهم: هو ما حال الله تعالى بين نبيئه صلى الله عليه وآله وسلم وبين أعدائه حتى لم يقدروا عليه، وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سدا لم يصلوا إليه بمكروه، حين منعه الله [تعالى] منهم.

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ جعلنا على أبصارهم غشاوة من أن تطمح إلى مرئ، وهو مثل ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ بسبب السد والغشاوة، يعني: فأغشينا أبصارهم ظلمة حين أصروا على الكفر مكافأة لا يثارهم المعصية.

والثالث: قول الهادي [إلى الحق] عليه السلام: هذا رد من الله سبحانه وإكذاب لهم في قولهم حين قالوا: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ إلى آخر الآية فأنزل الله تبارك وتعالى على نبيئه صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية، يريد أننا جعلنا في أعناقهم أغلالا وجعلنا من بين أيديهم سدا، كما قالوا وكما ذكروا، أن على قلوبهم أكنة، وفي آذانهم وقرا!! هذا ما لم نفعله بهم، ولم نجعله على قلوبهم، وكذلك في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن

(١) في بعض النسخ قول الإمام الحسين بن القاسم مقدم على هذا القول الثاني، وهنا مؤخر.
(٢) ما بين القوسين من النسخة ب.

﴿يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يريد أننا أحللنا ذلك بهم كما قالوا ؟! هذا ما لم يكن منا فيهم، ولم نحكم به عليهم، ثم قال: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ يقول: إن كنا فعلنا هذا بهم فلن يستطيعوا أن يخرجوا منه إلى الهدى، ولن يطيقوا دخولا إذاً في هدى، فلم أرسلناك إليهم ؟ وأمرناك بدعائهم، لو كنا فعلنا ذلك بهم، هذا إذا منا عبث واستهزاء، وأمر منا إياك بالمغالبة لنا، وأمر منا لك بالدعاء لهم إلى خلاف أرادتنا، وتكليف منا لك ولهم خلاف ما يستطيعون وأمر منا لهم بما لا ينالون، فتعالى عن ذلك علوا كبيرا، وتقدس تقديسا عظيما.

والرابع في السد المذكور.

فقال محمد بن القاسم عليه السلام: وهذا السد - والله أعلم - الذي من بين أيديهم ومن خلفهم هو ما يغشى الكفار والمنافقين من الظلام في موقفهم يومئذ حتى تظلم بغشاوته أبصارهم، وهو حين تنكسف الشمس والقمر، وتطمس النجوم فيقع الظلام بزوال الأنوار في ذلك اليوم وحينئذ يحتاج المؤمنون إلى النور فيجعله الله من بين أيديهم وبأيمانهم ليأنسوا به ويبصروا ويأمنوا ويطمأنوا ولا يرتاعوا، ويومئذ يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا، وهم من بين أيديهم: ﴿ٱنظُرُونَا﴾ يعنون انتظرونا ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ وحينئذ يقال لهم تبكيتا وتوقيفا على حرمان الله إياهم كل ما يطلبون: ﴿ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا﴾.

ثم قال سبحانه وتعالى بعد خبره عن جعل الأغلال في أعناق الكافرين، وملء رقابهم بها إلى الأذقان، حتى هم لرؤوسهم [إلى الأذقان] مقمحون، والمقمحون: فهم الذين للرؤوس رافعون(١)، ونبأ سبحانه عن علمه للغيب الذي يحيط بما كان وما يكون فقال: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ

(١) العبارة من المجموع. وفي النسخة الخطية القديمة الموجود بين أيدينا محذوف منها (رافعون)

أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ يعني سبحانه أن الإنذار بأخبار القيامة، وترك الإنذار عندهم سواء، لما هم عليه من التكذيب للرسول والشك والإمتراء.

ثم أخبر عز وجل أن النذارة إنما تنفع من تاب وآمن، واتبع التذكير والذكر فأيقن، وخشي الرحمن بالغيب، ودفع بالقول والتصديق الشك والريب، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أي: القرآن أو الوعظ على معنى أنما ينفع إنذارك من انتفع واتعظ بالذكر ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ يعني: غفران لذنبه حين أخلص لله عمله ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ مرضي، وهو الجنة][1].

ثم قال عليه السلام: والإيمان بالغيب فهو ما أخبر الله عنه مما يأتي به في الآخرة من البعث والنشور، وما أخبر عنه مما لم يكن بعد من غائب الأمور، فقبل الخبر في ذلك المؤمنون، وأمنوا من عصيانهم تصديقا لخبر الله عز وجل عن الغيب فهم لا يعصون، فشكر الله لهم بالغيب إيمانهم، وذكر تصديقهم لما نبأ به من أخبار الغيوب وإيقانهم.

ثم أخبر تبارك وتعالى عن صدق ما وعد من إحيائه للموتى، وكتابه لما قدموا من أعمالهم وآثارهم في أيام حياتهم التي آثروا فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾[2] أي: نبعثهم بعد موتهم، ،قيل: يحييهم بالإيمان ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ من أعمالهم الصالحة وغيرها ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ ما خلفوه من الآثار الحسنة، كعلم علموه، أو كتاب صنفوه، أو نحو ذلك، وكذا الآثار القبيحة كما يحدثه الظلمة كالجنايات ونحوها، وقيل: آثار المشائين إلى المساجد.

(١) ما بين قوسي الزيادة من غير تفسير الإمام محمد بن القاسم عليه السلام.
(٢) إلى هنا انتهى كلام الإمام محمد بن القاسم عليه السلام.

وعنه ﷺ لما أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب مسجد رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: (عليكم دياركم فإنها تكتب آثاركم)[١]وهو قول الحسن، ومجاهد، وقتادة.

وقال ﷺ: (إن الله ينادي يوم القيامة: أين جيراني ؟ فتقول الملائكة: يا ربنا ومن ينبغي لك أن تجاوره ؟ قال: فيقول: أين عمار المساجد) وقال ﷺ: (بشر المدلجين إلى المساجد في الظلم بمنابر من نور يوم القيامة يفزع الناس ولا يفزعون)[٢] وقال ﷺ: (من تطهر في بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كان أجر خطاه أحداهما تحط عنه خطيئة، والأخرى ترفع له درجة)

وقال في البرهان: معناه نعلم ما قدموا من خير أو شر ﴿وَءَاثَٰرَهُمْۚ﴾ وهو ما سنوه من سنة حسنة، أو ابتدعوه من بدعة مستهجنة.

قال محمد بن القاسم عليه السلام: وكتاب ذلك: حفظه وإثباته ـ والله أعلم، وأنه لا ينسى منه[٣] صغيرا ولا كبيرا، ولا قليلا ولا كثيرا، وأي كتاب أثبت من حفظ الله، والحفظة الكرام من ملائكته لأعمالهم وآثارهم كلها في منقلباتهم في ليلهم ونهارهم، وجميع أيام حياتهم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿١٢﴾﴾ والإمام: فهو المتقن من الكتاب الذي ليس في حفظه وبيانه شك ولا ارتياب، فهو بين مبين[٤].

وقال أبوه القاسم بن ابراهيم عليه السلام: تأويل ﴿فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ فإنه يقول سبحانه: في علم عليم، ولا يتوهم أن ذلك إماما من الكتب، وأن اللوح

(١) هو في الكشاف ٣/ ٢٨٢، عن جابر.
(٢) ابن حبان في الأول من الأول من طريق أبي نضرة عنه، وأصله في مسلم.
(٣) في نسخة ا (وأنه لاينسى منه حرف صغيرا ولا كبيرا .. الخ.
(٤) مجموع تفسير الأئمة تفسير محمد بن القاسم ص ١٥٠

لوح من خشب، فإنما يراد بها ومثلها إحاطة الله تعالى بعلمه[١] كله ؛ لأن أحفظ ما يحفظ الآدميون ما يوقعون في الكتب ويكتبون، فمثل الله ذلك لهم من علمه وحفظه بما يعرفون، وأخبرهم أن الذي عنده سبحانه من ذلك، وفيه كله على خلاف ما يصفون لفرق مابينه وبين خلقه في كل صفة، وليعرفوه في ذلك كله من الفرق بما يجب من المعرفة[٢] . اهـ

ثم ضرب لهم مثلا من تكذيب أصحاب القرية لأنبيائهم المبعوثين إليهم، إذ كانوا لهم في التكذيب مثلا، فقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾[٣] أي: مثل لهم مثلا من قولهم: عندي من هذا الضرب كذا، أي من هذا المثال، وهذه الأشياء على ضرب واحد، والمعنى: اضرب لهم مثلا مثل أصحاب القرية ليحذروا مثل ما نزل بهم في تكذيبهم ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي: حين جاءها رسل عيسى عليه السلام يدعونهم إلى الحق، وكانوا عبدة أوثان، وانتصاب ﴿إِذْ﴾ بدل من ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ والمعنى: اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية، وهي إنطاكية، والمثل الثاني، والقصة الثانية فقال تعالى ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ بعثة الاثنين حكمة بالغة أرسلهما عيسى عليه السلام إلى أهلها، فلما قربا من المدينة رأيا شيخا كبيرا يرعى غنيمات له، وهو حبيب النجار فسألهما فأخبراه فقال: أمعكما آية ؟ فقالا : نشفي المريض ونبرئ الأكمه والأبرص، وكان له ولد مريض منذ سنتين فمسحاه فقام فآمن حبيب، وفشا الخبر فشفي على أيديهما خلق

---

(١) في نسخة (بعمله).

(٢) مجموع تفسير الآئمة ص ٣١٧.

(٣) من قوله (ثم ضرب لهم مثلا) إلى هنا من تفسير الإمام محمد بن القاسم عليه السلام، وتمامه (﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ يعني سبحانه . وهو أعلم وأحكم . بعززنا: شددنا ووكدنا ؛ لأن الثلاثة في الانذار أبلغ، وفي التأكيد عليهم للحجة أكبر ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ ثم أخبر سبحانه أنهم قالوا كما قالت قريش والعرب مكذبين لرسلهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ ثم أخبر سبحانه عن استشهاد رسله .. الخ ما سيأتي.

كثير، ثم رقا حديثهما إلى الملك، فقال لهما: ألكما إله سوى آلهتنا ؟ قالا: نعم من خلقك وآلهتك، فقال: تأخرا عني حتى أنظر في أمركما فتبعهما الناس وضربوهما، وقيل: حبسهما، ثم بعث عيسى عليه السلام شمعون فدخل متنكرا وعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به، ورفعوا خبره إلى الملك فأنس به، فقال له ذات يوم: بلغني أنك حبست رجلين فسمعت ما يقولانه، قال: حال الغضب بيني وبين ذلك فدعاهما، فقال شمعون: من أرسلكما؟ قالا: الله الذي خلق كل شئ، وليس له شريك، قال متجاهلا: وما آيتكما؟ قالا: ما يتمنى الملك، فدعى بغلام مطموس العينين، فدعوا الله حتى انشق له بصر، وأخذا بندقتين فوضعاهما في حدقته فكانا مقلتين، ينظر بهما، فقال له شمعون: أرأيت لو سألت إلهك أن يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف، فقال لي: ليس عنك سر إن إلهنا لا يبصر ولا يسمع، ولا يضر ولا ينفع، فلما رأى شمعون أن كلامه قد أثر فيه باحتياله واستخراجه للملك آياتهما، نصحه فآمن وآمن معه قوم، ومن لم يؤمن صاح به جبريل عليه السلام فهلكوا، وهذا معنى قوله تعالى ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي: قوينا الاثنين بثالث، وهو شمعون ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ من كلام شمعون والرسولين.

ثم أخبر تعالى أنهم ﴿قَالُوا﴾ كما قالت قريش، والعرب مكذبين لرسلهم ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ في البشرية لا فضل لكم علينا تستحقون به الرسالة والانقياد، ولستم أشرف منا كالملائكة، فجعلوا كونهم بشرا دليلا على عدم الإرسال، وهذا عام من المشركين، قالوا في حق محمد ﷺ: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ ثم قالوا:

ـ قال في البرهان: فيه تأويلان، أحدهما: أن يكون ذلك منهم إنكارا للرحمن أن يكون إلها مرسلا، والثاني: أن يكون ذلك إنكارا أن يكون للرحمن رسل إلى خلقه. اهـ.

﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ ثم قالوا ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ في

أن لنا إلها، أو: ما أنتم إلا كاذبون أن تكونوا رسلا(١).

ثم أخبر سبحانه عن استشهاد رسله له في رسالتهم إذ هو أعظم الشاهدين شهادة، وأصدق القائلين مقالة، فقال فأخبر الله تعالى أنهم بمجرد التكذيب لم يسأموا ولم يتركوا، بل أعادوا ذلك لهم وكرروا القول عليهم وأكدوه باليمين وقالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ وأكده باللام؛ لأن ﴿يَعْلَمُ﴾ يجري مجرى القسم ؛ لأن من يقول: يعلم الله فيما لا يكون قد نسب الله إلى الجهل، وهو سبب العقاب، كما أن الحنث سبب، فإن قيل: فعلم الله بهم لا يكون حجة عند الكفار لهم؟ قيل في الجواب: يحتمل ذلك وجهين، أحدهما: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ بما ظهر لنا من المعجزات، والثاني معناه: إن تمكين ربنا لنا إنما هو لعلمه بصدقنا.

ثم قالوا ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾ أي: البين الآيات، يعني الإعجاز الدال على صحة الرسالة إعلاما للقوم أن الذي على الرسل إليهم إبلاغ الرسالة، وليس عليهم الإجابة، وأن الإجابة على المدعويين دون الداعين، (وأخبر الله عز وجل بذلك معزيا لنبيئه صلى الله عليه وآله وسلم عما كان يضيق به صدره من تكذيبهم له مع علمه بصدقه، وأنه مبعوث بالرسالة من قبل ربه، بإخباره عما لقيت الأنبياء عليهم السلام من قبله، وأنهم كانوا يقولون مثل ما قال قومه لأنبيائهم.

ثم أخبر تعالى عن قول الكفرة لرسلهم فيما كانوا يقولون به كذبا من

(١) في النسخة المنقول عليها: ثم ﴿قَالُوا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ في أنا لنا إليها، أي: ما أنتم الا كاذبين في أن تكونوا رسلا. وهذا موجود في البرهان، واللفظ في البرهان: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ يحتمل وجهين، أحدهما تكذبون في أن لنا إلها، والثاني: تكذبون في أن تكونوا رسلا. . فأصلحنا اللفظ وأبدلنا لفظ أي بـ أو حتى يتطابق اللفظان ويصح المعنى.
وما سيأتي هو من تفسير الإمام محمد بن القاسم عليهما السلام من قوله: (ثم أخبر سبحانه) إلى قوله (﴿إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾).

التطير والتشاؤم بهم)[١] ليتعزى رسول الله ﷺ في الصبر على أذى قومه بما نال المرسلين من قبله فقال سبحانه ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ﴾ عن الصد عن ديننا، والدعاء إلى دينكم ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ بالحجارة لأن الرجم شر قتلة، ويحتمل أن يكون الرجم في هذا المكان بمعنى الشتم ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾ غير الرجم ﴿أَلِيمٞ﴾ أي: وجيع، قال الشاعر:

وبقيت الليل طولا لم أنم نام من كان خليا من ألم

أي: من كان خليا من وجع.

فرد عليهم الرسل ﷺ، فقالوا لهم عند تطيرهم ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ﴾ أي: سبب شؤمكم معكم، وهو كفركم.

وقال محمد بن القاسم عليه السلام: يعنون بطائرهم ما قسمه الله لهم من أرزاقهم وأعمارهم، وما علموا أنه سيحل بهم من المحبوب والمكروه، في ليلهم ونهارهم، إذ التطير في لسان العرب هو ما قسم الله لكل امرئ وطاوله من كل نصيب في رزق أو مكروه موت، أو أمر محبوب، فأخبروهم أن ذلك معهم، يعنون أنه مقسوم لهم[٢] لا يزيله مزيل عنهم، يريدون أنما قسم الله لهم من الأعمار والأرزاق والآجال، وما يتصرفون فيه من ذلك، ودوامه وانقطاعه قد قسم الله لهم حتى علم ما يطير منه ويصير لواحدهم وجميعهم، فهو كيف ما كانوا محكوم به لهم طاير ما أعطاهم الله منه إليهم فهو معهم.

---

(١) ما بين القوسين من تفسير الإمام محمد بن القاسم عليه السلام. وتمام تفسير الإمام محمد بن القاسم (إذ يقولون ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ ليتعزى رسول الله ﷺ في الصبر على أذى قومه بما نال المرسلين من قبله، فقال المرسلون عليهم السلام لقومهم عند تطيرهم بهم ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ﴾ يعنون بطائرهم. الخ ما سيأتي قريبا.

(٢) في المجموع (مقسوم لهم). وفي الاصل (مقسوم فيهم) وفي النسخة التي بين أيدينا مثل ما في المجموع.

ثم قال المرسلون عليهم السلام لهم ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ يعنون أمن أجل أن ذكرتم، وأمرتم بطاعة الله وأنذرتم كذبتم وأسرفتم [﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾](١). اهـ

والمعنى: أئن ذكرتم بهمزة الاستفهام، وحروف الشرط أي أتتطيرون إن ذكرتم؟ أي وعظتم، وإنما قال المرسلون: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ جوابا عن قولهم: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ يعني أتفعلون بنا ذلك وإن ذكرتم، أي: بين لكم الأمر بالمعجز والبرهان ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ١٩﴾ زائدون في عصيانكم، فمن ثم أتاكم الشؤم.

(ثم أخبر سبحانه عن الرجل المؤمن المصدق بالرسل، الموقن الذي انتفع بالنذارة، وآمن بالرسل والآخرة فقال سبحانه ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾(٢) وهو حبيب بن اسرائيل النجار، وهو ممن آمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وبينهما ستمائة سنة، وقيل: كان يعبد الله في غار، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم وأظهر دينه ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ٢٠﴾ في دينهم فإنهم على الحق، أي: رسل عيسى.

قال في البرهان: وإنما علم صدق نبوتهم ؛ لأنهم لما دعوه قال: أتأخذون على هذا أجرا؟، قالوا: لا، فاعتقد صدقهم وآمن بهم فدعا قومه إلى اتباع المرسلين، وأمرهم بطاعة رب العالمين، وأخبرهم أن أنبياءهم لم يأتوا يطلبون منهم فيما بلغوهم جزاء ولا أجرا حيث قال ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ﴾ على النصح ﴿أَجْرًا﴾ وقوله ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ ٢١﴾ كلمة جامعة في الترغيب فيهم، أي: لا تخسرون معهم شيئا من دنياكم، وتربحون صحة دينكم، فينتظم لكم خير الدنيا والآخرة، فاهتدوا بهدايتهم، وذلك لأنه لما قال: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ بين ظهور اهتدائهم بأنهم يدعون من عبادة الجماد إلى عبادة الحي القيوم، ومن عبادة مالا ينفع إلى عبادة من منه كل نفع.

---

(١) ما بين أقواس الزيادة من المجموع الذي لدينا.

(٢) من القوس إلى هنا من تفسير الإمام محمد بن القاسم عليه السلام.

ثم قال: إيمانا بر به وشكر النعمته ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ يعني: أخترعني وخلقني ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: إلى جزائه في الآخرة.

وفي البرهان: فإن قيل: كيف أضاف ﴿فَطَرَنِي﴾ إلى نفسه، والبعث إليهم؟ وهو معترف أن الله تعالى قد فطرهم جميعا، ويبعثهم إليه جميعا؟ قيل: لأن خلق الله تعالى نعمة عليهم توجب الشكر، والبعث في القيامة وعيد يقتضي الزجر، فكان إضافة النعمة إلى نفسه أظهر شكرا، وإضافة الزجر إلى الكافر أبلغ أثرا.

وروينا أنه لما قال لهم: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه، وهو يقول: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون اهـ.

وقيل: أراد ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ﴾ أي: وما لكم، لكن هذا أدخل في النصح من حيث أن لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه، فذكر رحمة الله عليه بما يجب عليهم من شكر الله في فطرته لهم، ورجوعهم عند الوفاة إليه.

(ثم قال منبها ومذكرا عن عبادة آلهتهم وأصنامهم من دون الله زاجرا ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ أي: يستخلصوني منه ؛ لأن الكافرين من المشركين كانوا يقولون: إن آلهتهم التي من دون الله يعبدون يشفعون لهم عند الله وينفعون[1]، فذكرهم الرجل المؤمن الذي جاء إليهم يسعى أن آلهتهم التي عبدوا من دون الله لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا.

ثم قال ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ يقول: إن فعلت في كفر ربي فعلكم، وقلت من الكذب قولكم، وعبدت الأصنام من دونه كما عبدتم ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ والضلال الذي عنى المؤمن ـ رحمة الله

---

(١) في نسخة (وينتفعون).

عليه ـ فهو الضلال عن الطريق المستقيم، والصراط الذي هدى الله إليه، والمبين: فهو الظاهر البين [العلين][١].

ثم صدع بالإيمان لله والتوحيد والإقرار لعبادته[٢] بين قومه فقال ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ وقيل: لما نصح قومه أخذوا يرجمونه، فأسرع إلى الرسل قبل أن يقتل، فقال: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ فاسمعوا إيماني حتى تشهدوا لي به.

قال عليه السلام: يقول الله سبحانه وتعالى منبيا، ولإيمانه ذاكرا، وله بذلك مثنيا ومجازيا ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ ثم أخبر عن المؤمن صلى الله عليه إذ دخل الجنة، ورأى كريم الثواب والنعيم، وما صار إليه[٣]، وعن قوله إذ يقول متمنيا لأن يكون من أكذبه من قومه بما وهبه الله من الغفران والجنة عالما ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾[٤] قال في البرهان: فيه تأويلان، أحدهما: أنه تمنى أن يعلموا بحاله، ليعلموا حسن مآبه، وحميد عاقبته.

والثاني: أنه تمنى ذلك ليؤمنوا مثل إيمانه فيصيروا إلى مثل

---

(١) ما بين الأقواس من تفسير الإمام محمد بن القاسم عليه السلام، وما بين أقواس الزيادة منه.

(٢) في الأصل (والاقرار بعبادته من بين قومه) وما أثبتناه هو ما في تفسير الإمام محمد بن القاسم عليه السلام.

(٣) في تفسير الإمام محمد بن القاسم عليه السلام (وصار إليه).

(٤) تفسير محمد بن القاسم لسورة يس من مجموع تفسير الأئمة ص ١٥٣. وتمامه (وأي مكرم أجل قدرا في الكرامة، وأعظم تكريما ممن أدخله الله الجنة، ومن عليه بثوابها ونعيمها خالدا فيها مقيما، وبشبه والله أعلم. أن يكون قوله إذ قال لهم هذه المقالة، وأعلمهم بما هم عليه وآباؤهم في عبادة من عبدوا من دون الله من الضلالة قتلوه وأكرمه الله بالشهادة، إذ قال: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ قال الله عز وجل: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ وعاجل الله قومه بالعقوبة في تكذيب الأنبياء المبعوثين إليهم، وتكذيب المؤمن الداعي إلى الايمان لهم، ثم قال سبحانه لقوم محمد صلى الله عليه وآله وسلم مذكرا، ولنبيه عن عقاب أصحاب القرية مخبرا ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ يخبر تعالى عن أن هلكة هذه القرية المكذبة. الخ ما سيأتي

حاله، وهذه غاية النصيحة ؛ لأنه نصحهم حيا وميتا.

وعاجل الله قومه بالعقوبة في تكذيب الأنبياء المبعوثين إليهم، وتكذيب المؤمن الداعي لهم إلى الإيمان.

ثم قال سبحانه لقوم محمد ﷺ مذكرا، ولنبيئه من عقاب أهل القرية مخبرا ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أراد قوم حبيب وما: نافية، وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد قتله، وأن الله أهلكهم بصيحة جبريل، ولم ينزل لإهلاكهم جندا من السماء ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: فاعلين لأجل الحكمة التي اقتضت إهلاك كل قوم، على وجه مخصوص، والمعنى: وما كنا منزلين على الإمم إذا أهلكناهم جندا من السماء، بل نهلكهم بأيسر من ذلك، كالطوفان والصاعقة، والريح.

ثم بين ماكان عقوبتهم فقال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ قال في البرهان: والصيحة: العذاب، قيل: صاح بهم جبريل عليه السلام، أخذ بعضادتي باب المدينة، ثم صاح بهم صيحة واحدة، وقوله: ﴿وَٰحِدَةً﴾ تأكيد لكون الأمر هينا عند الله.

وقوله تعالى ﴿ فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ فيه إشارة إلى سرعة الهلاك، فإن خمودهم كان مع الصيحة في وقتها لم يتأخر.

قال محمد بن القاسم عليه السلام: يخبر تبارك وتعالى على أن هلكة هذه القرية المكذبة إنما كانت بصيحة أنزلها الله عليهم واحدة، ليس لها ثانية، فخمدوا هامدين، وخروا موتى خامدين، ثم أخبر لا إله إلا هو عن حسرة العباد في يوم المرجع إليه والمعاد بغفلتهم في حذر ما حذرتهم الرسل في الدنيا من يوم

---

(١) في المجموع في تفسير محمد بن القاسم (التحسر والندم والخسرة)

وفي حاشية الأصل: قوله (ياحسرة) والحسرة هو أن يلحق الإنسان من الندم ما لا حد له حتى لا يبقى حسير، فهو إضافة الحسرة إلى العباد إضافة المصدر إلى فاعله، على أنهم هم المتحسرون، أو على المفعول على أنهم هم المتحسر عليهم، والحسرة على العباد مشتقة بالمضاف ليتعلق بها الجار والمجرور نحو: يا خيرا من زيد عندنا.

بعثتهم، وما يقع عليهم، وما يحل بهم في الآخرة من التحسر والندم[١]، إذا رأوا صدق ما كانوا كذبوا فيه الرسل من أمر الأخرة فقال ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾[٢]

قال الزجاج: الحسرة أن يركب الإنسان من شدة الندم ما لانهاية له حتى يبقى قلبه حسيرا، أي: ياحسرة العباد على أنفسهم ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٣٠﴾ واستهزاؤهم قبل العذاب.

ثم قال محمد بن القاسم: وقول الله: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ كلمة من وعيد الله منبئة عن شدة الوعيد مفزعة ؛ لأن العرب إذا أخبرت عن الأمر المفزع المخوف العظيم، فلم يفهمه من تخبره عنه أو كذب به، قالوا في التثنية بأبلغ الوعظ والتكليم: يا حسرة عليك[٣]، ويا ندامة لك إذا ما حل بك ما كذبت به مما حذرناك فرأيته بالمعاينة [وإذا قالت العرب في لسانها، وما هو غائة الافهام في لغتها وبيانها، للتي تصفه من الخير والشر ليفهم عطمه وكبره: يا كذا وكذا . يدعون ما يعظمون صارخين باسمه، فذلك في لسانهم غاية الإفهام لعظمه، فإذا أيقنوا أن شرا من البلاء واقع، أو خيرا وسرورا يأتيهم لهم نافع قالوا عند الخبر: يا خير بني فلان، فذلك عندهم غاية الافهام والبيان في عظم ما يصفون من فضل الخيل الصائر إليهم، أو قالوا: يا بؤس بني فلان وخزيهم، وذلك بعينه غاية الافهام لعظم الخزي والبلاء الواقع عليهم][٤] فأراد الله سبحانه أن يفهم خلقه وعباده إذ أسمعهم في كتابه ذكر حسرتهم في يوم القيامة [لها مسميا، وإنما عنى الله تعالى بقوله ﴿يَٰحَسۡرَةً﴾ والله أعلم ـ أي حسرة هي في العظم لما بلغ أهلها من

(١) إلى هنا انتهى كلام الإمام محمد بن القاسم عليه السلام. وزيادة (يعني سبحانه بقوله: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ أن الحسرة على العباد واقعة، وقول الله ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ كلمة من وعيد الله. الخ ما سيأتي.

(٢) في المجموع (عليك) وفي الاصل (يا حسرة لك)

(٣) ما بين قوسي الزيادة من تفسير الإمام محمد بن القاسم عليه السلام.

التلهف على ما فاتهم من تصديق الأنبياء عليهم السلام واستهزائهم في دار الدنيا للشقوة إذا رأوا في الآخرة صدق ما كانوا يخبرونهم من خيرها، وتحقق قولهم فحينئذ يتحسرون نادمين، وتقع الحسرة التي أخبر الله عنها يومئذ عليهم فيبقون محسورين حسرة على العباد، كما قال الله، ثم يا حسرة على العباد عليهم، ثم يا حسرة][1]حين عاينوا صدق وعيد الله في الآخرة فندموا وتحسروا حين لا يقالون، ولا تقبل معذرتهم فيعتذرون، فأي حسرة أكبر، وأي ندامة أقطع للقلوب وأنكر من حسرة من لا يقال له عثرة، ولا يقبل له معذرة، ومن هو خالد في أليم العذاب والعقوبة، ومن قد أيس من أن يقبل الله له توبة [فيالها عليه حسرة حازت الحسرات، ولكفى بقول الله ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ فيها بليغة من الصفات][2]

ثم قال جل ثناؤه وخزيت بمعصيته أعداؤه، وفاز بخشيته أولياؤه، وهو يخبر المنذرين من قوم النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن من أهلك بذنبه من القرون ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾ فذكرهم سبحانه من هذه العبر بما لا ينكرونه ؛ إذ كان من أهلك وأمات من الهالكين غير راجعين، ودلهم على أنهم مملوكون مربوبون إذ كانوا مكرهين من الموت والهلاك [على مالا يحبون لا يستطيعون لما كرهوا من الهلاك][3] دفعا، ولا يملكون لأنفسهم فيما يحبون من البقاء نفعا، خلقوا حين خلقوا وهم لا يشعرون ولا يعقلون، وأنشئوا بتربية الله لهم ورزقه وهم غافلون،وفهموا إذ عقلوا من المضار والمنافع ما كانوا يجهلون، وأنعم عليهم بالنعم التي لا يحصون، وكل هذا أو ما صرفوا فيه [منه] فهم به مصرفون، وعلى المنعم الصانع لهم بذلك مدلولون، وله معرِّفون[4]،

(١) ما بين قوسي الزيادة من تفسير الإمام محمد بن القاسم.
(٢) ما بين القوسين من تفسير الإمام محمد بن القاسم عليه السلام.
(٣) ما بين القوسين ساقط من مجموع تفسير الأئمة.
(٤) في المجموع (وله معروفون).

وبالرق والعبودية موسومون [موقوفون]، فمن صنع منهم وخلق فهو شهيد بلسانه أنه لنفسه غير صانع، ومن أميت فهو مقر أنه للموت عن نفسه غير دافع، وأنه ليس بقادر على عوده إلى دنياه، ولا لاقيا من يحب فيها ولا راجعا، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء المنذرين، ومن مات من القرون الماضين، ومن يموت من القرون المتأخرين[١] فقال ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ و﴿لَمَّا﴾ ههنا تمام للبلاغة، وصلة في اللسان العربي المبين للكلام، وإبلاغ في التنبيه من الله والإفهام، يعني سبحانه بإحضار البعث يوم القيامة لمن مات أولا وآخرا من الكبار والصغار[٢]. اهـ

وذلك أنه تعالى لما بين الإهلاك أنه ليس من أهلكه تركه بل بعده جمع وحساب، وحبس وعقاب، ولو أن من أهلك ترك لكان الموت راحة ونعمة، ولقد أحسن من قال :

فلو أنا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حي
ولكنا إذا متنا بعثنا ونسأل بعده عن كل شيء

قرئ (لما) بالتخفيف، وما: زائدة، وإن: مخففة من الثقيلة، وهي متلقاة باللام لامحالة، ولما بالتشديد بمعنى ألا، وإن نافية، والمعنى أن كلهم مجموعون للحساب يوم القيامة.

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه: وكل لدينا محضرون، أي: عندنا، وأما قوله: إن ولما فهما كلمتان صلتان للكلام، قال سيد العابدين عليه السلام في أن الخفيفة:

---

(١) في تفسير الإمام محمد بن القاسم (ومن يموت من القرون المتأخرين كل جميع لديه محضرون ولما هاهنا تمام للبلاغة).

(٢) مجموع تفسير أئمة أهل البيت عليهم السلام تفسير محمد بن القاسم لسورة يس ص ١٥٦.

فما إن ترى إلا جثا قد ثووا بها مسنمة تسفي عليها الأعاصر

أراد: فماذا ترى إلا جثا قد أقاموا بها، ولكنه زين الكلام ووصله بأن الخفيفة[١]. اهـ

ثم قال ـ لا إله إلا هو سبحانه ـ لما يحيي من موات الأرض، وبعثة الموتى ذاكرا، وعلى إحيائهم منبها ومحتجا على العباد بإحياء الأرض الميتة، وممثلا لذلك بنشرهم ومنبها[٢] ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ فأي أعجوبة أعجب، أو مَثَلٍ في إحياء الله الموتى أقرب، من إحياء الأرض بالمطر بعد مواتها، وتجدد خضرتها بعد يبس أشجارها، وارفتاتها، وخمودها واقشعرارها، ثم تعود الأرض عند حياتها إلى ما كانت عليه قبل موتها من بهجتها واخضرارها، وخروج حبها وثمارها، ونبات مراعيها واقشعرارها ثم تعود الأرض عند حياتها إلى ما كانت عليه قبل مواتها من بهجتها واخضرارها، وخروج حبها وثمارها، ونبات مراعيها وأشجارها، فمن أحمق أو أجهل، أو أغفل أو أظل ممن جهل قدرة الله القدير المحمود على إحياء الميت البالي المفقود، وهو يرى كيف يحيي الله الأرض بعد الموت واليبس والخمود، [والمحمود فهو] الله الخالق للإنسان، والمنشئ لبدنه بعد إذ لم يكن، وكذلك فهو القادر على رد ما بلي بالموت من أعضاء البدن، وهو سبحانه الذي أخرج الحب منها[٣] ليأكله، وكلما أنشأ[٤] من نعمة فيه كانت فهي له، وهو الجاعل كما قال لا إله إلا هو ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ فأخبر سبحانه أنه الجاعل في الأرض من النخيل والأعناب، المفجر فيها للعيون، وبه كان جميع ما أخرجت من

(١) تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني مخطوط ص ٢٢٠.

(٢) في نسخة (وممثلا لذلك بنشرهم ومشبها).

(٣) في المجموع (منه ليأكله).

(٤) في المجموع (وكلما بنى من نعمة) ..

الثمار أو يكون، فهو الذي أنعم بذلك كله علينا في رزقه وهيأه وأخرجه لنا وخلقه لولاه سبحانه لم يُقدر عليه، ولم يكن لنا ولا لمحتال[١] حيلة فيه.

ثم قال سبحانه: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ أي] فأطعمنا من ثماره وأكله ضروبا مختلفة أنشأها لنا بكرمه وفضله فواكه مفكهة، كفانا سبحانه تدبيرها، وغذاها بالأنهار والعيون التي فجرها وأجراها حتى أكمل إصلاحها[٢]، وملكناها وهنأنا أكلها واغتذاءها [وأجراها حتى إذا تم صلاحها][٣] قال سبحانه ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: وما عملت ذلك أيديهم كما قال سبحانه: (أيدينا) بل هو الذي صنعه وفطره، ومنه به علينا، وما ذكر الله من هذا كله فتقرير منه وتوقيف لخلقه على نعمه وفضله، وكل الأولين والآخرين جميعا، والكافرين[٤] فهم له سبحانه بصنع هذا كله مقرون، ولما عرف منه وذكر لا ينكرون.

ثم قال تعالى إلى الشكر داعيا إذ لم يكن بالكفر لعباده راضيا ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[٥]

قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يقول: ما عملته أيديهم ولا خلقوه ولا أنبتوه، ولا صوروه، ولكنا نحن عملنا ذلك، وما في هذا الموضع حرف نفي مثل قوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ أي: ما أنزلنا عليهما سحرا، ولا علمناهما كفرا على سبيل النفي لذلك، ومثل ذلك ذكره في البرهان[٦]

---

(١) في نسخة (ولا لمختار فيه).

(٢) في المجموع (حتى أكمل إصلاحها) وفي الاصل المنقول عليه (حتى تم صلاحها) وما بين أقواس الزيادة من المجموع ص ١٥٦ . ١٥٧.

(٣) في النسخة الأصل المنقول عليها (ثم قال سبحانه) وما أثبتناه هو ما في تفسير الإمام محمد بن القاسم عليه السلام.

(٤) عطفا على الأولين، وفي نسخة (والكافرون) بالعطف على كل.

(٥) إلى هنا تمام كلام الإمام محمد بن القاسم عليه السلام.

(٦) واللفظ في البرهان (وما عملته أيديهم) أي وما لم تعمله أيديهم من الأنهار التي أجراها الله لهم، ويحتمل وما لم تعمله أيديهم من الزرع الذي أنبته الله تعالى.

﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ معناه: مالهم لا يشكرون خالقهم ولم يكفرون، وقد أنعم عليهم ورزقهم، قال الشاعر:

ألا تبين الدلو لا أبنتا للقوم حتى يعلموا من أنتا

ألا تبين الدلو: أي: مالك لا تبينه، وما الذي شغلك على وجه اللوم والتعنيف، والأمر والتحريض، والمعنى: أتكفرون هذه النعم فلا تشكرون المنعم.

ثم ذكر ربنا وإلهنا عجيب ما خلق وصنع معرفا في خلق الأزواج كلها، وللحكمة فيها واصفا فقال تعالى ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾ من الأجناس والأصناف من جميع المخلوقات ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ من أصناف النبات من الحبوب والفواكه وغيرها.

ثم قال ﴿وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ أقرب منظور ينظرون فيه نعمة الله عليهم، قال في البرهان: وفي ذلك دليل على مشاكلة الحيوان لهم في أنها زوج ذكر وأنثى.

ثم قال تعالى ﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾ من أصناف أخر لم يطلعهم الله عليها لعدم حاجتهم إلى العلم بها من خلق حيوان وجماد مما انفرد الله سبحانه بمعرفته، ولم يحط بعلمه أحد من خلقه، وذلك كثير في السموات والأرض، فذكر الله تعالى أمورا ثلاثة تنحصر فيها المخلوقات بقوله: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ يدخل فيها ما في الأرض من الأمور الظاهرة كالنبات والثمار، وقوله: ﴿وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ يدخل فيها الدلائل اليقينية، وقوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ يدخل ما في أقطار السموات وتخوم الأرضين، وهذا دليل على أنه لم يذكر ذلك للتخصيص بدليل أن الأنعام مما خلقها الله، والمعادن ولم يذكرها، وإنما ذكر الأشياء لتأكيد معنى العموم، والله أعلم.

قال محمد بن القاسم عليه السلام: فأي أعجوبة أعجب، أو عبرة في لطيف تدبيره أقرب مما أنشأ وخلق من الإناث والذكران في النبات جميعا وكل

الحيوان من الإنسان وغير الإنسان، فجعل ما خلق من ذكرانها وإناثها سببا لنمائها وصلاحها وانبثاثها.

ثم قال جل وتقدس: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ فأخبر أن الأزواج من الذكران والإناث في أشياء أخر لم يطلعوا عليها، ولم يحيطوا بها خبرا كالنجوم التي لا يشك من يعلم بعض ما علم الله من خبرها أن فيها ذكرانا وإناثا معروف ذلك من أمرها، وقد ذكرها تبارك وتعالى بذلك فيما نبأ [به من أنبائها فذَكَّرَ بعضها وأنث بعضها في أسمائها، فقال في القمر: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾[1]] فذكّره، وقال في الشمس: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾﴾ ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت﴾ والشمس والزهرة فأنثيان، والمشتري والقمر فذكران، وكذلك النجوم الثمانية وعشرون الأخرى التي هي للشمس والقمر منازل ومجرى، فهي بغير شك ذكران وإناث، ليس بين أهل الألسنة من العرب والعجم في ذلك اختلاف [وكذلك فمن الحديد والحجارة وجميع ما في المعادن المذكورة ذكران وإناث] وكل هذا فمما علمنا الله، ودلنا عليه من الذكران والإناث كما قال الله سبحانه ما لا نعلمه، إذ لم يذكره ولم يهدنا إليه، إلا أن الله سبحانه قد أخبرنا عن أهل سماواته ومن عنده من مكرم ملائكته أنهم ذكران لا إناث ؛ إذ أنكر قول المشركين بالتأنيث لهم فيهم، ورد ضلالهم مكذبا لهم عليهم ؛ إذ يقول تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾[2] وقال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ﴾ ولوكانوا إناثا لقال: ولا الملائكة المقربات، ولكنه ليس فيهم ولا منهم أنثى، ولذلك قال: المقربون دليل على أنهم ذكران مذكرون.

---

(١) مجموع تفسير الإئمة ١٥٧ ـ ١٥٨، وما بين أقواس الزيادة تصحيح منه.

(٢) في قراءة نافع (عند الرحمن) وفي قراءة حفص (عباد الرحمن) والمؤلف أثبتها على قراءة نافع.

ثم قال لاإله إلا هو منبها على مافي الليل والنهار من آياته وما فيهما على الخلق من عظيم نعمته ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ فأي آية أعظم وأكبر عند من يعقل ويفهم من اختلاف الليل والنهار وما يقدر الله بهما وفيهما من عجائب التدبير والأقدار، بينما الناس في ضوء شمسهم ونهارهم مقبلون ومدبرون في معائشهم وأمورهم، والشمس تجري في فلكها عالية من فوقهم، قد قدر الله بها وبجريها ما لا نعلمه لكثرة عبره من تدبير مصالحهم ومرافقهم ؛ إذ قطعت الفلك بأمر ربها وربهم فتصوبت، وأقبل الليل منسلخا منه النهار وانسلاخه منه ـ والله أعلم ـ انسلاخه عنه، وعنه ومنه مقامهما في هذا مقام واحد، فحينئذ يبدو سواد الليل طالعا، فكلما انسلخ النهار مدبرا، ومضى بين يديه عنه مستأخرا ظهر وازداد سوادا حتى إذا نحن بعد النور والبرهان مظلمون، وعن الإقبال والإدبار لما كنا نقبل له نهارا، أو عن أكثر ذلك ممسكون، وإلى الهدوء والراحة مائلون، وعن النشاط والقوة بكرى النوم زائلون، ومن أتعابنا ولغوب دوابنا في نهارنا مستريحون، وعن الإبصار كما كنا نبصر [بها] نهارا ممنوعون، لا نملك لشيء من هذا عن أنفسنا دفعا، ولا نستطيع له ردا ولا منعا، دلالة من الله سبحانه على أنه [هو] المصرف لنا في جميع أحوالنا، وعلى عجزنا من الإمتناع في تدبيره لنا، ونظرا منه تبارك وتعالى لنا فنكون مسبوتين نياما في ليلتنا حتى إذا بلغ الليل ما أراد سبحانه أن يبلغه من الميقات في سراه ومسيره إلى غاية ما قدره الله عليه من الساعات ظهر الفجر ساطعا، وأقبل النهار طالعا وكل ما انسلخ منه النهار مدبرا ومضى بين يديه فتحرك حينئذ جميع الحيوان الذي هدأ في ليلة وسكن لما يريدون من المعاش والشأن قد حموا من التعب واللغب براحة الأبدان، ففي هذا من أمر الليل والنهار وغيره آيات عظام، وفضل من الله على خلقه وحسن نظر وإنعام.

ثم أخبر تقدس اسمه وجل أمره عما تولي للخلق من النعيم في جري الشمس لما في جريها من صلاح الدنيا، وحياة كل من في الأرض من ذي نفس، وإذ بالشمس وضوئها تبصر العيون، وينتشر الناس ويجيئون ويذهبون، ويعملون في صناعاتهم وأرفاقهم ما يعملون، وبجريها يكون كثير من صلاح أبدانهم، وعامة معائشهم، وعمارة بلدانهم، وعلم عدد سنيهم وشهورهم، وما يصلح الله بها من زرعهم وثمارهم، وما يكثر [عن] أن نحصيه لصغرنا عن علمه.

وذكر سبحانه أن الشمس في عظمها وما هي عليه من عجيب أمرها في دورها وجريها إنما تجري لمستقر لها، ومستقرها والله أعلم: يوم القيامة، ففكر يا هذا وافهم.

قال المرتضى عليه السلام: معنى ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ فهو ما يرون من طلوعها وأفولها دائبة لا تقف، فأخبر الله سبحانه أنها على هذه إلى مستقرها، ومستقرها: فهو تكويرها وذهابها، وعند ذلك يحق بها الأمر من الله عز وجل في ذهابها، ويكون ذلك مستقرها إذ لا تطلع ولا تغرب ولا تبصر، فهذا معنى مستقرها، فأخبر الله أنها تجري إلى نهاية تكون لها، ونهايتها فهو يوم القيامة عند تكوير الشمس والنجوم، وذلك قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾ فذلك تكويرها، وهو قرارها وذهابها . اهـ قلت: ومثل هذا ذكر الهادي عليه السلام وغيره من أئمتنا عليهم السلام[1].

(١) كلام الهادي عليه السلام موجود في مجموع تفسير الأئمة، ولفظه (معنى قوله: ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ هو: الى مستقر لها، ومعنى مستقرها الذي تجري إليه فهو يوم القيامة الذي يكون فيه ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ يقول: تدبيره في الشمس وفعله في قطعها لفلكها وجريها من تحت الارض وفوقها ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۝٣٩﴾ يقول: قدرناه ودبرناه على ذلك، وجعلناه حتى صار يكون مرة كبيرا، ومرة صغيرا بتقديرنا وتدبيرنا، وما جعلنا فيه من أثر حكمنا ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ يقول: حتى صار من بعد الكبر إلى شبه العرجون القديم، والعرجون: فهو العود الذي يكون فيه ثمر النخل، يكون معوجا محنيا =

وقال غيرهم[١]: معنى ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ أي لإدراك حد لها موقت تنتهي إليه من فلكها في آخر السنة، شبيه بمستقر المسافر إذا انقطع مسيره، أو المنتهى لها من المشارق والمغارب، كأنها تتقصاه مشرقاً مشرقاً ومغرباً مغرباً إلى أقصاها، ثم ترجع، فذلك حدها ومستقرها لاتعدوه، أو: لحد لها من مسيرها كل يوم، في مرأى عيوننا، وهو المغرب، وما ذكره أئمتنا عليهم السلام هو المعمول عليه إذ نحن مأمورون من الشارع باتباعهم والتمسك بهم قولا وعملا واعتقادا.

قال محمد بن القاسم عليه السلام: ثم ذكر سبحانه النعمة على خلقه بالقمر، وما قدره له من المنازل إلى وقت محاقه، فذكر تعالى نعما عظيمة من عظائم نعمه [فقال والقمر قدرناه منازل يعني:][٢] لما قدره بالقمر من صلاح كثير من معائش الناس وتمامه ؛ إذ بالقمر تعرف الشهور والأيام، وهو في الليل سراج لجميع الدنيا، فيبين في الظلمة للناظرين، ويضيئ لمن سافر من المسافرين، وبه وبطلوعه وغروبه قدر الله مدد البحار وغورها[٣]، وزاد بزيادته في أول الشهور حياة الأرض فأصلح أشجارها، وأربى بطلوعه خضرها وثمارها، وما فيه من الآيات والعبر فيكثر عن أن نحيط به علما، وحسبك ما فهمك الله منه في كتابه إن كنت فهما، وما ذكر الله من تقديره له منازل فقد يراه كل ذي عين في كل ليلة متماثلا، زايد النور في أوله عند نزول أول منازله، وهي ثمانية وعشرون منزلة من النجوم، حتى إذا بلغ أربع عشرة منها نقص نوره في كل ليلة عند نزوله كل منزلة ممتحقا حتى يعود بدقته في العيون دقيقا كما قال سبحانه ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩﴾

= كانحناء الهلال في آخر شهره، فشبه انحناء الهلال في ذلك الوقت بالعرجون القديم، والقديم فهو العتيق، فأخبر سبحانه بأثر تدبيره فيه حتى عاد كما ذكر).

(١) القائل هو العلامة الزمخشري انظر الكشاف ٣/٢٨٦ مع اختلاف يسير جدا.

(٢) ما بين القوسين ليس في تفسير الإمام محمد بن القاسم بل هو زيادة من المصنف رحمه الله.

(٣) في نسخة (وغزرها).

والعرجون: فهو العود الذي يخرج من قلب النخلة حاملا في شماريخه لثمره، وهو أعوج مقوس منحنيا، يشبه ما للقمر في آخر الشهر من الإنحناء والدقة، وهو إذا كان قديما كان أدق منظرةً.

ثم ذكر سبحانه أعجوبة أخرى يدل بها على سرعة سير القمر إذا جرى فقال ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ والقمر فمن أسرع النجوم كلها جريا، وهو يقطع الفلك في كل شهر من أوله إلى آخره دورا، والشمس تجري في الفلك إلى أن تقطعه عاما، وأن الليل غير سابق النهار إذ هما جميعا في الزيادة والنقصان على مثال ومقدار، ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ وإنما يعني بسباحتهم في الفلك والله أعلم ـ أنهم فيه يجرون ويدورون . اهـ

ومعنى ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ﴾ أي: ليس لها أن تدرك القمر، ولا أن تلحق به في سرعة دورانه، على المنازل اليمانية والشامية، ومعنى: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: ولا تسبق أية الليل وهو القمر آية النهار، وهي الشمس، ولا يزال الأمر على هذا التدبير إلى أن يبطل ما رتب من ذلك فيجمع بينهما، وتطلع الشمس من مغربها.

ومعنى ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ﴾ هو موضع سير الشمس والقمر، ولكل منهما فلك، لكن اكتفى بما يدل على الجنس اختصارا، كقولهم: كساهم الأمير حلة، أي: كل واحد حلة.

وفي الفلك يقول المرتضى عليه السلام في جواب من سأله عنه: الفلك فهو مجاري النجوم، وأفلاكها التي تجول فيها، فذكر سبحانه أن النجوم والقمر كل في فلك يسبحون، وقدره وأجراه ذو العزة سبحانه فيه، لا تختلط في مجاريها، ولا تتحول عن تقديره، قال: وسألتم عن فلك الشمس وما قيل فيه ؟ بأن تجري فيه على ظهرا لسماء وفوقها فقال عليه السلام: هذا من الكلام المحال ؛ لأن ذلك مكابرة للعقول، وخروج عن مشاهدة العيون، ولو كان

فلكها يجري على ظهرها ما أبصرت الشمس ولا عوينت، وكيف يعاين ما هو مستتر، وإذا لكان كحكم ما هو فوقها من السماء مما لا نبصره ولا نقف عليه، ولكن فلكها في الهواء الذي قدره الله للنجوم مجرى، وأما أن ملائكة الله هي التي تجريها فلم يذكر الله سبحانه لنا ذلك، ولكن الذي رفع السماء بقدرته أجرى هذه النجوم بحكمته، أولا ترون إلى هذا السحاب في عظمه وكبره، ما يحمل كيف يسير به ويفرغه حيث أمره الله سبحانه، أفيقدر أحد أن يقول: الملائكة تجري هذا السحاب . فلا يقدر أحد أن يتكلم بذلك ولا يقوله، فالذي أجرى هذا بعظمته أجرى هذه النجوم بأفلاكها بقدرته ورأفته، وما أراد من إنفاذ أمره.

قال في البرهان: لأن الشمس والقمر والنجوم في فلك بين السماء والأرض غير ملتصقة بالسماء، ولو كانت ملتصقة ما جرت، وفي قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ تأويلان، أحدهما: يجرون، والثاني: يدورون، كما يدور المغزل في الفلكة.

قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ أي: يسيرون في موضع من الهواء، ويعومون كما يسبح السابح في الماء، قال الشاعر:

إن النجوم السابحات خمس   والبدر فيها سادس والشمس

والسابحات: هي المتحركات الجاريات.

قال محمد بن القاسم عليه السلام: ثم قال لا إله إلا هو لبعض نعمه على الناس ذاكرا لحملهم في الفلك، ولهم على شكره فيها منبها، وعنها مخبرا، ولعجيب آياته فيهم معرفا لذلك تعالى وجل وواصفا ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ وكذلك فهو الله الذي حمل البشر في الفلك والبحر، وعلى مثل ذلك من الدواب الحاملة لهم في البر، وقد قيل في الخبر: إن الذي مثل

بالفلك هي الإبل، وقد تسميها العرب سفن البر، ولشبهها بها قرنها الله عز وجل بالسفن في ذكرها، فقال: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ فهذا فيما ذكر الله من قوله [﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾][(١)].

وما نرى ـ والله أعلم ـ أن الله أراد بقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ إلا ماحمل وأقل من الدواب كلها الإبل وغير الإبل، غير أن للآبال مالها في الحملان من الفضل[(٢)]. والفلك المشحون: فهو المملوء المثقل، وهو الله المنعم المفضل الحامل لذرياتهم، والذريات ـ والله أعلم: فهي الذرء والمذروء والمكثر من جماعتهم، قال الله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ يعني بـ﴿ذَرَأَكُمْ﴾ كثركم ونشركم، وكذلك إذا قيل: ذرية، فإنما يراد جماعة مكثرة مذرية، والواحدة من الجماعة المكثرة المذرية ذَرْيَةٌ، والثنتان: ذريتان، والثلاث: ذريات، فكان هذا ـ والله أعلم ـ دليلا لمن يعقل ويفهم على أن الذريات هي الجماعات منكم المذريات المكثرات ؛ لأنه لو كان مخرجها في الذكر إنما يراد بها الذراري دون الآباء [لكنا نرى ذلك فيهم دونهم و][(٣)] لكنا نرى أكثر من يركب السفن[(٤)] إنما هم الأكابر لا الذراري الأصاغر الضعفاء، وإن تأول متأول، أو قال قائل: إن الذريات هي الأطفال، وأن حملهم في الفلك دعة وسكون ومرفق على أبدانهم لضعفهم وصغرهم، وقلة تحريك الفلك لهم . قيل له: هذا تأويل يجوز في المعقول وليس في التأويل بأصل ثابت ولا يزول؛ لأنه ربما كان من زعازع البحر في كثرة الأمواج وماله عند عصف الريح من شدة الحركة والإرتجاج أشد على راكب الفلك خطرا، وأهول

(١) ما بين القوسين زيادة من المجموع ليتضح المعنى.

(٢) لفظ تفسير الإمام محمد بن القاسم عليهم السلام (ثم قال سبحانه ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ فهو المملوء المثقل.

(٣) ما بين القوسين غير موجود في مجموع تفسير الأئمة.

(٤) لفظ المجموع (ولكنا نرى كثيرا ممن يركب السفن .. الخ

أمرا من ركوب أصعب صعاب الدواب، التي تجمح بركبانها غاية الجماح[(١)]، ولكن التفسير الأول فيما ذكر الله أنه للذريات من الحمل في الفلك أشبه، والحمد لله وأوجه. اهـ

قلت: ومثل هذا التفسير بمعنى ذرياتهم ذكر الحسين بن القاسم عليه السلام أن المراد بذرياتهم جمائعهم[(٢)] الكثيرة، ومن يهمهم حمله.

وقيل: المحمول الآباء حملهم الله في سفينة نوح، أي: حمل آباءهم [وهم] في أصلابهم، وذكر الذرية دونهم لأنه أبلغ في الإمتنان، وأدخل في التعجب من قدرته في حمل أعقابهم إلى يوم القيامة.

وقيل: إن الذاريات النطف، والسفن: أرحام الأمهات.

قال في البرهان[(٣)]: وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: ومعنى ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ أي: مثل الفلك ما يركبون من الإبل ونحوها ؛ لأنها سفائن البر، والعرب تشبه الإبل بالسفن قال طرفة:

كأن خروج المالكية غدوة ... خلايا سفين بالنواضح من دد

وقيل: السفن والزوارق، يعني أنه خلق مثل سفينة نوح ما يركبونه من السفن، ذكره في البرهان.

---

(١) وبعده في المجموع (حتى لا يبقى راكبها لشدة تكفتها وقلقها عند زعازع الأمواج لها).

(٢) في تفسير الحسين بن القاسم العياني عليه السلام (جماعتهم).

(٣) ولفظ البرهان (قوله عز وجل ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ الفلك: السفن الكبار، والمشحون: المملوء، والمحمول هم الآباء حملهم الله في سفينة نوح، والثاني: ما رويناه عن أمير المؤمنين عليه السلام أن الذريات النطف، والسفن: أرحام الأمهات ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ يعني: أنه خلق مثل سفينة نوح ما تركبونه من السفن، والثاني: أنها الإبل خلقها الله لهم في البر مثل السفن المركوبة في البحر، والعرب تشبه الإبل بالسفن، قال طرفة:

كأن خروج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواضح من دد

وقال محمد بن القاسم عليه السلام في تمام تفسيره لهذه الآية، ثم قال سبحانه عند ذكره الفلك المشحون فدل بقوله: ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ على التذكير بالنعمة في حمل ما يحملون من معائشهم وأمتعتهم وتجاراتهم، والفلك عند شحنها أعظم ما تكون خطرا، وأخوف ما يكون أهلها للغرق عليها خوفا، إذا كانت الشاحن أقرب إلى العطب لثقلها ورسوخها في الماء.

ثم قال سبحانه عند هذا الذكر بعينه بما تولى من سلامتهم مذكرا ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ يعني: لا مغيث في لجج البحار وأمواجها يصرخهم ويغيثهم عند غرقهم لهيجان موجها وارتجاجها ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: ينجون من الغرق إذا أدركهم.

ثم استثنى حيث يقول الله سبحانه الرؤوف الرحيم بخلقه الكريم ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ يقول: إن سلامتهم لم تكن وإن كانت الفلك قد وصلوها، وأتقنوا من بنائها، وجعلوها كما جعلوها إلا بحملان من الذي ذكر، والحملان هاهنا المذكور ليس هو إقلال عيدان الفلك وألواحها وحده، ولكنه تسليم الله وحمله بالسلامة في هول البحار عبيده إذ أعظم ما رأوا من عظيم الفلك والسفن الكبار مع عظيم البحر وكبره، وعتو أمواجه كالذباب الصغير الطيار الذي يمر طائرا حقيرا في سعة الصحارى والقفار فبرحمة الله القدوس جل وعلا نجوا، وبحملانه لهم بالخروج من البحر ظفروا، وإلى حين ما موقوت آجالهم امتعوا بالحياة وأخروا[1]، يقول الله سبحانه بعد ذكر ما ذكر به العباد من هذه النعم، وهو يخوفهم لا إله إلا هو العقوبة فيما خلفهم من الذنوب، ومحذرا لما بين أيديهم أن يتقوه من الخطايا والحوب.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ يعني سبحانه فلا تعاقبون إذا تبتم، واتقيتم من ماضي الذنوب فخلفتم

(١) لفظ المجموع (ما متعوا بالحياة وأخرجوا).

وراءكم إا تبتم، وما بين أيديهم، فالاتقاء للذنوب فيما يستقبلون التي ترديهم، وما خلفهم فهو ما مضى من الخطايا وفات منهم، والتوبة التي هي الاتقاء [فهي التي] يتقى بها الخطايا فيما خلفهم ومن بين أيديهم، فلما انتهى الخبر إلى قوله سبحانه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ولم يذكر عنهم جوابا ولا طاعة علم أنه إذا لم يذكرهم بالرضاء ساخط عليهم لإغفالهم [اتقاء] ما بين أيديهم وما خلفهم، وهذا من مفهوم الكلام عند العرب، وأبلغ الاختصار والمعقول بالمعنى الظاهر منه باطن للإضمار.

وقال في البرهان: في قوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ ثلاثة تأويلات، أحدها: ما مضى بين أيديكم من الذنوب ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ ما يأتي من الذنوب، والثاني: ما بين أيديكم من الدنيا، وما خلفكم من الآخرة وعذابها، والثالث: ما بين أيديكم من عذاب الله لمن تقدمكم من عاد وثمود، وما خلفكم من أمر الساعة . اهـ

وقيل: إن الدنيا خلف الإنسان، والآخرة مما بين يديه، وجواب إذا محذوف دل عليه ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ كأنه قيل: وإذا قيل لهم: اتقوا، أعرضوا.

ثم ذكر سبحانه إعراضهم عن الآيات التي نزلها على نبئه ﷺ وما يريهم منها في آفاق السماوات فقال ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ أي: موعظة ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ يجوز أن يكون المراد آية من القرآن، ويجوز أن يكون المراد بها معجزة، ومعنى قوله ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: عادتهم الإعراض عن كل آية وموعظة، وهذا متعلق بما تقدم من قوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ معنى إذا جاءتهم الرسل كذبوهم، فإذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها، وما التفتوا إليها.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ كلام بين كلامين متصلين، ويحتمل أن يقال: هو متصل بما قبله من الآية، وبيانه هو أن الله لما قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا﴾ وكان فيه تقدير أعرضوا قال: ليس إعراضهم مقتصرا على ذلك بل هم عن كل آية معرضون، أو يقال: إذا قيل لهم: اتقوا اقترحوا آيات مثل إنزال الملك وغيره، فقال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه بخلهم عن الإنفاق مما رزقهم فقال ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ .

قال محمد بن القاسم عليه السلام فأجابوا فيما دعاهم الله إليه من إطعام الفقير، والإنفاق جواب اللئام البخلاء الجاهلين مثلهم، واحتجوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن دعاهم إلى ذلك من المؤمنين بلا حجة لهم فيه فقالوا ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ وجهلوا أن ما دعاهم الله إلى طعام الفقراء محنة لهم بذلك، وإختبار وبلوى ليجزيهم الله في إطعامهم والإنفاق في ذلك مما رزقهم الجزاء الأوفر، الذي هو أطيب وأعظم مما أنفقوا وأزكى وأكبر، وقد علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنون. إذ هم لهم إلى الإنفاق داعون. أن الله أقدر القادرين على إطعام الفقراء المعسرين، فذكر الله ما كان من ترك الإنفاق من جواب الكافرين ليكون المؤمنون لمثل معصيتهم فيما أقروا به حذرين. اهـ

ثم قال ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ أي: في ذهاب عن الصواب ظاهرين، وهو من جواب الكفرة، أو من قوله الله حين أرادوا هذا الجواب، أو حكاية قول المؤمنين لهم.

قال في البرهان: وهذه الآية في كل كافر وجاحد لنعم الله إذا أمروا

أن يطعموا الفقراء والمساكين قالوا: انطعم من لو يشاء الله أطعمه، استهزاء وكفرا . اهـ

وقيل[١]: نزلت في مشركي قريش لما قال فقراء أصحاب رسول الله ﷺ:اعطونا مما زعمتم من أموالكم أنها لله، أي: قوله:﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ فقالوا ذلك.

ثم قال تعالى مخبرا عما كان الكافرون عليه من التكذيب بيوم القيامة ووعدها بإنكار الكفرة للبعث وجحدها فقال ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ بقيام الساعة الذي فيه عذابهم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ ويجوز أن يكون الوعد ما وعدَ به المسلمين من الظفر بهم

ثم قال الله سبحانه وهو يخبر أن الصيحة تأتيهم وهم بالغفلة والتكذيب عنها من الساهين ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: تعمهم بالأخذ وتصل إلى مشارق الأرض ومغاربها، ولا شك أن مثلها لا يكون إلا عظيما، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ يعني تبارك وتعالى . وهو أعلم وأحكم .: أنها تأتيهم بغتة، وهم في غفلة يتخاصمون في معائشهم وأمورهم، فلا يدرون حتى تهجم الصيحة عليهم وهم في غفلة مغترون ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ والتوصية ههنا الوصية عندما يعاينون من التلف والمنية، والتنكير في التوصية للتعميم، أي: لا يقدرون على توصية ما، ولو قلت: بكلمة يسيرة؛ ولأن التوصية قد تحصل بالإشارة، فالعاجز عنها عاجز عن غيرها.

ثم قال تعالى ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ لأن ذلك يهجم على أكثرهم وهم مقبلون ومدبرون في أسواقهم ومعائشهم غافلون، والمعنى: لا يقدرون على الوصية عند الصيحة الأولى يوم القيامة بما في أيديهم من

---

(١) القائل هو الزمخشري انظر الكشاف ٣/ ٢٨٨.

حق، ولا إلى أهلهم ومنازلهم يرجعون، بل يموتون حيث تفجؤهم الصيحة لأنهم قد أعجلوا عن ذلك، والصيحة هي ظهور آمارات القيامة، وبيان أشراط الساعة التي تأخذ الناس منها الصيحة، روينا عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبا يتبايعانه فما يطويانه حتى تقوم الساعة) ذكره في البرهان.

ثم أخبر تبارك وتعالى عما يكون بعد الصيحة عند النشور من النفخ في الصور النفخة الأخرى، والصور. هاهنا والله أعلم .: جماع الصور التي تنفخ فيها الأرواح فتحيا للبعثة والنشر فقال ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ يعني حينئذ يخرجون من أجداثهم، وهي القبور واحدها: جدث، قال سيد العابدين علي بن الحسين[١] عليهما السلام شعرا:

من كان حين تمس الشمس جبهته ... أو الغبار يخاف الشين والشعثا
ويألف الظل كي تبقى بشاشته ... فسوف يسكن يوما راغما جدثا

وقال القاسم بن إبراهيم عليه السلام يرثي أخاه رحمة الله عليهما جميعا:

أصبحت يحثى عليك الترب في جدث حتى عليك لما يحثى به طبق

وقوله: ﴿يَنسِلُونَ﴾ النسلان في المشي: السرعة التي هي دون العدو، أي: يسيرون مسرعين، قال الشاعر:

عسلان الذئب أمسى ثاويا ... بَرَّد الليل عليه فنسل

ثم قال سبحانه عن الكفار مخبرا بغفلتهم عن طول ما مر من الدهور بهم وهم في قبورهم قبل إحيائهم[٢] ونشرهم ونشأتهم عند قيامهم من موتهم لحشرهم ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ أي: من أخرجنا من

---

(١) البيتان الذي نسبهما المؤلف الى زين العابدين عليه السلام، ذكرهما الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام ونسبهما الى الإمام الحسين بن علي عليه السلام.

(٢) في نسخة (قبل حياتهم)

مضاجعنا؟ قالوا ذلك لما كان من سرعة بعثهم حتى توهموا أن لم يحيوا بتجديد الله لما بلي من رميمهم فيعلموا أنهم كانوا في رقدة، إذ لم يدروا بطول ما مر بهم من الأمد والمدة، ثم ذكروا أنهم كانوا ميتين، فقالوا عند الذكر فزعين مرتاعين، واتصل بفكرهم إذ أيقنوا ببعثهم ونشرهم جميع ما وعدوا به من الوعيد، فنزل بهم عند الفكر في ذلك هائل الكرب الشديد الوبيل، فدعوا بالويل بما ذكره الله في التنزيل، وقالوا ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أقروا حين لم ينفعهم، وقيل: هو من كلام الملائكة

· وفي البرهان: هذا من كلام المؤمنين، إن قيل: قوله ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ماذا ؟ قيل: فيه وجهان، أحدهما: أنه إشارة إلى المرقد، كأنهم قالوا: من بعثنا من مرقدنا، فيكون هذا صفة للمرقد. ثانيهما: أن هذا إشارة إلى البعث، أي: هذا البعث ما وعد الرحمن وصدق المرسلون.

فإن قيل: إذا كان هذا صفة للمرقد، فكيف قوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ ؟ قيل له: يكون ما وعد الرحمن مبتدأ خبره محذوف، وتقديره: ما وعد الرحمن حق، والمرسلون صدقوا، أو يقال: ما وعد به الرحمن وصدق فيه المرسلون حق، والأول أظهر لقلة الإضمار، أو يقال: ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو ما وعد الرحمن من البعث ليس تنبيها من النوم، وصدق المرسلون فيما أخبروكم به.

ثم قال سبحانه وتعالى مخبرا وعما يكون من سرعة إحضارهم ذاكرا ﴿إِن كَانَتۡ﴾ أي: ما كانت البعثة ﴿إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ للحساب، وقوله: ﴿إِلَّا صَيۡحَةً﴾ قالوا: معناه إلا نفخة واحدة من إسرافيل، والأولى أنه تمثيل لسرعة إحيائهم وبعثهم بعد الموت وإحضارهم من غير نفخ في قرن والله أعلم.

وهذا قول أئمتنا عليهم السلام وغيرهم.

ثم أخبر سبحانه بكرمه وفضله من حكمه يومئذ بين عباده بعدله أنه لا يظلم في ذلك اليوم نفسا ولا يخزي كل عامل إلا بما كان من عمله فقال ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: يقال لهم يوم القيامة: فاليوم لا تظلم نفس شيئا من الظلم، ثم أخبر لا إله إلا هو عن أصحاب الجنة، وما يمن به عليهم في ذلك من المنة إذ كل نفس منهم يومئذ مع عظيم أهوال يوم القيامة بالأمن مطمئنة فقال سبحانه ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ مبكتا ومحسرا للعصاة الكفرة إذ هم لنعمه كافرون بما أعطى الأبرار من النعيم بأنواع الملاذ والكرامات، وشغلهم بها عما فيه أهل النار، ومعنى ﴿فَٰكِهُونَ﴾ أي: هم في شأن وعمل عاجبون متنعمون وملتذون ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾

قال محمد بن القاسم عليه السلام: فخبر سبحانه عن شغلهم الذي شغلهم أنه خلوتهم بما جعل في الجنة من الأزواج لهم والشغل المذكور فيما ذكر الله من هذه الصفة كلمة تقولها العرب عند الخلوة من الرجل لجماع زوجته معروفة، فأخبر تبارك وتعالى عن إقبال أهل الجنة آمنين على التي لا كنساء الدنيا، بهن وبخلوتهن مشتغلين، عاكفين عليهن، في الأرائك متكئون[١]، الأرائك: جمع أريكة، وهي السرير في الحجلة، وقيل: الفراش فيها الحجلة، القبة تستر بالثياب، ويجعل له باب من جنسه وبزِّه، ذكره ابن الجوزي في كتاب الوفاء.

وقال في المقاليد والصحاح: الحجلة بالتحريك: واحدة حجال الفرش، وهو بيت يزين بالثياب، والأسرة والستور، والأسرة: جميع سرير، قال ثعلب: الأريكة لا تكون إلا سرير في قبة عليه سواره ومتاعه.

ثم قال عليه السلام: وما ذكره الله هاهنا من الظلال فهي فيما نرى القباب

(١) إلى هنا انتهى تفسير الإمام محمد بن القاسم عليه السلام. ومتكئون ورد في النسخ بالرفع.

ونحوها من الحجال[١]، إذ فضل هذه الظلال المذكورة على ظلال الدنيا على قدر فضل الآخرة ؛ لأن فضل نعيم الجنة في الكمال [فضل] فائت لنعيم الدنيا في كل حال، لا يخطر اليوم لعظمه وكبره بالبال، كيف كنه مبلغه إلا أنه قد يعلم من فهم صغر الدنيا عند الله ونقصها أن الله سبحانه لم يفضل الجنة حين ذكرها معظما لقدرها، وواصفا لكبر أمرها إلا وهي التي لا يقاس[٢] شيئ من نعيم الدنيا بها[٣].

ثم أخبر سبحانه عما لأصحاب الجنة فيها من الفواكه المعجبة[٤]، فقال ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ أي: لاتوصف لعظمها ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ وتأويل ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾ هاهنا والله أعلم: هو ما يدَّعُون به، ويتمنون أي: يفتعلون من الدعاء الخاص ليس الداعي أي: يستدعون لأنفسهم ما يشتهون، ويطلبون ويتمنون من قولهم: ادع عليّ ما شئت، أي: تمنه.

ثم ذكر جل ثناؤه ما لأهل الجنة من السلامة إذ هي عليهم من أعظم النعم عند تسليم الله لهم مما يعاينون يوم القيامة من أهوال النقم، ولعظم السلامة يومئذ وقدرها ما ذكر الله أنها من قوله في الجنة عند ذكرها فقال ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ فجعل تحيته لهم بالسلامة التي هي السلام من أعظم التكريم؛ لأن السلام في نفسه إذا قيل في الدنيا والآخرة فإنما معناه السلامة بغير ما شك ولا مرية سواء قيل: السلام عليكم، أو قيل: السلامة لكم[٥].

وفي البرهان: ﴿سَلَٰمٌ﴾ فيه تأويلان، أحدهما: أنه سلام الله تعالى

---

(١) في المجموع (ونحوها من الحجاب).

(٢) في المجموع (لا يلحق).

(٣) مجموع تفسير الأئمة تفسير محمد بن القاسم لسورة يس ص ١٦٧، وما بين الأقواس منه.

(٤) في نسخة (المفكهة)

(٥) من قوله: (ثم أخبر سبحانه عما لأصحاب الجنة فيها) إلى هنا من تفسير الإمام محمد بن القاسم عليه السلام.

عليهم إكراما لهم، والثاني: تبشير الله لهم بسلامتهم، ومعنى ﴿مِّن رَّبٍّ﴾ أي: من جهة رب.

ثم أخبر جل وتقدس عما يقال للمجرمين في ذلك اليوم من الأمر لهم بالامتياز الذي تأويله ـ والعلم عند الله ـ التنحي عن المؤمنين بالعزلة والانحياز، فقال سبحانه ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ لأن أهل النار يميزون من أهل الجنة، حتى يكونوا وحدهم منقطعين، ويبينوا للناظرين منفصلين.

ثم ذكر سبحانه يوم القيامة لبني آدم وهو يوقفهم على ترك ما عهد إليهم وما نهاهم عنه في الدنيا من عبادة الشيطان التي ترديهم، فقال[١] ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾.

لما ذكر الله حال المؤمنين والمجرمين، كان لقائل أن يقول: إن الإنسان كان ظلوما جهولا، والجهل من الأعذار؟ فقال الله تعالى ذلك عند عدم الإنذار، وقد سبق إيضاح السبيل بإيضاح الرسل، وعهدنا إليكم، وتلونا عليكم ما ينبغي أن تفعلوه وما لا ينبغي، والعهد: الوصية، وعهد الله إليهم: ما ركز في عقولهم من أدلة العقل، وأنزل من أدلة السمع، والمعنى: ألم أوصل إليكم أن لا تطيعوا الشيطان فيما زينه لكم، والمبين من الأعداء: الذي قد أظهر العداوة غاية الإظهار والإبداء.

ثم ذكرهم لا إله إلا هو ما خصهم[٢] به من عبادته، وأمرهم فقال

---

(١) من قوله: (ثم ذكر سبحانه يوم القيامة لبني آدم) إلى هنا من تفسير الإمام محمد بن القاسم عليه السلام، وفيه زيادة بعد قوله ﴿مُّبِينٌ﴾ والمبين من الأعداء الذي قد أظهر العداوة غاية الإظهار والإبداء. ـ وهو ما أورده المصنف آخرا في هذه الفقرة ـ

(٢) في نسخة (ما أنذرهم به من عبادته). وهذا بلفظه هو ما في تفسير الإمام محمد بن القاسم عليه السلام.

﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦١﴾ والمستقيم: المعتدل الذي لا عوج له، القويم.

ثم بكتهم[١] جل وعلا، وأنبأهم بما أضل الشيطان من القرون الكثيرة منهم، فقال: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ﴾ والجبل: هو الجمع العظيم، حتى قيل: إن دون العشرة الآلاف لا يكون جبلا، وإن لم يكن صحيحا، ذكره الرازي[٢].

وقال في البرهان: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ﴾ يعني الهوى المتبوع، ورؤساء الكفر، والجِبلُّ: الجماعة.

قال محمد بن القاسم عليه السلام: وأهل اللسان فلا يمترون في أن الجِبِلَّ: القرون اهـ.

قال الشاعر:

والموت أعظم حادث ... مما يمر على الجبلة

أي على الخليقة، وقال آخر[٣]:

أشهد بالله وآلائه ... والمرء عما قال مسؤول
أن علي بن أبي طالب ... على التقى والبر مجبول

أي: مطبوع على ذلك، حتى كأنه مخلوق عليه.

(وفي قوله ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ۝٦٢﴾ تفهيم منه لهم أن العقول من

(١) في نسخة (ثم ذكرهم لا إله)
(٢) الرازي ٩/ ٣٠١.
(٣) الشاعر: هو السيد الحميري، ذكره الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام في تفسيره. ص ٢٢٤.

حججه عليهم، وأنهم إذا عطلوا عقولهم غير معذورين، باتباع عدوهم الذي يغويهم)[١].

وقيل: معناه كأنكم لا عقول لكم ؛ لأن العاقل لا ينبغي إلا ما ينفعه لا ما يضره، وهو توبيخ لهم.

ثم قال سبحانه لهم بعد التقرير والتوقيف والتبكيت بذنوبهم، والتعريف ما ذكر من إيجاب المعاقبة عليهم بالنار من المقالة الكبرى التي زال بها عنهم عند معاينة جهنم الشك والتكذيب والإمتراء: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٦٣﴾ على عبادة الشيطان، يقال ذلك عند رؤيتها فحينئذ وقعت عليهم الحسرة، وصاروا إلى غاية العقوبة التي وعدوا بها في الآخرة، ثم بين أنهم واصلون إليها حاصلون فيها بقوله تعالى ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٦٤﴾ أي: ادخلوها كما تدخل الشاة المصلية في النار، وهي التي حفر لها والنار فوقها وتحتها، فأما ما فوق النار فهو شواء.

واعلم أن الكفر والكفران ينبئ على نعمة كانت يكفر بها، وحياء الكفور من المنعم من أشد الآلام، ولهذا كثيرا ما يقول العبد المجرم: افعلوا ما يأمر به السيد ولا تحضروني بين يديه، وإلى هذا المعنى أشار القائل:

ألـيـس بـكـاف لـذي هـمـة ... حـيـاء الـمـسـيء مـن الـمـحـسـن

قال محمد بن القاسم عليهما السلام: ثم أخبر جل ثناؤه عما يريهم يومئذ من آياته العظام باستشهاد أعضائهم عليهم فيما ارتكبوا من المعاصي والخطايا والآثام، وإصمات ألسنتهم من الشهادة والكلام فقال سبحانه ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ بأمرنا، ومنعها من الكلام هو الختم، لأن أعضاءه التي كانت له أعوانا في حق نفسه صارت عليه شهودا في حق ربه.

---

(١) ما بين القوسين مثله في تفسير الإمام محمد بن القاسم عليهما السلام.

ثم قال ـ (١) ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥﴾ ليروا آية عظيمة من آياته وعدله سبحانه وحكمته، إذ شهدت جوارح الخاطئ منهم عليه بخطئه، فأراهم آية بينة من الآيات لا شك فيها، واستشهد من أعضاء أبدانهم شهودا عليهم، تعلمهم لا تهمة عندهم عليها، ولا ينكر من عرف قدرة الله وفضلها؛ إذ هو الذي أنطق اللسان أن ينطق ما شاء من الأعضاء كلها؛ لأن اللسان إنما هو عضو من البدن، لولا أنه أنطقه لم ينطق ولم يبين، وقد يمكن ـ والله أعلم ـ أن تكون شهادة الأعضاء عليهم توقيفهم على كل خطيئة عملتها الجوارح مما مشوا إليه بأرجلهم، أو بسطوا فيه بأبدانهم، فلا ينكرون عند توقيفهم على خطاياهم ماله من الأنعم والإمتنان عليه.

قال في البرهان: وفي كَلاَمِهَا ثلاثة تأويلات، أحدها: أنه يظهر منها

(١) ما بين الشرطتين غير موجود في تفسير الإمام محمد بن القاسم عليه السلام. واللفظ في تفسير الإمام محمد بن القاسم عليه السلام (ثم أخبر جل ثناؤه عما يريهم يومئذ من آياته العظام باستشهاد أعضائهم عليهم فيما ارتكبوا من المعاصي والخطايا والآثام، وإصمات ألسنتهم من الشهادة والكلام فقال سبحانه. ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ ليروا من آياته سبحانه وعدل حكمته على كل ظالم، وإن سخط عليه في ظلمه آية عظيمة من آياته إذ شهدت جوارح الخاطئ منهم عليه بخطائه . إلى قوله . (والامتنان عليه) وفيه زيادة (أنا فعلت بك ما فعلت بيدي من الخير، ولعل إحسانه إليه إنما كان بالأمر واللسان، وكيف يتوهم من عقل ماللّه من العظمة والجلال إنما ذكر الله من اليد فيما فعل وخلق إنما هي يد لا كالأيدي، والله لا شريك له يجل ويعز ويتعالى عن الأعضاء والأوصال، وهو يقول في كتابه المحكم المبين ما يدل في هذا المعنى على إكذاب من توهم في اليد تشبيها من المشبهين إذ يخبر عز وجل كيف يخلق ما أراد خلقه بقدرته فقال: إنما قولنا لشيئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون، فهو سبحانه يخبر أن جميع ما أراد خلقه بلا معاناة تدخل فيه بتكلف يتكلفه، وإنما يكون ما أراد صنعه بكلمة من أسرع الكلام في المعقول والأفهام كسرعة لمح الطرف من الابصار وهي (كن) فسبحان من جل وتقدس وعلا عن أن يكون له شبه أو يضرب له مثل به مثلا، أو يتوهم محتاجا لعظمته إلى أن يزاول بيد أو بنان عملا جل وتقدس عن الأعضاء الموصلة من اليد والبنان، وعن شبيه من لا يعقل جل جلاله وعظمتهله بالإنسان).

سمة تقوم مقام كلامها كما قال الشاعر:

وقالت له العينان سمعا وطاعة وحدرتا كالدر لما يُثَقَّبِ

والثاني: [أن] الموكلين بها يشهدون عليها.

والثالث: أن الله سبحانه يخلق فيها كلاما، وذلك لما روينا عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال: (يقال لأركانه: انطقي فتنطق بعلمه، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بعدا لَكُنَّ وسحقا فَعَنْكُنَّ كنت أناضل)[1].

فإن قيل: فلم قال: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ فجعل ما كان من اليد كلاما، وما كان من الرجل شهادة؟ قيل: لأن اليد مباشرة لعمله، والرجل حاضرة على غير شهادة، وقول الفاعل على نفسه أقرار، ولذلك عبر عما صدر من الأيدي بالقول، وما صدر عن الأرجل بالشهادة.

وروينا عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال: (أول عضو من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذه من الرجل اليسرى).

فاحتمل أن يكون تقديم الفخذ بالكلام على سائر الأعضاء؛ لأن معاصيه يدركها بحواسه، التي هي في الشطر الأعلى من جسده، وأقرب أعضاء الشطر الأسفل منها الفخذ فجاز لقربه منها أن يتقدم في الشهادة عليها، وتقدمت اليسرى لأن الشهادة من ميامن الأعضاء أقوى منها في مياسرها، فلذلك تقدمت اليسرى على اليمنى[2]. اهـ

وقد جاء في موضع بلفظ الشهادة ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

(١) قال في تخريج الكشاف (مسلم والنسائي من طريق الشعبي عن أنس، ووهم الحاكم فاستدركه.

(٢) انظر البرهان مخطوط ص ٣٢٦، وما بين قوسي الزيادة من البرهان، وساقط من الأصل.

ثم قال تعالى ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ وهذا وعيد لقريش، أي: محونا أعينهم في هذه الدنيا.

قال في البرهان: يعني أعمينا أبصار المشركين في الدنيا فضلوا عن الطريق فلا يبصرون عقوبة لهم ويحتمل: لأعمينا قلوبهم لما أصروا على الذنوب فضلوا عن الحق، ولم يهتدوا إليه . اهـ

وقيل: معناه لأذهبنا أعينهم حتى لا يبدو لها شق ولا جفن، والمطموس: الذي لا يكون بين جفنيه شق(١).

وقوله ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ لايخلو من أن يكون على حذف الجار، وإيصال الفعل، والأصل فاستبقوا إلى الصراط، أو تضمن معنى ابتدروا، أو يجعل مسبوقا لا مسبوقا إليه، أو ينتصب على الظرف، والمعنى: لو شاء لمسح أعينهم، فلو أرادوا أن يسبقوا إلى الصراط، أي: الطريق الذي اعتادوا سلوكه إلى مساكنهم كما كانوا يسبقون إليه في أمور دنياهم لم يقدروا، وتعايا عليهم سلوكه فضلا عن غيره ﴿ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: فكيف يبصرون الحق إذا أغشيناهم ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي: مسخا يجمدهم مكانهم، أي: نميتهم فيه، والمكانة والمكان واحد، كالمقامة والمقام، وقيل: مكانتهم على عظيم حالهم عند أنفسهم، وقيل: معنى ﴿لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ لجعلناهم حجارة، وقيل: قردة وخنازير(٢).

قال في البرهان: يعني غَيَّرْنَا خِلَقَهُمْ الحسنة إلى الخلق المشوهة، عذابا وانتقاما . اهـ

والمسخ في قول بعض العرب: هو الشئ المتغير القبيح، قال الشاعر:

---

(١) في البرهان: والمطموس: مأخوذ من طمس الكتاب، وهو محو أثره، ومن الناس: هو الذي لا يكون بين جفنيه شق. انظر البرهان خ.

(٢) ذكره في الكشاف ونسبه الى ابن عباس ٣/ ٢٩١.

وأنت مسيخ كلحم الخوارفلا أنت حلو ولا انت مر

أي: متغير، والله أعلم.

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا﴾ في أمورهم التي أرادوها ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ ٦٧﴾ إلى منازلهم بل يهلكون مكانهم.

قال الحسين بن القاسم عليه السلام: يقول عز وجل: إنه لو أعماهم ومسخهم، وغَيَّرَ صورهم وعقولهم لما قدروا على المضي في حوائجهم، ولا على الرجوع إلى أهلهم.

ثم قال تعالى ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ أي: من نطيل عمره نقلبه في خلقه فيتناقص في كمال الأحوال التي كان زائدا فيها، وهو طفل حتى يعود حاله كحال الطفل في ضعف جسده وعقله وعمله كما ينكس السهم، فيجعل أعلاه أسفله.

ثم قال ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ٦٨﴾ معناه: أفتأمنون عقابه بالطمس والمسخ، مع ظهور الدلائل على قدرته على ذلك، كأنكم لا عقول لكم.

وفي البرهان: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن من فعل هذا بكم قادر على بعثكم.

ثم قال تعالى ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ أي: ما علمنا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بتعليم القرآن الشعر على معنى أن القرآن ليس بشعر، كان المشركون ينسبون محمدا صلى الله عليه وآله وسلم إلى أنه متقول للقرآن، وأن القرآن شعر، فرد الله قولهم، وبين أنه ليس بشعر؛ ولأن الشعر موزون مقفى مقصود إلى وزنه، وذلك مفقود في القرآن، وإن اتفق شئ على وزن الشعر فلا يسمى شعرا لعدم القصد؛ إذ لا يخلو كثير من الكلام الذي ليس بشعر على أن يكون فيه ما يتأتى وزنه وزن الشعر، ومع ذلك لا يسمى شعرا.

ثم قال ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أي: لايصح ولايتسهل لو طلبه، ولا يتهيأ له؛ لأن الله منعه قبل النبوة ليبعد نسبته إلى العلم والتلقن، وكان صلى الله عليه وآله وسلم

لايعرف ذوق استقامة وزن الشعر، وإن اتفق منه شئ كان نادرا موافقا، فلم يعرف صلى الله عليه وآله اتزانه، نحو قوله:

أنــــا الــــــنـــبــــــي لا كـــــذب أنــــا ابــن عــبــد الـــمـــطـــلـــب[(١)]

ثم قال تعالى ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما الذي يتلوه عليكم ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ إلا تذكير ووعظ للجن والإنس ﴿وَقُرْءَانٌ﴾ من الله عز وجل، أي: كتاب يتلى ويقرأ في المحاريب فيه الفرائض والحدود والأحكام ﴿مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ أي: يبين لمن تدبره أنه قرآن، وأنه كلام الله المعجز للبشر.

ثم قال ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي: عاقلا متأملا ؛ لأن العاقل كالميت أو حي البصر حي القلب من الهدى، أو من كان مؤمنا، أو من أراد أن يحيا بالإيمان.

قال محمد بن القاسم عليه السلام: يريد تعالى بالحياة وذكرها حياة العقل والنفس في قبولها للهدى، وتذكرها ؛ لأن من كان لا يتذكر بالقرآن فهو كالميت الذي لاحياة فيه، لايبصر نور القرآن المضيء كضوء الشمس لولا تعامي الكافر عما أهدي به إليه.

ومعنى قوله ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: يقع الوعيد ويجب العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ وقيل: أراد بالقول الحجة، أي: وتلزم الحجة الكافرين، ذكره الواحدي وغيره.

قال محمد بن القاسم عليه السلام: ثم رجعت القصة والخبر إلى مثل ما ذكر الله في أول السورة، ونبه عليه من شكر النعم، فأخبر سبحانه عن تمكينه لهم الأنعام؛ إذ جعلهم لها مالكين، يفعلون فيها ما يشاؤن"[(٢)].

---

(١) هو في مجموع تفسير الأئمة، وفي الرازي ٩/٣٠٥، وفي الكشاف ٣/٢٩٢. قال في تخريج الكشاف: متفق عليه من حديث البراء بن عازب .. الخ.

(٢) إلى هنا من كلام الإمام محمد بن القاسم عليه السلام، وما بعده غير موجود في تفسيره.

فقال لاإله إلا هو منبها ومذكرا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ تفهيما منه سبحانه لعظيم النعمة في الأنعام، والأنعام فهي ما جعل الله تبارك وتعالى، وخلق من الآبال، وهي من نعم الله على الناس العظام الكبار، فملكهم إياها وهو الذي ابتدعها وأنشأها، والأيدي هاهنا القدرة، وما نبه على صنع ما أراد من القوة . اهـ

والمعنى فيه كما قال سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ﴾ [الذاريات . ٤٧] أي: بقوة، ويجوز أن يكون من فعلنا وعملنا[١]، أي: مما اختصصنا به، ولم يقدر عليه غيرنا، وذكر الأيدي استعارة من عمل ما يعمل بالأيدي.

وقوله: ﴿أَنْعَامًا﴾ يريد الإبل والبقر والغنم ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ أي: خلقناها لأجلهم فملكناهم إياها، فهم يتصرفون فيها تصرف الملاك، مختصون بالإنتفاع بها، أو فهم لها ضابطون قاهرون، من قوله[٢]:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا

قال محمد بن القاسم عليه السلام: "وذكر سبحانه تذليله لها مع عظم خلقها، وشدة أسرها وأوصالها وغلبتها لما هو أعظم قوة أضعافا من الإنسان، فأمن غضبها وصيالها، وذللها سبحانه مع هذا كله من أمرها للإنسان فبلغت في الذل والذلة والإقبال والتصرف لضعف الصبيان، يقول الله سبحانه عند ذكر تذليله لها ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾[٣] أي: سخرناها، فهي تنقاد لضعيفهم وصغيرهم".

---

(١) في نسخة (من فعلنا وعلمنا)

(٢) ومثله في الكشاف ٣/ ٢٩٢، قال في مشاهد الإنصاف: هو للربيع بن منيع، قاله حين بلغ مائة وأربعين عاما عاش بعده مائة وستين.

(٣) إلى هنا تم كلام الإمام محمد بن القاسم عليه السلام، وما بعده ليس منه . وتمام كلام الإمام القاسم بن محمد بعده هو ما يأتي وهو قوله: (والركوب: الإبل فهي الراحلة التي تركب).

﴿فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ﴾ فالرُّكوب بالضم: المصدر من قولك: ركب يركب ركوبا والرَّكوب بالفتح: الدابة التي تصلح أن تركب، وقرئ (ركوبهم) و(ركوبتهم) وهما اسمان لما يركب، وقرئ (رُكوبهم) بضم الراء، فمنافعها ركوبهم عليها.

قال محمد بن القاسم عليه السلام: "والركوب للإبل، فهي الراحلة التي تركب، فمنها لعمري كما قال الله سبحانه: ﴿رَكُوبُهُمۡ﴾ التي يركبون، وبها وبركوبها على أسفارهم البعيدة يقوون ؛ لأنها في الأسفار من أفضل ما به يتبلغون، وغيرها من الدواب وإن ركب لا يقوى على ثقال الأحمال، ولا يصبر في السفر على طول المدة من انقلاب الأيام والليالي على ما تطيقه الآبال، والركوب في عربي اللسان من الإبل: ما ذل وركب وحمل"[(١)].

ثم قال الله تعالى الجواد الكريم، الذي لا يبلغ جوده وكرمه ورحمته جواد ولا رحيم ﴿وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ٧٢﴾ فهي لعمري عند العرب من أفضل ما يأكلون وأطيبه لحما، وأجراها في النحر والحر وأعظمها عظما[(٢)].

ثم ذكر ما لهم فيها من المنافع الكثيرة التي يعملونها ويرفقون بها من الجلود والوبر فذكر ما فيه مِنَّةٌ منه من ذلك ومعتبر[(٣)] فقال سبحانه: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۖ﴾ فذكر سبحانه عظيم النعمة في لبنها المشروب، فليس تعالى يذكر، ولا يعجب إلا بعجيب، وفي لبن الإبل وفضله وصحته وجودة غذائه في الأبدان ومنفعته، وما لشاربه بشربه من عجيب الزيادة في قوته،

(١) ولفظ الإمام محمد بن القاسم عليه السلام (على مثل ما يطيقه ركوب الآبال) وزاد في مجموع تفسير الأئمة (وكذلك الحلوب التي تسميها العرب فهي المحلوبة التي تحلب).

(٢) في مجموع تفسير الأئمة (وأجزأها في النحر والحر، وأعظمها عظما) وما أثبتناه هو ما في نسخة تفسير الإمام محمد بن القاسم التي بين أيدينا ..

(٣) إلى هنا مثله في تفسير الإمام محمد بن القاسم عليه السلام باختلاف يسير، ولفظ الإمام محمد بن القاسم في تفسيره (فذكر ما فيه منه من ذلك من منة ومعتبر، وذكر سبحانه عظيم النعمة في لبنها) إلخ.

تقول العرب قولا واحدا، تجمع[١] عليه في بلدانها، [مع] أنه لم يدخل الأجواف شراب قط أصح صحة، ولا أنفع منفعة، ولا أبين في الأبدان أثرا، أطيب لريح الأجساد طيبا، ولا أنفى لكل آفة وداء، ولا أصفى للألوان صفاء، وألطف للبطون، مع شده لعصب البدن لطفا . من ألبان الإبل.

ويقال: إن ما في عرب البادية من صفاء الألوان، ولين الأسنان، وقوة البطش في الأبدان أنما هو لما يشربون من ألبان الإبل . فذكر الله سبحانه المنة بنعمة بينة بها بين ما منَّ على الناس من النعم[٢]، فليفهم من عقل وتفكر وتفهم أن في المذكور خبرًا عجيبا من الأمور، وقد أجمع الأطباء أن ألبان الإبل لكثير[٣] من الأسقام من أصح الدواء، وهو يعد من أطيب ما يشرب من اللبن، وأنفعه في الغذاء، وقد يقول من يشرب المسكر المحرم من مجان العرب وشطارها: إن لبن الإبل يجدونه أصح إذا شربوه من المسكر؛ لما يجدون به من القوة، ويصفي من الألوان، ويلين من أبشارها، قال الله سبحانه وتعالى منبها على الشكر لفضل ما جعل في الأنعام من النعم الكبار العظام: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾[٤]. اهـ

أي: مالهم يعرضون عن هذه النعم ويعبدون غير المنعم، أفلا يشكرون رب هذه النعم بتوحيده وطاعته.

ثم رجع القصص والخبر إلى ما في أول السورة من تنبيه المنذرين

---

(١) لفظ المصابيح (مجمعا عليه) وما أثبتناه هو ما في تفسير الإمام محمد بن القاسم حيث اللفظ له.

(٢) لفظ الإمام محمد بن القاسم عليه السلام في تفسيره (فمتى ذكر الله سبحانه المنة بنعمة بينة لها، ما من على الناس من النعم وليفهم من عقل وفكر وتفهم ..) الخ.

(٣) في المجموع (لكبار من الأسقام) وكذلك في تفسير الإمام محمد بن القاسم الذي بين أيدينا.

(٤) تمام تفسير الإمام محمد بن القاسم عليه السلام هو ما يأتي من قوله (ثم رجع القصص والخبر).

الذين ذكر الله سبحانه أنه بعث إليهم رسله للتذكير والنذارة، فذكر ضلالهم في أصنامهم، وما يقولون به كذبا، ويموهونه باطلا في عبادتهم من النصرة، فقال سبحانه ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ أي: الأصنام ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: لرجاء أن الآلهة تنصرهم بالشفاعة عند الله.

ثم أخبر أن ذلك لا يكون فقال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ قال الهادي عليه السلام: "هذا إخبار من الله سبحانه بخطأ المشركين في أنفسهم، واتخاذهم من دونه ما لا يضرهم ولا ينفعهم، وجعلهم لهم آلهة يعبدونهم من دون إلههم، ثم أخبر أنهم لا ينصرونهم ولا يستطيعون ذلك فيهم، ولا في أنفسهم.

ثم قال: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ يقول: الآلهة التي يعبدونها من دون الله لاتنفعهم، ولا تضرهم في شئ من أمورهم، وهم مع ذلك للآلهة ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ يقول: مجتمعون على عبادتهم، وعلى التذلل والخضوع لهم، كتخشيع الجند لمالكهم، فشبه اجتماعهم على آلهتهم وعبادتها من دون ربها باجتماع الجند لمالكهم فسماهم بفعلهم وبتذللهم وتخشعهم للآلهة جندا، وهم لا يجدون عندهم مع ذلك مضرة ولا نفعا".

والضمير في ﴿وَهُمْ﴾ للكفار، والمعنى: والكفرة عبدة الأصنام جند محضرون في الدنيا لخدمة الأصنام؛ تعنيفا منه جل وعلا لمن يخدم ويستعبد، ويتذلل للأصنام ؛ لأنها لاتعي، ولا تعقل، وقيل: الضمير للأصنام، ومعناه: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ﴾ أي: معدون لعذابهم؛ لأنهم يجعلون وقود النار.

ثم عزى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم عما يجد من الحزن بقولهم، والغم الذي يعتريه رحمة منه صلى الله عليه وآله وسلم لعشيرته من النار، وحزنا لما يكذبونه فيما أنذرهم، وأخبرهم من صادق الأخبار فقال تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ وتكذيبهم لك وأذاهم ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من العداوة ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ منها، فنحن نجازيهم على ذلك.

ثم قال سبحانه على الكافرين محتجا بالحجة والبرهان، وموقفا، ومنبها لغفلة هذا الإنسان، وما استعظم[١] من التجديد بعد البلى لميت الأبدان: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مذرة خارجة من قذارة النجاسة ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ فذكر الإنسان بما لاينكر، ولا يقدر على جحده، بل هو مقر من خلقه من نطفة.

قال عليه السلام: والنطفة في اللسان: القطرة الصغيرة القليلة عند العرب من معروف البيان، وقد يدور ذلك بينهم كثيرا، يقول القائل إذا ظمئ وعطش، وقل الماء في السفر إذا طلب ماء يسقاه من رفيق أو غير رفيق، وكان الماء عزيزا غير موجود: يا هذا اسقني نطفة قليلة، يريد: قطرة من الماء حقيرة غير كثيرة، وكذلك تقول العرب، في وصف ماء السقاء، والوعاء إذا ذهب ماء القربة أو الوعاء، فلم يبق منه إلا الصبابة القليلة: ما بقي في القربة أو غيرها إلا نطفة . يريدون: قطرة في التقليل قليلة، فَذَكَّرَ الله الإنسان بعجب عجيب من الشأن في قدرته على خلقه من أقل القليل من النطفة، والماء المهين الذليل مبتديا له ومخترعا، والنطفة: فهي النطفة في قلتها[٢] وضعفها ووهنها ومهانتها لاروح فيها، ولاحياة ولا أعضاء ولا صورة مهيأة.

ثم أخرج منها مع قلتها وضعفها بدنا وأعضاء عجيبة في تأليفها وترصيفها فيها مع ما فيها من الحواس الخمس من البصر والسمع والشم والمذاقة واللمس، وما هو أعجب من ذلك كله مما لا يحس هذه الحواس إلا به من النفس والعقل، وما صارت تلك النفس إليه من العقل، فبينما هي نطفة لا تعقل إذ صارت إنسانا خصيما يقبل ويدبر، ويسمع ويبصر، ويشم ويذوق ويلمس، وينطق ويخاصم مبينا في خصومته، فأي آية أدل لهذا الإنسان على قوة الله وقدرته على إحيائه وتجديد رميم عظامه بعد موته ما

(١) في المجموع (فيما استعظم).

(٢) في المجموع (في بنيتها وضعفها).

أراده من عجيب الآية والدلالة على قدرته في خلقه من النطفة وما قدرها وفيها من صورته، فالله الذي خلقه . بعد إذ لم يكن . هو القادر على تجديد مابلي له بعد الموت من البدن ؛ لأن عمارة الخراب من الأشياء وتجديد ما بقي لها من البقايا أقل في المعقول المعروف، وأهون من الاختراع لها والابتداء.

ثم قال لا إله إلا هو للمنكر الجاهل التائه في ضلاله الغافل، الذي لم يفهم قدرة ربه القدير ولم يعقل: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ وهذا مثله الذي ضرب وسمي مثلا ؛ لما دل عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل، وهي إنكار قدرة الله على إحياء الموتى.

ثم قال ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ أي: ترك خلقه أن يستدل به، أو تنبيها على الإعتبار به، أي: مثَّل لنا مثلاً ونسي ابتداء خلقه، وما هو حجة عليه، وهو أن الله ابتدأه واخترعه من نطفة ولم يكن شيئا، حتى صوره وهيأه، وقدره كما قدر سواه، وأن إعادته بعد البلى أقل من الإنشاء والإبتداء، وذلك حين ﴿قَالَ﴾ الإنسان الضال الذميم: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ استبعاد أن يعود خلقا جديدا، فأمر الله تعالى نبيئه أن يجيبه بما فيه دليل لأولي الألباب فقال سبحانه ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في الدنيا، أي: من قدر على إنشائها أول مرة من غير شئ فهو قادر على إعادته في النشأة الثانية من شئ.

ثم قال سبحانه ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ يريد أن الله عزوجل عليم من وجوه الخلق بما لايعلمه إلا هو، فهو عالم كيف يخلق مبتدئا إذا خلق، وكيف يخلق البدن بعد بلائه خلقا ثانيا إذا بلي وتمزق، كل هذا من الخلق وغيره من وجوه خلق المخلوقات التي خلقها بين الأرض والسموات، فهو فيه بكل خلق عليم، وهو عند من كان ذا فهم وعقل تفكر في قدرته قادر على إحياء العظام وهي رميم.

والرميم: اسم لما بلي من العظام غير صفة كالرمة والرفات، فلذلك لم يؤنث حيث أخبر به عن المؤنث، فلا يقال: لم لم يؤنث ؟ وقد وقع خبرا لمؤنث، ولا هو فعيل بمعنى فاعل أو مفعول، وفيها دليل على أن الحياة تحل العظام(١).

ثم زاد تبارك وتعالى من نظر واعتبر آية أخرى، وهي من آياته ودلائل قدرته الكبرى، ومكذبة بمن كان بجهله لإحياء الموتى منكرا، فقال لا إله إلا هو مذكرا ومعبرا ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ والشجر الأخضر: فهو الرطب المخضر إذا قدحت بعيدانه النار مع خضرته وندوته، فجعل الله النار المحرقة في عيدانه آية مستكنة غير محرقة لما هي فيه من العيدان لا يراها راء ببصر ولا عيان حتى يخرجها الله بالقدح من العود

(١) في هذه الآية فائدة عظيمة، وقد كانت تثير إشكالا لي، مع يقيني الكامل بالبعث والنشور، وهو أن بعض أجزاء إنسان هي أجزاء لإنسان آخر، أو حيوان سيبعث، وقد بحثت كثيرا عن توضيح لهذه المسألة، فوجدته أخيرا في ما أنقله لكم مما وجدته في تفسير الرازي ٢٦/ ١٠٩عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ قال: يعني كما خلق الإنسان ولم يكن شيئا مذكورا كذلك يعيده، وإن لم يبق شيئا مذكورا، وثانيها: أن من تفرقت أجزاؤه في مشارق العالم ومغاربه، وصار بعضه في أبدان السباع، وبعضه في جدران الرباع كيف يجمع ؟ وأبعد من هذا هو أن إنسانا إذا أكل إنسانا وصار أجزاء المأكول في أجزاء الآكل، فإن أعيد فأجزاء المأكول إما أن تعاد إلى بدن الآكل فلا يبقى للمأكول أجزاء تخلق منها أعضاؤه، وإما أن تعاد إلى بدن الآكل منه فلا يبقى للآكل أجزاء !؟. فقال تعالى في إبطال هذه الشبهة: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ ووجهه أن في الآكل أجزاء أصلية، وأجزاء فضلية [اي كالفضلة] وفي المأكول كذلك، فإذا أكل إنسان إنسانا صار الأصلي من أجزاء المأكول فضليا من أجزاء الآكل، والأجزاء الأصلية للآكل هي ما كان له قبل الأكل ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم الأصلي من الفضلي فيجمع الأجزاء الأصلية للآكل وينفخ فيها روحه، ويجمع الأجزء الأصلية للمأكول، وينفخ فيها روحه، وكذلك يجمع الأجزاء المتفرقة في البقاع المبددة في الأصقاع، بحكمته الشاملة، وقدرته الكاملة.

وقد وجدت أيضا كلاما لبعض العلماء مفاده: أن الذي ينفخ فيه الروح، والذي لابد من حشره هو الذي لاتستقيم الحياة إلا به، وهو قريب من هذا حيث تكون الأجزاء الأصلية هي التي لابد منها لبقاء الحياة، ونفخ الروح، وهي التي ستبعث وتحيا ـ والله أعلم.

للإنسان، فأي أعجوبة أعجب، أو أي آية في التنبيه على قدرته أقرب من هذه الآية إذ يخرج الله النار الحارة المحرقة من عيدان الشجر الباردة الخضراء المورقة، ويقال: إنها ـ والله أعلم: شجرة المرخ، وهي شجرة من أسرع الشجر عند القدح للنار أثرا، وهي أندى في القحط والخصب خضراء، وهذه آية عظيمة من عظام الآيات بغير ما شك ولا امتراء، يقول الله سبحانه: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: من الشجر الأخضر.

قال في التجريد: وهي الزنادة التي توري بها العرب، وأكثرها من المرخ والعفار[1] يقطع منهما غصنان كالسواكين، وهما خضراوان يقطران ماء، فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهو أنثى فتنقدح النار بإذن الله على ما بين الماء والنار من التضاد.

وعن ابن عباس: "ليس من شجرة إلا وفيها نار إلا العناب، ولذلك لم يتخذ منه القصارون مداقهم".

ثم ذكرهم بما هو أعظم في الحجة على قدرته عظما، وأفهمهم لمن تنبه على ترك الغفلة فهما في خلق السموات والأرض فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ﴾ أي: مثلهم في الصغر والقلة بالإضافة إلى السموات والأرض، أو يعيدهم ؛ لأن المعاد مثل للمبتدأ، وليس به، قال الله الصادق الكريم: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ فذكرهم بالعظيم الجليل من قدرته من خلق أرضه وسمواته، ونبههم على أنه إذا قدر على أن يخلق العظيم الكبير من ذلك أن أقل منه في قدرته إحياء رميم عظام كل ميت هالك ؛ لأن من خلق جميع بني آدم من أول الدنيا إلى أخرها أقل من خلق الأرض كلها فضلا عن السماوات التي هي أضعافا من الأرض وعظمها وكبرها.

قال محمد بن القاسم عليه السلام: "ثم مثل تعالى سرعة فعله من خلقه

---

(١) ومن أَمثال العرب: (أَرْخِ يدَيْكَ و استَرْخْ إِنَّ الزِّنادَ من مَرْخْ)؛ يُضْرَب لمن طلبَ حاجةً إلى كريم يكفيك عنده اليسيرُ من الكلام. (لسان العرب ٣ / ٣٣٠).

وصنعه بقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ قال عليه السلام: هذا خبر من الله جل جلاله، وإفهام لعباده، وتبيين أنه لا يعاني من أراد خلقه من الخلق والصنع والأمور بمعاناة كلفة، ولا مزاولة كف ولا بنان ؛ إذ هو متعال عن أن يوصف بأعضاء، وغير شبيه بالإنسان، وإنما أمره إذا أراد خلقا أو شيئا أن يقول له في أسرع من لمح البصر: كن، فيمتثل كائنا"[١].

وهذا جعله تعالى مثلا لأمره في السرعة، مثَّل كونه تعالى لا يمتنع عليه شئ متى أراد تكوينه بالمأمور المطيع، إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع، ولا قولَ حقيقي، وإنما هو مجاز من الكلام، ومعناه: أنه إذا أراد حدوث شئ حدث من غير توقف[٢].

ثم قال عليه السلام[٣]: يقول الله سبحانه منزها: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فسبحان ههنا وفي جميع القرآن فإنما معناها: بُعْدان، يريد الله سبحانه أنه بعيد عما قال به الجاهلون، وأنكره من قدرته على إحياء الموتى الكفرة الذين لا يعقلون.

وأما قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فمعناه ـ والله أعلم ـ: الذي في ملكه وقدرته ملكوت كل شئ.

واليد عند العرب وأهل الفصاحة منهم: فهي القدرة لا اختلاف في ذلك بينهم، وكذلك ما يقول الله عز وجل في تنزيله عند الصداق وفي النكاح وذكره: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ فعقدة النكاح ليست بعقدة حبل معقودة، ولا هي في يده وقبضته ترى كالعقد

---

(١) المجموع ـ تفسير الإمام محمد بن القاسم لسورة يس ص ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) قال السيد العلوي في حاشية الكشاف: فالممثل: الشئ المكون، والممثل به المأمور المطيع، والتمثيل: كن فيكون؛ لأنه اللفظ المستعار لذلك المعنى .

(٣) يعني محمد بن القاسم عليه السلام.

معاينة موجودة، وإنما هي في يده بملكه لها، وولايته إياها فكذلك الله في يده وقبضته ملكوت كل شئ ؛ إذ يقول الله المالك للأشياء كلها الذي خلقها وابتدأها، والملكوت في اللسان: فهو الملك كله جميعا في البيان، وكذلك الجبروت فهو: التجبر والتعظم الذي لا يجوز لغير الله، وهو كله لله معا.

قال الحسين بن القاسم عليه السلام: والأصل في ملكوت هو ملكات، ثم بدل الألف التي في ملكات واوا، فجاءت ملكوت كل شئ، وهي جماعة ملكه، فصار الواو أحسن في اللفظ، وأجلى في المنطق، وهو مثل الجبروت فيما روي عن الإمام أبي عبد الله محمد بن القاسم عليه السلام[(١)]. اهـ

والثاني: الملكوت للمبالغة في إحاطته بجميع الأشياء ودخولها تحت ملكته.

وقوله تعالى ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ وعيد، في من قرأ بياء الغيبة، ومن قرأه بالتاء فهو وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين، أي: ترجعون جميعا، فيثيبكم ويعاقبهم، وينصف لكم منهم.

وقول الله سبحانه وجل وعظم عن كل شأن شأنه [﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾][(٢)] فأصدق القول ؛ إذ الخلق جميعا إليه مرجعهم عند الموت والوفاة، وحين يبعثون.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) قال الرازي ٢٦/١١٢، والملكوت: مبالغة في الملك كالرحموت والرهبوت، وهو فعلول أو فعلوت، فيه كلام، ومن قال: هو فعلول جعلوه ملحقا به

(٢) ما بين قوسي الزيادة من تفسير الإمام محمد بن القاسم عليه السلام.

سورة الملائكة عليها السلام (فاطر)

أربعون وخمس آيات في المدني الأول، والعراقي، وست في الشامي والمدني الأخير، مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ اعلم أن الحمد لله يكون على النعمة في أكثر الأمر، ونعم الله قسمان عاجلة وآجلة، والسور المفتتحة بالحمد خمس، سورتان منها في النصف الأول، وهما الأنعام والكهف، وسورتان في الآخر وهما هذه السورة، وسورة سبأ، والخامسة هي فاتحة الكتاب، تقرأ مع النصف الأول ومع النصف الآخر، وفاتحة الكتاب لما اشتملت على ذكر النعمتين بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إشارة إلى النعمة العاجلة، وقوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ إلى النعمة الآجلة، قرئت في الإفتتاح، وفي الإختتام

ومعنى ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾أي: خالقهما ومبتدعهما على غير مثال[1].

---

(١) وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي ما لفظه:
أخبرنا أبو جعفر، قال: حدثنا علي بن أحمد، قال: حدثنا عطاء بن السائب، عن أبي خالد، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ معناه: مبتدئ خلقها. وقوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ معناه يزيد في الأجنحة، وقال: في حسن الصوت.
وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ معناه: أن يعمل بالمعصية، ويتمنى المغفرة. =

= وقوله تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ معناه: وكسبهم هو يبور، معناه: يهلك، ويذهب باطلا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ معناه: أعذب العذب ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ معناه: أملح الملوحة

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ معناه: جووار تجري فيه تشق الماء.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ معناه: القشر الذي يكون على ظهر النواة، وقال: إنها الفوفة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ معناه: يتبرؤن منكم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ﴾ معناه: الكافر ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ معناه المؤمن، و﴿الظُّلُمَاتِ﴾ الكفر، و﴿النُّورِ﴾ الإيمان، و ﴿الْأَحْيَاءُ﴾ المؤمنون. و﴿الْأَمْوَاتُ﴾ الكفار.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ فالحرور بالنهار، وقال: الحرور بالليل، والسموم بالنهار، وهما شدة الحر ووهجه، وقال: الظل: الجنة، والحرور: النار.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ معناه: عاقبتهم. وقوله تعالى: ﴿جُدَدٌ بِيضٌ﴾ معناه: طرائق بيض.

وقوله تعالى: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ معناه: جبال سود، والغرابيب: هي السود، ويقال: أسود غربيب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فيخشى: يخاف، ويخشى: يعلم.

وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ معناه: خوف النار، وقال: هم الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ معناه: يصبحون.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ معناه: ستون سنة، وقال أربعون سنة ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ معناه: الشيب. وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ معناه: إلا دأب الأولين وصنيعهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ﴾ معناه: يفوته ويسبقه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ﴾ معناه: يعاقبهم ويكافئهم.

وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام ما لفظه:

تأويل قول سيدنا ومولانا عز وجل: ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ أي: ذوي أجنحة منهم من له جناحان، ومنهم فيما روي من له ثلاثة أجنحة، ومنهم من له أربعة أجنحة، ليست مثل أجنحة الطير، بل هي أجنحة على غاية الكمال، لا تشبه أجنحة الطير في حال من الأحوال، بل زينة وقوة من أجل الجمال، ولباس عجيب من صنع ذي الجلال. =

= ومعنى قول مولانا عز وجل: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ معنى الغرور: هو إبليس اللعين وغيره من كل من يغر ويخدع بتزيينه ونصّر ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ فالألف من قوله: ﴿أَفَمَن﴾ هي صلة وزينة، والله أعلم ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ أي: لا تقتل نفسك بالغم عليهم.

ومعنى قوله: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي: تطيره في الهواء وترفعه، قال الشاعر:

إذا ثار النقع طارت

يريد الفرس يطير بحوافره التراب، وترفعه، قال الإمام عليه السلام:

علي من الزغف ماذية   وتحتي ظمر تثير العما

أي: ترفع الغبار. ومعنى ﴿كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ أي: كذلك الحياة، ومعنى قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ أي: يصعده إلى السماء، ويحفظ لصاحبه حتى يثاب عليه ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ أي: يرفع صاحبه عند الله في أعلى منازل الصالحين، ويمكن أيضا أن يكون: الله يرفع العمل الصالح، ولكنه اختصر ولم يذكر اسمه واكتفى بضمير الهاء.

ومعنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ معنى يمكرون هو يخفون السيئات والقبائح والإحتيال ﴿وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي: يهلك ويمتحق ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي: في علم الله عز وجل ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: سهل غير عسير، ولا يجهله العليم الخبير، والفرات: هو العذب، والسائغ: هو اللطيف اللذيذ، قال الهادي إلى الحق صلوات الله عليه:

طعامهم الزقوم فيها وشربهم   حميم وغساق لا يسوغ من الحر

أي: لا يطيب لهم، ولا يتهنون به عند شرابهم ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ أي: رطبا لينا ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ أي: فوارغ ليس فيها شئ وهي تسير في الماء شواحن كسيرها مواخر فراغها وثقلها سواء في معنى الحركة والمسير، هكذا روي عن العالم صلوات الله عليه.

ومعنى قوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ أي: يدخل الليل على النهار، والإيلاج الإدخال قال الهادي الى الحق صلوات الله عليه:

وأولجت المران في ثغر النحر

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ قيل: إن القطمير هو قشرة على عجمة التمرة تكون على النواة بيضاء رقيقة، وزعمت العامة أن القطمير والفتيل والنقير في النواة خاصة، فالقطمير قشرتها تلك الرقيقة البيضاء، قال الشاعر:

لم أنل منكم فتيلا ولا   زندا ولا فوقه ولا قطميرا

والفتيل: هو الشق الذي العجمة، وقيل أيضا: إنه ما فتله الإنسان بين أصابعه من الوسخ، والله أعلم وأحكم. قال الشاعر: =

. . . .

= فإن اللوم لا يغني فتيلا.

وقال آخر:

هام بها قلبي وقلبي لم يثب منها فتيلا غير إعراض وصب

وأما النقير: فزعموا أنه النقطة التي وسط النواة، قال الشاعر:

وليس الناس بعدك في نقير

فهذا ما سمعنا من قولهم والله أعلم وأحكم، وأما قولنا نحن وما نعتقد: فإن الفتيل والقطمير والنقير هو الشئ القليل اليسير الحقير، ولا يلتفت إلى قول العوام، وقد سمعنا على أئمتنا ماهو أحق من قولهم.

ومعنى قول مولانا عز وجل ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ يقول عز وجل: إنهم لا يصغون لقولكم، ولو أصغوا إليه وسمعوه ما أجابوكم، يعني الجن الذي يدعونهم أهل الشرك من دون الله، ويتعوذون بهم لا ينفعونهم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي: يتبرأون من إخائكم وولايتكم، ويجحدون محبتكم، ولا ينفعونكم.

ومعنى قوله: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ يعني من الذنوب ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: ذو قرابة ومودة، بل تأتي كل نفس بعملها، وتجازى على وزرها وحملها ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ وهذا مثل مضروب لموت قلوبهم عن الحق، ومعنى قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: كيف وجدوه ورأوه، والنكير هو العذاب المنكر النكير الذي لم يجر بمثل عادة من الهلاك والتدمير ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ والجدد: هي اللمع والبقع والقطع، قال الشاعر يصف ثورا من الوحش

ذلق الروق موشى بجدد

أي: حديد القرن مزين بعلامات ونقط ولمع، وهي الجدد والقطع، ومعنى قوله: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ الغربيب: هي الشديدة السواد قال الشاعر:

والعين قادحة واليد سابحة والرجل طامحة واللون غربيب

﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ أي: عملا لا يهلك عند الله ولا يبطل، ولا يضيع، والبائر من التجارة هو الذي لا يشترى، ويسمى كاسدا أيضا، والبائر من العمل هو الهالك الباطل الذاهب، ومعنى قوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: لما مضى قبله من التوراة والإنجيل، ومعنى قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ أورثنا، أي: بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ملكنا وأعطينا الذين اصطفينا، أي: اخترنا من كل عبادنا الذين اصطفينا، وهم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بأمر الله وحكمه ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ يعني بالسابق إلى الخيرات =

قال في البرهان: والفطر: الشق للشئ بإظهار الحسن(١)، يقال: فطر ناب البعير إذا طلع، وفطر دمه إذا أخرجه، وفطر البئر إذا ابتدأها، وفي ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ تأويلان، أحدهما: خالقها ومنشئها، والثاني: شاقها بما ينزل منها، وما يعرج فيها.

ثم قال عزوجل ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ إلى الخلق فيما يشاء من وحي إلى نبي، أو نصرة، أو غير ذلك مع إنعام أو انتقام.

ثم وصفهم فقال ﴿أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ أي: أصحاب أجنحة ؛ لما كانوا سكان السماء فيحتاجون في النزول والصعود إلى الأجنحة.

= فذرية محمد ﷺ منازل ثلاث منهم أوباش همج رعاع كفرة أوضاع، ومقتصدون أخيار مطيعون، ومنهم سابقون بالخيرات، أي: سابقون إلى الخيرات، فقامت الباء الزائدة مقام إلى، والإقتصاد في اللغة: هو الإقتصار على الكفاية، قال الشاعر:

وينال العيش من لم يقتصد.

ومعنى قوله: ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾ أي: يصيحون ويصرخون، ويقولون. ومعنى قوله: ﴿خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلف وعقب لمن سلف من الأمم الماضية، ومعنى قوله: ﴿إِلَّا مَقْتًا﴾ أي: بغضا، ومقت الله عذابه وغضبه وعقابه، وقد بينا جميع صفات الله عز وجل في كتب التوحيد، ومعنى قوله: ﴿كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي: متأنيا لا يعجل، غفورا ساترا للذنوب ممهلا، ومعنى قوله: ﴿جحدوا أيمانهم﴾ أي: غاية قسمهم وحلفهم، قال الشاعر:

وإن حلفت بالله جهد يمينها   فليس لمحصور البنان يمين

أي: غاية قسمها واجتهادها ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ أي: لا يقع ويحيط ويهلك، ويحيق الإحتيال القبيح إلا بأهله، قال الشاعر:

تحدر من إشراف كوكب برهة   فهوَّ لترب الساعدية حائق

ومعنى ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾هي سنة الله وحكمه بالهلاك للظالمين. ومعنى ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي ما ترك على ظهر الأرض من كافر يدور ويمشي لولا حلمه وإنظاره ، قال الشاعر :

فكلٌ ليس يعنى بالدبيب   فخذ ما شئت من درع ورمح
وخذ ما شئت من عدد لحرب

أي: فكل منا لا يعجز عن الدبيب الى القتال ، ومن هذا الوجه سمى الله الناس دوابا. ومعنى قوله ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي وقت معلوم.

(١) في الأصل (الحق) وفي البرهان (الحسن) وقد أصلحنا اللفظ على البرهان.

وقوله ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ تقسيم للأجنحة، أي: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة أجنحة ليست مثل أجنحة الطير، بل أجنحة على غاية الكمال لا تشبه أجنحة الطير في حال من الأحوال، بل هي زينة وقوة من أجمل الجمال، ولباس عجيب في الصنع الحسن من صنع ذي الجلال.

ثم قال تعالى ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ قيل: هو راجع إلى الأجنحة، أي: يزيد في الأجنحة على الأربعة ما يشاء على ما تقتضيه حكمته، وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج، وله ستمائة جناح)[1] وروي أن اسرافيل عليه السلام معه اثنا عشر الف جناح[2].

وقيل: هو عام في كل ماخلق، فإنه يزيد فيه ما أراد بالزيادة في الخلق من طول، وقصر، وحسن وجه، وحسن شعر، وحسن صورة، وقوة، وذلاقة في اللسان.

وقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١﴾ يقرر قوله: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ يقول سبحانه: هو ما يشاء فعله قادر أن يفعله لا يمتنع منه شئ فيفوته، كل شئ في قبضته، ما شاء أن يفعل فعل، وما أراد أن يجعل جعل، فهو قدير على ذلك مقتدر، قوي على تدبير ما يشاء أن يريد.

ولما بين كمال القدرة ذكر بيان نفاذ المشيئة، ونفاذ الأمر فقال تعالى ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ﴾ أي: ما يرسل لهم من نعمة رزقا أو مطرا أو صحة، أو غير ذلك ﴿فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾ أي: لا أحد يقدر على إمساكها ﴿وَمَا يُمۡسِكۡ﴾ أي: من رحمته، لكن ترك لدلالة الأول عليه، ويحتمل

---

(١) قال في تخريج الكشاف ١٣٨: متفق عليه من حديث ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح، ولفظ ابن حبان (رأيت جبريل عند سدرة المنتهى وله ستمائة جناح ينتشر في ريشه الدر والياقوت).

(٢) في نسخة (اثنا عشر جناحا).

العموم، أي: ما يمسك من رحمته وغضبه، وإنما فسر الأول دون الثاني للدلالة على أن رحمته سبقت غضبه.

فأخبر سبحانه أنما يمسك ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد إمساكه، وما: اسم متضمن معنى الشرط، ولفظه مذكر، وقوله: ﴿لَهُۥ﴾ باعتبار لفظه، وقوله: ﴿لَهَا﴾ باعتبار المعنى وهو الرحمة، وكان التأنيث هنا أولى لأنه قد فسر بالرحمة فحسن إتباع الضمير التفسير.

ثم قال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب القادر على الإرسال والإمساك ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ أي: الذي يرسل ويمسك على حسب الحكمة والمصلحة.

واعلم أنه تعالى لما بين أن الحمد لله، وبين بعض وجوه النعمة التي تستوجب الحمد على سبيل التفصيل - بين نعمه على سبيل الإجمال فقال سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ الخطاب لأهل مكة، أوعام، وليس المراد بذكر النعمة باللسان فقط، بل به وبالقلب، وبحفظها عن الكفران، وشكرها: بمعرفة حقها والإعتراف بها وطاعة موليها، وكل الناس مغمورون في نعمته، وإن عنى أهل مكة فأراد بالنعمة إسكانهم حرمه، ومنعهم عن جميع العالم والناس يتخطفون من حولهم.

ثم قال تعالى ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من السماء المطر، ومن الأرض النبات.

ثم أعلمهم بوحدانيته بقوله عزوجل ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نظرا إلى عظمته حيث هو عزيز حكيم قادر على كل شئ نافذ لإرادته، فلا معبود سواه . ونظرا إلى نعمته حيث لاخالق غيره، ولا رازق إلا هو ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ أي: فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك.

ثم لما بين الأصل الأول وهو التوحيد ذكر الأصل الثاني وهو

---

(١) لفظ (قريش) مرفوع، نظرا إلى أنه تفسير للفاعل في يكذبوك، ولو نصبه بيعني لكان صحيحا.

الرسالة، فقال سبحانه ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يعني قريش[١] ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ سلي بهذا رسوله ﷺ بأن في من قبله من الأنبياء المكذبين أسوة، أي: فتأس بهم وانتظر النصر كما فعل لهم.

ثم بين من حيث الإجمال أن المكذبين في العذاب، والمكذب له الثواب بقوله تعالى ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾ لأنه مشتمل على الوعد والوعيد، أي: فيجازي المكذِّب والمكذَّب.

ثم بين الأصل الثالث وهو الحشر فقال ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ هو البعث والجزاء بالثواب والعقاب ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾ أي: الشيطان وغيره من كل ما يغر ويخدع ويضر بتزيينه، يقول لكم: اعملوا ما شئتم فإن الله يغفر كل كبيرة، ويعفو عن كل خطيئة ولما قال تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ ذكر ما يمنع العاقل من الاغترار، فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: بعقائدكم وأفعالكم، ولا يوجد منكم إلا ما يدل على معاداته، من العمل بما يسوء، وهو العمل الصالح.

ثم قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ﴾ أي: جماعته المتبعة له الذين يتحزبون إليه، أي: يجتمعون ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ لا غرض له بدعائهم إلا إهلاكهم بالنار.

واعلم أن من علم له عدوا لا مهرب له منه، وجزم بذلك فإنه يقف له عنده، ويصبر على قتاله، والصبرُ معه الظفرُ، فكذلك الشيطان لا يقدر الإنسان [أن] يهرب منه، فإنه معه، ولا يزال يتبعه إلا أن يقف له ويهزمه، فهزيمة الشيطان بعزيمة الإنسان، فالطريق الثبات على الجادة، والاتكال على العبادة.

ثم بين تعالى حال حزب الشيطان، وحال حزب الله، فقال ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأطاعوا الشيطان فيما يدعوهم إليه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وخالفوا الشيطان ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ وهو الجنة، فرتب سبحانه المغفرة والأجر، على الإيمان والعمل الصالح، فلا بد في

السعادة من الجمع بينهما، فقد بنى الأمر كله على الإيمان والعمل، وقطع الأطماع الفارغة.

ولما بين تعالى حال الكافر والمؤمن قال ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي من هذين الفريقين الذين كفروا، والذين آمنوا ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ كمن لم يُزَيَّن له، فكأنه ﷺ قال: لا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يخذله لما علم أنه لا يقبل الهدى ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ من علم أنه يقبل الهدى واللطف.

قال في البرهان: وهذه الآية عامة في جميع الكفار الذين صدوا عن طريق الحق، واتبعوا أهواءهم، وفي الكلام محذوف، وتقديره: فإنه يتحسر يوم القيامة.

قال الحسين بن القاسم عليه السلام: الألف من قوله: ﴿أَفَمَن﴾ صلة وزينة - والله أعلم . اهـ

وقيل: تقديره: أفمن زين له سوء عمله ذهبت نفسك عليهم حسرات بدلالة ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ أي: لا تهلك نفسك لأجل التحسر مما يصيبهم، و﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ﴿تَذْهَبْ﴾ لا بـ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ لأن معمول المصدر لا يتقدم عليه، ومعنى تزيين العمل والإضلال واحد، وهو أن يكون العاصي على صفة بحيث لا ينتفع بالهداية حتى يستوجب من الله التخلية والخذلان، فعند ذلك يهيم في الضلال، وإذا خذل الله المصممين [على الكفر] وخلاهم، فإن عليه ﷺ ألا يهتم بأمرهم، ولا يتحسر عليهم اقتداء بسنة الله في خذلانهم وتخليتهم.

واختلف في من نزلت، فقيل: في مشركي مكة كأبي جهل، عن ابن عباس، وقيل: في أهل الأهواء والبدع، عن سعيد بن جبير، وقيل: في اليهود والنصارى عن أبي قلابة.

وفي ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ وجهان، أحدهما: أنها حال، أو يجعل ذهب بمعنى صار، والمعنى نهيه عن أن يُصِيِّرَ نفسه حسرات، أو عن ذهابها حال كونها حسرات.

وثانيهما: الحسرات مفعول لأجله، والأول أبلغ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٨﴾ وعيد لهم على صنعهم، ثم عاد إلى البيان فقال ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ تظهره وتنشره في الهواء وترفعه، ففي هبوب الرياح دليل على الفاعل المختار، وذلك لأن الهواء قد يسكن، وقد يتحرك، وعند حركته قد يتحرك [الى] اليمين، وقد يتحرك [إلى] اليسار، وفي حركاته المختلفة قد ينشئ السحاب وقد لا ينشئ، فهذه الاختلافات دليل على مسخر مدبر، ومؤثر مقدر.

وقوله ﴿فَسُقۡنَٰهُ﴾ التفات[1] للدلالة على اختصاصه تعالى بالقدرة على ذلك ﴿إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾ بالجدب ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ بالنبات ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾.

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾ أي: مثل ذلك المذكور من إحياء الأرض بالماء يكون نشور الأموات وإحياؤهم يوم البعث، والمراد تشبيه إحياء الموتى بإحياء الأرض.

[إن قيل: ما الحكمة في اختيار هذه الآية من بين الآيات، مع أن الله تعالى له في كل شئ له آية تدل على أنه واحد؟.

قال بعض المحققين من علماء التفسير][2] نقول: لما ذكر الله أنه فاطر السموات والأرض، وذكر من الأمور السماوية الأرواح وإرسالها بقوله: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾ ذكر من الأمور الأرضية الرياح وإرسالها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾[3]. ثم قال تعالى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ لما بين برهان الإيمان أشار إلى ما كان يمنع الكفار منه، وهو العزة الظاهرة التي كانوا يتوهمونها، من حيث أنهم ما كانوا في

---

(١) من الغيبة، إلى التكلم، وذلك لأنه قال في أول الأية: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ ثم قال: ﴿فَسُقۡنَٰهُ﴾ وهو ضمير جمع متكلم.

(٢) ما بين القوسين ساقط من النسخة ب.

(٣) بعض العلماء: هو الرازي، وقد ذكره في تفسيره ٢٦/٧. ومابين الأقواس زيادة من الرازي.

طاعة أحد، ولم يكن لهم من يأمرهم [وينهاهم] فكان الكفار يتعززون بعبادة الأصنام، قال تعالى: ﴿لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ والمنافقون يتعززون بالمشركين، قال تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾[١] فهم كانوا يطلبون بهذا الكفر العزة، وفي الحقيقة فهي لله، ولمن تذلل له، فهو العزيز، ومن يتعزز عليه فهو الذليل، فبين تعالى أن لاعزة إلا لله، ولأوليائه، والمعنى: فلتطلب العزة بطاعة الله ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ فلا شئ لغيره فيها ؛ لأن عنده عز الدارين.

ثم عرف أنما نطلب به العزة هو الإيمان، والعمل الصالح بقوله ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وهو توحيده عما أشرك به الجاحدون الكافرون، أي: يصعد به إلى السماء ويحفظ لصاحبه عند الله حتى يثاب عليه.

ثم قال ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾ من أداء الواجبات واجتناب المقبحات ﴿يَرْفَعُهُۥۚ﴾ أي: يرفع صاحبه عند الله في أعلى منازل الصالحين، وقد يمكن أن يكون الله يرفع العمل الصالح، ولكنه اختصر ولم يذكر اسمه، واكتفى بضمير الهاء، ذكره الحسين بن القاسم عليه السلام.

وفي الكشاف: أي لا يصعد الكلام الطيب إلى السماء فيكتب حتى تكتب الأعمال المقبولة إلا إذا اقترن بها العمل الصالح الذي يصدقها ويحققها، فرفعها وأصعدها لتكتب في عليين، فالرافع على هذا العمل الصالح، والمرفوع هو الكلم الطيب، وهذا عن ابن عباس، والحسن، وابن جبير، ومجاهد، وقيل: الرافع الكلم، والمرفوع: العمل، وقيل: الرافع الله للعمل، والمعنى: والعمل الصالح يرفعه الله[٢].

---

(١) النساء ـ ١٣٩

(٢) انظر الكشاف ٣/ ٢٧٠ قال السيد العلوي: قال في الكشف: المختار أن يرفع العمل الصالح الكلم دون أن تكون الهاء المنصوبة تعود إلى العمل ؛ لأنه لو كان عائدا إليه لكان العمل الصالح بالنصب، على مقتضى قول سيبويه، لأنه قال: إذا قلت: قام زيد وعمرا يضربه بكر كان الإختيار في عمرو النصب ؛ لأن الصدر فعل وفاعل.

قلت: ومثل هذا في البرهان[١].

ثم قال ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾ في الآخرة، إن قيل: المكر لا يتعدى، فبم انتصب ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ؟ قال جار الله: معناه الذين يمكرون المكرات السيئات، فهو وصف مصدر محذوف[٢]. يريد يخفون السيئات والقبائح، والاحتيال في المكر: الكيد الخفي القبيح، قيل: والمراد مكر قريش به ﷺ اجتمعوا يتشاورون في أمره إما إثباته، أو قتله، أو إخراجه من مكة.

وقيل: إنه فعل المعاصي والشرك، وقيل: إنهم أهل الرياء.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين مكروا تلك المكرات السيئات ﴿هُوَ يَبُورُ ١٠﴾ أي: يهلك ويمتحق، والبوار: الهلاك، وأبطل الله مكرهم بأن أخرجهم من مكة، وأثبتهم وقتلهم في قليب بدر، فجمع عليهم مكراتهم.

واعلم أن الدلائل مع كثرتها، وعدم دخولها في عدد محصور منحصرة في قسمين دلائل الآفاق، ودلائل الأنفس كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾[٣] فلما ذكر دلائل الآفاق من السموات، وما يرسل منها، من الملائكة والأرض، وما يرسل فيها من الرياح ـ شرع في دلائل الأنفس فقال تعالى ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ أي:

(١) القول الأخير هو الذي مثل ما في البرهان، لاجميع الأقوال، ولفظ البرهان: ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ يعني أن العمل الصالح يرفعه الله لصاحبه. انظر البرهان مخطوط ص ٣٢٠.

(٢) وساق الرازي مستطردا لكلام الزمخشري، ويحتمل أن يقال: استعمل المكر استعمال الفعل فعداه تعديته، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يحتمل ما ذكرناه أن يكون السيئات وصفا لمصدر تقديره الذين يعملون العملات السيئات. انظر الرازي ٢٦/٩.

(٣) فصلت ـ ٥٣.

خلق أصلكم آدم ﷺ من تراب ﴿ثُمَّ﴾ خلق نسله ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾.

قال الرازي: الكلام غير محتاج إلى هذا التأويل، بل ﴿خَلَقَكُم﴾ خطاب مع الناس، وهم أولاد آدم ﷺ، وكلهم من تراب ومن نطفة ؛ لأن كلهم من نطفة، والنطفة من غذاء، والغذاء بالآخرة ينتهي إلى الماء والتراب، فهو من تراب صار نطفة(١).

﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: أصنافا ذكورا وإناثا، أو زوج بعضكم بعضا عن قتادة.

وفي البرهان: يعني ذكرانا وإناثا فالواحد الذي معه آخر من شكله زوج، والاثنان زوجان . قال الله تعالى:﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾(٢) اهـ.

وقوله تعالى ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ إشارة إلى كمال العلم، فإن ما في الأرحام [قبل الإنخلاق] بل بعده ما دام في البطن لايعلم حاله أحد، كيف والأم الحاملة لاتعلم [منه شيئا] فلما ذكر بقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ كمال قدرته، بين بقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ كمال علمه.

ثم بين نفوذ إرادته بقوله تعالى ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي: في علم الله سبحانه، فالكتاب عبارة عن علم الله جل جلاله، فبين أنه القادر العالم المريد، والأصنام لا قدرة لها، ولا علم، ولا إرادة، فكيف يستحق شئ منها العبادة

وفي الهاء في ﴿عُمُرِهِ﴾ قولان، أحدهما: أنها راجعة إلى معمر آخر غير الذي يزاد في عمره، كأنه قيل: وما يعمر من معمر، ولا ينقص من

---

(١) الرازي ٩/ ٢٢٧.

(٢) انظر البرهان، وقد أصلحنا اللفظ من البرهان.

عمر معمر آخر، ونظيره: قوله: عندي درهم ونصفه، أي: ونصف درهم آخر، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، ووجهه: الجمع بين هذا وبين قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

وثانيهما: أنها راجعة إلى المعمر الأول، وعلى هذا قولان، أحدهما: أن العمر عمران، مشروط، وغير مشروط، قيل: مثال ذلك أن يكتب أنه إن حج أو غزا فعمره أربعون، وإن حج وغزا فعمره ستون، فإذا جمع بينهما وبلغ الستين فقد بلغ عمره، وإن أفرد أحدهما فلم يعد الأربعين فقد نقص من عمره الذي هو الغاية، وهو الستون، واليه أشار النبي صلى الله عليه وآله: (إن الصدقة والصلة يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار)[١].

وقيل: يمد في عمر معمر حتى يصير هرما، ولا ينقص من عمره بأن يموت طفلا[٢].

وقيل[٣]: يكتب عمره في الصحيفة كذا وكذا سنة، ثم يكتب في أسفلها: ذهب يوم، ذهب يومان، فهو معنى النقص.

ثم قال تعالى ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾ أي: سهل غير عسير، ولا يجهله العليم الخبير.

---

(١) قال في الكافي الشاف تخريج الكشاف لابن حجر: أحمد من طريق القاسم عن عائشة، لكن قال: (وحسن الخلق) بدل (الصدقة) ورواه البيهقي في الشعب من هذا الوجه كذلك، وزاد (حسن الجوار) .وله طريق آخرى عند الأصبهاني عن ابي سعيد بلفظ (صلة الرحم، وحسن الخلق، وبر الوالدين) وزاد (وإن كان القوم فجارا).

(٢) قال في البرهان: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ معناه: ما يمد في عمر معمر حتى يصير هرما، ولا ينقص من عمره حين يموت طفلا ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ أي: في علم الله سبحانه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يعني أن زيادة المعمر، ونقصان عمر الآخر عند الله يسير. اهـ وبهذا يتضح أن هذا القول الذي ذكره المصنف من الصنف الثاني، هو في البرهان من القسم الأول، وهو أن الضمير في ﴿عُمُرِهِۦٓ﴾ لمعمر آخر.

(٣) نسب هذا القول الزمخشري إلى سعيد بن جبير. انظر الكشاف ٣ / ٢٧١.

وفي البرهان: يعني أن زيادة المعمر، ونقصان عمر الآخر عند الله يسير.

ثم قال تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾ العذب والمالح، أي: وما يستويان في انتفاع الناس بهما ﴿هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ أي: ماؤه، والفرات: هو العذب، وذكره تأكيدا لاختلاف اللفظين، كما يقال: هذا حسن جميل. والسائغ: هو اللطيف اللذيذ سهل المرور في الحلق لعذوبته ﴿وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: مر، مأخوذ من أجت النار، كأنه يجرح من شدة المرارة، ويخرق الحلق بملوحته، ضربهما الله تعالى مثلين للمؤمن والكافر، أو الكفر والإيمان، ثم استطرد في صفة البحرين وما علق بهما من نعمه وعطائه، بعد أن تم التشبيه فقال ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ أي: ومن كل واحد منهما ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو السمك من الحيتان، تكون في كل البحرين ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهي اللؤلؤ والمرجان.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ أي: السفن ﴿فِيهِ﴾ أي: في كل واحد منهما ﴿مَوَاخِرَ﴾ أي: شواق للماء بجريها، من مخرت السفينة الماء شقته، والسفن الذي اشتقت منه السفينة قريب من المخر؛ لأنها تسفن الماء، كأنها تقشره كالمخر.

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿مَوَاخِرَ﴾ أي: فوارغ ليس فيها شيء، وهي تسير في الماء شواحن كسيرها مواخر، فراغها وثقلها سواء في معنى الجري والمسير، كذا روي عن العالم[1] صلوات الله عليه. اهـ

ثم قال تعالى ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالتجارة وغيرها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ على ما أتاكم من نعمة، ومعنى لعل: الترجي، وهو مستعار للإرادة، أي: إرادة شكركم.

---

(١) يعني: القاسم بن ابراهيم عليه السلام.

ثم قال تعالى استدلالا آخر باختلاف الأزمنة ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ أي: يدخل الليل في النهار، والإيلاج: الإدخال ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ كما مر، وقال الثعلبي: يدخل من ليل الصيف في نهاره حتى يرجع ثلثا الزمان نهارا، والثلث ليلا، ويدخل من نهار الشتاء في ليلة حتى يرجع ثلثا الزمان ليلا والثلث نهارا.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾هو ذللهما لمنافع الخلق على نظام مستقيم كما يذلل العقلاء ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ أي: لإدراك أجل معلوم، وهو يوم القيامة، وقيل: هو السنة في الشمس، والشهر في القمر.

ثم قال تعالى ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ أي: ذلك الذي فعل هذه الأشياء من فطر السموات والأرض، وإرسال الرياح، وخلق الإنسان من تراب وغير ذلك ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾ كله فهذا إخبار من الله سبحانه بأن الأمر كله له، لا مشارك له فيه، والحكم له وبيده، ذكره الهادي عليه السلام

ثم بين ما ينافي صفة الإلهية، وهو قوله ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ أي: وكل من تدعون، أي: تعبدون ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ من الأصنام ﴿مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾ قيل: هو القشرة الرقيقة المحيطة بالنواة.

وقال الهادي عليه السلام: القطمير: فهو الأمر الصغير الحقير، الذي لا يكون له وزن، وهو مثل النقير والفتيل، وقد قيل: إنه أيسر منهما وأخف، فأخبر سبحانه أنهم لا يملكون من الأمر شيئا لا نصرا لأوليائهم، ولا عونا ولا تفريجا عنهم، ولا غوثا، بقياس هذا القطمير فضلا عن غيره.

ثم قال تعالى ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ إبطالا لما كانوا يقولون: في عبادة الأصنام عزة، من حيث القرب منها، والنظر إليها، وعرض الحوائج عليها، والله تعالى لا يُرى، ولا يصل إليه أحد، فقال سبحانه: هؤلاء لا يسمعون دعاءكم لأنهم جماد ﴿وَلَوۡ سَمِعُواْ﴾ فرضا وتمثيلا ﴿مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾ لأنهم لا يدعون لأنفسهم ما تدعونه لهم من الإلهية، وقيل: معناه ما نفعوكم.

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: لا يسمعوا لقولكم، ولو أصغوا له وسمعوه ما أجابوكم، يعني الجن التي يدعونهم أهل الشرك من دون الله، ويتعوذون بهم لا ينفعونهم، ولما بين عدم النفع منهم في الدنيا بين عدم النفع منهم في الآخرة، بل أشار إلى وجود الضرر منهم في الآخرة بقوله عز وجل ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي: يتبرءون من إخائكم وولائكم، ويجحدون محبتكم، ولا ينفعونكم . اهـ

وقيل: معناه يكفرون بإشراككم وعبادتكم إياهم، يقولون: ما كنتم إيانا تعبدون، ينطقهم الله بذلك.

وقوله تعالى ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ يحتمل أن يكون خطابا مع النبي صلى الله عليه وآله، ووجهه أن الله تعالى أخبر أن الخشب والحجر يوم القيامة ينطق ويكذب عابده، وذلك أمر لا يعلم بالعقل المجرد لولا إخبار الله عنه، وثانيهما: هو أن يكون ذلك خطابا غير مختص بأحد، أي: هذا الذي ذكر كما ذكر ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ أيها السامع كائنا من كنت ﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ والمعنى: أنما أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق ؛ لأني خبير بما أخبرت به.

ثم قال ﴿۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ المستحق عليكم الحمد لعظم نعمه عليكم، معناه ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي: يعذبكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ يعبده ولا يشرك به ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ أي: بممتنع ولا يتعذر، وهذا غضب عليهم لما كثر الدعاء من النبي صلى الله عليه وآله والإصرار من الكفار، قالوا: إن الله لعله محتاج إلى عبادتنا حتى يأمرنا بها، فقال تعالى ﴿۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ فلا يأمركم بالعبادة لاحتياجه إليكم.

فإن قيل: التعريف في الخبر قليل، والأكثر أن يكون الخبر نكرة، والمبتدأ معرفة ؟.

قيل له: لما كان الخبر هاهنا معلوما عند السامع، والمبتدأ كذلك وقع الخبر تنبيها لا تفهيما، فحسن تعريف الخبر غاية الحسن، كقول القائل: الله ربنا، ومحمد نبيئنا، وهاهنا لما كان كون الناس فقراء أمرا ظاهرا لا يخفى على أحد، قال: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بتعريف خبر المبتدأ وقوله ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ إعلام بأن لا افتقار إلا إليه، ولا اتكال إلا عليه، وهذا يوجب عبادته لكونه مفتقرا إليه، وعدم عبادة غيره لعدم الافتقار إلى غيره.

ثم قال﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ﴾ أي: هو مع استغنائه يدعوكم كل الدعاء، وأنتم مع احتياجكم لا تجيبونه، ولا تدعونه فيجيبكم.

قال الرازي: وهاهنا مسألة، وهي أن لفظ العزيز استعمله الله تارة في القائم بنفسه، حيث قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾[1] وقال في هذه السورة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ واستعمله في القائم بغيره، حيث قال: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾[2] وقال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾[3] فهل هما بمعنى واحد؟ أو بمعنيين؟ قال: نقول: العزيز هو الغالب في اللغة، من (عز) أي: غلب، فالله عزيز أي: غالب، والفعل إذا كان لا يطيقه شخص يقال: هو مغلوب بالنسبة إلى ذلك، فقوله: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ أي: لا يغلب الله ذلك الفعل، بل هو هين على الله، وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يحزنه ويؤذيه، كالشغل الغالب . اهـ

ثم إنه تعالى لما بين الحق بالدلائل الظاهرة، والبراهين الباهرة ذكر ما يدعوهم إلى النظر فيه فقال ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الوزر: الوقر من الأحمال، ووزر الشيء: إذا حمله، ومنه الوزير ؛ لأنه يتحمل أثقال الملك

---

(١) الأحزاب: ٢٥

(٢) إبراهيم ـ ٢٠

(٣) التوبة ـ ١٢٨.

بتدبيره، أي: لا تحمل نفس يوم القيامة إلا وزرها الذي اقترفته، لا تؤاخذ بوزر غيرها كما يفعله جبابرة الدنيا.

فالنبي ﷺ لو كان كاذبا في دعائه لكان مذنبا، وهو معتقد بأن ذنبه لا تحملونه أنتم، وهو يتوقى ويتحرز،، والله تعالى غير فقير إلى عبادتكم، فتفكروا، واعلموا أنكم إن ضللتم فلا يحمل أحد وزركم، وليس كما يقول أكابركم: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾.

ثم قال تعالى ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ﴾ من الذنوب ﴿إِلَىٰ حِمۡلِهَا﴾ أي: إلى وقرها ﴿لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ﴾ أي: لا تُجَاب، ولا يخفف عنها بحمل شئ منه، ومعناه: أن النفس المثقلة بالذنوب إذا دعت يوم القيامة من يتحمل عنها شيئا من ذنوبها لم تجده.

ثم قال سبحانه ﴿وَلَوۡ كَانَ﴾ المدعو المستغاث ﴿ذَا قُرۡبَىٰٓ﴾ أي: ذا قرابة ومودة، بل تأتي كل نفس بحملها، وتجازى على وزرها وحملها، قال ابن عباس: يقول الأب للإبن، والإبن للأب أثقلتني ذنوبي فاحمل عني ذنبا واحدا، فيقول: إليك عني فإني مشغول بما علي.

ثم قال تعالى ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ أي: إنما ينفع إنذارك ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ حال من الفاعل أو المفعول، أي: يخشون عذاب ربهم غائبا عنهم العذاب، وقيل: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ في السر، أي: الغائب عن عيون الناس، لا كالمنافقين، والمتسترين من الفسقة ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ كما فعلها أصحابه ﷺ حيث تركوها منارا منصوبا ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: تطهر بفعل الطاعات وترك المعاصي ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ﴾ أي: ما يعود نفع ذلك إلا إليه وحده.

ثم لما بين ألا تزر وازرة وزر أخرى، وبين أن الخشية تنفع الخاشين، ومن تزكى فتزكيته لنفسه قال سبحانه ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾ وعد للمتزكين بالثواب، أو فهو مجاز كل أحد بما عمل، والمعنى في ذلك

أن التزكي إن لم تظهر فائدته عاجلا فالمصير إلى الله يظهر عنده في يوم اللقاء في دار البقاء، والوازر إن لم تظهر تبعة وزره في الدنيا تظهر في الآخرة، إذ المصير إلى الله.

ثم لما بين الهدى والضلالة، ولم يهتد الكافر، واهتدى المؤمن، ضرب لهم مثلا بالبصير والأعمى فقال تعالى ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾ تمثيل للكافر والمؤمن، أي: كما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي المؤمن والكافر، وقوله: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ مثل للحق والباطل، وما يؤديان إليه من الثواب والعقاب، والمراد أنه تعالى ذكر لمآلهما ومرجعها مثلا، وهو الظل والحرور، فالمؤمن بإيمانه في ظل وراحة، والكافر بكفره في حر وتعب، فمثل الثواب بالظل، والعقاب بالحرور.

قال الفراء: الحرور بمنزلة السموم، وهو الريح الحارة، ويكون الحرور بالنهار وبالليل، والسموم لا يكون إلا بالنهار، ومثل هذا في البرهان، وقال أبو عبيدة: يكون الحرور بالنهار مع الشمس، وكان رؤبة يقول: الحرور بالليل، والسموم بالنهار، ذكر هذا في التجريد[1].

ثم ذكر سبحانه مثلا آخر في حق المؤمن والكافر فقال ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ﴾ مثل للذين دخلوا في الإسلام الذين أحياهم الإيمان ﴿وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ مثل للكفار الذين أماتهم الكفر.

وقال الهادي إلى الحق عليه السلام: هذه أمثال ضربها الله عز وجل للحق والباطل، والدين والكفر، فجعل الباطل والمبطل كالأعمى، والظلمات والحرور كالأموات، وجعل الحق والمحقين كالبصير، والنور والظل كالأحياء؛ ليعتبر بذلك المعتبرون. اهـ

---

(١) ما أثبتناه هو لفظ النسخة ب، واللفظ في النسخة أ (قال الفراء: الحرور بمنزلة السموم، وهو الريح الحارة بالنهار مع الشمس، وكان رؤبة يقول: الحرور بالليل، والسموم بالنهار. ذكر هذا في التجريد).

وأما قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ﴾ فهو إثبات لقدرته تبارك وتعالى على ما يشاء، وأما قوله ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ فإنما هذا مثل مضروب لموت قلوبهم عن الحق قال ﷺ: مثل الله به الكافرين أنهم في الإعراض وقلة الاستماع والقبول كأهل القبور، والمعنى: كما أنك لا تسمع الموتى في القبور، كذلك لا تسمع الكافر، وفيه مبالغة من وجهين أحدهما الموت، والثاني: الاحتجاب بالقبر.

ثم قال ﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي: ما عليك إلا الإنذار والتبليغ.

ثم بين أنه ليس نذيراً من تلقاء نفسه إنما هو نذير بإذن الله وإرساله فقال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: إرسالا مصحوبا بالحق، أي: بالقرآن ﴿بَشِيرٗا﴾ بالوعد بالحق، أي: بالجنة ﴿وَنَذِيرٗاۚ﴾ بالوعيد الحق من الله للمذنبين.

ثم قال تعالى ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾﴾ أي: سلف فيها نبي، وليس المراد هنا بالأمة أهل كل عصر، فإنه كان النذير الواحد لأهل أعصار كثيرة، فإن عيسى نذيرا إلى بعث محمد ﷺ، وما بين عيسى ومحمد آثار النذارة باقية لم تخل إلى أن درست وبعث محمد ﷺ، ولكن المراد بالأمة الذين علم الله أنهم سواء في مصلحة شريعة نبيهم، فهؤلاء أمة، وإذا تغيرت المصلحة، واندرست الشريعة جاء نبي آخر، إما بشريعة جديدة، أو داعيا إلى الشريعة الأولى معرفا بها لاندراسها ونسيانها، وفي قوله: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾﴾ تقرير لأمرين، أحدهما: تسلية قلبه ﷺ حيث يعلم أن غيره كان مثله متحملا لتأذي القوم، وثانيهما: إلزام القوم قبوله، فإنه ليس بدعا من الرسل، وإنما هو مثل غيره يدعي ما ادعاه الرسل ويقرره.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: كذبوا رسلهم فتأس بهم ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات الشاهدات

على صحة النبوة ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ وهي الصحف ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ أي: النير المشرق الذي كشف ظلمة الباطل بما فيه من نور الحق، عبارة عن عظم هدايته، كالتوراة والإنجيل والزبور، لما كانت هذه الأشياء في جنسهم أسند المجيء بها إليهم إسنادا مطلقا، وإن كان بعضها في جميعهم، وهي البينات، وبعضها في بعضهم وهي الزبر، والكتاب، والمعنى: أنت جئتهم بالبينة، والكتاب فكذبوك، وآذوك، وغيرك أيضا أتاهم بمثل ذلك، وفعلوا بهم ما فعلوا بك، وصبروا على ما كذبوا.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ أي: إنكاري عليهم وتدميري إياهم، والنكير: هو العذاب المنكر، النكير الذي لم تجر بمثله عادة من الهلاك والتدمير، فقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ سؤال للتقرير، فإنهم علموا شدة إنكار الله عليهم، وإتيانه بالأمر المنكر من الاستئصال، فكذلك من يكذب بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم ذكر تعالى استدلالا بدليل آخر يدل على وحدانيته وقدرته فقال ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أراد جنسا واحدا من الماء ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ أي: أجناسها من الرمان والتفاح والعنب وغيرها، أو هيآتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها.

قال في البرهان: وفيه مضمر محذوف، وتقديره: مختلف ألوانها وطعومها وروائحها، فاقتصر منها على ذكر اللون؛ لأنه أظهر . اهـ

وهذا استدلال على قدرة الله تعالى واختياره حيث أخرج من الماء الواحد ثمرات مختلفة.

[وهذا استدعاء إلى النظر في آثار قدرة الله فكأنه قال: ألم تر أيها السامع ما أظهره الله، فأنزل من السماء ماء فأخرج من الأرض بعد وقوع المطر عليها ثمرات شتى ألوانها مختلفة ..][1]

(١) ما بين القوسين ثابت في النسخة أ، وساقط من النسخة ب.

ثم قال تعالى ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ أي: ذو جدد وهي الخطط، معناه: وخلق الله جبالا فيها طرائق بيض وحمر، والطرائق في الجبال من بياض أو حمرة أو سواد، ويقال جُدَّة الحمار للخطة السوداء على ظهره، والجدد واحدها: جُدَّة، ومنه قول زهير:

كأنه أسفع الخدين ذو جدد طاف بربع بعد الصيف عريانا

فالجدد: هي اللمع والبقع والقطع، قال الشاعر يصف ثورا من الوحش:

ذَلِقُ القرن موشّىً مُجَدَّداً

أي: جديد القرن، مزين بعلامات ونقط ولمع، وهي الجدد والقطع.

وقوله: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧﴾ يحتمل أنه معطوف على جدد، فيكون المعنى: ومن الجبال ذو جدد، ومنها غرابيب سود كلها، ويحتمل أنه عطف على بيض وحمر، فيكون المعنى: ومن الجبال جد بيض وحمر وسود، فيقع غرابيب موقع سود، ويراد بالغرابيب سواد في الجبال لا سواد الجبل كله، ولا بد من تقدير مضاف أي: ومن الجبال ذو جدد، أو مما خلقنا من الجبال جدد.

قال في البرهان: والغرابيب: الشديد السواد، الذي لونه كلون الغراب، ومنه قوله ﷺ: (إن الله يبغض الشيخ الغربيب) يعني: الذي يخضب بالسواد، وفيه تقديم وتأخير، وتقديره: وسود غرابيب . اهـ قال الشاعر:

العين قادحة واليد سابحة والرجل طامحة واللون غربيب

أي: شديد السواد.

قال في التجريد: فيكون أصل الكلام: وسود غرابيب، ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه، ثم جئ بعد بالموصوف بيانا، كقوله[1]:

---

(١) هذا البيت للنابغة، وهو من شواهد الكشاف.

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ركبان مكة بين الغيل والسند
(اهـ).

والمقصود أن إخراج الثمار دليل على القدرة، ثم زاد عليه بيانا، وقال: ﴿مُخْتَلِفًا﴾ كذلك في الجبال في نفسها دليل القدرة والإرادة ؛ لأن كون الجبل في بعض نواحي الأرض دون بعضها، والاختلاف الذي في هيئة الجبل فإن كون بعضها أخفض، وبعضها أرفع دليل القدرة والاختيار، ثم زاده بيانا، وقال: ﴿جُدَدٌ بِيضٌ﴾ أي: مع دلالتها بنفسها، هي دالة باختلاف ألوانها، كما أن إخراج الثمرات في نفسها دلائل، وباختلاف ألوانها دلائل.

ثم قال تعالى استدلالا آخر على قدرة الله تعالى وإرادته ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ الدواب: كل حيوان يدب، والأنعام: الإبل والبقر والغنم، وخصها لشدة الحاجة إليها ؛ لأنها أكثر ما يشاهد، وخص الناس بالتقديم لمزيتهم، وقوله: ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ أي: كاختلاف الثمرات والجبال.

وفي البرهان: كذلك تختلف أحوال العباد.

ثم قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ ومن لم يخش الله فليس بعالم . اهـ

لأن إنما للحصر، فكان فيه إشارة إلى أن الجاهل لا يخشى . إن فاتحة الزبور: رأس الحكمة خشية الله.

والمعنى: ما يخشاه حق خشيته إلا العلماء الذين استدلوا عليه بهذه الآيات، وعلموه بصفاته وعدله وتوحيده، وما يجوز عليه، وما لا يجوز، فعظموه حق تعظيمه، وفي الحديث (أعلمكم بالله أشدكم له خشية) فالخشية بقدر معرفة المخشي، والعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه.

وهذا دليل على أن العالِم أعلى درجة من العابد ؛ لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1] فبين أن الكرامة بقدر التقوى، والتقوى بقدر العلم، فالكرامة بقدر العلم لا بقدر العمل.

نعم: العالم إذا ترك العمل قدح في علمه، فإن من يراه يقول: لو علم لعمل.

ثم أخبر تعالى بما يوجب الخوف والرجاء بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: غالب قاهر، قادر على عقوبة العصاة، وهذا وعيد يوجب الخوف التام، وقوله ﴿غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ وعد، أي: عظيم الغفران لأهل طاعته، والثواب والعفو عنهم لمن تاب، وهذا يوجب الرجاء البالغ.

ولما بين العلماء بالله وخشيتهم وكرامتهم بسبب خشيتهم ذكر العالمين بكتاب الله العاملين بما فيه فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ يعني الذين يعملون بما فيه، من تلاه إذا تبعه، وقيل: الذين يداومون على تلاوته، أي: قراءته، وهي عادتهم.

ثم قال ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: صلوها كاملة بحدودها، وأداموها لمواقيتها، وقال: ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ يريد الزكاة أو هي وغيرها ﴿سِرًّا﴾ لأجل الإخلاص ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ في الظاهر لنفي التهمة، وليقتدى بهم.

وقوله ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: طلب الثواب بالطاعة، يضعف قول المتكلمين: إن فعل الشرعيات لطلب الثواب لا يصح، وإنما هو للوجوب، ولهم حجج مذكورة.

وقوله: ﴿يَرْجُونَ﴾ خبر إن، ومعنى ﴿لَّن تَبُورَ﴾ أي: لن تكسد، والبائر من العمل: هو الهالك الباطل الذاهب.

---

(١) الحجرات ـ ١٣

ثم قال ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: ثواب أعمالهم، وهو متعلق بـ﴿لَّن تَبُورَ﴾ أي: تجارة نافقة عند الله ليوفيهم ما استحقوه من الثواب . اهـ

﴿أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ الزائد على المستحق، أي: يعطيهم ما لم يخطر ببالهم.

قال في البرهان: يعني بمضاعفة حسناتهم[1] . اهـ

ويجوز أن يكون ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ يرجون تجارة﴾ حال والخبر ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾أي: غفور للذنب بالتوبة، شكور لأعمالهم،ومعنى الشكر في حق الله تعالى القبول والإثابة فهو مجاز لأن الشكر حقيقة إنما هو من المنعَم عليه للمنعِم تعالى، فلم يكن شكره لنا إلا مجازا عن الإثابة والقبول.

قال في البرهان: معناه أنه يقابل بالإحسان مقابلة الشكور.

ومعنى المبالغة في ﴿شَكُورٌ﴾ أنه يعطي على اليسير الكثير.

واعلم أنه تعالى لما بين الأصل الأول وهو وجود الله الواحد بأنواع الدلائل من قوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾[2]وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم﴾[3]وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[4] ذكر الأصل الثاني وهو الرسالة فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: القرآن ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ فالمراد بالكتاب العهد، ومن للتبيين، ويجوز أن يراد به الجنس، فيكون للتبعيض.

وقوله ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: ما تقدمه من الكتب، وهو حال

(١) في البرهان، لمضاعفة حسناتهم، وفي الأصل بالباء.
(٢) فاطر ـ ٩.
(٣) فاطر ـ ١٠
(٤) الزمر ـ ٢١

مؤكدة لكونه حقا ؛ لأن الحق إذا كان لا اختلاف بينه وبين كتب الله يكون خاليا عن احتمال البطلان.

وفي قوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾ تقرير لكونه وحيا ؛ لأن النبي ﷺ لما لم يكن قارئا كاتبا، وأتى ببيان ما في كتب الله تعالى لا يكون ذلك إلا من الله سبحانه.

ثم قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ فيه وجهان، أحدهما: أنه تقرير لكونه هو الحق ؛ لأنه وحي من الله ﴿خَبِيرُۢ﴾ عالم بالبواطن ﴿بَصِيرٌ﴾ عالم بالظواهر فلا يكون باطل في وحيه لا في الباطن ولا في الظاهر.

وثانيهما: أن يكون جوابا لما كانوا يقولونه: إنه لم ينزل على رجل عظيم، فيقال: إن الله بعباده خبير يعلم بواطنهم، وبصير يرى ظواهرهم فاختار محمدا ولم يختر غيره، فهو أصلح من الكل.

[بيان المصطفين، والظالم، والمقتصد، والسابق، عند أئمة أهل البيت عليهم السلام]

ثم أخبر عزوجل أنه جعل لهذا الكتاب ورثة، وأنه اختارهم من عباده فقال عزوجل: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[1] قال الهادي عليه السلام: هم آل رسول الله ﷺ المؤمنون منهم، فهم صفوة الله وخيرته، باختياره سبحانه لأبيهم محمد ﷺ فأورثوا الكتاب، وجعل فيهم من بعد الإسرائيليين، تفضلا من الله عليهم، وإكراما بذلك لهم، ثم ميزهم وأخبر الخلق بأخبارهم، ووصفهم لهم بصفاتهم ؛ لكي لايبقى للخلق عليه

(١) لفظ المصابيح في النسخة ب، وهو مضروب عليه في النسخة أ، وهي نسخة المصنف (وللمفسرين في المعني بهذه الآية الكريمة أقوال، المعمول عليه منها قول أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم، ذكر ما ذكر الهادي عليه السلام، حيث قال الهادي عليه السلام: هم .. الخ

حجة فيهم ؛ ولئلا يحمل أحد سواية مسيئهم على محسنهم، ولا يطعن طاعن على مؤمنهم بفسق فاسقهم فقال ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ وهو فاسق آل محمد ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وهم أهل الدين والورع والعلم، منهم أئمة الحلال والحرام،وأهل الورع والإسلام ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ فهم أئمة آل محمد الطاهرون، أهل السيف المجاهدون، الذين نصبوا أنفسهم [لله، وبينوا بالحق في ذات الله، وأخافوا أعداء الله وخافوهم، وجاهدوا في سبيل الله من عَنَدَ عنهم، وحكموا بكتاب الله، وسنة نبيه][(١)]، وضربوا بالسيف من عَنَدَ عن دينه، فكملت فيهم صفات الأئمة فوجبت طاعتهم على الأمة، حجة على العالمين، ونعمة منه على المتبعين، ونقمة منه في الدنيا على المخالفين ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[(٢)].

قلت: ومثل هذا ذكره الحسين بن القاسم عليه السلام، وهو الذي في البرهان[(٣)] وغيره من كتب أئمتنا عليهم السلام، وعلى ذلك إجماع أهل البيت صلوات الله عليهم وشيعتهم، واختارهم الله على علم على العالمين لأدلة كثيرة لا يسعها هذا الموضع.

منها: (أهل بيتي كسفينة نوح)[(٤)] الخبر.

---

(١) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٣٤، ٤٣٥، وما بين القوسين منه، ومن النسخة أ، وهو ساقط في النسخة ب.

(٢) الأنفاق ـ ٤٢.

(٣) واللفظ في البرهان (قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهذه خاصة في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخيار أهل بيته من كان منهم على طريقته، ومتبعا لسنته، فإن الله سبحانه اصطفاهم لورثة الكتاب، وائتمنهم عليه، وحكم لهم به، إلا من ظلم نفسه، وقطع إرثه، وبخس حظه فلا وراثة له ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ والمقتصد: المتوسط في الطاعة ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ وهو صاحب المنزلة العليا في الطاعات، وإنما بين بهذه الآية درجاتهم، وأوضح وراثتهم).

(٤) تقدم تخريجه في الجزء الأول ص

ومنها: (إني تارك فيكم)[1] الخبر.

ومنها: (أين يتاه بكم)[2] الخبر.

ومنها: (أهل بيتي أمان لأهل الأرض)[3] الخبر، وغير ذلك زهاء ألف حديث يرويه الموالف والمخالف ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[4] ومن صرفها عن أهل البيت عليهم السلام فقد رفض هذه الأدلة، ورفض أيضا مودتهم ؛ لأن الله سبحانه قد أوجب عليهم مودتهم، وصرفُها عنهم عكسُ المودة، وهم المؤمنون، وقال تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[5] الآية، وإنما بين بهذه الآية درجاتهم، وأوضح وراثتهم، فذرية محمد صلى الله عليه وآله وسلم منازل ثلاث، قد ميزهم الله تعالى للخلق بصفاتهم، وأخبرهم بأخبارهم كما مر.

[وأما العامة من المفسرين فقد صرفوا هذا المعنى من الآية الكريمة عن النبي وأهل بيته عليه و عليهم السلام، وصرفوا الإرث والاصطفاء عن حقيقته إلى مجازه من غير ضرورة، وهذا لا يجوز لأن إيراث الكتاب حقيقة في النبي وأهل بيته ؛ لأن الكتاب نزل عليه، وهؤلاء أهل بيته، وبين إيراث الكتاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبين إيراث الأمة بون بعيد ؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أورث الكتاب بأن أنزل عليه، وأمر بتبليغه، وكلف الخلق قبوله منه أصلا وفرعا، وأهل بيته داخلون في هذا الإرث على هذا الحد، وأصل الإرث أن يصير ملك الغير إلى الغير بطريق الحكم له به حتى تكون له خاصة دونغيره، ولأنهم أولوا الأمر بعد الرسول، وحفاظ أحكام الكتاب على الأمة ؛ إذ هم قرناؤه بالنظر المعلوم في الخبر الصحيح المتواتر معناه (أنهما لن يفترقا حتى عليه

---

(١) تقدم تخريجه في الجزء الأول ص

(٢) تقدم تخريجه في الجزء الأول ص

(٣) تقدم تخريجه في الجزء الأول ص

(٤) القصص - ٦٨.

(٥) النساء - ١١٥.

الحوض) فجعل الكتاب والعترة في قرن واحد، ولهم الاصطفاء حقيقة، وغيرهم مجازا، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ فدخل في جملة هذه الآية جميع الأنبياء والأئمة والأصفياء من لدن آدم إلى محمد عليهم السلام حقيقة لا مجازا، والأمة أورثوا الكتاب بأن أمروا باتباعه على طاعة الرسول، والأئمة عليهم السلام][1]

ثم قال الهادي عليه السلام: ومعنى ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يقول: بحكم الله وأمره له، بما قام فيه السابق إليه من طاعته ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: السبق بالخيرات ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ يقول: الفضل لله الكبير العظيم، فيما أورثناهم من الكتاب الكريم . اهـ

وقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ بدل من الفضل، وفي اختصاص السابق بعد التقسيم، يذكر ثوابهم، والسكوت عن الظالم والمقتصد ما فيه من وجوب الحذر عليهما.

ثم قال ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ من حلِّيَت[2] المرأة ـ مثقل اللام ـ حلاها غيرها فهي حالٍ ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ جمع أسورة، جمع سوار، ومن تبعيضية.

وقوله: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ لبيان الجنس ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ معطوف على محل أساور، أي: يحلون من الذهب واللؤلؤ، قيل: جمع لهم بين التحلية بأساور من ذهب، وبين التحلية باللؤلؤ، أو بالأساور التي هي من اللؤلؤ، وقيل: المراد أن الأساور إنما هي من الذهب لكن ذلك الذهب في صفاء اللؤلؤ.

ثم قال: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ وإنما جمع أساور بجمع

(١) مابين القوسين ثابت في النسخة أ، وساقط من النسخة ب.

(٢) في نسخة (حليت المرأة)

الجمع، فإنه جمع أسورة، وهي جمع سوار، وقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ﴾ ليس كذلك ؛ لأن الإكثار من اللباس يدل على حاجة من دفع برد أو غيره، والإكثار من الزينة لا يدل إلا على الغنى.

ثم قال بعد ذلك حاكيا قولهم: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ قال في البرهان: يعني تعب الدنيا، وهمومها، ومِحَنها وغمومها. اهـ

وقيل: الحمد في الدنيا، وحزن المتقين: وهو خوف سوء العاقبة، وقيل: عام في كل حَزَنِ الدنيا، الحزن بفتح الحاء والزاي، وبضم الحاء وسكون الزاي: واحد، كالعدم، والعدم.

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ لغفور: عظيم الغفران، شكور: كثير الإثابة، وفي شكور مبالغة، فدل على أن القوم كثيرو الحسنات.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ لما ذكر الله سرورهم وكرامتهم بتحليتهم، وأدخلهم الجنان بين سرورهم ببقائهم فيها، وأعلمهم بدوامها حيث قال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بمعنى الإقامة، أي: الخلود الذي لا زوال له، وهي الجنة، يقال: أقام إقامة ومقاما ومقامة، قال الفراء: والمقامة بالفتح: المجلس، وقوله: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: إفضاله وعطائه وتفضله، حيث أحلنا دار كرامته الذي لا يرحل عنها من حلها، ولا يظعن عنها من قطنها، خالدا في كرامة ربه التي لا تفنى، ونعمته التي لا تبلى.

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب ومشقة ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ يعني فتور، بسبب النصب، فالنصب: هو نفس المشقة، والكلف واللغوب: نتيجة ذلك وما يتعقبه من الكلال والفتور والإعياء والونى المعروف في لغة العرب، قال الكميت بن زيد يذكر اللغوب في صفة الإبل:

وإن قيل هذا الحق لا ميل دونه   فأنضاؤهم في الحق حسرى ولغب

يقول: إبلهم معيبة من التعب والنصب عن بلوغ الحق.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ عطف على قوله: ﴿إِنَّ

﴿ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ وما بينهما كلام متعلق بالذين يتلون كتاب الله على ما بينا.

ثم أخبر سبحانه أنه ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الموت ﴿فَيَمُوتُوا۟﴾ نحو ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ وقيل: يعني لا يقضى عليهم لا يهلكون فيستريحوا ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء ﴿نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ أي: عظيم الكفران للواحد الرحمن ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أي: يتصارخون من الصراخ، وهو الصياح بجهد وشدة ﴿رَبَّنَآ﴾ أي: يقولون في استغاثتهم: ربنا ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ طلبوا الرجوع إلى الدنيا لاستدراك ما فاتهم، وفائدة قولهم: نعمل صالحا ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ على أنه يوهم أنهم يعملون صالحا غير الذي عملوه زيادة التحسر على ما عملوه من غير الصالح، مع الاعتراف به؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم على سيرة صالحة، والوهم زائل بظهور حالهم في الكفر، وركوب المعاصي.

ثم قال الله تعالى توبيخا لهم ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ قال في البرهان: روينا عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه أن التعمير في هذا المكان ستون سنة، والمعنى: قد عمرناكم العمر الذي يتفكر فيه من يريد التفكر في أمر دينه، وما يرجع إليه، وهو متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف في اصلاح شأنه.

وفي الحديث (العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة)[١] وقيل[٢]: ما بين العشرين إلى الستين، وقيل: ثماني عشرة سنة، وسبع عشرة.

(١) قال ابن حجر في تخريجه على الكشاف ١٣٩: البزار من رواية سعيد المقبري عن أبي هريرة مرفوعا بهذا، وأصله في البخاري بلفظ (من عمره الله ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر) ووهم الحاكم فاستدركه، ورواه ابن مردويه من حديث سهل بن سعد.

(٢) نسب هذا القيل في الكشاف الى مجاهد، وذكر القيل الآخر ولم ينسبه إلى أحد.

ثم قال: ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ هو الرسول ﷺ، وقيل: الشيب عن ابن عمر، وعكرمة، وسفيان بن عيينة، وقيل: موت الأهل والأقارب، وقيل: هو الحمى، وهو معطوف على معنى ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ لأن لفظه استخبار، ومعناه إخبار، أي: قد عمرناكم وجاءكم النذير.

﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ أي: فمالكم من يدفع العذاب عنكم، وقوله: ﴿فَذُوقُواْ﴾ إشارة إلى الدوام، إذ هو أمر إهانة.

ثم قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما غاب فيهما ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾ أي: مضمراتها، وهو كالتعليل؛ لأنه إذا علم ما في الصدور وهو أخفى الغيوب فقد علم كل غيب في العالم.

قال الرازي: هذا تقرير لدوامهم في العذاب، وذلك من حيث أن الله تعالى لما قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ ولا يزاد عليها، فلو قال قائل: الكافر ما كفر بالله إلا أياما معدودة، فكان ينبغي أن لا يعذب إلا مثل تلك الأيام ؟ فقال تعالى: إن الله لا يخفى عليه غيب السموات والأرض، فلا يخفى عليه ما في الصدور، وكان يعلم من الكافر أن في قلبه تمكن الكفر بحيث لو دام إلى الأبد لما أطاع الله تعالى ولا عبد[(١)].

ثم قال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال في البرهان: والخلف هو التالي للمتقدم، وهذه الآية نزلت في الحجج من ولد رسول الله ﷺ كلما مضى منهم إمام خلفه إمام آخر، وهذا دليل على أن الله لايخلي أرضه من حجة وإمام . اهـ

أي: جعلكم خلفاءه في أرضه، ملككم التصرف فيها، وأباح لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ مثل هذه النعمة ﴿فَعَلَيْهِ

(١) الرازي ٢٦/ ٣٠.

كُفْرُهُۥ﴾ أي: فعليه عقاب كفره، فهو لايعود ضرره إلا عليه، وهو مقت الله وخسار الآخرة، وقيل: معناه خلف وعقب لمن سلف من الأمم الماضية أي يخلف بعضكم بعضا، يذهب قوم ويجيء آخرون، فمن حقكم أن تعتبروا بحال الماضين، فمن كفر بعد هذا كله فعليه كفره: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ لأن الكافر السابق كان ممقوتا، والتالي لهم الذي رأى عذاب من تقدمه ولا يخشى عذابه أمقت الكل، والمقت: هو أشد البغض، ومقت الله: عذابه، وبغضه وعقابه.

ثم قال ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ وهو استبدالهم غضب الله وعقابه برضوانه وثوابه، وذلك أعظم كل خسران، وهذا الخطاب عام للناس، وقيل: خاص لمن بعث إليهم صلى الله عليه وآله.

ثم قال تعالى تقريرا للتوحيد، وإبطالا للإشراك به ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أي: تعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وأراد بالشركاء ما عبد من دون الله، من صنم ووثن، لأنهم أشركوهم في العبادة، وإنما أضاف الشركاء إليهم من حيث أن الأصنام في الحقيقة لم تكن شركاء لله، وإنما هم جعلوها شركاء، فقال: شركاءكم، أي: شركاء بجعلكم.

وقوله ﴿أَرُونِى﴾ بدل من ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ لأن معنى ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني، أي: أخبروني عن هؤلاء الذين جعلتموهم لله شركاء في الإلهية، وعبدتموهم من دونه ﴿مَاذَا﴾ أي: ما الذي ﴿خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ معناه أيّ جزء خلقوا من الأرض، وتفردوا به من دون الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أي: شركة ونصيب ﴿فِى﴾ خلق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ حتى صاروا شركاء في خلقها، ويحتمل أن يقال: قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ استفهام حقيقي و﴿أَرُونِى﴾ أمر تعجيز، فلما قال: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ يعني أعلمتم التي تدعونها كما هي عليه، وعلى ماهي عليه من العجز، أو تتوهمون فيها قدرة ؟ فإن كنتم تعلمونها عاجزة فكيف تعبدونها!؟ وإن كان وقع لكم أن لها قدرة فأروني قدرتها في أي شئ من أفق الأرض.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ ينطق بأنهم شركاء في الإلهية، والضمير في ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ للشركاء، أو للمشركين ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي: على حجة وبرهان من ذلك الكتاب، ويحتمل أم أنزلنا عليهم كتابا بأن الله لايعذبهم على كفرهم فهم واثقون به، ذكره في البرهان.

﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم﴾وهم الرؤساء ﴿بَعْضًا﴾ وهم الأتباع ﴿إِلَّا غُرُورًا ۝٤٠﴾ يغر بعضهم بعضا بما لا ينفعهم من الأعمال، قيل: وهو قولهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله.

[قال في البرهان: يغر بعضهم بعضا بما لا ينفعهم من الأعمال](١).

ثم لما بين أنه لا خلق للأصنام، ولا قدرة لها، ولا على جزء من الأجزاء بين أن الله تعالى قادر بقوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ يعني: لئلا تزولا ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي: من بعد إمساكه، ثم قال تعالى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ أي متأنيا لايعجل ﴿غَفُورًا ۝٤١﴾ معناه: ساتر للذنوب ممهلا غير معاجل بالعقوبة، حيث أمسكهما، والمعنى: أن كلمة الشرك جديرة بأن تهدّهنّ هدا، لولا أن الله حليم غفور، لعظم كلمة الشرك، كما قال سبحانه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾(٢) الآية.

وقيل: معناه أن الله تعالى هو الذي يسكنهما دائما، ولا يقدر على ذلك غيره، وقوله: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ أي: ولئن تحركتا هادّتين ما قدر أحد على تسكينهما ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد إمساكه.

ولما بين إنكارهم للتوحيد، ذكر تكذيبهم للرسول ومبالغتهم فيه حيث كانوا يقسمون على أنهم لا يكذبون الرسل فقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ

---

(١) ما بين القوسين ثابت في النسخة أ، وساقط من ب.
(٢) مريم: ٩٠.

﴿أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: أقصى جهدها، ومن حلف بالله فقد جهد يمينه.

قال في البرهان: هم قريش أقسموا قبل أن يبعث الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم حين بلغهم أن أهل الكتب كذبوا رسلهم، فلعنوا من كذب نبيه منهم، وحلفوا بالله جل اسمه يمينا ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: نبي ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ أي: ممن كذب الرسل من اليهود والنصارى وغيرهم[١] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ يعني محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ عن الحق وبعدا منه، وقوله: ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ إسناد مجازي ؛ لأنه السبب في أن زادوا أنفسهم نفورا ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني أنهم استكبروا عن طاعة الله تعالى، وقوله: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بدل من ﴿نُفُورًا﴾.

وفي المقاليد: تعليل ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ إلا أن نفروا لأجل استكبارهم.

وقوله: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ عطف على ﴿نُفُورًا﴾ وأصله: ما زادهم إلا نفورا وإن مكروا مكر السيئ، وهو مكرهم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبالمؤمنين، كما قال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وقيل: إنه الشرك.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ ولقد حاق بهم يوم بدر، ومعنى ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ أي: لا يحيط، أو لا يحل، أو لا ينزل إلا بمن مكره، قال الشاعر:

وقد رفعوا المنية واستقلت ذراعا بعد ما كادت تحيق

وهذا في معنى المثل: من حفر لأخيه جبا وقع فيه منكبّاً.

ثم قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: عادة الله التي سنها في الأمم قبلهم، وهي إنزال العذاب على الذين

---

(١) في البرهان، ممن كذب الرسل من أهل الكتاب. انظر البرهان خ ٣٢٤.

كفروا برسلهم، ويحتمل أن لا يقبل التوبة عند نزول العذاب بهم، ذكره في البرهان[١].

فإن قيل: إن الإهلاك ليس سنة الأولين، إنما هو سنة الله بالأولين؟ فقيل: الجواب عنه من وجهين، أحدهما: أن المصدر الذي هو المفعول المطلق يضاف إلى الفاعل، والمفعول لتعلقه بهما من وجه، فيقال: فيما إذا ضرب زيد عمرا، عجبت من ضرب عمرو، وكيف ضرب مع ماله من القوم والقوة، وعجبت من ضرب زيد كيف ضرب مع ماله من العلم والحلم، فكذلك سنة الله بهم أضافها إليهم لأنها سنة سنت بهم، وأضافها إلى نفسه بعدها بقوله تعالى: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ ﴾ في إنزال العذاب بهم ﴿تَبْدِيلًا﴾ أي: هو لا يختلف وعيده ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ أي: لا يقدر أحد أن يحول عذاب الله إلى غيرهم إذا أراد نزوله بهم؛ لأنها سنة، سن الله الإهلاك بالإشراك، والإكرام على الإسلام.

وثانيها: أن المراد من سنة الأولين استمرارهم على الإنكار، واستكبارهم عن الإقرار، وسنة الله استئصالهم بإصرارهم، فكأنه قال: أنتم تريدون الإتيان بسنة الأولين، والله يأتي بسنة لا تبديل لها ولا تحويل عن مستحقها، فبين عز وجل أن عادته التي هي الانتقام من مكذبي الرسل لايبدلها ولا يحولها، وأن ذلك مفعول لا محالة.

وفي هذه الآية يقول الهادي عليه السلام: معنى ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يقول: هل ينظر صاحب المكر السيئ، والمعصية لله العلي إلا أن يأتيه ما أتى الأولين الذين كانوا فيما كانوا فيه من المعاصي من إحلال النقم بهم، وإزالة النعم عنهم، فهذه سنة الأولين التي لا يوجد لها تحويل

---

(١) ولفظ البرهان: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني سنة الله في الأولين، وفيها وجهان، أحدهما: نزول العذاب بهم عند إصرارهم على التكذيب، والثاني: لايقبل التوبة عند نزول العذاب.

ولا تبديل، يريد حكم الله الذي حكم به في الأولين، وسنته في أهل المعاصي منهم من إنزاله النقم عليهم، فهذا شئ لا يحول من أهل المعاصي والذنوب، فكان ذلك من الله في الزمان الأول على صنوف في من عصاه، وهو اليوم في أمة محمد ﷺ على صنوف أخر، ينزل بمن عصى منهم،ويحل بمن اجترأ على ربه، فكان العذاب في الأولين يكون بالمسخ والقذف والخسف، والرجز، وهو في أمة محمد ﷺ بالجوع والهلكة، **والخوف والسيف، والقتل والموت، ثم يضطرهم إلى عذاب النار، وبئس المصير . اهـ**

قلت: ويشهد بصحة هذا ما رواه الإمام أبو الفتح الديلمي عليه السلام عن رسول الله ﷺ أنه صلى صلاة وأطال فيها، فقيل له: ما أطلت صلاة كاليوم ؟ فقال: (إنها صلاة رغبة ورهبة، إني سألت ربي أن يجيرني من أربع خصال فأجارني من خصلتين، ولم يجرني من خصلتين، سألته أن لا **يهلك أمتي بعذابهم من فوقهم، كما فعل بقوم نوح وبقوم لوط فأجابني، وسألته أن لا يهلك أمتي بعذاب من تحت أرجلهم كما فعل بقارون فأجابني** لكون الحجج الذين من ولدي فيهم، وسألته أن لا يفرقهم شيعا فلم يجرني، ونزل قوله: (الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون)

ولما ذكر للأولين سنة هي الإهلاك نبههم بتذكر حال الأولين فإنهم كانوا مارين على ديارهم رائين لآثارهم فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ احتج عليهم بما كانوا يشاهدونه في متاجرهم إلى الشام والعراق واليمن، من علامات المهلكين قبلهم ودمارهم، مع كونهم أشد منهم قوة.

ثم قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ﴾ أي: يسبقه ويفوته ﴿مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا﴾ لايغيب شئ عن علمه ﴿قَدِيرًا﴾ على كل الأشياء، التي من جملتها قريش.

ولما خوف الله المكذبين بمن مضى، وكانوا من شدة عنادهم، وفساد اعتقادهم يستعجلون بالعذاب، قال تعالى ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ أي: بشؤم ذنوبهم ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ أي: الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: من كل كافر يدب ويمشي، لولا حلمه وإنظاره، قال الشاعر:

فكل ليس يعيا بالدبيب فخذ ما شئت من درع ورمح

وخذ ما شئت من عدد الحروب

أي: فكل منا لا يعجز على الدبيب في القتال، ومن هذا الوجه سمى الله الناس دوابا، ذكره الحسين بن القاسم عليه السلام، ومعناه: ولو يؤاخذ الله المذنبين بما كسبوا لأهلكهم، وقيل: المراد كل الناس، المذنب وغير المذنب، أما المذنب فعقوبة، وأما غير المذنب فله أعواض، والتبقية غير واجبة، قال في البرهان: يعني من الحيوان كله الذي دب على الأرض ودرج، وقد فعل ذلك في زمان نوح عليه السلام . اهـ

عن ابن مسعود: كاد الجعل يعذب بذنب ابن آدم، وقيل: يحبس المطر فيهلك كل شئ

ثم قال: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معلوم فهو يوم القيامة.

وقال في البرهان: يعني إلى الأجل الذي ضرب لهم في الانتقام منهم بالسيف، أو نزول العذاب بهم ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ أي: عليما بأعمالهم من يستحق العقوبة والثواب، وهذا وعيد بالجزاء عليهما، أي: فحينئذ يوفى كل جزاءه؛ إن كان خيرا فخير، وإن كان شرا فشر . والله أعلم.

تم تفسير هذه السورة بحمد الله ومنه

سورة سبأ

خمسون وأربع آيات في الحجازي والعراقي، وخمس في عدد أهل الشام (مكية)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال في البرهان: يعني الذي خلق ما في السموات وما في الأرض، ومَلَكَهُ[1].

---

(١) وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليه السلام ما لفظه:
أخبرنا أبو جعفر، قال: حدثنا علي بن أحمد، قال: حدثنا عطاء بن السائب، عن أبي خالد، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معناه: يدخل ويغيب فيها. وقوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ معناه: لا يغيب عنه.
وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: مسابقين. وقوله تعالى: ﴿أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ نيبي وأهله، وقال: أوبي معناه سبحي. وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ [اي] دروعا واسعة طويلة.
وقوله تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ معناه: مسامير الدروع، معناه: لا تغلظ فتدق المسامير، ولا تدق فتسلس، ولكن أجعله قدرا. وقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ المحاريب: مقاديم المساجد والمجالس، وأحدها: محراب، والتماثيل: الصور، والجفان [القصاع الكبار. والجواب]: الحياض، واحدها: جابية، وقدور راسيات: معناه عظام.
وقوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ معناه: عصاه، وقوله تعالى: ﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ معناه: المسناة بلسان اليمن، واحدها: عرمة
وقوله تعالى: ﴿أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ﴾ فالخمط: كل شجر ذو شوك، والأكل: الجني، =

= وقال: البر: وقال: هو الأراك، والأثل: شجر .. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ معناه: متصلة، ينظر بعضها إلى بعض، ما بين اليمن والشام.
وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ معناه: من حوسب من الكفار عذب.
وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ معناه: عبر. وقوله تعالى: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ معناه: فرقناهم، وبددناهم كل مفرق مبدد. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ معناه: لنميز ونظهر.
وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ معناه: من معين.
وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ معناه: ذهب عن قلوبهم، ونفس عنها، وفزع عنها، معناه: خلي عنها.
وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ معناه: أنتم في ضلال ونحن على هدى.
وقوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ معناه: منهما، وقال: بل مكرهم بالليل والنهار.
وقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ معناه: أشباه وأمثال. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ معناه: متكبروها من الكفار.
وقوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ معناه: يوسع عليه ويكثر. وقوله تعالى: ﴿وَيَقْدِرُ﴾ معناه: ويقدر، من قوله: ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ وقوله تعالى: ﴿بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ معناه: قربى.
وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ معناه: عشر ما أعطيناهم.
وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ معناه: تغييري وعقوبتي.
وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ معناه: بقول: لا إلاه إلا الله.
وقوله تعالى: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ معناه: اثنين اثنين، وفرادى فرادى.
وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ معناه: يأتي بالحق. وقوله تعالى: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ معناه: فلا هرب.
وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ وهو التناور، قال الإمام الشهيد أبو الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام: سألوا الرد حين لا رد.
وقوله تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ معناه: بأعوانهم وأصحابهم، وقال: بالأمم الذي كانوا على منهاجهم، ومذهبهم.
وفي تفسير غريب القرآن للإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام ما لفظه.

=

. . . .

بسم الله الرحمن الرحيم

تأويل قول مولانا عز وجل: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ أي: لا يعزب عنه ولا يجهل صغيرا من الأمور ولا كبيرا، ومعنى قوله: ﴿يَعْزُبُ﴾ في اللغة: هو يغيب، قال الشاعر:

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم من الناس والأحلام غير عوازب

ومعنى قوله: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ هذا مثل مضروب لدرك علم سيدنا ومولانا الجليل تبارك وتعالى عن كل عديل أو مثيل ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: عملوا في إبطال آياتنا معاجزين، أي: مغالبين للحق، مصارعين ليبطلوا دين رب العالمين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ والرجز: هو السخط والهوان العظيم، قال الشاعر:

جعلنا القنا رجزا عليكم فأصبحت دياركم بالطعن منكم بلاقعا

ومعنى قوله: ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: قطعتم في التراب ومزقتم.

ومعنى قوله: ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أي: جنون، ومعنى ﴿كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الكسف جماعة كسفة، والكسف بنصب السين كذلك أيضا، وهي القِطَع، واحدها قطعة من العذاب، ومعنى قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ أي: رجعي عليه صوته، وهو داود صلى الله عليه، وروي أنه لما حزن صلى الله عليه على خطيئته، وفطن بعد غفلته وزلته كان يدعو إلى الله عز وجل بالأحزان والحنين والبكاء والأنين، فأمر الله الجبال تأوب معه، وهو ترجيعها للصوت، وردها له عليه، ليزداد بذلك حزنا، فلم يزل كذلك حتى نال ما أراد الله من فضلا لله ورحمته، وما أحب لأحد من المسلمين أن يناجي ربه، ولا يبكي على خطيئته إلا في خلواته حين لا يسمعه أحد غير خالقه، وذلك أقرب إلى ربه، فكل عمل عمله العبد ليريد به وجه الله ورضوانه، فإن الله لا يضيع عمله وإحسانه، ظهر ذلك أو لم يظهر إذا لم يرد به سمعه عند أحد من البشر، وإنما أخترت ذلك لما روي عن النبي ﷺ من قوله: (احترزوا من الشرك فإنه يدب فيكم دبيب النمل على المسح الأسود في الليلة الظلماء) لأنه شئ لا يكاد يبين من جهة أمر النفس وشهواتها ومحبتها للمدح وترهاتها.

ومعنى قول سيدنا عز وجل: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ أي: جعلناه لينا مثل الشمع، وقيل: إن الله ألانه بمقارب العمل، وليس ذلك شئ عندنا ؛ لأن الله عز وجل قد قرب للناس جميع الصناعات، ولو كان كذلك لا شتغل عن ذكر الله بمعاناة ذلك حتى يفوته أكثر العبادات، ويطول شغله عن طاعة فاطر السموات، وإنما أخبر الله عز وجل بلين الحديد له خاصة، فأما المقارب والإحتيال، فكل يفعل ذلك، وأيضا فإن الله قادر على أكثر من لين الحديد، وذلك لا ينكر من فعله ورحمته لنبيه المجيد.

ومعنى قوله: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ أي: دروعا سابغات، والسابغة: هي الطويلة الكاملة، =

. . . .

= ومعنى قوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ أي: في النظم والنسخ، قدرا حصينا منيعا، يدفع حد البغاة الفاسقين الظلمة الكفرة المعتدين ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ يمكن أن يكون سيرها في الغدو والمسير في اليوم الواحد مسيرة شهر في يوم واحد، والله أعلم، وليس هذا على الله بعزيز أن يسير الريح فتحمل بنيه ووليه حيث شاء، وتحمل له ما أراد من الأشياء ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي: عين الصفر، وهو النحاس، قال الشاعر:

قدور الصفر ليس من البرام

ومعنى قوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ أي: مساجد، وقيل أيضا: إن المحاريب هي البيوت الكبار من بيوت الملوك، والله أعلم.

﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ أي: أشباه الجمادات من المتاع والعدد، وأما تماثيل صور الحيوان فلعل ذلك لا يجوز لأحد، وقيل: تماثيل الأنبياء سجود في المحاريب ليحرص الناس على العبادة، والله أعلم.

ومعنى قوله: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ أي: جفان كالحفر التي تحفر حياضا للإبل، قال الشاعر:

فصبحت والطير لم تكلم جابية طمت بسيل مفعم

أي: حفر امتلأت من السيل، وقال آخر:

سيد يطعم في المَحْلِ عبيط المنقيات في جفان كالجواب وقدور راسيات

وقال آخر:

تدافعت من ماله الجوابي

ومعنى قوله: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ أي: ثابتات مثل رواسي الصخور، أرجلها بمنزلة الأثافي، لا تحمل لثقلها، ولا تحول من مكانها.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ هذا تقديم وتأخير، والمعنى والشكور قليل من عبادي.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ يريد عز وجل التنبيه لعباده والتزهيد لهم في هذه الدنيا، بما قص عليهم من خبر نبيه صلى الله عليه، وما كان قد اعطاه من الملك وصيره إليه، ثم كان عاقبة هذا الملك الجليل أن مالكه سقط ميتا لا يملك شيئا، ولا يعي ولا يعقل ملكا، ودابة الأرض هي الأرضة، وهي دواب صغار بيض يأكلن العيدان وغيرها من الأثاث والمتاع، ومعنى ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ أي: عصاه، والعصا عند العرب هي المنساة، قال الشاعر:

إذا دبيت على المنساة من كبر فقد تباعد منك اللهو والغزل

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي: سقط صلوات الله عليه ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ أنهم لا يعلمون، وأنهم بكثير من =

. . . .

= الأشياء جاهلون، وذلك أنه ﷺ لم يشتغل عن ذكر الله المرضية، ولم يتوان في أمر الله وفرضه حتى قام يتوكأ على منساته، جاهدا بالحشاشة لصلاته، فوقف لله بالخشوع، والتذلل والخيفة والخضوع، معتمدا على عصاه حتى أدركه أمر خالقه ومولاه، وقبضه إلى الرحمة وتوفاه، وثبت جسمه معتمدا لم يسقط ولم يبرح مسندا، والجن حينئذ تحسبه حيا، وتراه قائما في المحراب سويا، حتى سقطت جنبه وعظامه، وذهب عند انكسار العصا قيامه، فصلوات الله على تلك العظام ورحمته، ورضوانه على تلك الروح ومغفرته، وقد لبث الجن في الهوان والعمل والحبس والأصفاد، فانطلقوا حينئذ من تعبهم، وتخلصوا من عذابهم ونصبهم.

ومعنى قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ أي: دلالة. ومعنى قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ أي: سيل العرامة والشدة، وقيل أيضا: إن العرم هو السد الذي بنوه دون السيل، وأهل اليمن يسمون السد عرما، ويسمون حواجز الجِرَبِ أعراما، والأصل في ذلك ما ذكر المرتضى لدين الله من الشدة والعرامة، وهو أحسن الوجهين، وكلاهما حسن، قال الشاعر:

من سبأ الساكنين مارب إذ يبنون من دون سيلها العرما

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ أي: ذواتي ثمر خمط، أي: مختلط من ألفاف الشجر، وقال قوم: إن الخمط هو الأراك خاصة، والله أعلم، غير أن الإمام فسر الخمط على ما ذكرنا أنه الفاف الشجر المختلط الملتف، قال الشاعر:

وما مغزل فرد تراعي بعينها أغن غضيض الطرف من خلل الخمط

ومعنى قوله: ﴿ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ يعني قرى الشام، والله أعلم، لما كان في قرى الشام من آثار الأنبياء عليهم السلام.

معنى قوله: ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ أي: بينة عالية ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟﴾ أي: بقدر المصلحة، وكرهوا خيرة الله، وطلبوا سفرا بعيدا وبلدا قفرا مخوفا، على وجه التمرد واللعب، أو على وجه الجد في الطلب، فإن يكونوا تلعبوا واستهزأوا بأمر الله لهم بالسفر، والبحث عن النجاة فقد كفروا، وإن كانوا جادين في طلب البعد وقلة المرافق والأمان فقد كفروا نعمة الله الواحد الرحمن، وتمنوا الأضرار والتعب لكل من سافر في البعد والخوف من أهل الإيمان، والتمني لعنت المسلمين ضد الإحسان، والله أعلم وأحكم.

﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ﴾ أي: فرقناهم وشتتناهم ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ﴾ أي: ظن أنهم يطيعونه فأطاعوه، وصدق عليه ظن نفسه حين اتبعوه ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ =

= أي: لم يكن له قوة على قهرهم، ولكنهم اختاروا طاعته لأنفسهم، ومعنى ﴿حَفِيظٌ﴾ أي: عليم شهيد ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: ما له منهم من معين.
ومعنى قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ هو إذا أدخل الفزع الأكبر في قلوبهم ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ليس هذا شك، ولكنه على سبيل النصفة، ولين المراجعة والحكمة والتأديب للخلق، والحلماء إذا خاصموا بعض أعدائهم قالوا لا بد أن يكون أحدنا أصدق من الآخر ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ هذا تقديم وتأخير، والمعنى: ما ارسلناك إلا للناس كافة، أي: إليهم جميعا، قال الشاعر:
أكافة جاءتنا نمير بأسرهم أي: جميعا جاءت نمير
والكافة: هي الجميع، تقول العرب: ارسلناك إلى بني فلان كافة، أي: لم نترك منهم أحدا، ويحتمل التفسير وجها آخر: كافة للناس، أي: حجة تكفيهم عن الجهل وتمنعهم من الشرك والكفر، والكف: هو اللزوم، قال الشاعر:
وذي ظعن كففت النفس عنه وكنت على إساءته مقيتا
يريد: لزمت النفس عنه، وقال آخر:
يكف عنها الغلام الجري ما حميت كفا إذا عضت الخيل الكلاليب
ومعنى قوله عز وجل: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: مبشرا للمؤمنين، ونذيرا للخلق أجمعين ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ هؤلاء هم اليهود خاصة ـ عليهم لعنة الله ـ لأنهم لا يؤمنون بالقرآن ولا بالإنجيل الذي جاء بين يديه وقبله، وكذلك الملحدون الكفرة الجهلة، والأوباش الجاحدون لا يؤمنون بالقرآن، ولا بما كان قبله، ولا بمن خلقه ونَزَّلَه، من أراد أن يقف على كذبهم، وحقيقة جهلهم وكفرهم، فليقف على ما وضعنا من التوحيد والرد عليهم.
ومعنى قوله: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: يرد بعضهم القول إلى بعض، ومعنى قوله: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: مكرهم في الليل والنهار، ولكنه حذف بعض الكلام واختصر، وهذا جائز، قال الشاعر:
جيادك في الصيف في نعمة تصان الجلال وتعطى الشعيرا
فقال: تصان بالجلال، فحذف الباء لجواز ما ذكرنا.
ومعنى قوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: أضمروا الندامة في قلوبهم، وأظهروها بالسنتهم، فهم نادمون في ضميرهم، كمثل براءتهم في علانيتهم، قال الشاعر:
إذ لا يزال لها حب علانية ومستسر لها في الصدر مكتوم
﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أي: يعوضكم منه بدله، ومعنى قوله: ﴿مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي: يقفون عليها ويتلونها، قال الهادي الى الحق عليه السلام: =

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وهو حمد أهل الجنة، من غير تكليف، سرورا بالحمد، كقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ . اهـ

والمراد أنما في السموات، وما في الأرض نعمة من الله تعالى، وهو الحقيق بالحمد من أجله، فلما قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثم وصف ذاته بالإنعام بكل النعم الدنيوية، وهو قوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كان معناه: أنه المحمود على نعم الدنيا، ولما قال: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ علم أنه المحمود على نعم الآخرة، وهي الثواب، قيل: والفرق بين الحمدين أن حمد الدنيا واجب لأنه على نعمة متفضل بها، وهي الطريق إلى تحصيل نعمة الآخرة، وهي الثواب، وأما حمد الآخرة فليس

= درس الكتاب وجال في أرجائه يبغي الهدى فيه وكل بيان

ومعنى قوله: ﴿وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ يقول: إن قومك ما بلغوا معشار ما آتينا المكذبين الذين كانوا قبلهم، والمعشار هو العشر من الملك الزائل الفاني ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي: إن أردت منكم أجرة لا حاجة لي بعطياتكم، ومعنى ﴿نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: نرجم به على الباطل ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ ويبطله ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ يريد أن الباطل لا يبدي خيرا في أول أمره، ولا يعيد نفعا في عواقبه.

ومعنى قوله: ﴿فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لا سبق لهم، وأخذهم الله في مكان قريب إليه، لا يبعد عنه، ولا يتعذر عليه، وهذا مثل مضروب لقدرته عليهم، ومعنى قوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ كيف لهم التناول بعد أن فات العمل، وبعد المهل وانقطاع الأجل، ومعنى قوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: يرجمون بالظن الذي هو غائب عنهم بعيد منهم، قال الشاعر:

وليس الحق رجما بالظنون

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ معنى ﴿بِأَشْيَاعِهِم﴾ أي: أمثالهم وأشكالهم، واصل الشيعة في لغة العرب، والأشياع والتشيع هو الصحة والإجماع، قال الشاعر:

خليلي من عليا كنانة شيعا قصير محل الدار نأيا ومضجعا

يريد اصحبا وسيرا معه، ومعنى ﴿فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ أي: حيرة وعمى.

وصلى الله على نبينا محمد خاتم النبيين، وأهل بيته الطاهرين.

بواجب ؛ لأنه على نعمة واجبة الإيصال إلى مستحقها[١] وإنما هو تتمة سرور واغتباط للمؤمنين، يتلذذون به كما يتلذذ العاطش بالماء البارد[٢] والحق أنه لا واجب على الله تبارك وتعالى، وأن حمده في الأولى والآخرة على سواء، في كونه واجبا من جهة العقل، والشرع مؤكد له؛ لأن نعم الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة تفضل من الله سبحانه، وكذلك الثواب تفضل من الله جل ثناؤه، وعظم عن كل شأن شأنه، إلا أن الحمد في الآخرة لا مشقة فيه ولا كلفة؛ لعدم التكليف فيها ـ والله أعلم.

ثم قال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في فعله وأمره، الذي أحكم أمور الدارين، ودبرهما بحكمته، وقد جاء الحكيم في صفاته تعالى على معنيين، أحدهما: بمعنى العليم، والثاني: بمعنى المحكم لأفعاله، أي: هو حكمة وصواب ﴿ ٱلْخَبِيرُ ۝١ ﴾ بخلقه.

ثم بين الله كمال خَبره بقوله تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يدخل من الغيث، ومن الكنوز والدفائن والأموات وغير ذلك، من كل ما هي له كفات ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من الشجر والنبات، وماء العيون والكنوز والمعادن والدواب، وغير ذلك ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق، والأرزاق والملائكة، وأنواع البركات والمقادير، وغير ذلك.

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي: يطلع من الملائكة وأعمال العباد.

(١) قال في حاشية العلوي على الكشاف: قوله: وأما الحمد في الآخرة فليس بواجب لأنه على نعمة واجبة الإيصال إلى مستحقها: فيه نظر على مذهب أهل العدل ؛ لأن النعم الأخروية تنقسم إلى واجب وتفضل، ولعله جعل التفضل واجبا لسبق الوعيد، أو لأنه تابع للواجب، والأولى أن يقول: فليس بواجب لأن الدار ليست بدار تكليف، فشكر المنعم وإن كان واجبا عقلا عندهم لكنه لم يقترن به مشقة، ولا بد في التكليف منها. وهذا هو المراد من كلام المصنف في هذا السياق.

(٢) أراد بهذا أن الله تعالى حبب إليهم الشكر وجعلهم ملتذين به، فهو تتمة لما هم مسروروون به من ملاذ الجنة، فنطقهم بالحمد للتلذذ وإظهار الإغتباط بما هم فيه. (حاشية العلوي)

قال في البرهان: يعني الملائكة تنزل بالوحي، وترجع إلى أماكنها.

ثم قال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ للمفرطين في أداء الشكر إذا تابوا، ولم يعاجلهم بعقوبة التفريط[١].

ثم بين أن هذه النعمة التي يستحق الله بها الحمد، وهي نعمة الآخرة أنكرها قوم فقال تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ قولهم هذا نفي للبعث، واستبطاء لما وعدوا من قيام الساعة على سبيل الهزوء.

ثم رد الله عليهم فقال سبحانه ﴿قُلْ﴾ لهم يامحمد ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ كلما غاب عن العباد، وخفي عليهم، ومن جملته علمه بوقت قيام الساعة أخبر بإتيانها، وأكده باليمين، ثم أخبر عز وجل أنه لايجهل صغيرا من الأمور ولا كبيرا فقال سبحانه ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: مثقال ذرة ﴿وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣﴾ معنى ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ في اللغة: هو لايغيب عنه مقدار أصغر نملة قال الشاعر:

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم ... من الناس والأحلام غير عوازب

قال في الكشاف: قرئ ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ﴾ بالرفع على

---

(١) وإنما فصلت هذه الآية بالغفور الرحيم، والأولى بالحكيم الخبير، وإن كان القياس العكس لاشتمال الأولى على معنى التكميل، وأن الله تعالى كما أنه منعم في الدارين فهو محكم لأمورهما، عالم بما يصدر من العباد من الحمد في الدنيا فهو يجازيهم عليه، وانضمام الثانية بفاصلتها دل على التتميم المذكور، قيل: ويمكن أن يمنع القياس المذكور بأن يقال: الغرض من ذكر الحمد وكونه لله الدلالة على وجوبه، والأمر بفعله والنهي عن تركه، فناسب ذكر الحكيم الخبير لدلالتهما على الوعد والوعيد، معنى لأن من كان حكيما عدلا عالما بتفاضل الأفعال من الطاعات والمعاصي لابد من إثابته لمن أطاع وعقابه لمن عصى، وعلى هذا يكون قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾ الآية بيانا وتفسيرا لكونه خبيرا، ثم لما ذكر كونه منعما بجميع النعم، وأن الحمد واجب له، وأنه عالم بجميع الأشياء ظاهرها وباطنها ناسب أن يذكر بعد ذلك المغفرة والرحمة لئلا يقنط المفرط في الشكر، والله أعلم. (حاشية العلوي).

أصل الابتداء، وبالفتح على نفي الجنس[١] كقوله: لا حول ولا قوة إلا بالله، بالرفع والنصب، وهو كلام منقطع عما قبله[٢].

وفي الكشاف: فإن قلت: هل يصح عطف المرفوع على ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ كأنه قيل: لا يعزب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر ولا أكبر، وزيادة لا لتأكيد النفي، وعطف المفتوح على ذرة؛ لأنه فتح في موضع الجر لامتناع الصرف، كأنه قيل: لايعزب عنه مثقال ذرة، ولا مثقال أصغر من ذلك ولا أكبر؟.

قلت: يأبى ذلك حرف الاستثناء[٣] إلا إذا جعلت الضمير في عنه

---

(١) قال في حاشية العلوي على الكشاف: قوله: وبالفتح على نفي الجنس، كقولك: لاحول ولا قوة إلا بالله بالرفع والنصب. ـ فيه نظر ؛ لأن ﴿أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ مضارع للمضاف نحو لاخيرا منه، فلو كان لنفي الجنس وجب فيه النصب، ويمكن أن يقال: إنه أراد بالفتح النصب على مذهب الكوفيين، وذلك لأنهم لايفرقون بين ألقاب الإعراب والبناء، وعلى هذا عبر عن الفتح بالنصب في قوله، لاحول ولا قوة إلا بالله، بالرفع والنصب، وسقوط التنوين منه إنما كان لعدم الصرف .

(٢) قوله: كلام منقطع عما قبله، قال القاضي: هو جملة مؤكدة لنفي العزوب، ورفعه بالإبتداء، ويؤيده القراءة بالفتح على نفي الجنس، أقول: مراد المصنف بانقطاعه عما قبله أنه غير معطوف على مثقال، كما يدل عليه السؤال، والجواب الواردان بعده، وأما قول القاضي بأنه جملة مؤكدة لما قبله، ففيه نظر من وجهين: إن أراد التوكيد الإصطلاحي أحدهما: دخول الواو عليه، إذ الواو لاتتوسط بين التأكيد والمؤكد لكمال الإتصال بينهما، كما في قوله: أقول له ارحل لاتقيمن عندنا، والثاني: أنه جعله مرفوعا بالإبتداء، ولو كان تأكيدا لكان تابعا لما قبله لامبتدأ، وإن أراد به التأكيد اللغوي فذلك لاينافي كلام المصنف.

(٣) قال العلوي: قوله: يأبى ذلك حرف الإستثناء .: إذ يصير التقدير لايعزب عن عالم الغيب مثقال ذرة، ولا كذا ولا كذا إلا في كتاب فإنه يعزب عنه فيه، ففساد هذا ظاهر، وأما إذا جعل الضمير في عنه للغيب، وجعل المثبت في اللوح خارجا عن الغيب بعيدا منه بالنظر إلى المطالعين من الملائكة وغيرهم فلا فساد فيه إذ يصير المعنى لايعزب عنه شئ إلا ما أثبت في اللوح فإنه خارج عن الغيب، قال الفاضل الطيبي: يأبى ذلك حرف الإستثناء لأن الإستثناء حينئذ منقطع، فيكون التقدير لايعزب عن عالم الغيب مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك ولا أكبر منه، لكن ما في كتاب يعزب عنه، وإذا جعلت الضمير للغيب يصير =

للغيب [وجعلت الغيب] اسما للخفيات قبل أن تكتب في اللوح؛ لأن إثباتها في اللوح نوع من البروز عن الحجاب، على معنى أنه لا ينفصل من الغيب شئ، ولا يزول عنه إلا مسطور [في اللوح][(١)].

قلت: والأولى أن معنى قوله: ﴿فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في علم عليم، فالكتاب هنا واللوح مثلان مضروبان لدرك علم الله تبارك وتعالى عن كل عديل أو مثيل.

كما قال القاسم بن إبراهيم عليه السلام: ولا يتوهم أن الحفظ منه تعالى في كتاب من الكتب، وأن اللوح لوح من خشب، فإنما يراد بها ومثلها إحاطة الله بعلمه كله؛ لأن أحفظ ما يحفظ الآدميون ما يوقعون في الكتب ويكتبون، فمثل الله ذلك لهم من علمه وحفظه بما يعرفون، فأخبر أن الذي عنده سبحانه من ذلك وفيه كله على خلاف ما يصفون، لفرق ما بينه وبين خلقه في كل صفة، وليعرفوه في ذلك كله من الفرق بما يجب من المعرفة . اهـ ومثل هذا ذكره الهادي عليه السلام وغيره.

وقوله ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تعليل لقوله: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ قال في الكشاف: فإن قلت: الناس قد أنكروا قيام الساعة وجحدوه، فهب أنه حلف لهم بأغلظ الأيمان [وأقسم عليه جهد القسم] فيمين من هو - في معتقدهم - مفتر على الله كذبا كيف تكون مصححة لما أنكروا؟.

قلت: هذا لو اقتصر على اليمين ولم يتبعها الحجة القاطعة، والبينة

= المعنى ولا يعزب عن الغيب إلى الخفيات مثقال ذرة، ولا أصغر منه، ولا أكبر لكن في كتاب مبين يعزب عنه ؛ لأن ما في اللوح خارج عن الغيب لماأنه يطالع فيه الملائكة المقربون.

وأنا أقول: إن الإستثناء متصل مفرغ ؛ لأن التقدير لايعزب عن عالم الغيب مثقال ذرة، ولا كذا ولا كذا في مكان من الأمكنة إلا في كتاب، فهو استثناء من أعم عام الظرف، والله أعلم. (حاشية العلوي)

(١) الكشاف: ٣/ ٢٥١، وما بين أقواس الزيادة من الكشاف.

الساطعة، وهو قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ لأنه قد ركب في العقول، وألهم في الغرائز وجوب الجزاء للمحسن والمسيئ، وبين ذلك بقوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾[١].

ثم قال سبحانه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ أي: مرضي وهو الجنة، ذكر فيهم أمرين الإيمان، والعمل الصالح، وذكر لهم أمرين: المغفرة والرزق الكريم، ولما بين حال المؤمنين يوم القيامة بين حال الكافرين فقال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: عملوا في إبطال آياتنا وطعنوا عليها وكذبوا بها، فهذا سعيهم فيها.

ومعنى ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: مضادين محادين، ولما أمروا به من الطاعة مخالفين[٢]، ومغالبين للحق مصارعين ليبطلوا دين رب العالمين[٣]، وقرئ (مُعَجِّزين) أراد أنهم كمن يظن أنه يعجِّز الله، وقيل: أراد معاجزين لرسولنا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾ مؤلم موجع، قرئ بالجر والرفع، فالرفع على أن الأليم وصف العذاب كأنه قال: عذاب أليم من أسوأ العذاب، والجر على أنه وصف الرجز، والرفع أقرب، نظرا إلى المعنى، والجر نظرا إلى اللفظ.

والرجز: أسوأ العذاب.

قال الهادي عليه السلام: الرجز فهو نقم الله وإخزاؤه، وما يُحِلُّ بأعدائه، فيقول: لهم عذاب من انتقام الله أليم، والأليم فهو الشديد العظيم[٤]،

---

(١) لفظ الكشاف ٣/ ٢٥١ (وهو قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ فقد وضع الله في العقول، وركب في الغرائز وجوب الجزاء، وأن المحسن لا بد له من ثواب، والمسيئ لابد له من عقاب، وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ متصل بقوله: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ تعليلا له.

وقد نقله المصنف رحمه الله بالمعنى، وما بين أقواس الزيادة من الكشاف.

(٢) مثله في مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٢٩، تفسير الإمام الهادي عليه السلام لهذه الآية.

(٣) مثله في تفسير غريب القرآن للحسين بن القاسم عليه السلام، انظره أول السورة.

(٤) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٢٩.

وقوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ في مقابلة ﴿لَهُم رِّزْقٌ﴾.

ولما بين تعالى حال من يسعى في التكذيب في الآخرة بين حاله في الدنيا، وهو أن سعيه باطل فقال ﴿وَيَرَى﴾ أي: ويعلم ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ يعني: القرآن كله حق وصدق، وقوله: ﴿هُوَ الْحَقَّ﴾ يفيد الحصر، أي: ليس الحق إلا ذلك.

قال في البرهان: هو أمير المؤمنين علي عليه السلام، وورثة الكتاب من آل الرسول صلى الله عليهم أجمعين[1] ﴿وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ﴾ أي: القادر على ما يشاء ﴿الْحَمِيدِ﴾ أي: المستحق للحمد على عباده، وقوله: ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ يفيد رغبة ورهبة، فإنه إذا كان عزيزا يكون ذا انتقام من الذي يسعى في التكذيب، وإذا كان حميدا كان يشكر سعي من يصدق ويعمل صالحا.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالبعث، هم قريش، قال بعضهم لبعض على سبيل التعجب: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ﴾ يعني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: يخبركم ويحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: فرقتم كل تفريق، المعنى: يخبركم إذا أكلتكم الأرض فصرتم عظاما ورفاتا، وتقطعتكم السباع والطير ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾ إنكم ستُحيون وستُبعثون، وتُنشأون خلقا جديدا بعد أن تكونوا ترابا، وهذه مبالغة في التكذيب.

ثم قال الذين كفروا ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: هو مفتر عليه فيما ينسب إليه ﴿ أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي: جنون يوهمه ذلك، ويلقيه على لسانه.

وفي التجريد: معناه أتعمد الكذب أم لم يتعمد الكذب؛ لأن المجنون لا افتراء له، ويحتمل أن يكون من كلام السامع المجيب لمن قال: هل

(١) تفسير البرهان مخطوط ص

ندلكم؟ كأن السامع لما سمع قول القائل: هل ندلكم على رجل ؟ قال له: هل يفتري على الله كذبا، إن كان يعتقد خلافه، أو به جنون إن كان لا يعتقد خلافه.

ثم قال تعالى أجابهم مرة أخرى وقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: البعث ﴿فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨﴾ أي: واقعون في عذاب النار، وفيما يؤديهم إليه من الضلال البعيد عن الحق في الدنيا، وهم غافلون عن ذلك، وهو أجن الجنون، بَرَّأَ الله نبيه مما قالوا، ونسب الجنون إليهم، وجعل وقوعهم في النار رسيلا لوقوعهم في الضلال، كأنهما كائنان في وقت واحد؛ لأن الضلال لما كان العقاب من لوازمه وموجباته، جعلا كأنهما في الحقيقة مقترنان، ذكره في الكشاف[١].

ولما ذكر تعالى الدليل بكونه عالم الغيب، وكونه جازيا على السيئات والحسنات ذكر دليلا آخر، وذكر فيه تهديدا، فقال ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أمامهم ﴿وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾

قال في البرهان: يعني أو لم يعلموا ما بين أيديهم ممن أهلكهم الله من الأمم في أرضه، وما خلفهم من أمر الآخرة في سمائه . اهـ

ثم قال تهديدا: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما خسفنا بمن كان قبلهم، أي: نذهبهم فيها كما فعل بقارون.

وقيل: معناه أَعَمُوا فلم يروا إلى السماء والأرض؟ وأنهما محيطان بهم، أينما كانوا؟ ولم يخافوا أن يخسف الله بهم الأرض[٢].

﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾ أي: قطعا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لتكذيبهم.

قال في البرهان: [الكِسْفُ: جماعة كِسْفة، والكِسَف بنصب السين

---

(١) انظر الكشاف ٣/ ٢٥٢، ولفظ الكشاف (وجعل وقوعهم في العذاب رسيلا) وفي المصابيح (وجعل وقوعهم في العقاب سبيلا).

(٢) صاحب القيل: هو الزمخشري، انظر اللكشاف ٣/ ٢٥٢. [ينظر تفسير الحاكم]

كذلك ايضا، وهي القطع، واحدها قطعة من العذاب، يعني قطعا من السماء] ليعلموا أنه قادر على أن يعذب بسمائه إن شاء، وبأرضه إن شاء ذلك[١]. اهـ

وقيل: المراد من السماء أي: من السحاب، والسماء: كل ماعلاك فأظلك، كما فعل بأصحاب ليكة حين أظلتهم السحابة، واجتمعوا تحتها لبرد المطر؛ لأنه حبس عنهم الريح سبعة أيام، وأصابهم الحر الشديد فأمطرتهم نارا عقوبة لتكذيبهم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ النظر إلى السماء والأرض، والفكر فيهما، وما يدلان عليه من قدرة الله تعالى ﴿لَآيَةً﴾ أي: عبرة ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ وهو الراجع إلى ربه المقبل عليه بتوبته، والمخلص في توحيده وطاعته.

ثم إن الله تعالى لما ذكر من ينيب من عباده ذكر منهم من أناب وأصاب، ومن جملتهم داود عليه السلام كما قال سبحانه عنه: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾[٢]، وبين ما آتاه الله على إنابته فقال ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ قال في البرهان: والفضل: النبوة، وفصل الخطاب، والحكم، والزبور، وقيل: أَجْمَلَ الفضل ثم بينه بقوله ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ بالنصب حملا على محل المنادى، والطير بالرفع حملا على لفظه، والتأويب: السير، وكانت الجبال والأرض تنطوي لداود وسليمان إذا سارا، قال الشاعر:

يومان يوم مقامات وأندية ... ويوم سير إلى الأعداء تأويب[٣]

---

(١) مابين قوسي الزيادة غير موجود في البرهان، وهو موجود في تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني (أنظره أول السورة) وما في نسخة البرهان الموجودة لدي هو من قوله: ليعلموا أنه قادر على أن يعذب إلى آخر مانقله عن البرهان.

(٢) ص ـ ٢٤.

(٣) البيت مذكور أيضا في البرهان.

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ أي: رَجِّعِي عليه صوته، وروي أنه لما حزن صلى الله عليه وآله على خطيته، وفطن بعد غفلته وزلته كان يدعو الله بالأحزان والحنين والبكاء والأنين، فأمر الله الجبال تؤوِّب معه، وهو ترجيعها للصوت، وردها له عليه ليزداد بذلك حزنا، فلم يزل كذلك حتى نال ما أراد من فضل الله ورحمته، وما[1] أحب لأحد من المسلمين أن يناجي ربه، ولا يبكي على خطيئته إلا في خلواته حيث لا يسمعه أحد غير خالقه، وذلك أقرب إلى ربه، فكل عمل عمله العبد يريد به وجه الله ورضوانه فإن الله لا يضيع عمله وإحسانه، ظهر ذلك أو لم يظهر، إذا لم يرد به سمعةً عند أحد من البشر، وإنما اخترت ذلك لما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قوله: (احترزوا من الشرك فإنه يدب فيكم دبيب النمل على المسح الأسود في الليلة الظلماء) [لأنه شئ] لايكاد يبين من جهة أمر النفس وشهواتها ومحبتها للمدح وترهاتها.

ثم قال تعالى ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ١٠﴾ عطفا، والمعطوف عليه يحتمل أن يكون قلنا المقدر في قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ ويحتمل أن يكون عطفا على ﴿ءَاتَيْنَا﴾ تقديره: آتيناه فضلا ﴿وَأَلَنَّا لَهُ﴾.

ومعنى ﴿أَنِ ٱعْمَلْ﴾ أي: قلنا له: اعمل ﴿سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ أي: في النظم والنسج قدرا حصينا منيعا يدفع حد البغاة.

وقال الهادي عليه السلام: معنى ﴿مِنَّا فَضْلًا﴾ فهو نبوتنا التي آتيناه إياها ووحينا، وما جعلنا في الجبال والطير من التأويب في الجبال، ومقاربة الطير له، وما ألنا له من الحديد، وما علمناه من عمل السابغات وهديناه له من التقدير في السرد، حتى عمل جُنَناً تقيه البأس، وتفل عنه حد بغاة

(١) في المصابيح (ولا أحب) وفي تفسير الإمام الحسين بن القاسم (وما أحب) وقد أصلحنا اللفظ من تفسير الإمام الحسين بن القاسم، وما بين قوسي الزيادة منه. (أنظره أول هذه السورة).

الناس، ومعنى ﴿أَوِّبِي﴾ فهو ما جعل الله في الجبال من ذلك، وركبها عليه من التركيب، حتى كانت كذلك، وهو الصوت الذي يجيب المصوّت من الجبال والأصداء[١] إذا كان الرجل بين جبلين، ونادى بشئ أو تكلم به أوَّبت الجبال بالرد عليه بمثله، يقال: إن هذا في الجبال من التأويب، وهو الذي تسميه العرب أيضا الصدى شئ لم يكن قبل داود عليه السلام، وأن الله جعله في ذلك الوقت [في الجبال] وقدره لكرامة داود، ثم أبقاه إلى اليوم فيها، ليكون ذلك ذكرا لما أكرم الله تعالى به داود عليه السلام، والله اعلم بذلك وأحكم.

ومعنى ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ فهو رَدٌّ على الأمر، ومعنى أمره الطير: فهو إلهامه إياها ما أراد من مقاربة داود، واحتواشها عليه، وكينونتها قربه، كل طائر يصوت بصوته الذي جعله الله له مع صوت داود صلى الله عليه، فكان داود يبكي ويدعو الله ويناجيه ويناديه، والجبال فتأوب، وترد مثلَ صوته وكلامِه عليه، والطير تصوت من حواليه، حتى بلغ صلى الله عليه إرادته من رضى ربه، وإخلاص التوبة إلى خالقه، ورجوع كرامة الله إليه وحلولها من الله سبحانه لديه.

ومعنى ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾[٢]فهي خاصة كان الله خصه بها، فكان الحديد يلين له كما يلين الشمع بلا نار، ولم يكن الحديد يلين لأحد قبله إلا بالنار، فلان له بلا نار، ثم هداه لعمل السابغات، والسابغات: فهي الدروع الطوال الساترات، ومعنى ﴿فِي ٱلسَّرْدِ﴾[٣] أي: قدر في تأليف الحلق بعضه إلى بعض، وتسويته وتقدير ثقبه وسمره، فكان صلى الله عليه أول من عمل الدروع، وهُدِيَ إلى عملها، وَوُفِّقَ لتقديرها[٤]. اهـ

---

(١) في المجموع: والأصداح، وفي المصابيح: والأصداء.

(٢) في المجموع ص ٤٢٩، ٤٣٠، (فمعنى إلانة الحديد فهي خاصة)

(٣) في المجموع: وقدر في السرد، ومعناه: قدر في تأليف الحلق بعضه إلى بعض .. الخ

(٤) انظر المجموع ص ٤٢٩، ٤٣٠، وما بين أقواس الزيادة منه، وكذلك إصلاح بعض الألفاظ

قال في البرهان: وإنما كانت قبل ذلك صفائح، ومعنى: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ قال: قدر المسير لا تدق المسامير فتَسْلُسَ، ولا تَجِلَّها فتنتقض الحلقة، والسرد: المسامير، ومنه قولهم: أسرد الكلام [سردا] إذا تابع بينه، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم في الأشهر الحرم: (ثلاثة سَرْدٌ، وواحد فرد).

وروينا في الآثار "أن داود عليه السلام كان يرقع كل يوم درعا فيبيعه بستة آلاف درهم، فألفان له ولأهله، وأربعة آلاف يطعم بها بني إسرائيل"(١).

والسبب أنه عليه السلام كان يخرج متنكرا في الليل فيقف على مجالس قومه، فيقول: كيف ترون سيرة داود فيكم، فيقولون: خير سيرة، حتى قيض له ملك في صورة آدمي فقال: لولا خلة فيه يأكل من بيت المال، فسأل الله أن يعلمه صنعة يستغني بها، فعلمه الدروع.

وقوله تعالى: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ أمر لداود وأهله، أي: لستم مخلوقين إلا للعمل الصالح فاعملوا ذلك وأكثِرُوا منه، ثم أكد طلب الفعل الصالح بقوله ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ أي: عالم به، وحافظ له فمجاز عليه.

ثم لما ذكر المنيب الواحد، ذكر منيبا آخر، وهو سليمان، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ وذكر ما استفاد بالإنابة، فقال تعالى ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾

قال الهادي عليه السلام: "هذا ذكر من الله لما أعطى سليمان صلى الله عليه من تسخير الريح له، وائتمارها بأمره، ولسيرها به وبمن أراد شهرا في غدوتها، وشهرا في روحتها، فكانت تسير كذلك تحمله ومن أحب من عسكره"(٢).

(١) انظر البرهان مخطوط ص ٣١٥، ومابين القوسين زيادة من البرهان، وفي البرهان (قال: قدر المسامير لاتدق المسامير فيسلس، ولا تجلها فتنقبض الحلقة .. إلى آخر ما ذكره هنا.
(٢) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٣١. وقد أصلحنا اللفظ منه.

قال في البرهان: "تغدو مسير شهر إلى نصف النهار، وتروح مسير شهر إلى آخر النهار، فهي تسير في اليوم الواحد مسير شهرين"[(١)].

ثم قال تعالى ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ قال الهادي عليه السلام: "معناه أذبنا له عين القطر، والقطر فهو النحاس، فأذابه الله وأخرجه ومكَّنَه منه وسَهَّلَه، حتى كان يعمل [منه] كلما يريد من تماثيل وجفان وغير ذلك من آلات الصفر"[(٢)].

أراد بالعين معدن النحاس، ولكنه أساله كما ألان الحديد لداود عليه السلام، سماه باسم ما آل إليه؛ لأنه كان ينبع كما ينبع الماء من العين.

قال في البرهان: "سال له عين القطر من صنعاء ثلاثة أيام كما يسيل الماء".

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي: سخرنا له من الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه.

قال الهادي عليه السلام: "أخبر سبحانه بما سخر له من طاعة الجن، وأمرهم به من اتباع أمر سليمان، فكانوا يعملون له كما ذكر الله مما كان يأمرهم به".

ثم أخبر أن من عصى الله بمعصية[(٣)] سليمان منهم فزاغ أذاقة الله العذاب الذي أوجبه على العصاة منهم، فقال: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي: ومن يعدل عن أمرنا الذي أمرناه من طاعة سليمان ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾ النار المسعورة، شديدة الإتقاد، أي: يجد مرارة العذاب كما يوجد مرارة الطعام بالذوق.

---

(١) انظر البرهان.

(٢) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٣١، وما بين أقواس الزيادة منه، والصفر: فهو النحاس الخالص.

(٣) في المجموع (بمعصيته).

ثم قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ قال الهادي عليه السلام: "هي محاريب المساجد وبناؤها"(١).

وقيل: المساكن الشريفة المصونة عن الابتذال، سميت محاريب؛ لأنه يحامى عليها(٢).

﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ وهي الحصون والقصور أشباه الجمادات، فأما تماثيل صور الحيوان فلا يجوز لأحد، فقوله:﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ إشارة إلى الأبنية الرفيعة، وتماثيل ما يكون فيها من النقوش.

ثم لما ذكر البناء الذي هو المسكن بَيَّنَ ما يكون في المسكن من ماعون الأكل فقال تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ قال الهادي عليه السلام: "والجفان: فهي هذه الجفان المعروفة، التي يكون فيها الماء والطعام، فكانت تنحتها له من الصخور، وتعملها له من الصفر على ما ذكر الله من العظم والكبر [كالجواب] والجواب: فهي: الحفر الكبار، تسمي العرب الحفرة الكبيرة جوبة من الأرض، وفي الأرض . والجواب: فهي جمع الجوبة الواحدة"(٣).

قال الحسين بن القاسم عليه السلام: "معناه وجفان كالحفر التي تحفر حياضا للإبل، قال الشاعر:

فصبحت والطير لم تكلم جابية طمت بسيل مفعم

أي: حفرة امتلأت من السيل".

وقيل: الجواب جمع جابية، وهي الحياض الكبار؛ لأن الماء يجبى فيها، أي: يجمع، وقرئ (الجوابي) بالياء، وبالحذف اكتفاء بالكسرة كـ﴿يَوْمَ

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٣١.

(٢) ذكر هذا الزمخشري في كشافه ٣/ ٢٥٣.

(٣) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٣١، وقد أصلحنا اللفظ منه، وكذلك ما بين أقواس الزيادة.

﴿يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾[١] شبهت الجفان بالجواب في كبرهن، قيل: كان يقعد في الجفنة ألف رجل يأكلون منها.

ثم قال تعالى: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ قال الهادي عليه السلام: فالقدور هي البرام التي يطبخ فيها، فكانت تعملها من الصفر على غاية ما يكون من العظم، حتى كانت راسيات، والراسيات: فهي التي لا يحركها لكبرها إلا الخلق الكثير، فهي لثقلها راسية على أرضها ثابتة في مكانها، قائمة بأثافي مفرغة فيها[٢]، توقد النار من تحتها ومن حولها إذا أريد أن يطبخ فيها شئ، فلثباتها مكانها سميت راسيات، إذ كانت في المكان لثقلها متروكات[٣] . اهـ قال الشاعر:

سيد يطعم في المحل غبيط المنقيات في جفان كالجوابي وقدور راسيات[٤]

ولما قال عقيب قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ قال عقيب ما تعمله الجن له ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ﴾ قال عليه السلام: يقول: اعملوا لله شكرا، على ما أعطاكم، وخصكم به دون غيركم وأولاكم[٥] . اهـ

والمعنى: قلنا لهم اعملوا لله واعبدوه ﴿شُكْرًاۚ﴾ أي: لأجل شكر نعمائه، وهو دليل على أن العبادة تؤدى للشكر.

وفي البرهان: قال داود عليه السلام: كيف أشكرك، والشكر نعمة منك؟ قال: فالآن شكرتني حين[٦] عرفت أن النعمة مني . اهـ

وقوله: ﴿شُكْرًاۚ﴾ يحتمل أن يكون مفعولا له كقول القائل: جئتك

---

(١) القمر ـ ٦.

(٢) في المجموع (بأثافي منها مفرغة).

(٣) انظر مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٣٢.

(٤) البيت مذكور في تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليهما السلام انظره أول هذه السورة.

(٥) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٣٢.

(٦) في البرهان (حيث عرفت أن النعمة مني).

طمعا، وعبدت الله رجاء غفرانه، ويحتمل أن يكون مصدرا كقول القائل شكرت الله شكرا، ويكون المصدر من غير لفظ الفعل، كقول القائل: جلست قعودا، وذلك لأن العمل شكر، وقوله: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾ يقوم مقام قوله: اشكروا.

ثم قال سبحانه ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ قال الهادي عليه السلام يقول: قليل من عبادي من إذا أنعمت عليه بنعمة من نعمي كان شاكرا فيها لي، أو قائما بما يجب فيها من حقي، فلا تكونوا [في ذلك] كمن ذممناه بقلة الشكر من أولئك[١].

قال في البرهان: وروينا عن أبينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال حين تلا هذه الآيات: (ثلاث من أوتيهن فقد أوتي مثل داود: العدل في الرضاء والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وخشية الله في السر والعلانية).

ولما بين عظمة سليمان، وتسخير الريح والروح له، بَيَّنَ أنه لم ينج من الموت، وأنه قضى عليه بالموت تنبيها للخلق من أن الموت لابد منه، ولو نجا أحد منه لكان سليمان أولى بالنجاة منه، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ﴾ أي: أوقعناه على سليمان، وألزمناه إياه، وحتمناه عليه ﴿مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ هي الأرضة، والأرض فعلها فأضيف إليه، يقال: أرضت الخشبة أرضا إذا أكلتها الأرضة.

ومعنى ﴿تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ﴾ أي: عصاه، والعصا عند العرب هي المنساة، قال الشاعر:

إذا دببت على المنساة من كبر　　فقد تباعد عنك اللهو والغزل[٢]

---

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٣٢، وما بين القوسين زيادة منه. وفي المجموع أيضا (كمن ذمها) بدلا عن (ذممناه) في المصابيح.

(٢) البيت ذكر أيضا في تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام، ولم ينسباه إلى قائل، انظره أول هذه السورة.

ـ أن العصا ينسأ بها أي: يطرد بها، ويزجر. وقرئ بفتح الراء من الأرَض ـ جمع أرضة. قال ابن الجوزي: فدابة الأرض: هي الأرضة التي تأكل العيدان حتى تكسرها[١]. فأخبر أنه لما أن قضى عليه الموت لم يدل الشياطين ولا الآدميين على أنه عليه السلام ميت إلا هذه الدابة التي أكلت من منسأته حتى انقطعت فسقطت ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي: فلما سقطت خرت جثته ساقطة؛ لأنها كانت إلى المنساة مستندة، وعليها متكئة، فلما انقطعت المنساة وسقطت الجثة ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ أي: تبينت الجن عند ذلك أنهم لو كانوا يعلمون شيئا من الغيب لعلموا بموته، فلم يلبثوا في العذاب من العمل والكد مذ مات إلى أن خرَّ، حين قطعت الدابة منسأته. والمنسأة: فهي العصا التي كان متكئا عليها، قائما إليها، مستندا من الجدار إليها، قد وضعها في صدره، وشد عليها بكفه، وهو قائم في محرابه، ثابت في مقامه، فأتاه [ملك][٢] الموت وهو على تلك الحال، فلم يزل حتى كان ما ذكر من الخبر عنه ذو العزة والجلال. ذكره الهادي عليه السلام.

قوله: ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ﴾ يعني بعد موت سليمان عليه السلام، وذلك أن سليمان عليه السلام جعل الله تعالى له أعوانا من الملائكة، فكان يعذب الجن بهم في الهواء، من أخطأ منهم، وخالف أمره، ويأمر لهم بقيود من نار، وأشواظ من نار، فلو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا معذبين خائفين سطوته وعقابه، وقد كان سأل الله تعالى ألا يعلموا بموته حتى يمضي عليه سنة، وإنما سأل الله تعالى ذلك لأن الإنس كانت تقول في زمان سليمان عليه السلام: الجن تعلم الغيب، فلما مات سليمان مكث قائما على عصاه ميتا حولا، قاله في البرهان.

(١) ومثله في مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٣٢.

(٢) ما بين قوسي الزيادة غير موجود في مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام، وهو ثابت في المصابيح.

وقيل: المراد عَلِمَ المدَّعُونَ علم الغيب منهم عجزهم، وأنهم لا يعلمون الغيب، وإن كانوا عالمين قبل ذلك [بحالهم]، وإنما أريد التهكم بهم، كما يتهكم بمدعي الباطل إذا دحضت حجته، فيقال: هل تبينت أنك مبطل؟ مع العلم بأنه متبين لإبطاله[١].

وقرئ (تُبُيِّنَتْ الجن) على البناء للمفعول، على أن المتبين في المعنى هو ﴿أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ﴾ لأنه بدل من الجن، قال سليمان: اللهم عم على الجن موتي حتى يعلم الناس أنهم لا يعلمون الغيب، وقال لملك الموت: إذا أُمِرت بي فأعلمني، فأعلمه وقد بقي من عمره ساعة، فدعا الشياطين فبنوا عليه قصرا من قوارير لا باب له، فقام يصلي متكئا على عصاه، وقبض وهو عليها، فنظر بعض الجن عليه بعد مضي ما شاء الله، وقد خر ميتا لما أكلت الأرضة عصاه، ووضعوا الأرضة على العصا يوما وليلة فأكلت قدرا فحسبوا عليه فوجدوه قد مات منذ سنة، وكانوا يعملون بين يديه ويحسبونه حيا، فأيقن الإنس أنهم لو علموا الغيب ما لبثوا في العذاب سنة.

قال الحسين بن القاسم عليه السلام: "يريد عز وجل التنبيه لعباده، والتزهيد لهم في هذه الدنيا بما قص عليهم من خبر نبيه صلى الله عليه، وما كان قد أعطاه من الملك وصيره إليه، ثم كان عاقبة هذا الملك الجليل أن مالكه سقط ميتا لايملك شيئا، ولا يعي ولا يعقل ملكا"[٢].

قال في البرهان: "وروينا أن سليمان عليه السلام ابتدأ بيت المقدس في السنة الرابعة من ملكه، واستكمل بناءه في السنة الحادية عشر من ملكه، وقَرَّبَ بعد فراغه منه اثني عشر ألف ثور، ومائة وعشرين ألف شاة، واتخذ

(١) صاحب القيل هو الزمخشري، انظر الكشاف ٣/ ٢٥٤، باختلاف يسير، وما بين أقواس الزيادة من الكشاف.

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام، أول هذه السورة، وقد أصلحنا اللفظ منه.

اليوم الذي فرغ من بنائه عيدا، وقام على الصخرة رافعا يده إلى الله تعالى بالدعاء، فقال: اللهم أنت وهبت لي هذا السلطان، وقويتني على بناء هذا المسجد، اللهم أوزعني شكرك على ما أنعمت، وتوفني على ملتك، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني [اللهم إني أسألك لمن دخل هذا المسجد خمس خصال: لايدخله مذنب دخل للتوبة إلا غفرت له، وتبت عليه،، ولا خائف إلا أمنته، ولا مريض إلا شفيته،، ولا فقير إلا أغنيته، والخامس: ألا تصرف نظرك عمن يدخله حتى يخرج إلا من أراد إلحادا أو ظلما يا رب العالمين]"[١].

واعلم أنه لما بَيَّن الله تعالى حال الشاكر لنعمته بذكر داود وسليمان ـ بين حال الكافرين بأنعمه بحكاية أهل سبأ، فقال عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ﴾ أي: دلالة على قدرتنا.

قال في التجريد: "يجوز أن تكون الآية قصة الجنتين وإهلاكهما حين أعرضوا عن شكر الله، وإبدالهم الأثل والخمط، ويجوز أن تكون الآية خلق الله لهم الجنتين، فإن ذلك دلالة على قدرته وإحسانه، والجنة: البستان الذي يجن الأرض أي: يسترها، كأنه أراد أن حول قراهم جنانا مختلطة قد صارت لاختلاطها جنتين، جنة عن يمين القرى، أو عن يمين الناظر، وجنة عن شمالها، أو عن شماله، أو عن يمين واديهم وشماله، وهو قوله عز وجل: ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ وقيل: أراد أن كل رجل له جماعات بساتين عن يمين مسكنه وشماله، وذكر في حاشية اللآلي: أن سبأ اسمه عبد شمس، سئل عنه النبي ﷺ فقال: ولد عشرة، تيامنت ستة: الأزد، وحمير، وكندة، ومذحج، والأشعريون، وأنمار هو ولد خثعم، وبجيلة، وتشامت أربعة: لخم، وجذام، وغسان، وعاملة) . رواه الترمذي، وذكره في البرهان.

(١) مابين القوسين زيادة من البرهان.

وقيل: هو الذي بنى السد، وصرف إليه سبعين واديا، ومات قبل أن يتمه، فأتم بعده، وكان أول من سبى في العرب فسمي بذلك[١].

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ إشارة إلى تكميل النعم عليهم، حيث لم يمنعهم من أكل ثمارها خوف ولا مرض،والقائل لهم: كلوا ـ إما أنبياء الله، أو لسان الحال، قيل: كانت الجارية تخرج وعلى رأسها المكتل ، فتمر في الجنان فما ترجع إلا وقد امتلأ من متساقط الثمار[٢].

قوله: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ بيان أيضا لكمال النعمة، فإن الشكر لايطلب إلا على النعمة المعتبرة، أي: اعبدوه شكرا له على نعتمه.

ثم لما بين حالهم في مساكنهم وبساتينهم وأكلهم أتم بيان كمال النعمة بأن بين أن لا غائلة عليه، ولا تبعة في المال في الدنيا، فقال تعالى: ﴿بَلْدَةٌ﴾ أي: هذه البلدة التي رزقكم بلدة ﴿طَيِّبَةٌ﴾ أي: عن المؤذيات، وهي مأرب؛ لأن أرضها عذبة، لا وخم فيها ولا وباء، منبتة غير سبخة . وقيل: لا بَعُوضَ فيها، ولا بقّ، ولا برغوث، ولا ذباب، ولا حية، ولا عقرب.

وقال: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥﴾ أي: وربكم الذي رزقكم رب غفور لمن شكره، فعند هذا بانَ كمالُ النعمة، حيث كانت لهذه حالة خالية عن المفاسد المالية، فإن قيل: كيف خصهم بالامتنان بأنه غفور للذنوب، وهذه نعمة من نعم جميع الخلق؟ فعنه جوابان: أحدهما: يجوز أن يكون امتنانه عليهم بعفوه من عذاب الاستئصال، بتكذيب من كذبوه من سالف الأنبياء، إلى أن استداموا الإصرار فاستؤصلوا.

والثاني: لأنه جمع لهم بين طيب البلد الذي هم فيه، ومغفرة

(١) في نسخة (ولما أن كان أول من سبى).

(٢) زاد في البرهان: وما مسته بيدها.

ذنوبهم، ولم يجمع ذلك لجميع خلقه، فلذلك صاروا مخصوصين من بينهم. ذكره في البرهان(١).

ثم إنه تعالى لما بين ما كان من جانبه ذكر ما كان من جانبهم فقال: ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾ عن شكر نعم الله تعالى، يعني عن أمره، واتباع رسله، فبين كمال ظلمهم بالإعراض بعد إقامة الآية، كما قال: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾ [الكهف: ٥٧] ثم بين كيفية الانتقام حيث قال تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾ غرق أموالهم وخرب دورهم.

قال الحسين بن القاسم عليه السلام: [والعرم: الذي له عرامة وشدة](٢) أي: سيل العرامة والشدة. وقيل أيضا: إن العرم هو السد الذي بنوه دون السيل، وأهل اليمن يسمون السد عرما، ويسمون حواجز الجرب أعراما، والأصل في ذلك ما ذكره المرتضى عليه السلام أنه من الشدة والعرامة. قال الشاعر:

من سبأ الساكنين مأرب إذ يبنون من دون سيلها العرما"

وقيل: العرم اسم لواديهم(٣).

وفي هذه الآية وتفسيرها يقول الهادي عليه السلام: "الجنتان هما جنتا مأرب، كانتا كما ذكر الله، فكفر أهلهما أنعمه، فأذهبهما وأبدلهم مكانهما ما ذكر من الخمط والأثل والسدر، والخمط: فهو الفاف الشجر والشوك، والأثل: فهو هذا الأثل المعروف، الذي يسمى الطرفاء، والسدر:

---

(١) انظر البرهان مخطوط ص ٣١٧، ومابين قوسي الزيادة موجود في البرهان، ومحذوف في الأصل من هذا الكتاب

(٢) ما بين القوسين غير موجود في تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام، انظره أول هذه السورة. وهو مذكور عن المرتضى في آخر الفقرة، كما هو في المصابيح. وزاد بعد كلام المرتضى عليه السلام (وهو أحسن الوجهين، وكلاهما حسن).

(٣) ومثله في الكشاف ٣/٢٥٦، ولم ينسبه إلى قائل معين، وذكره أيضا الرازي ٩/٢٠١.

فمعروف، تسميه أهل اليمن علوبا، وسيل العرم: فهو السيل الغالب الشديد الكثير، أرسله على الجنتين فقلعهما، واحتمل حجارتهما [وإنما سمي العرم لأنه اشتق من العرامة، والعرامة: فهي الصعوبة في الشيء والإتعاب لما داناه، فلما أتعب السيل ما داناه شبه][١] بذلك، فقيل: سيل العرم لشدة بأسه، وتعب ما يلقى منه الشجر وغيره".

ثم قال تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ ولم يكن ما بُدّلوا به من جنتهم حسنا، وإنما سماهم بذلك على وجه المقابلة والمشاكلة، تهكما بهم، وعقوبة بأعمالهم.

ثم بين ذلك فقال: ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ جالخمط: شجر الأراك عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والجمهور . وأكله: ثمره، وهو البرير . وقيل: [الخمط] كل شجرة فيها شوك، قاله أبو عبيدة . وقيل: كل نبت أخذ طعما من مرارة حتى لا يمكن أكله . قاله المبرد، والزجاج[٢].

﴿وَأَثْلٍ﴾ قيل: شجرة تشبه الطرفاء، أجود منه عودا.

﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ قلله؛ لأنه أجود ما بُدّلوا به، والتقدير: ذاوتي أكل خمط، وذواتي أثل، وذواتي شئ من سدر قليل.

ثم بين الله أن ذلك مجازاة لهم على كفرانهم فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ﴾ بمثل هذا العقاب العاجل ﴿إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ لنعم الله.

إن قيل: المجازاة عامة في الشر والخير؟ فعنه جوابان، أحدهما: قال

(١) مابين قوسي الزيادة غير موجود في بعض نسخ المجموع، وهو ثابت في نسخة أخرى، وقد زادت المعنى وضوحا فأثبتناها، وقد أصلحنا اللفظ من مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام.

(٢) ومثله في البرهان، ومابين القوسين زيادة من البرهان. انظر البرهان خ ٣١٧.

الفراء: المجازاة بمعنى المكافأة على القبيح، ولا يكون في الحسن في اللغة الفصيحة، يقال: جزى الله فلانا خيرا، ولا يقال: جازاه خيرا، ولكن جازاه بسيئ عمله.

والثاني: أن المجازاة تكون في الخير والشر، ولكنه لما قدم قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ كانت قرينة لإرادة أحد المعنيين، وكأنه قال: وهل نجازي تلك المجازاة إلا الشديد الكفر.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ قال في البرهان: هي قرى بيت المقدس، والبركة: الشجر والثمر والماء.

ومعنى ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ أي: بينة عالية لأعين الناظرين متواصلة، ترى هذه من هذه، أو راكبة متن الطريق لم تبعد عن مسالك الساكنين.

قال في البرهان: وكانت بين مأرب والشام.

قال الهادي عليه السلام: "والقرى التي بورك فيها: فهي قرى الشام، بيت المقدس، وقد كان ما ذكر الله سبحانه بسؤالهم وطلبتهم البعد ما بينهم، فصاروا يطلبون المرافق، التي كانت حاضرة في جنتهم على البعد منهم، والقرى الظاهرة التي بينهم وبين الأرض المباركة، فهي هذه القرى والمناهل والمدن التي بينهم وبين الشام، وتمزيقه لهم: فهو ما كان من خروج أهلها بعد خرابها إلى آفاق البلاد، وقد قيل: بقيتهم اليوم بجبال طي، وتلك النواحي".

ثم قال تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ يعني قدرنا فيها المقيل والمبيت بقدر المصلحة، وكرهوا خيرة الله، قيل: كان بين كل قريتين مقدار واحد، وكان الغادي يقيل في قرية، والرائح يبيت في قرية إلى أن يبلغ الشام لا يحمل زادا، ولا يخاف جوعا ولا عطشا، ولا عدوا ولا سبعا.

قال ابن الجوزي: "وكان[1] بين كل قريتين نصف يوم، وكانوا يسيرون أربعة أشهر في أمان".

ومعنى ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا﴾ أي: وقلنا لهم: سيروا في تلك القرى ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ يعني: أي وقت شئتم من ليل أو نهار، فإن الأمر لا يختلف، أو سيروا فيها ﴿ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ لا تخافون مكروها، وإن تطاولت مدة سفركم ليالي وأياما، فلا تلقون إلا الأمن من الجوع والظماء وبعد المراحل؛ لأنها مقدرة بالقرب، وزوال الخوف، ولو لقي الرجل قاتل أبيه لم يحركه.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى﴾ أي: وكنا جعلنا بينهم وبين القرى ﴿ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ قبل أن نرسل عليهم سيل العرم، ونجازيهم بكفرهم، وهو قول الجمهور . وقيل: إن الله لما أهلك جنتهم قالوا للرسل: قد عرفنا نعم الله علينا، فإن رَدَّ علينا ما كنا عليه عبدناه حق عبادته، فرد عليهم النعمة، وجعل لهم قرى ظاهرة أي: متواصلة.

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ قالوا لأنهم ملوا النعم فملتهم النعم، وأحبوا أن تكون ثمارهم أبعد مما هي؛ لتكون أشهى في نفوسهم، وأجلى في عيونهم، وذلك من فرط البطرة، فطلبوا بعد المسافة ليركبوا الرواحل، ويحملوا الزاد في المفاوز، وملوا العافية، كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم مكان المنِّ والسلوى، فطلبوا الكدَّ والتعبَ.

﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ لكفرانهم النعم، وجحدانهم للرسل الذين بعثوا إليهم . قيل: بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبيا، تذكرهم نعمته فكذبوهم، وقالوا: ما نعرف لله نعمة، فأرسل الله عليهم سيل العرم، وقد مر تفسيره.

وقيل: إنه الجرذ، أي: الفار الذي نقبه عليهم؛ لأن بلقيس لما ملكت سبأ ضربت لهم سدا بين الجبلين حقنت به ماء العيون والأمطار فتجتمع

(١) في نسخة (وكان ما بين كل قريتين).

وتصير كالبحر، وتركت فيه خروقا على مقدار ما يحتاجون إليه لسقيهم، فسلط الله عليهم الجلذ[١]- فارة عمياء فنقبته من أسفله فخرب، وانقلب البحر عليهم فغرقهم، سميت بذلك لإقامتها في جحرها[٢].

قيل: كانوا في الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ[٣].

ثم قال عز وجل فيهم ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث الناس بهم تعجبا من أحوالهم وقصصهم، وتحذيرا وتخويفا لغيرهم مما فعل بهم.

وقوله: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ بيان لجعلهم أحاديث، أي: فرقناهم تفريقا اتخذه الناس مثلا مضروبا، يقولون: ذهبوا أيدي سبأ، وتفرقوا أيادي سبأ .لحق غسان وأنمار بيثرب، وجذام بتهامة، والأزد بعمان، ويقال: خزاعة بوادي القرى من الظهران، والأوس والخزرج بيثرب، وآل جذيمة الأبرش ومن كان بالحيرة، وآل محرق بالعراق.

ثم قال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فعلنا بهم ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ عبرا ومواعظ ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على البلاوي، وعن المعاصي ﴿شَكُورٍ ١٩﴾ على ما أعطي من النعم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني أهل سبأ أو بني آدم ﴿إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ﴾ ظن أنهم يطيعونه فأطاعوه، وصدق عليهم ظن نفسه حين تبعوه.

قال في البرهان: وإبليس هو من يمدهم في ضلالهم، وإمدادهم بالإصرار على غوايتهم، فلما تبعوه على ضلاله صدق ظنه فيهم، وظنه أنه يغويهم، وفي الضلال يرديهم.

(١) في نسخة (الجلذ) ...

(٢) ومثل هذا في الكشاف ٣/ ٢٥٦ باختلاف يسير، وفي الرازي ٩/ ٢٠١ مثله بمعناه.

(٣) ذكر مثله الزمخشري، ونسبه إلى الضحاك. انظر الكشاف ٣/ ٢٥٦.

﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [فلم يتبعوه][(١)] يعني فاتبعوه على كفره إلا القليل وهم المؤمنون . اهـ

ثم قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: من تسليط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء، أي: لم يكن له قوة على قهرهم، ولكنهم اختاروا طاعته لأنفسهم.

ثم علل ذلك فقال ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ أي: ما سلَّطناه إلا لغرض صحيح وحكمة بَيِّنَة، وهو تمييز المؤمن من الشاك، على التسليط بالعلم، والمراد ما تعلق به العلم من التمييز بينهما، ويحتمل أن يكون الاستثناء من مقدر، أي: ما خلينا بينه وبين الوسوسة إلا لنعلم، ويراد بالسلطان القهر، قال الحسن: والله ما ضربهم بعصا، ولا قهرهم إلا أنه دعاهم إلى الأماني والغرور.

وقوله: ﴿لِنَعْلَمَ﴾ فيه وجوه، منها: أن يراد ليَتَمَيَّزَ، أو يظهر لنا، ومنها: لنعلم علما يتعلق به الجزاء، ومنها: أنه على طريق التمثيل.

ثم قال ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ بمعنى عليم شهيد أي: محافظ عليه، ومطلع فيجزي بحسبه.

واعلم أنه تعالى لما بين حال المؤمنين الشاكرين، وحال الكافرين، وذكرهم بما مضى عاد إلى خطابهم، وقال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿قُلِ﴾ لمشركي قومك ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أنهم آلهة وعبدتموهم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تكشف عنكم الضر، أي: الأصنام والملائكة، أي: التجئوا إليهم فيما يدهمكم من الأمور لتكشف عنكم الضر، على سبيل التهكم، كما أنكم تلتجئون إليه، وانتظروا استجابتهم لكم، كما تنتظرونها منه، ثم أجاب عنهم، وبين أنهم لا يملكون شيئا بقوله ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي: مقدار أصغر نملة من

(١) ما بين قوسي الزيادة غير موجود في البرهان، فيحتمل أنه توضيح من المصنف رحمه الله.

خير أو شر، أو نفع أو ضر ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي: شركة في الخلق، ولا في الملك ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم﴾ أي: الآلهة ﴿مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي: عوين يعينه على تدبير خلقه، فكيف يصح أن يُدْعَوْا كما يُدْعَى، ويُرْجَوا كما يُرْجَى.

ثم قال تعالى ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ أي: عند الله تعالى ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ تقول: الشفاعة لزيد بمعنى أنه الشافع، أو أنه المشفوع له[1] فقوله: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ على أحد هذين الوجهين، فيحتمل أن

(١) كون الضمير في له للشافع فلا كلام حوله، لأن الشفاعة فعل الشافع، والإذن إنما يكون في الفعل أي لاتنفع شفاعة شفيع إلا شفاعة شفيع أذن له في أن يشفع. [أما أن يكون الضمير في له] للمشفوع له، فلا يصح فيه إلا بتقدير حذف فيه ؛ لأن المشفوع له لايصدر منه فعل حتى يؤذن له فيه، فإما أن يقدر المضاف محذوفا، ويكون المعنى إذن له أي: لشفيعه، ويؤول المعنى إلى قولك: أذن الله لشفيعه لأن يشفع له ؛ لأن الإذن لايتصور في حق المشفوع له، لعدم صدور فعل منه يؤذن له فيه، واللام في هذين الوجهين صلة ﴿أُذِنَ﴾ وإما أن يقدر اللام الذي هو صلة ﴿أُذِنَ﴾ محذوفا ؛ لأن ﴿أُذِنَ﴾ لايتعدى بنفسه بل باللام، وتكون هذه اللام المذكورة بمنزلة اللام الثانية في أذن لزيد لعمرو في أنها بمعنى لأجل، وجعله هذا الوجه الأخير لطيفا.

ثم استطرد في حاشية العلوي في بيان هذه الأوجه، فقال: وقوله [الضمير للزمخشري]: وهو الوجه وإنما كان ذلك لتنطبق ﴿مَّنْ﴾ على المشفوع له المنتفع بالشفاعة إذ هو من أذن لأجله لامن أذن له، واللام للصلة فإن ظاهره للشافع إلا بحذف مضاف، أي: لشفيعه، والأول سالم عن هذا الإضمار.

تقرير آخر: أن اللام في ﴿أَذِنَ لَهُۥ﴾ صلة للفعل فيجوز أن تكون مثل اللام في قولك الشفاعة لزيد على أنه الشافع .. وأن تكون مثل اللام في قولك: القيام لزيد، أي: كرامة له على أنه المشفوع له. ويجوز أن تكون بمعنى لأجل، ولام الصلة محذوفة مع متعلقها، نحو قولك: أذن لزيد لعمرو، وإليه الإشارة بقوله: وقع الإذن للشفيع لأجله، هذا الذي هو يقتضيه النظم ؛ لأن الذي له سوق الكلام أن شركاءهم لاينفعونهم في الدنيا، ولا يملكون لهم ضرا ولا نفعا، فعبر بقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عن العالم أي: في الدنيا، أي: لاينفعونهم في الدنيا ولا في الآخرة ؛ لأنه لو قدر لهم نفع لم يكن إلا الشفاعة، فجيء بقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ تعريضا بأن أصنامهم لايشفعون، لأنهم ليسوا في صدد أن يؤذن لهم.

يريد إلا لمن أذن له أن يشفع، أو لمن أذن أن يشفع له، والأولى أن اللام في له مثلها في قولك: أذن لزيد لعمرو، أي: لأجله، فكأنه قيل: إلا لمن وقع الإذن للشفيع لأجله، وهذا وجه لطيف، وفي هذا تكذيب لقولهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، والمعنى: أنه ليس أحد من الأنبياء والأوصياء يشفع في العصاة المذنبين، وإنما الشفاعة لمن أذن له، وهم الأنبياء والأوصياء في المطيعين لله المؤمنين ذكره في البرهان(١).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: دخل الفزع الأكبر في قلوبهم ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ في الدنيا ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾ يعني أنما قيل لنا في الدنيا من الوعد والوعيد والبعث والنشور والجنة والنار هو حق وصدق . [قاله في البرهان](٢)

وفي التجريد حكاية عن الكشاف: "يقفون مليا فزعين، أي: ينتظرون الأذن زمانا طويلا فزعين وهلين(٣) الشافع والمشفوع له ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم، وذلك بكلمة يقولها رب العزة في إطلاق الإذن بالشفاعة فيتباشرون بذلك، ويسأل بعضهم بعضا ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾ أي: القول الحق، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى(٤).

قال فيه(٥): وقيل: إن المشار إليهم المشركون، ومعنى الفزع عن قلوب المشركين عند الموت إقامة الحجة عليهم، قالت لهم الملائكة: ﴿مَاذَا

---

(١) ولفظ البرهان: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ يعني أنه ليس أحد من الأنبياء والأوصياء يشفع في العصاة المذنبين، وإنما الشفاعة لمن أذن له وهم الأنبياء والأوصياء في المطيعين لله المؤمنين. انظر البرهان خ ٣١٨.

(٢) ما بين القوسين ثابت في أ، وساقط من ب.

(٣) وهلين: أي: خائفين (حاشية العلوي).

(٤) انظر الكشاف ٣/٢٥٨، والتجريد مخطوط.

(٥) أي في التجريد.

﴿قَالَ رَبُّكُمْ﴾ في الدنيا ﴿قَالُوا الْحَقَّ﴾ فأقروا حين لا ينفعهم الإقرار، قاله الحسن وابن زيد، وقيل: حتى كشف الغطاء عن قلوبهم يوم القيامة، قاله مجاهد.

قال بعض علمائنا عليه السلام: وهذا القول بأن الضمير في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ يعود إلى المشركين هو الحق، وهو الموافق لتفسير الحسين بن القاسم عليه السلام[1]، والبرهان، وإن وقع الاختلاف في معنى ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ وأما قول من قال: إن الضمير يعود إلى الشافع والمشفوع لهم، أو إلى الملائكة على ما حكاه ابن الجوزي، فلعله من روايات الحشوية؛ لأن المؤمنين لا يفزعون يوم القيامة فضلا عن الملائكة صلوات الله عليهم، ومعنى كشف الفزع عن قلوب المشركين إذهاب الحيرة، ودهش العقل في بعض مواطن القيامة، أو عند الموت، والله أعلم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ أي: ذو العلو والكبرياء، ليس لملك ولا نبي أن يتكلم ذلك اليوم، ولا يشفع إلا بإذنه.

ثم أمر عزوجل نبيه ﷺ أن يحتج عليهم بقوله: ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فرزق السموات المطر، ورزق الأرض النبات.

ثم أمره بتولي الإجابة والإقرار عنهم فقال سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ يرزقكم لا الأصنام، إشعار بأنهم يقرون بقولهم إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به؛ لأن تمكن العناد في صدورهم، وحب الشرك أَلْجَمَ أفواههم عن النطق بالحق، ولأنهم وإن تفوهوا بأن الله رازقهم لزمهم أن يقال لهم: فمالكم لا تعبدون من يرزقكم، وتؤثرون عليه ما لا يقدر على الرزق[2].

---

(١) لفظ تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام، انظره أول هذه السورة. (ومعنى قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ هو إذا أدخل الفزع الأكبر في قلوبهم).

(٢) ومثل هذا في الكشاف ٣/ ٢٥٨.

ثم أمره أن يقول لهم بعد الإلزام ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾[١] قال في البرهان: ﴿أَوْ﴾ بمعنى الواو.

قال الحسين بن القاسم عليه السلام: ليس هذا شك، ولكنه على سبيل النصفة، ولين المراجعة، والحكمة والتأديب للخلق، والحلماء إذا خاصموا بعض أعدائهم قالوا لابد أن يكون أحدنا أصدق من الآخر[٢].

قال في الكشاف: وهذا من كلام المنصف المتفق على أنه إنصاف لمن خوطب به، ومثله:

[أتهجوه ولست له بكفء] فشركما لخيركما الفداء[٣]

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ يحتمل أن يكون حكاية أقوال الكفار، وهي تسمية أفعال النبي صلى الله عليه وآله وسلم إجراما، ويحتمل أن يكون من الإنصاف أيضا حيث أسند الإجرام الذي هو القبيح إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه، وهم المتكلمون بهذا الكلام، وأسند إلى المخاطبين العمل الذي

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قال أبو البقاء: ﴿أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ معطوف على اسم إن، فالخبر مكرر، كقولهم: إن زيدا وعمرا قائم، واختلفوا في الخبر فقال سيبويه المذكور للثاني، وخبر الأول محذوف، وهو أولى من عكسه، فعلى هذا يكون ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾ خبرا للأول، و﴿أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ معطوفا عليه، وخبر المعطوف محذوف لدلالة المذكور عليه.

(٢) تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام، انظره أول هذه السورة.

(٣) البيت لحسان بن ثابت، وهو يهجو بعضا ممن هجا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد نقله المصنف باختصار من الكشاف، ولفظ الكشاف ٣/ ٢٥٩ (وهذا من الكلام المنصف، الذي كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خوطب به: قد أنصفك صاحبك، وفي درجه بعد تقدمة ما قدم من التقرير البليغ دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى، ومن هو في الضلال المبين، ولكن التعريض والتورية، أنضل بالمجادل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة مع قلة شغب الخصم، وفل شوكته بالهوينا، ونحو قول الرجل لصاحبه: علم الله الصادق مني ومنك، وإن أحدنا لكاذب، ومنه بيت حسان .. الخ ماذكره المصنف رحمه الله.

هو صالح للحسن والقبيح حيث قال: ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٥﴾ من الكفر والمعاصي العظام، وهذا أدخل في الإنصاف، وأبلغ فيه من الأول.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ في دار الجزاء، أكد ما يوجب النظر والتفكر، فإن مجرد الخطأ والضلال واجب الاجتناب فكيف إذا كان يوم عرض وحساب وثواب وعذاب ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾ أي: يحكم ويفصل بيننا؛ لأنه بالقضاء يفتح وجه الحكمة ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، وهو أن يدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ والقاضي بين عباده بالعدل في الحكم ﴿الْعَلِيمُ ۝٢٦﴾ بما يخفون وما يبدون.

واعلم أنه تعالى لما بين أنه لا يعبد غير الله لدفع الضرر إذ لا دافع للضرر غيره، بقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ وبين أنه لا يعبد غير الله لتوقع المنفعة بقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بَيَّنَ هاهنا أنه لا يعبد أحد لاستحقاقه العبادة غير الله فقال سبحانه ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ﴾ أي: بالله ﴿شُرَكَاءَ﴾ هل ينفعون أو يضرون، وكان يراهم ويعرفهم، ولكن أراد أن ينبههم ويريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء به، ويقايس على أعينهم بينهم وبين الأصنام ليطلعهم على بطلان الإشراك بالمقايسة على أعينهم بين الله وبين الأصنام التي لا حياة لها، وقوله ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن مذهبهم بعد ما أبطله بالمقايسة الباطلة بإظهار عدم المماثلة ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ﴾ القادر على كل شئ، الغالب لكل مبطل ﴿الْحَكِيمُ ۝٢٧﴾ العادل في كل ما يفعل، كأنه قال: أين الذين ألحقتم به شركاء من هذه الصفات؟.

ولما بين مسألة التوحيد شرع في الرسالة فقال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أي: إلا رسالة عامة لهم، محيطة بهم؛ لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم.

وقال الزجاج: أي: أرسلناك جامعا للناس[١] في الإنذار والإبلاغ فجعله حالا من الكاف وحق التاء على هذا أن تكون للمبالغة كتاء الراوية والعلاّمة، ومن جعله حالا من المجرور متقدما عليه فقد أخطأ[٢] لأن تقدم

(١) قال في حاشية العلوي: وقال الزجاج: المعنى أرسلناك جامعا للناس في الإنذار والإبلاغ فقد جعلته حالا من الكاف، وقال أبو البقاء: كافة حال من الكاف، والهاء زائدة للمبالغة، وللناس متعلق به، أي: وما أرسلناك إلا كافة للناس عن الكفر والمعاصي، وقال المالكي في شرح التسهيل: قول الزجاج باطل ؛ لأنه جعل كافة حالا من مفرد، ولا يعرف ذلك في محل النزاع، وجعله من مذكر مع كونه مؤنثا، ولا يتأتى ذلك إلا بأن تجعل تاؤه للمبالغة، وبابه مقصور على السماع، ولا يتأتى غالبا ما هي فيه إلا على أحد أمثلة المبالغة، كنسابة، وفروقة، ومهذارة، وكافة بخلاف ذلك، فبطل أن تكون منها، لكونها على فاعلة، فإن حملت على روًاية حملت على شاذ الشاذ ؛ لأن إلحاق تاء المبالغة لأحد أمثلة المبالغة شاذ، وإلحاقه لما لا مبالغة فيه أشذ، وأما الزمخشري فقد جعل كافة صفة، ولم تستعملها العرب إلا حالا، وليته إذ أخرج كافة عن استعمال العرب سلك به سبيل القياس، بل جعله لموصوف محذوف لم تستعمله العرب مفردا ولا مقرونا بصفة، أعني إرسالة، وحق الموصوف المستغني بصفته أن يعتاد ذكره مع صفته قبل الحذف، ولا تصلح الصفة لغيره. ثم قال السيد رحمه الله: واعلم أن كلام المالكي لايخلو من تعصب وتكلف، وذلك حيث قال: بل جعله لموصوف محذوف لم تستعمله العرب. . إلى آخر كلامه ؛ لأن جميع ما قاله لم يشتركه أحد من أئمة الأدب، ولا نسلم أن العرب لم تستعمل إرسالة، ولا نسلم أن حق الموصوف المستغني بصفته أن يعتاد ذكره مع صفته قبل الحذف، فإن الموصوف المحذوف في نحو قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ وفي قوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ وفي قول الشاعر: أنا ابن جلا [وطلاع الثنايا] وفي قوله: كأنك من جمال بني أقيش، وفي قوله:

لو قلت ما في قومها لاتيثم تفضلها في حسب وميسم

ما اعتيد ذكره مع الموصوف، وأيضا في قوله: وأن لاتصلح الصفة لغيره نظر، لأنه إن أراد أن لاتصلح إلا للموصوف في هذا التركيب، أعني الذي حذف فيه الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه فمسلم، وكافة في الآية لاتصلح صفة إلا لإرسالة، وإن أراد أن لايتصلح إلا للموصوف في جميع التراكيب فممنوع، والذي اشترطه أئمة الأدب في جواز حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه هو أن يكون معلوما مع حذفه.

(٢) قوله فقد أخطأ. اعلم أن المجرور إن انجر بالإضافة إليه لم يتقدم الحال عليه اتفاقا، سواء كانت الإضافة محضة أولا، وذلك لأن الحال تابع وفرع لذي الحال، والمضاف إليه لايتقدم على المضاف، فلا يتقدم تابعه أيضا، وإن انجر بحرف الجر فسيبويه وأكثر =

حال المجرور عليه في الإحالة بمنزلة تقدم المجرور على الجار، وكم ترى من يرتكب هذا الخطأ ثم لا يقنع به حتى يضم إليه أن يجعل اللام بمعنى إلى؛ لأنه لا يستوي له الخطأ الأول إلا بالخطأ الثاني، فلا بد له من ارتكاب الخطأين هذا كلام الكشاف[1] وقال غيره: الأصل وما أرسلناك إلا للناس كافة.

ومثله في تفسير الحسين بن القاسم عليه السلام[2] وغيره، وهو الأولى؛ لأنه قد جاء في لغة العرب تقدم الحال على صاحبها المجرور، وهو أيضا قول أبي علي، وابن كيسان، وغيرهما من النحويين، كسائر أحوال الأفعال، ولثبوته سماعا، قال الشاعر:

إذا المرء أعيته السيادة ناشئا   فمطلبها كهلا عليه شديد

وقال آخر:

غافلا تعرض المنية للمرء   فيدعى ولات حين إباء

= البصريين يمنعون أيضا تقدمها عليه، ونقل عن ابن كيسان وأبي علي، وابن برهان الجواز استدلالا بهذه الآية، ولعل الفرق بين حرف الجر والإضافة أن حرف الجر مُعَدّ للفعل كالهمة والتضعيف فكأنه من تمام الفعل وبعض حروفه، فإذا قلت: ذهبت راكبة بهند، فكأنك قلت: أذهبت راكبة هندا، فكأنه حال من المنصوب، ومنه قول الشاعر: إذا المرء أعيته السيادة ناشئا فمطلبها كهلا عليه عسير
وقوله الآخر: تسليت طرا عنكم بعد بينكم بذكراكم حتى كأنكم عندي
وقد تقدم الحال على المجرور وعلى ما يتعلق به الجار: كقوله: غافلا تعرض المنية للمرء فيدعى ولات حين إناء
وقال صاحب التقريب: في قوله: لايستوي له الخطأ الأول إلا بالثاني - نظر، إذ لاضرورة في جعل اللام بمعنى إلى، بل تزاد هدايتهم. ويحتمل أن يقال: إنهم إنما ارتكبوا الثاني لئلا يلزم كون الناس في المعنى مجرورا بالإضافة ؛ لأن التقدير حينئذ: وأرسلناك لهداية الناس، وعلى هذا يمتنع تقدم الحال على الناس.

(١) انظر الكشاف ٣/ ٢٦٠.

(٢) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام أول هذه السورة.

وغير ذلك، وكفى بهذه الآية شاهدا في ذلك، ولا يهولنك ما ذكره صاحب الكشاف والله أعلم.

ثم قال ﴿بَشِيرًا﴾ لمن اتبعك ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن خالفك، أي: مبشرا للمؤمنين، ونذيرا للخلق أجمعين ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ أي: الكفرة ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ بأنك رسول بشير ونذير، وإن علموا فهم كمن لا يعلم لإعراضهم، ومن لا يعمل بعلمه فهو كمن لا علم له.

ولما ذكر الرسالة بَيَّنَ الحشر بعد أن حكى قول الكفرة حيث يقول تعالى ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ أي: البعث والجزاء ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ في أنه واقع، وأراد بهذا السؤال الإستعجال استهزاء وتكذيبا، فقال عزوجل مبينا لذلك: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ هو يوم القيامة ﴿لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ وقيل: هو الموت، وهذا يوجب الإنذار؛ لأن معناه عدم المهلة عن الأجل، وذلك أنهم لما طلبوا الاستعجال بين أنه لا استعجال فيه، كما لا إمهال، وهذا يفيد عظم الأمر، وخطر الخطب(١).

ولما بين الأمور الثلاثة من التوحيد والرسالة، والحشر، وكانوا بالكل كافرين بين كفرهم العام فقال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من العرب، وقيل: هم مشركو مكة سألوا أهل الكتاب عن محمد صلى الله عليه وآله فأخبروهم أنهم يجدون صفته في كتبهم فأغضبهم، فكفروا بالجميع وقالوا ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الأنبياء والكتب، وقيل: أراد بالذي بين يديه يوم القيامة، والمعنى أنهم جحدوا بالقرآن وبالبعث، وذلك لأن القرآن مشتمل على الكل.

---

(١) قال السيد العلوي: يعني انهم سألوا عن وقت مجيئ الساعة وأجيبوا ببيان أحوالهم فيها، وتلخيص الجواب أنه ورد على الأسلوب الحكيم، أراد اتركوا السؤال عن ذلك، واسألوا عن أحوال أنفسكم إذ ذلك، وكيف تكونون متحيرين من هول ما يفجؤكم، فإن هذا السؤال أليق بحالكم. (حاشية العلوي) ١٧٥.

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: هؤلاء هم اليهود خاصة [عليهم لعنة الله]؛ لأنهم لا يؤمنون بالقرآن ولا بالإنجيل [الذي جاء بين يديه وقبله]، وكذلك الملحدون [الكفرة الجهلة، والأوباش الجاحدون]لا يؤمنون بالقرآن، ولا بما كان قبله، ولا بمن خلقه ونزله[1]اهـ.

ولما وقع اليأس من إيمانهم في هذه الدار بقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾ فإنه لتأبيد النفي وعد نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه يراهم على أذل حال موقوفين للسؤال يرجع بعضهم إلى بعض القول، فقال تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يامحمد، أو عام لكل أحد ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: يرجع بعضهم القول إلى بعض، والمعنى: ولو ترى في الآخرة موقفهم عند الجزاء، وتراجعهم فيه لرأيت العجب، فحذف الجواب.

ثم فسر المتراجع، وبدأ بالأتباع لأن المضل أولى بالتوبيخ فقال تعالى ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ يعني الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ الرؤساء والمتقدمون ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: لولا منعكم لنا من الإيمان لسلمنا من العذاب.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: نحن حلنا بينكم وبين كونكم ممكنين مختارين ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ أي: بعد عزمكم على الدخول فيه، أنكروا تلك الحال بأنهم الصادون، أي: أنحن أجبرناكم عن الضلال؟ ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: بل انتم منعتم أنفسكم حظها، وأطعتم امر الشهوة، وآثرتم الضلال على الهدى باختياركم، فكنتم مجرمين، أي: كافرين لاختياركم.

ولما ذكر المستكبرون أنا ما صددناكم، وما صدر منا ما يصلح مانعا وصارفا ـ اعترف المستضعفون به، وقالوا ما حكى الله تعالى عنهم حيث

(١) انظر تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام أول هذه السورة. وما بين أقواس الزيادة منه.

قال ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم كأنهم قالوا: ما كان الإجرام من جهتنا، بل من جهة مكركم لنا في الليل والنهار دائما، وحملكم إيانا على الشرك، واتخاذ الأنداد، والكيد الخفي، ومعنى ﴿مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ فهو مكركم في الليل والنهار، فاتسع في الظرف بإجرائه مجرى المفعول، وإضافة المكر إليه، وجعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الإسناد المجازي[١] ﴿إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ﴾ أي: نشرك ﴿بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾ أي: أمثالا.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ يعني الرؤساء والأتباع ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ قدم الرؤساء على الدعاء إلى الضلال، والأتباع على الإتباع فيه، وكان ذلك سرا، أسر كل منهم في نفسه على ما كان منه، وأخفى خوف الشماتة، وقيل: أسروا بمعنى أظهروا، وأنه من الأضداد[٢].

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه: أضمروا الندامة في قلوبهم، وأظهروها بألسنتهم، فهم نادمون في ضميرهم كمثل براءتهم[٣] في علانيتهم، قال الشاعر:

إذ لا يزال لها حبٌّ علانية ومستسرٌّ لها في الصدر مكتوم

ثم قال تعالى ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ﴾ جمع غل، وهو الطوق في عنق المعذب.

---

(١) ومثله في الكشاف ٣/ ٢٦١.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف، قال السيد العلوي يحي بن الحسين عليه السلام في حاشيته: قوله: وأسروا الندامة أظهروها، وهو من الأضداد، عطف من حيث المعنى على قوله: يندم المستكبرون، ويقال: أسره أثبت له الخفاء، وأسره أزال عنه الخفاء، ونظيره أشكيته: إذا أثبت له الشكاية، وأشكيته: إذا أزلتها عنه، وأنشد جار الله رضي الله عنه لنفسه: شكوت إلى الأيام سواء صنيعها ومن عجب شاك تشكى إلى المشكي.

فما زادني الأيام إلا شكاية وما زالت الأيام تشكي ولا تشكى

(٣) في المصابيح (كمثل ندامتهم) وفي تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام (كمثل براءتهم).

وقوله ﴿فِىٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ﴾ أي: في أعناقهم فجاء بالصريح للتنويه بذمهم، وللدلالة على ما استحقوا به الأغلال يوم القيامة بدليل ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ والتقدير: وقيل لهم: ما تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون، وهو العذاب.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِى قَرۡيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ يعني أهل الترف والرزق والرئاسة الذين أبطرتهم النعمة ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ كما قال عتاة قومك، وهذه تسلية لقلب النبي ﷺ وبيان، لأن إيذاء الكفار الأنبياء الأخيار ليس بدعا، بل ذلك عادة جرت من قبل، وإنما نسب القول إلى المترفين مع أن غيرهم أيضا قالوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ لأن الأغنياء المترفين هم الأصل في ذلك القول، ألا ترى أن الله قال عن الذين استضعفوا: إنهم قالوا للمستكبرين: ﴿لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾ ثم استدلوا على كونهم مصيبين في ذلك بكثرة الأموال والأولاد حيث حكى عنهم ﴿وَقَالُوا۟ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلًا وَأَوۡلَٰدًا﴾ قالوا ذلك للأنبياء والفقراء، أي: أنهم أولى بما أنعم الله عليهم من الغنى أن يكونوا على طاعته، قاسوا أمر الآخرة الموهومة عندهم على أمر الدنيا، واعتقدوا أنهم لو لم يكرموا على الله ما رزقهم، ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما أحرمهم، فعلى قياسهم ذلك قالوا ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم في الآخرة نظرا إلى أحوالهم في الدنيا[1].

وفي البرهان: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ فيه تأويلان، أحدهما: ما عذبنا بما أنتم فيه من الفقر، والثاني: أي: ما أنعم الله علينا بهذه النعم، وهو يريد عذابنا، فرد الله عليهم ما احتجوا به، وبين خطأهم فقال لنبيه ﷺ ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّى يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾[2] والرزق: فهو المال، أي: يوسع على من

---

(١) ومثل هذا أيضا في الكشاف ٣/ ٢٦١.

(٢) إلى هنا انتهى المنقول من البرهان، ومابين القوسين زيادة في هذا التفسير، وليست موجودة في نسخة البرهان التي لدي.

يشاء في رزقه ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ يعني: فيقتر

قال الهادي عليه السلام: يقول ـ فهو يقدر لمن يشاء مقدار رزقه وقوته، ولا يبسط له من السعة في الرزق ـ [والرزق: فهو المال] ـ ما يبسط لغيره، تدبيرا منه سبحانه وتقديرا، ولطفا منه للكل وتدبيرا، وكل قد فعل به من ذلك ما هو خير له وأصلح في المعاني كلها، عاجلها وآجلهااهـ.

ولا تقاس الآخرة على الدنيا؛ لأن القبض والبسط في الدنيا على حسب المصالح، فربما وسع على العاصي، وضيق على المطيع، وربما عكس، وربما وسع عليهما وضيق عليهما، والمراد أن الرزق في الدنيا لا يدل سعته وضيقه ـ على حال المحق والمبطل، فكم من موسر شقي، ومعسر تقي ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾ أن الله يوسع على من يشاء، ويقتر على من يشاء، وقيل: لا يعلمون بأن الثواب ونعيم الآخرة لا يقاس على رزق الدنيا ونعيمها.

ثم بين فساد استدلالهم بقوله تعالى ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ أي: قربى، والزلفى والزلفة: بمعنى القربى، والقربة، كأنه قيل: بالتي تقربكم تقريبا، ومثله في البرهان.

والاستثناء في قوله ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ متصل، والمعنى: أن الأموال لا تقرِّب أحدا إلا المؤمن الذي ينفق أمواله في سبيل الله، والذي يعلم أولاده الخير، ويرغبهم في الطاعة، ويحتمل أنه منقطع.

ثم قال سبحانه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي: جزاء المضاعفة الكثيرة، وليس المراد أن يكون الجزاء مثل المجزي فقط.

قال الزجاج: معناه جزاء الضعف الذي عرف (الحسنة بعشرة أمثالها) ومثل هذا في البرهان.

ثم زاد تبارك وتعالى فقال: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾ يعني

غرفات الجنة، والغرفات: المعالي، وهي القصور المرتفعة في الجنة، آمنون من الموت، ومن انقطاع النعمة، ومن كل خوف وزوال فقوله: ﴿ءَامِنُونَ﴾ إشارة إلى دوام النعيم وتأبيده.

ثم بين حال المسيئ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: في معناها بالإفساد، كقولهم: سحر، وشعر ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مسابقين، أي: يريدون أن يسبقوا الحق بالباطل.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ٣٨﴾ إشارة إلى الدوام، أي: لا يغيبون عنه، ولا يخفف عنهم.

ثم قال مرة أخرى ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ أي: ويضيق لمن يشاء، وهو يحتمل بسط الرزق وتضييقه على واحد على حسب المصلحة، ويحتمل أن يراد بمن قدر له الرزق غير من بسط له، فذكر هذا المعنى مرتين، مرة لبيان أن أكثر أموالهم وأولادهم غير دالة على حسن أحوالهم واعتقادهم، ومرة لبيان أنه غير مختص بهم، كأنه قال: وجود الترف لا يدل على الشرف.

ثم وعد المؤمن بخلاف ما للكافر فإن الكافر دابره مقطوع، وماله إلى الزوال، فقال تعالى ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ لوجه الله تعالى ﴿مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أي: يعوضكم منه بدله.

وفي البرهان: يخلفه بالأجر في الآخرة إذا أنفقه في طاعة الله.

وفي التجريد: يخلفه أي: يعوضه إما عاجلا بالمال، أو بالقناعة التي هي كنز لا ينفد، وإما آجلا بالثواب، وهذا قول مجاهد، قال: ولا يلزم أن يكون الخلف في الدنيا.

ومعنى الآية وما كان من خلف فهو منه، وقيل: كل نفقة في غير

إسراف ولا تقتير[١]، ويقال: ولا تبذير فإن الله يخلفها عاجلا، أي: في الدنيا كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: (إذا افتقرتم فتاجروا الله بالصدقة) وعنه صلى الله عليه وآله وسلم عن الله عز وجل (أَنْفِق أُنْفِق عليك) وعن عمر أنه قال لصهيب: إنك لا تمسك شيئا؟ فقال: سمعت الله يقول: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾.

ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: خيرهم رزقا وأعلاهم؛ لأن كل رزق منه، وكل رجل رزق غيره فهو رزق الله أجراه على يديه، وهو خالق الأرزاق، وخالق الأسباب، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم :(من فقه الرجل رفقه في معيشته) وقال ابن وهب: قرأت في الزبور (يا داود ربما رزقت العبد رزق شهر في جُمَيْعَةٍ فينفقه بغير تدبير، ثم يشكوني إلى خلقي وأنا أحكم الحاكمين).

ولما بين أن حال النبي صلى الله عليه وآله وسلم كحال من تقدمه من الأنبياء، وحال قومه كحال من تقدم من الكفار، وبين بطلان استدلالهم بكثرة أموالهم وأولادهم - بين ما يكون من عاقبة حالهم فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعني المشركين المكذبين بك وبمن تقدمك، ومن عبدوه من الملائكة عليهم السلام ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾ هذا خطاب للملائكة، وتوبيخ لمن عبدهم من الكفار، وأراد على المثل السائر: إياك أعني واسمعي يا جارة[٢] والغرض أن يقول ويقولوا، ويسأل ويجيبوا، فيكون

(١) الإسراف: قال في القاموس يقال: ذهب ماء الحوض سرفا، محركة: فاض من نواحيه، وإسرافيل لغة في اسراف أعجمي مضاف إلى إيل، والاسراف التبذير وما أ،فق في غير طاعة، ومسرف لقب علم على مسلم بن عقبة المري (الحري) صاحب وقعة الحرة لأنه أسرف فيها، وسيراف كشيراز بلد بفارس.

والتقتير: الرمقة من العيش، قتر يقتر قترا وقتورا، فهو قاتر وقتور، وأقتر وقتر عليهم، وأقتر ضيق في العيش. تمت حاشية من الأصل.

(٢) قيل: أول من قال ذلك سهل بن مالك الفزاري، وذلك أنه خرج يريد النعمان فمر ببعض أحياء طي، فسأل عن سيد الحي، فقيل: حارث بن لام، فأم رحله، فلم يجده، فقالت له أخته: انزل في الرحب والسعة فنزل وأكرمته، فرآها وكانت عقيلة قومها، وسندة نسائها =

تعييرهم أشد، وتقريعهم أبلغ، ومثلها ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1] وإلا فقد علم تعالى أن عيسى والملائكة براء مما وجه إليهم، ولا رضوا بعبادة من عبدهم.

ثم أخبر تعالى عن جواب الملائكة عليهم السلام أنهم ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: ننزهك عن أن يكون غيرك معبودا وأنت معبودنا ومعبود كل خلق، سبحانك من أن نتولى غيرك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ يعني أنت الذي نواليه بالطاعة دونهم، والموالاة: خلاف المعاداة، من الولي وهو القرب، كما أن المعاداة من العدو وهو البعد، والوليُّ يقع على المُوَالِي والمُوَالَى، أي: أنت الذي نواليه دونهم[2].

وقالوا ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ قال في البرهان: يعني أنهم أطاعوا الجن في عبادتنا، فصاروا بطاعتهم عابدين لهم دوننا، وعنى بالجن رؤساء الكفر المبالغين فيه، كما يشبه المبالغ في الشر بالجن ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: أكثر المشركين لشياطينهم وأخبارهم مطيعوناه.

قال الهادي عليه السلام هذا إخبار من الله سبحانه وتعالى عن من أطاع

= فوقعت في نفسه فجلس يوما بفناء الخباء ينشد وهي تسمع:

يا أخت خير البدو والحضارة ... كيف ترين في فتى فزارة
أصبح يهوى حرة معطارة ... إياك أعني واسمعي ياجارة

؟فقالت مجيبة له:

إني أقول يافتى فزارة ... لا أبتغي الزوج ولا الدعارة
ولا فراق أهل هذي الحارة ... فارحل إلى أهلك باستخارة

فاستحيا الفتى فقال: ما أردت منكرا، فقالت: صدقت، وكأنها استحيت من تسرعها إلى تهمته، فارتحل إلى النعمان، فلما رجع نزل على أخيها، فتطلعت إليه وكان جميلا، فأرسلت إليه أن اخطبني فخطبها وتزوجها وسار بها إلى قومه. يضرب هذا المثل لمن يتكلم بكلام ويريد به شيئا آخر.

(١) المائدة ـ ١١٦.

(٢) ومثله أيضا في الكشاف، وقد اصلحنا اللفظ منه. انظر الكشاف ٣/ ٢٦٢.

الشياطين في الدنيا، واتبعهم وجرى في إرادتهم، وإفك وساوسهم، فأخبر أنهم ينتفون من ذلك في الآخرة، ويزعم أنه كان يتولى الله دونهم فأكذب الله قولهم، وأخبر أنهم كانوا يعبدون الجن من دون الله، وعبادتهم للجن: فهي طاعتهم لهم، وطاعتهم لهم فهو اتباعهم لوساوسهم، وقبولهم لما كانت الشياطين توسوس به لهم؛ لأن من أطاع شيئا فقد عبده، لأن أفضل العبادة الطاعة لله، كانت عبادة العابد له أو لغيره سبحانه من الإنس والشياطين، ومعنى ﴿مُّؤْمِنُونَ﴾ فهو مصدقون؛ لأن الإيمان هو التصديق، من صدق شيئا فقد آمن به، ومن أنكر فقد كفر به[١]اهـ.

أي: أكثرهم بالجن مصدقون ما يمنونهم ويعدونهم، أو مطيعون لهم كما يطيع المؤمن ربه، وعبر بالأكثر عن الكل.

ثم بين أن ما كانوا يعبدونه لا ينفعهم فقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: لا ضار ولا نافع يوم القيامة إلا الله بخلاف الدنيا، فهم مخلون للتنافع والتضار ﴿وَنَقُولُ﴾ في ذلك اليوم ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ في الدنيا.

إن قيل: ما الفائدة في قوله تعالى هاهنا ﴿عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا﴾ وقال في السجدة: ﴿عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ﴾[٢] جعل المكذب هناك العذاب، وجعل المكذب هاهنا النار، وهم كانوا يكذبون بالكل؟

فالجواب: أن الفائدة هناك لم يكن أول ما رأوا النار، بل كانوا هم فيها من زمان، بدليل قوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾[٣] وقيل لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: العذاب المؤبد

(١) مجموع تفسير الأئمة عليهم السلام ص ٤٣٣.
(٢) السجده: ٢٠.
(٣) السجدة ـ ٢٠.

الذي أنكرتموه بقولكم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾[١] أي: قلتم: إن العذاب إن وقع فلا يدوم، فذوقوا الدائم، وههنا أول ما رأوا النار؛ لأنها مذكورة عقيب الحشر والسؤال، فقيل لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾[٢].

ثم قال تعالى إظهارا لفساد اعتقادهم، واشتداد عنادهم: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: القرآن ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ واضحات في أنها من عند الله، لما هي عليه من الإعجاز الذي لا يقدر عليه غيره تعالى ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ﴾ يعنون محمدا ﷺ ﴿إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ﴾ من الأصنام ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ﴾ أي: القرآن ﴿إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ﴾ أي: مكذوب على الله تعالى مخترع من عند نفسه، ويحتمل أن يكون المراد أن القول بالوحدانية إفك مفترى، ويدل عليه هو أن الموحد كان يقول في حق المشرك: إنه يأفك، كما قال تعالى: ﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الصافات: ٨٦] وكما قالوا هم للرسول: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾[٣].

ولما كان إنكار التوحيد مختصا بالمشركين، وإنكار القرآن والمعجزة كان متفقا عليه بين المشركين وأهل الكتاب قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ على وجه العموم، وهو أمر النبوة كله، ودين الإسلام ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٤٣﴾﴾ أي: بين، لا يلتبس على عاقل كونه سحرا، ويجوز أن يريد بالحق القرآن تارة، جعلوه إفكا، أي: كذبا، وتارة جعلوه سحرا.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾ فيها برهان على

(١) البقرة: ٨٠.
(٢) ومثل هذا أيضا في الرازي ٩/ ٢١٣.
(٣) الأحقاف: ٢٢.

صحة الشرك، كما قال: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ٣٥﴾[(١)]

فقال في البرهان: "يعني مشركي قريش، ما أنزل الله عليهم كتبا يدرسونها، فيعلمون بدرسها أنما جئت به حق، وإنما أنزلنا الكتب على الأنبياء، فكذبوا بك وبمن كان قبلك من الكتب والأنبياء".

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ٤٤﴾ ينذرهم بالعقاب؛ أو لم يكونوا أهل كتاب، ولا بعثة رسل فيعتذروا بأنهم على شريعة لا يتركونها، كما قال أهل الكتاب، وإن كان ذلك لا يعذرهم، كما قال تعالى: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ ٢١﴾[(٢)] فليس لتكذيبهم وجه متشبث به، ولا شبهة يُتَعَلَّقُ بها.

ثم بين أنهم كالذين من قبلُ كذبوا فقال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ كعاد وثمود، فهذا إخبار من الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم بما كان ممن كان من الأمم قبل قريش ممن بعث إليهم الرسل فكذبوا[(٣)] كما كذبت قريش، فنزل بهم من نقم الله ما نزل بهم، فأخبر سبحانه بذلك عنهم تخويفا وإعذارا وإنذارا إلى قريش ليحذروا ما نزل بغيرهم قبل أن ينزل بهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا بَلَغُواْ﴾ أي: هؤلاء المشركون ﴿مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ أي: الأمم الماضية من طول الأعمار، وقوة الأجساد، يريد بذلك بأن قريشا لم تنل في المقدرة والجدة وسعة الأموال والطاعة معشار ما أوتي الذين أخذوا بتكذيب رسلهم، ذكره الهادي عليه السلام.

والمراد أن الله أخذهم وما نفعتهم قوتهم، فكيف حال هؤلاء الضعفاء، والمعشار والعشر: واحد.

---

(١) الروم ـ ٣٥.

(٢) الزخرف ـ ٢١.

(٣) في نسخة (لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم بما كان ممن كان قبل قريش ممن بعث إليهم الرسل فكذب ..)

وفي البرهان: "المعشار: عشر العشير، والعشير عشر العشر، فيكون جزأ من ألف جزء، والمراد به المبالغة في التقليل".

﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى﴾ أي: فحين كذبوا رسلي ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ أي: كيف كان تغييري عليهم، وأخذي لهم على فعلهم، وفي الكلام إضمار محذوف، وتقديره: فأهلكناهم فكيف كان نكير، أي: جاءهم إنكاري بالتدمير، ولم يغن عنهم ما هم فيه فليحذر هؤلاء مثل إنكاري على أولئك.

ثم قال تعالى: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي: بخصلة واحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وهي ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ أي: لوجه الله خالصا، ولم يرد القيام على الأرجل، كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾(١) وقوله: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ إشارة إلى جميع الأحوال، فإن الإنسان إما أن يكون مع غيره، أو يكون وحده، فإذا كان مع غيره دخل في قوله: ﴿مَثْنَىٰ﴾ وإذا كان وحده دخل في قوله: ﴿فُرَٰدَىٰ﴾ فكأنه يقول: قوموا لله مجتمعين ومنفردين، لا تمنعكم الجمعية من ذكر الله، ولا يحوجكم الانفراد إلى معين يعينكم على ذكر الله.

وقال في البرهان: "المراد بالمثنى مشاورا لغيره، والفرادى: هو المتفرد برأيه".

وقيل: منفردين اثنين اثنين، وواحدا واحدا، والقيام: إما عن مجلسه ﷺ وتفرقهم عن مجتمعهم عنده، وإما القيام الذي لا يراد به المثول على القدمين، ولكن النهوض في الأمر بالهمة، لا القيام بمعنى الانتصاب، وقيل: الخصلة الواحدة، هي لا إله إلا الله، وقيل: طاعة الله، قاله في التجريد.

ومعنى قوله: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ أي: اعترفوا بما هو الأصل والتوحيد،

(١) النساء - ١٢٧.

ولا حاجة فيه إلى فكر ونظر بعد ما بان وظهر، ثم تتفكروا فيما أقول بعده من رسالتي والحشر فإنه يحتاج إلى تفكر، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ تفيد ذلك، كأنه قال: قوموا لله ثم تتفكروا.

ثم بين ما يتفكرون فيه، وهو أمر النبي ﷺ فقال ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾أي: ليس برسول الله ﷺ من جنون، والمعنى إنما أعظكم بخصلة واحدة، وهي أن تقوموا لوجه الله خالصا متفرقين اثنين اثنين، وواحدا واحدا، ثم تتفكروا في أمر محمد ﷺ، أما الإثنان فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه، وينظران فيه نظر متصادقين متصافيين، لا يميل بهما [اتباع]هوى، وأما الفرد فيتفكر في نفسه بعدل وإنصاف بلا مكابرة، ويعرض فكره على عقله، ويتبع دليل العقل ولا يكابره حتى يهجم به النظر الصالح على الحق، من أنه ﷺ على الحق، والذي أوجب تفرقهم مثنى وفرادى أن الاجتماع مما يشوش الخواطر، ويعمي البصائر، ويمنع الرؤية ويخلط القول فيقل الإنصاف، ويكثر الاعتساف، ويثير عجاج الغضب، والتعصب بنصرة المذاهب، وأراهم بقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أن هذا الأمر العظيم الذي تحته ملك الدنيا والآخرة، لا يتصدى لمثله إلا مجنون لا يبالي بافتضاحه إذا طلب بالبرهان فعجز، وإما راجح العقل مرشح للنبوة لا يدعيه إلا بعد صحته عنده ببرهان، وقد علمتم أن محمدا ما به من جنة، بل أرجح قريش عقلا، وأجمعهم لما يحمد، وكان مظنة لأن يظنوا به الخير والصدق، وإنما ذكر سبحانه محمدا ﷺ باسم الصحبة لينبه على أنه قد صحبهم المدد الطوال فعرفوا رجاحته، وعقله، وصدقه وأمانته.

ثم قال عزوجل ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾ من العذاب . وقوله ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ إشارة إلى قرب العذاب، كأنه قال: فينذركم قبل قدومكم على عذاب لا أشد منه، وهو عذاب الآخرة.

وفي البرهان: هو الانتقام بالسيف، والعقاب في الآخرة.

واستعار ﴿بَيْنَ يَدَيْ﴾ للتقدم اليسير، وقد يراد به التقدم المطلق، نحو ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾(١).

قال في البرهان : وسبب ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله سأل قريشا أن لا يؤذوه، ويمنعوا منه لقرابته منهم حتى يؤدي رسالة ربه، فسمعوه يذكر اللات والعزى في القرآن فقالوا يسألنا أن لا نؤذيه لقرابته منا، ويؤذينا بسب آلهتنا.

ولما ذكر أنه ما به من جنة ليلزم منه كونه نبيئا ذكر وجها آخر يلزم منه أنه نبي إذا لم يكن مجنونا فقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي: أيُّ شئ سألتكم على الإيمان فهو لكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ يريد نفي المسألة، كقولك لمن لم يعطك شيئا: إن أعطيتني شيئا فخذه،تريد قطع طمعه عن الأخذ مما لم يكن؛ لأن من يرتكب العناء الشديد لا لغرض عاجل إذا لم يكن ذلك فيه ثواب أخروي يكون مجنونا، فالنبي ﷺ بدعواه للنبوة يجعل نفسه عرضة للهلاك عاجلا، ثم قال مقررا لأجر الرسالة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ أي: مطلع على أني لا أطلب الأجر على نصيحتكم.

ثم قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي: ينزله ويلقيه إلى الأنبياء، أو يرمي به الباطل فيدمغه(٢)، وأصل القذف الذي بدفع واعتماد كالرمي بالسهم والحجر، ويستعار القذف والرمي لمعنى الإلقاء :

قال في البرهان: والحق:كل ما أنزل الله على رسوله من صدق وعده

(١) البقرة: ٢٥٥.

(٢) فعلى هذا هو من الإستعارة المصرحة للتحقيقية كما قال صاحب المفتاح، أصل استعمال القذف والدفع في الأجسام ثم استعير القذف لإيراد الحق على الباطل، والدفع لإذهاب الباطل، فالمستعار منه حسي، والمستعار له عقلي

ووعيده[١]، وأمره وزجره.

ثم قال ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ۝٤٨﴾ أي: الخفيات جدا.

ولما ذكر الله تعالى أنه يقذف بالحق، وكان ذلك بصيغة الاستقبال ذكر أن ذلك الحق قد جاء فقال ﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ قال الهادي عليه السلام: ومعنى ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ فهو وقع الحق، وحق الوعيد.

وفي البرهان: هو ما أظهره الله على [يدي] نبيئه من آياته ومعجزاته وشرائعه وأحكامه[٢].

وقيل: القرآن والإسلام، أو السيف.

وأما قوله ﴿وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ فقال الهادي عليه السلام: يقول: ما يبدئ الباطل أمرا ينفع أهله في شئ من أمرهم ﴿وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩﴾ يقول: ولا يعود نفعه عليهم ولا ضره على عدوهم

قال في البرهان[٣]: والباطل: هو [كلما] عبد من دون الله عز وجل من أوثان وأصنام ورؤساء اهـ.

وقيل: الكفر وإبليس، أي: ما يبدئ الباطل فعلا وما يعيده، وهذا مثل في الهلاك؛ لأن الحي إما أنِ يبدئ فعلا أو يعيده، فإذا هلك لم يبق ابتداء ولا إعادة، والمعنى: جاء الحق وهلك الباطل.

قال الرازي: ويحتمل أن يكون المراد من ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ ظهر الحق؛ لأن كل جاءٍ فقد ظهر، والباطل خلاف الحق، وقد بينا أن الحق الموجود، ولما كان ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يمكن انتفاؤه، كالتوحيد

---

(١) في نسخة (من صدق، ووعد، ووعيد .. الخ.

(٢) مابين القوسين زيادة من البرهان، وكذلك تصحيح النقل الأول عن البرهان، فقد أصلحنا اللفظ منه.

(٣) في البرهان بغير لفظة (أو رؤساء) وما بين أقواس الزيادة منه.

والرسالة والحشر كان حقا لا ينتفي، ولما كان ما يأتون به من الإشراك والتكذيب لا يمكن وجوده كان باطلا، وهذا المعنى يفهم من قوله: ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: الباطل لا يفيد شيئا في الأول ولا في الآخر، فلا إمكان لوجوده أصلا، والحقُّ المأتيُّ به لا عدم له أصلا.

ثم قال تعالى ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ عن الرشد ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ معناه: لا يعود الضرر إلا على نفسي، وهذا إخبار بأن من ضل فإنما يضر نفسه، قال الواحدي وغيره: وذلك أن كفار مكة زعموا أنه قد ضل حين ترك دين آبائه.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ هذا فيه تقرير للرسالة أيضا؛ لأن الله تعالى قد قال على سبيل العموم: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾[1] وقال في حق النبي ﷺ: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ﴾ يعني ضلالي على نفسي كضلالكم، وأما اهتدائي فليس بالنظر والاستدلال كاهتدائكم، وإنما هو بالوحي المبين، أي: لولا الوحي ما كنت أهتدي، وهذا الحكم عام، وهو أن كل ضرر بالإنسان من نفسه، وكل هداية بلطف الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ يدرك كل ضال ومهتد ﴿قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ لا يخفى عليه شيء، أو سميع لما يقولون، قريب الإجابة لدعائي إذا ناديته واستعديت به عليكم، قريب يأتيكم من غير تأخير.

ثم قال تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ يريد أهل مكة، أي: حين فزعوا وخافوا، وهو حين البعث من القبور، أو الموت، وجواب لو محذوف أي: لرأيت أمرا عظيما هائلا، أو معجبا لك، ويجوز أن تكون لو للتمني.

ومعنى ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي: لا يفوتوننا، أو لا يفوت أحد العقاب،

(١) الزمر ـ ٤.

ولا يهرب منه، والمعنى: أنه لما قال: ﴿سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ قال: هو قريب فإن لم يعذب عاجلا، أو لا يعين صاحب الحق في الحال فيوم الفزع آت لا فوت ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١﴾ قيل: من الموقف؛ لأنه إلى النار إذا بعثوا على الأول، أو من ظهر الأرض إلى بطنها إذا ماتوا على الثاني(١).

قلت: والأولى في معنى ذلك ما ذكره الحسين بن القاسم عليه السلام وغيره، وهو أن معناه: أخذهم الله من مكان قريب إليه لا يبعد عنه ولا يتعذر عليه، وهذا مثل مضروب لقدرته عليهم اهـ.

ثم حكى قولهم عند الفزع المذكور فقال تعالى ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، أو بالقرآن، أو بالبعث، فقالوا بعد ظهور الأمر حيث لا ينفع إيمان: آمنا . فقال تعالى ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٢﴾ أي: كيف يقدرون على الظفر بالمطلوب، وذلك لا يكون إلا في الدنيا، وهم في الآخرة، والدنيا من الآخرة بعيد، والتناوش: هو التناول من ناشه ينوشه إذا تناوله؛ لأن التناوش تناول سهل لشيء قريب، وهذا تناول الإيمان بعد ارتفاع التكليف أي: كيف لهم التناول بعد أن فات العمل، وبعد المهل، وانقطع الأجل، وهو تمثيل لطلبهم مالا يكون، وهو أن ينفعهم إيمانهم كما نفع المؤمنينَ إيمانهم في دار الاختبار، مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة، كما يتناوله الآخر من قدر ذراع تناولا سهلا، بلا تعب.

ثم بين الله تعالى السبب في أن إيمانهم لا ينفع فقال ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ أي: بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، أو القرآن، أو البعث من قبل ذلك في الدنيا؛ لأن لو، وإذ، وقالوا، وفزعوا المراد بها الاستقبال وإن كانت

---

(١) المراد بالأول والثاني في قوله على الأول، على الثاني: هو ما ذكره قبل في تفسير قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ﴾ حين قال: وهو حين البعث من القبور [وهذا هو المراد بقوله على الأول]. أو الموت، وهذا هو المراد بالثاني في قوله: إذا ماتوا على الثاني.

للمضي؛ لأن ما الله فاعله في المستقبل بمنزلة ما قد كان لتحققه، واستحالة تخلفه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْذِفُونَ﴾ معطوف على قد كفروا على حكاية الحال الماضية، يعني: وقد كانوا يتكلمون ﴿بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ أي: يرمون به من مكان بعيد، فهم يخطئون المرمى، ضربه مثلا لقولهم في رسول الله ﷺ: ساحر، شاعر، كذاب، أو قولهم: لا بعث ولا جزاء، وهذا تكلم بالغيب . والأمر الخفي أي: الباطل؛ لأنهم لم يشاهدوا منه سحرا ولا شعرا، ويحتمل أن يتعلق بقولهم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ على أنه مثلهم في حال طلبهم نفع الإيمان في تلك الحال بمن يقذف شيئا من مكان بعيد، وهو أيضا لا يراه، ففيه امتناع الإصابة من وجهين بعده، وكونه لا يراه، وقوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ضد يؤمنون بالغيب؛ لأن الغيب ينزل من الله على لسان الرسول ﷺ، وأما الكافر فهو يقذف بالغيب، أي: يقول مالا يعلمه.

ثم قال تعالى ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي: منعوا من التوبة، ونفع الإيمان، والنجاة من النار، والفوز بالجنة ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أي: بأشباههم من كفرة الأمم قبلهم، وممن كان مذهبه مذهبهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾ من البعث، أو من النبوة، أي: منغمسين في شك لا يزيلونه بنظر صحيح، و﴿مُرِيبٍ﴾ معناه: موقع في الريبة والتهمة، أو وصف الشك بأنه شاك مجازا[1] نحو ﴿ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ و﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وشعر شاعر والله أعلم.

---

(١) قوله: أو وصف الشك بأنه شاك مجازا. وذلك لأن المريب صفة للعاقل لايصح وصف الشك بها، ولايكون ذلك إلا بأن يستعار الإسناد من صاحب الشك للشك ليكون من الإسناد المجازي، أو يكون بجعل الشك كالإنسان على سبيل الإستعارة المكنية، ثم ينسب إليه بعض خواصه ولوازمه، وهو الريب على سبيل الإستعارة التخييلية. (حاشية العلوي).

سورة الأحزاب

ثلاث وسبعون آية باتفاق (مدنية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ من أهل مكة ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ منافقوا المدينة، أي: لا تساعدهم ولا تقبل لهم مشورة، فإنهم غير ناصحين.

واعلم أنه تعالى إنما جعل نداءه بالنبي وبالرسول، ولم يقل: يا محمد، كما قال: يا آدم، يا موسى، يا عيسى، يا داود، كرامة وتشريفا لمحله، وهذا من دلائل فضله على الأنبياء عليهم السلام.

وقوله في الأخبار: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾[1] (آل عمران ١٤٤) ليعلم

(١) وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي ما لفظه:
أخبرنا أبو جعفر، قال: حدثنا علي بن أحمد، قال: حدثنا عطاء بن السائب، عن أبي خالد، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ معناه: حارت ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ معناه: ابتلوا.
وقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يثرب: ارض المدينة، ومدينة النبي ﷺ في ناحية من يثرب.
وقوله تعالى: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ معناه: لا مكان لكم تقيمون فيه.
وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي: من جوانبها ونواحيها، واحدها: قطر.
وقوله تعالى: ﴿سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾ الفتنة: هي الكفر وأتوها: أعطوها.
وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ معناه: بالغوا في عيبكم و لائمتكم. =

= وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ معناه: نذره، والنحب: الموت، والنحب: الخطر العظيم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ معناه: أعانوهم. وقوله تعالى: ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ معناه: من حصونهم.

وقوله تعالى: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ معناه: نعطها ثوابها. وقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ يعني: إلزمن بيوتكن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ التبرج: إظهار الزينة والمحاسن، وإبرازها، والجاهلية الأولى: ما بين ادريس ونوح عليهما السلام.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ الوطر: الحاجة والإرب، وزيد: هو زيد بن حارثة الكلبي رضي الله تعالى عنه مولى النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ معناه: من ضيق وإثم.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ معناه: صلوا له، والبكرة: صلاة الفجر، والأصيل: صلاة العصر.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ معناه: هو الذي يرحمكم، وتدعو لكم ملائكته. وقال: معنى يصلي: يبارك عليكم.

وقوله تعالى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ يعني: تؤخر ﴿وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ معناه: تضم.

وقوله تعالى: ﴿رَّقِيبًا﴾ معناه: حفيظ. وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ معناه: إدراكه وبلوغه.

وقوله تعالى: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ معناه: لنسلطنك عليهم.

وقوله تعالى: ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ معناه: قاصد، وهو قول: لا إله إلا الله.

وفي تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام ما لفظه : .

تفسير غريب سورة الأحزاب

بسم الله الرحمن الرحيم

تأويل قول مولانا عز وجل. قيل في معنى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ إن أبا سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وأبا الأعور السلمي قدموا المدينة فنزلوا على عبد الله بن أبي بن سلول وإخوانهم من المنافقين، وسألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم شيئا كرهها لهم، فهمَّ هو والمؤمنون بقتلهم، وكانوا على عهد، فأمره الله أن يتقنه ولا ينقض العهد، ولا يطعهم فيما سألوه ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ الأدعياء: هم المتبنون، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد تنبى زيد بن حارثة، فكان دعيه، ومعنى دعيّ محمد عليه السلام أي: =

. . . . ; . . . .

= أنه يدعى، ويسمى، وينسب إليه، ويقال: إنه ابن محمد، فنهى الله عن ذلك، وأمرهم أن يدعوه وغيرهم لآبائهم (هو أقسط عند الله﴾ أي: أعدل وأثبت وأحسن.

ومعنى قوله: ﴿وَمَوَٰلِيكُمْۚ﴾ أي: أولياؤكم الذين يوالونكم في الله، ولله سبحانه.

ومعنى قله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: بعضهم أحق بميراث بعض، فكانت هذه الآية في ذوي القرابة ناسخة لتوارث الجاهلية الذين كانا يتواخون، ويتوارثن بالإخاء والولاية، فحكم الله الناسخ لذلك لما كانوا في بدء أمرهم كذلك.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ أي: عهدهم بالطاعة لله؛ لأن أمر الله ونهيه أوثق من جميع العهود، وألزم لهم من كل العهود.

ومعنى قوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي: شديدا. ومعنى قوله: ﴿جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ أي: جموع من المشركين من قريش والعرب ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ فروي والله أعلم أن الله بين لهم خذلان أنفسهم بالريح التي أرسل عليهم، فكانت تكثح بالتراب وجوههم، ولا يتهنون بها مأكلهم ومشربهم، ولا يدرون ما يدخل معهم لشدة عصفها وغبارها، لا تثبت لهم نار إن أوقدوها، فلما رأوا ذلك داخلهم الفزع، ولزمهم الرعب والجوع، فمروا منهزمين، ورجعوا عن المدينة مذعورين.

وأما قوله: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ﴾ فهو معنى ـ والله أعلم ـ سادتنا الملائكة الذين كانوا مع رسول الله ﷺ مثبتين له من إرجاف المشركين مبشرين لهم بهزيمة الكافرين.

ويمكن ـ والله أعلم ـ أن يكون سمى جمائع الريح جنودا.

ومعنى قوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ يعني المشركين الذين قالوا: محمد يعدنا يملك قطرا من البلاد، وقد نراه محصورا في منزله ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ وخدعا وزورا، فأكذبهم الله في ظنهم، ورد المشركين بغيظهم.

ومعنى قوله: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: عند ذلك اختبر المؤمنون ، قال الشاعر:

فاليوم أبلوك وتبتليني والـيـوم تبلو غلظي وليني

أي: تختبرني وأختبرك، واليوم تختبر غلظتي وشدتي، أو ليني وضعفي، على وجه الوعيد لصاحبه، هذا بين عند العرب.

ومعنى قوله: ﴿وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ أي: نزل بهم من الخوف ما نزل بهم، وحرك قلوبهم.

وأما قوله: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ فمعناه: لو دخلت على المنافقين من جوانبها ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: القتال والحرب، إذا لأتوا بيوتهم فارين منهزمين، وهم نفر من أهل يثرب كانوا منافقين، ويثرب المدينة التي كان بها الأنصار، وبها اليوم قبر النبي ﷺ. =

. . . .

= ومعنى قوله عز وجل: ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ يريد أنهم بعد إتيانهم إلى منزلهم، وفرارهم إلى بيوتهم ما إذا أقاموا بها إلا قليلا من الزمان لجبنهم، وقلة صبرهم. يدل على ذلك قوله عز وجل: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ أي: لا يعمرون إلا قليلا، فلم تفرون من القتال والجهاد في سبيل الله، ولستم بباقين، ولا في الدنيا لو عقلتم بمخلدين.

ومعنى قوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم﴾ أي: يمنعكم، ويدفع عنكم السوء لو أراده الله بكم ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ أي: العائقين الصادين للناس المانعين لهم من الهدى ﴿أَشِحَّةً﴾ لئاما بخلاء.

ومعنى ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي: غموكم بقبح كلامهم، وعداوتهم، وسوء أدبهم، وطعنهم، والسلق، والزلق باللسان: الطعن والأذى و﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾ هي الجموع في لغة العرب.

ومعنى قوله: ﴿يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي: ظاهرون مع البدو من الجبن والذل الذي ألهموه أنفسهم، ودخل في قلوبهم حتى تمنوا الخروج من منازلهم مع الأعراب حتى يسلموا من القتال، وأحسب أن البدو أنما سموا بدوا لبدوهم، وظهورهم وتقلبهم في البلاد، وبيانهم وقلة كمونهم وسترهم، يقال: بدا كذا إلى جبل كذا وكذا، أي: ظهر لي ولم يستتر عني. قال الشاعر:

بكيت لما بدا لي السطي   وعارضا رضوى كما يبكي الصبي

أي: ظهر لي ورأيته، وظهر لي عارضا رضوى أي: جانب، ورضوى جبل بالحجاز فيما بلغنا ـ والله أعلم ـ وكذلك البدا في الرأي مأخوذ من البدو والظهور، تقول العرب: بدا لي رأي غير الرأي الأول، أي: ظهر لي رأي آخر لم أكن رأيته قبل.

ومن هذا الوجه نفينا البدا عن الله عز وجل؛ لأن البدا عن الشيء الأول يوجب أنه كان غافلا، وكان قبل أن يظهر له الرأي الآخر جاهلا.

وبلغني أن اليهود ـ عليهم لعنة الله ـ أنكروا النسخ والمنسوخ من كتاب الله، وقالوا: هذا بدا، وجهلوا الفرق بين البدا والنسخ، وإنما البدا علم بعد جهل، والنسخ محنة بعد محنة، وكلفة بعد كلفة ليس في ذلك جهل، ولا بدا، بل أمر بذلك أمرا، وقصدا، أو تعمده بالمجيء عمدا، وما مثل ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ إلا مثل رجل قال لعبده سافر البصرة ثم الشام حتى أكافيك على هذين السفرين، أو قال: ازرع الأرض هذه السنة برا أو شعيرا ثم في السنة الثانية نخلا أو عنبا فليس بجاهل في شيء من هذا، بل حكم فيما أمر به من ذلك ورأى.

ومعنى قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: مواساة في أمره، وشركة في حاله. قال العالم عليه السلام: =

. . . .

= وإني لمعروف بأسوة صاحبي وَدَفّاع ما يؤذيه بالمال والنفس
أحامي عليه إن تغير حاله وإلا فلست العالم القاسم الرسي
بذلك اوصاني سلالة أحمد بحفظي لأصحابي على اليسر والتعس
ومن لم يكن واسى أخاه بنفسه فذاك من الأملاق أهل الخنى النكس

الأملاق: هم أهل التملق والنفاق.

ومعنى قول سيدنا عز وجل: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي: صدقوا، وأفوا بما بايعوا رسول الله ﷺ من الصبر والجهاد ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ قيل: معناه قضى نذره، وذهب عمره، وقيل: إن معناه: قضى نحبه أي: بلغ أجله، وذهاب نفسه، قال الشاعر:

قضى نحبه في قسطل الخيل ثابت وصدت غزاة الجيش إذ عظم الكرب

وقال الكميت بن زيد رحمة الله عليه:

سوى عصبة منهم حبيب معفر قضى نحبه والكاملي المرفل

فقيل في هذا البيت أن معنى قضى نحبه أي: أوفى نذره، ولاقى حمامه.

ومعنى قوله عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ يعني أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه، ومن تبعه من المؤمنين، أي: ينتظرون الشهادة والموت ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ أي: ما غيروا عملهم، ولا بدلوه، كما فعل غيرهم من المنافقين الذين عملوا صالحا، ثم غيروا وقصروا، ولم يبلغوا درجة الصابرين، وكفروا.

ومعنى قوله: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ يريد بالرعب الذي قذفه الله في قلوب المشركين.

ثم قال عز وجل: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: الذين أعانوهم على النبي ﷺ من اليهود الذين كانوا بناحية المدينة عليهم لعنة الله أنزلهم عز وجل من صياصيهم كما قال عز وجل فيما حكى عنهم، وصياصيهم في اللغة عزهم، وقيل: حصونهم، والصياصي في لغة العرب هي النواصي، والعرب تسمي قرون البقر الصياصي؛ لأنها تمنع بقرونها. قال الشاعر:

ومن شية سحم الصياصي كأنها مجللة حور عليها البراقع

أي: سود القرون ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ أي: تربطونهم، والأسر: هو الوثاق ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ أي: سيملكنها بعد يا محمد. والله أعلم. وقيل: سيملكها بعدك يا محمد ولدك الذي يكون في آخر الزمان، وكل ذلك جائز، والله أعلم وأحكم. والسراح لهم: هو المضي والتخلية والترك لهن يمضين في شأنهن.

ومعنى قوله: ﴿جَمِيلًا﴾ أي: حسنا لا يكون بعده أذى، ولا عقوبة في دار الدنيا. =

. . . .

= ومعنى قوله: ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أي: نصيبين وقسمين، والمضاعفة: هي الزيادة على الشيء مثله أو مثليه.

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ﴾ أي: من تدعو الله بالمغفرة، وإلى رسوله بالشفاعة، ومعنى قوله: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي: عطائين وأجرين، عطاء بعملها، وعطاء بشفاعة رسول الله لها ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ يريد في عظيم الحرمة التي تجب لرسول الله عليه السلام من حفظ الدين، والصيانة، وترك الشناعة؛ لأنه يجب عليهم أن يحفظن حقه بعد وفاته؛ لأن الله لا يرضى من حرم نبيئه بالخيانة بأنفسهن، والخروج من منازلهن، وغير ذلك من حالهن، وإذا كان الأزواج لسن كأحد بحرمة الوطء، فالبنات أوكد حرمة، وأقرب إلى النبي قرابة، وأرفع منزلة، وأعلى درجة.

ثم قال واعظا لهن، ورحيما لطيفا سبحانه بهن: ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ والخضوع هو المهازلة والانبساط والملاعبة؛ لأن ذلك يؤدي إلى الفاحشة، وتوقع في المأثم والخطيئة، والقول المعروف هو الحد الذي لا لعب فيه ولا هذر ولا هذيان، ولا هدر.

ومعنى قوله: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: لا تفعلن مثل فعل عائشة وغيرها من التبرج والظهور، وأنا أقول: إن التبرج بالزينة أقل مما فعلت عائشة من الفتنة الجليلة، والشناعة الكبيرة، وذهاب الأرواح المسلمين، وسفك دمائهم، وقد زعمت العامة أنها تابت واعتذرت بالقضاء والقدر، وهذا والحمد لله أفل لعذرها .. إن صح ذلك عنها؛ لأن الله لا يقضي بالكفر والفجور، ولا يرضى بالشنع والقبائح من الأمور، ولعلها لم تقل بالجبر، وما أحسب أن هذا إلا من حجج العامة على تجوير الله في حكمه، وتشبيه الخالق بخلقه.

والتبرج في اللغة هو البدو والظهور، قال الشاعر:

وتبرجت لتروعنا فوجدت نفسي لم ترع

أي: ظهرت وبدت ولم تستتر في منزلها.

ومعنى قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ معناه: إنما يريد الله أن يذهب عنكم الرجس فقامت اللام مقام إن لأنها من الحروف

التي تنصب الأفعال المستقبلة، وهي اللام وكي وأن وما أشبههن، والرجس هاهنا: هو النجس، قال الله عز وجل ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ والرجس: العذاب أيضا في اللغة، قال الشاعر:

ذوي سنة كانت بنجد بجيلة فكان عليه رجسها وعذابها

ومعنى قوله: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ أي: ينظفكم من وسخ المعاصي ودرنها، وزعمت =

. . . .

= العامة أن أهل البيت لا يستحقون ذلك؛ لأن الآية أنما هي في نساء النبي، وهذا من ضعف عقولهم، وعمى قلوبهم؛ لأن النساء إذا كان لهن هذا المدح فرجالهن أحق به منهن؛ لأن الرجال أفضل وأكمل وأعقل، والله يقول: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فلم لا يرون الرجال أحق بالآية وأولى، وإنما القرآن متداخل فربما أتى بالخبر الذي هو غير الخبر الأول، ثم أوشك أن يرجع إلى الخبر الأول مثل قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ فأدخل خبر النكاح في خبر اليتامى.

ومعنى قوله: ﴿كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي: ملطفا لأمر العباد، حسن التدبير قال الشاعر:

فأدنيته كي أستميل فؤاده بلطفي فولى باسر الوجه نافرا

بلطفي: أي: برفقي وحسن تدبيري. وقالت الخنساء في أخيها:

لطيف في الأمور بلا التياث ويوم الروع من أسد العرين

أي: حسن الرفق والتدبير للأمور، والخبير: العالم الخابر.

ومعنى قوله: ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾ أي: الداعون إلى الله والداعيات، قال الهادي إلى الحق في كتاب التفسير صلوات الله عليه: «خير القنوت ما كان في صلاة الصبح في الفريضة من بعد الركوع».

ومعنى قوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ أي: الذين يصبرون على تعب طاعة الله واختباره لهم بالمحن. والصبر: هو الحبس للنفس على المكاره ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ أي: الساكنين والساكنات في الصلوات، وسكون القلوب في جميع الحالات. والخشوع: هو التذلل والخضوع.

ومعنى قوله: ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ أي: إذا حكم الله حكما ورسوله ﷺ.

ومعنى قوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ أي: الزم زوجتك يا زيد، ولا تفارقها صبرا من رسول الله عنها ما داخل قلبه من حبها، وكان فيما روي ـ والله أعلم ـ قد دخل على زيد بن حارثة فواجهها، فنظر عند ذلك منها منظرا بهجا أعجبته حتى شغل في ذلك الحسن قلبه؛ لأنه ﷺ بشر مركب على طباع البلوى، ليظهر الله فضله عند صبره عن الهوى، ثم رجع ولم يقف، وخرج مسرعا مجدا، فقال زيد: ما لرسول الله رجع منا ولم يدخل كما أراد إلينا ؟ فقالت: إني عجلت فقلت: قدم يا رسول الله قبل انحرافي عن طريقه، فلما رآني سبح الله ورد وجهه مسرعا، ففطن زيد رحمة الله عليه أنه عليه السلام قد أعجب بها لعلمه بحسنها، فطلقها وأخبر رسول الله بطلاقه، وعرض له في أخذها، فقال له النبي عليه السلام ما قال، وحكى الله صبر نبيئه في حسن المقال.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ أي: حاجته وشهوته، ونال منها إرادته ومحبته، زوَّجها الله نبيئه، وملكها بعد فراق زيد وليه. =

= ومعنى قوله عز وجل: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: من ضيق ولا مأثم ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي: فيما أحل له وأباح له من الوطء والنكاح لزوجة دعيه، وإنما أنزل الله هذا ومثله لئلا يطعن المشركون على نبيئه صلى الله عليه وعلى أهل بيته، وليكون ذلك بيانا لمن كان بعده، ولئلا يقولوا: كيف يحرم هذا الرجل نكاح زوجة الابن، وقد نكح زوجة ابنه ـ فبين الله عز وجل أن دعيه لا يكون ابنه، ولكن وليه في الدين وغذيه، فقال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ وقال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي: حكمه بقدر المصلحة مقدرة على قدر ما يرى في كل ما حكم أو خلق وبرأ لا يجاوز شيء من ذلك مقدار حده فيخرج من حد الصلاح إلى ضده.

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بغير واو وذلك في شائع لغات العرب، وفي القرآن قال الله عز وجل في يحي بن زكرياء: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وإنما المعنى بغير واو سيدا حصورا نبيئا، ولكن العرب تزين الكلام بالواو هاهنا، وتنسق وتعطف بها أيضا في غير هذا الموضع قال الهادي إلى الحق صلوات الله عليه يهجو فاسقا كذب عليه عند أهل بيته ليباعد بينه وبينهم:

الله يعلم ما قد قيل من كذب ومن أحق بقول الزور والكذب
من ذلك الفسل وابن الفسل إذ نطقت منه الجوارج بالبهتان والريب

فقال: وابن الفسل، أي: من ذلك الفسل ابن الفسل، ولكنه وصل كلامه بالواو، وهي زينة في هذا الموضع، ومثله في غير هذا الموضع يكون عطفا ونسقا ـ وبلغنا ـ والله أعلم عن بعض الإمامية ـ أنهم قالوا: رسول الله وخاتم النبيئين المهدي ـ وكذبوا في قولهم: بل محمد خاتم النبيئين، وسيد الأولين والآخرين، فاجتمعت الأمة على أنه قال صلوات الله عليه وعلى آله: (علي مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي) قال في المهدي عليه السلام: (سيأتي من بعدي فتن متشابه كقطع الليل المظلم فيظن المؤمنون أنهم هالكون فيها ثم يكشفها الله بنا أهل البيت برجل من ولدي خامل الذكر، لا أقول: خاملا في حسبه، ودينه وحلمه، ولكن لصغر سنه، وغيبته عن أهله، واكتتامه في عصره، على منهاجي ومنهاج المسيح في السياحة والدعوة، يؤيم عرسه، ويخلص نفسه، ويكون بدء ناصريه من أهل اليمن) معنى قوله: (يؤيم عرسه) أي: يتركها عند قيامه اشتغالا بالجهاد عنها أكثر وقته، والعرس: فهي الزوجة. قال أمير المؤمنين علي صلوات الله عليه:

وبنت محمد سكني وعرسي مساط لحمها بدمي ولحمي
وسبطا أحمد ابناي منها فأيكم له سهم كسهمي =

. . . .

= سبقتكم إلى الإسلام قدما غلاما ما بلغت أوان حلمي
وقال مولانا رسول الله ﷺ في المهدي وأصحابه: (يظهر في آخر الزمان رجل يسمى أمير الغضب، وقيل: أمير الغصب ـ له أصحاب منحون مطردون عن أبواب السلاطين مقصون، يجتمعون إليه من كل أوب كما تجتمع قزع الخريف، يملكهم الله مشارق الأرض ومغاربها) معنى قوله: (مطردون عن أبواب السلاطين﴾ أي: طردهم الورع، وقلة الطع، وروي عنه أيضا (محسورون محقورون) يريد: أن كثيرا من أصحابه فقراء محقورون عند بني الدنيا، مسفوهون مزدرون مستقلون، وعند الله، وعند إمامهم كثيرون مرتفعون؛ لأنه لا يرغب في أهل الدنية والحطام، ولكن رغبته ومودته لأهل الورع والإسلام.
وأما قوله: (محسورون) فالحاسر: هو القليل اللباس، وهو الذي لا درع له، ولا مغفر، ثم ينالون بعد ذلك أكثر مما يطلبون.
وقال رسول الله ﷺ: (يظهر في آخر الزمان رجل من اليمن من ولدي يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا) يريد أنه يملأ البلاد حقا ونورا، واليمن واسع لا ندري في أيه يكون.
وقيل: يظهر بمكة، وقيل: في بلد همدان، وكل ذلك بإذن الله، وقد صح أن أول من ينصر الحق أهل اليمن، ثم يلتئم إليهم الواحد والاثنان من كل نهج وبلد من البلدان.
قال الهادي إلى الحق صلوات الله عليه:
من اليمن الذي فيه مقال من الرحمن جاء به الرسول
وقال أيضا يمدح همدان خاصة:
وبهم يعز الدين آخر مرة وبقيامهم بلوائه المنصوب
ثم أتت الأخبار بأنه يملك الدنيا كلها، ويطأ الأمم بأسرها، ثم يوشك بعد مرة من الزمان أن يتلف ببعض الأسباب، ويختم الله له بالسعادة، وتظهر الفتن والمنكرات، ويفتح ياجوج ومأجوج، وتسفك الدماء، وتخصب البلاد لما أراد الله من الإملاء والإنظار لأهل الفساد، ويترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك عند اقتراب الصيحة، حتى أنه يمر الرجل بالرجل وهو على الفاحشة فلا يقول له: اتق الله، ثم تقع صيحة من صنع الله تهلك أهل السموات والأرض جميعا، ثم ينفخ في الصور ويقع الحساب، ويذهب الشك والارتياب.
وسنرجع إن شاء الله إلى التفسير ونستعين بالله العليم الخبير.
ومعنى قوله: ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ أي: غدوة وعشية ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ صلاة الله رحمته، وصلاة ملائكته دعوتهم للمؤمنين، وترحمهم على المسلمين. =

. . . .

= ومعنى قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾أي: كلامهم ودعاؤهم، يعني رسول الله شبهه بالمصباح لما فيه من النور والهدى والإيضاح.

ومعنى قوله: ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ أي: خل عنك أذاهم، ولا تشتمهم، ويمكن أن يكون نسخ هذه الآية بالجهاد، والغلظة عليهم، ويحتمل وجها آخر، هو دع آذاهم وقتلهم حتى تعذر إليه، فإذا كرهوا إعذارك وإنذارك فآذهم واقتلهم؛ لأنه لا سحن لحجة الله أن يبدأ بالقبيح قبل الوعظ، والحسن والقول اللين. وقد روي أن رجلا كان يؤذي رسول الله ويشتمه، ويقاتله، فلزمه النبي ﷺ فقال: يا محمد اعف عني فعفا عنه فرجع إلى ماكان فيه فلزمه بعد ذلك وشتمه وآذاه، ووقفه على فعاله، ثم أمر به أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وقال: قم يا علي فاضرب عنقه، فقام أمير المؤمنين صلوات الله عليه فضربه وأتلفه، لم يأمر به رسول الله عليه السلام إلا بعد الإعذار والبيان.

وروي ان رسول الله لم يؤذه ولم يشتمه في السفرة الأولى بل عفا عنه ووعظه، ولكنه آذاه في السفرة الثانية، لجواز الأذى بعد الإعذار، ولم يؤذه قبل ذلك حتى أعذر إليه، والذي يرادون به من الفشل أكثر من أذاهم وشتمهم وتعنيفهم، والأجور هي: الصدقات والمهور.

﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي: من الجواري ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ من الغنائم، والفيء هو: الغنيمة، ومعنى قوله فيما ذكر من المرأة التي وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خاصلة لك من دون المؤمنين﴾ أي: خالصة المودة لك من بين المؤمنين، وأما قوله: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ فهو إذ وهبت نفسها فقامت إن مقام إذ، وفي ذلك ما يقول مولانا عز وجل: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: سلوهم إذ كنتم لا تعلمون مثل علمهم ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أي: لئلا يكون عليك ضيق ولا مأثم ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ * وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ روي أنه عليه السلام كان معتزلا في دار واحدة، يرسل لمن يشاء من نسائه، ويرجي ويترك من يشاء، وكان ذلك يسرهن، ومعنى ﴿وَتُـْٔوِىٓ﴾ أي: تدخل إلى دارك فتدني، قال الله عز وجل: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ أي: دخلوه وصاروا فيه ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾ أي: أقرب. . . . . . وسرورهن، وخير من الطوفان عليهن، والتردد بينهن، والاشتغال بذلك من حالهن.

ومعنى قوله: ﴿رَّقِيبًا﴾ أي: عالما وشاهدا.

ومعنى قوله: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي: وقته وجماعته: الآناء فيما ذكر، قال الله تعالى: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: أوقات الليل.

ومعنى ﴿نَٰظِرِينَ﴾ أي: منتظرين، والأصل في هذا القول أن مولانا رسول الله ﷺ فيما ذكر ـ والله أعلم ـ لما دخل بزوجته، ودعا أصحابه إلى طعام، فلما أكلوا عنده لم =

. . . .

= يسخوا بمفارقته سرورا منهم برؤيته، وحسن حديثه وحلاوته، وكان يريد الخلوة مع أهله قبل حضور وقت صلاته، وأصحابه يريدون حديثه حتى يفوته وقته كله الذي هو له، فأما وقت الصلاة فهو لله تعبده به، وكان النبي ﷺ يستحي منهم، وهو أهل ذلك، وأدبهم الله عز وجل في انتظارهم إناه، وهو الوقت الذي جعله الله له يخلو فيه لحوائجه.

ومعنى قوله: ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾ أي: سيروا واخرجوا، وتفرقوا في حوائجكم ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي: ولا مستمعين لحديث النبي ﷺ حتى يأذن لكم بذلك، مثل قوله عز وجل: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ أي: أحس وأوجس نارا، والعرب تقول: استأنس فلان القوم فلم يجد منهم أحدا، أي: توجس منهم وطلبهم، ويقولون: لم نؤنس أحدا، لم نحس ولم نوجس.

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا﴾ أي: حاجة من طاعة الله ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ يحجبهن عن أبصاركم، ويسترهن، ويحجب ويحول دونكم.

ومعنى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾ أي: من الجواري خاصة، فأما العبيد فلا يحل لهن أن يخرجن عليهم، ولا يجوز ذلك، وإن ملكتهم، ومعنى قوله: ﴿صَلُّواْ عَلَيْهِ﴾ أي: ترحموا وعظموا قدره حتى تثابوا على ذلك، فأما هو فلا يحتاج إلى شفاعتكم، بل أنتم المحتاجون إلى شفاعته.

ومعنى قوله: ﴿وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ أي: قولوا صلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليما، أما الصلاة على محمد ففرضه الله في القرآن، وأما الصلاة على آله الطاهرين ففرضها الله في السنة على لسان رسوله، فقال ﷺ: (لا تصلوا علي الصلاة المبتورة) أي: المقطوعة المنقوصة؛ لأن البتر في اللغة هو القطع، وسئل ﷺ ما الصلاة المبتورة؟ فقال: (هي أن تصلوا علي وحدي، ولا تصلوا على أهل بيتي) فصدق صلى الله عليه وعلى أهل بيته وسلم تسليما.

ومعنى قوله: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ﴾ أي: يرخين عليهم من ثيابهن ، قال الشاعر:
مجلببا من سواد الليل جلبابا
أي: ملتحفا من الظلمة ثيابا ولحافا.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أي: ذلك أقرب أن يعرفن بالعفة والورع والحياء، فلا يؤذين، ولا يطعن عليهن، ولا يقذفن ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي: المهرجون للناس المفزعون بالأخبار التي تهرج منها ضعفاء الناس، ويفزعون، قال الإمام المرتضى صلوات الله عليه:

أتحسبني هلوعا في حواكم ... من الإرجاف مرتعش اليدين

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي: لنأمرنك بحربهم وعداوتهم. =

الناس أنه رسول، وتلقينا ليسموه ويدعوه بذلك، وما لم يقصد به التعليم من الأخبار ذكره بنحو ما في النداء ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ (التوبة ١٢٨) ونحوه، فلا تفاوت بين النداء والإخبار.

ومعنى ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فهو: اثبت على التقوى، وازدد منه، وذلك لأن التقوى باب لا يبلغ آخره.

قال في البرهان: ويحتمل أن يكون خطابا للنبي ﷺ والمراد به الأمة[١]، وروينا أن للآية سببا، وذلك أن أبا سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وأبا الأعور السلمي قدموا المدينة ليجددوا خطاب رسول الله ﷺ في عقود كانت بينهم، وعرضوا عليه أمورا، فكره جميعها، ونزلوا

= ومعنى قوله: ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ أي: لزموا وظفر بهم، واستمكنوا، قال الشاعر:

فـإمـا تـثـقـفـن بـنـي لـؤي خـزيـمـة إن قـتـلـهـم دواء

فبرأه الله، أي: نزهه وطهره، وبين أمره، وفضله.

ومعنى ﴿وَجِيهًا﴾ أي: له مقدار وجاه ورفعة عند الله عز وجل.

ومعنى قوله: ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: مصيبا للسداد، قال الشاعر:

وإن قـال قـولا كـان فـيـه مـسـددا.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ يقول: لو أنا جعلنا وركبنا فيهن من العقول كالذي جعلنا معكم من الألباب ثم عرضنا عليهن من الأمانة ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ ومعنى ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ هو أبين أن يحملن مأثمها ووزرها، وعذابها، وهذا جائز عند العرب، قال الشاعر:

قـد امـتـلأ الـحـوض وقـال قـطـنـي مـهـلا رويـدا قـد مـلأت بـطـنـي

والحوض لا يقول حرفا من هذا، لكن معناه أن الحوض لو كان يعقل ويتكلم لقال ذلك القول.

وروي أن الأمانة صورت حجرا، وعرضت على السموات والأرض والجبال فأبين حمل وزرها ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: يعود عليهم الفضل، ويرجع بالرحمة لهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ كان ـ أي: هو سبحانه منذ تعبد الخلق رحيم بهم، غفور لذنوبهم. قال أبو طالب:

كـانَ ابـن آمـنـة الأمـيـن مـحـمـد عـنـدي بـمـثـل مـنـازل الأولاد.

(١) في بعض النسخ بعد قوله (الأمة) قال وروينا، وفي النسخة التي اعتمدناها لايوجد.

على عبد الله بن أبي ابن سلول، والجد بن قيس، ومعتب بن قشير، فنهى الله نبيه عن طاعة الكفار من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة، وجاء النهي تأكيدا لمخالفة أمرهم، قال: و[إن] كان [المعلوم من حال] رسول الله ﷺ [أنه] لا يطيعهم[١]. اهـ.

وفي التجريد نحوه.

وروي أنه ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان يحب إسلام اليهود، وقد تابعه ناس منهم مضمرين النفاق، فكان يكرم كبيرهم وصغيرهم، ويسمع منهم فنزلت[٢]

وروي أن أهل مكة طلبوه يرجع عن دينه، ويعطونه شطر أموالهم، ويزوجه شيبة بن ربيعة بنته، وخوَّفه منافقي[٣] المدينة أنهم يقتلونه إن لم يرجع فنزلت[٤].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالصواب من الخطأ، وبالمصلحة من المفسدة ﴿حَكِيمًا ۝١﴾ لا يفعل شيئا، ولا يأمر به إلا على مقتضى الحكمة، وغاية الصواب والرحمة وقوله تعالى ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يقرر ما ذكرناه من أنه حكيم فاتباعه هو الواجب ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ في ترك طاعتهم وغير ذلك.

---

(١) لفظ البرهان: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وهذا وإن كان معلوما من حاله ففي الأمر به ثلاثة أوجه، أحدها: استدامة التقوى والإكثار منها على ماقام فيه من جهاد أعداء الله، والثاني: وإن كان هذا خطابا للنبي صلى الله عليه وآله فالمراد به الأمة .... الخ ما ذكره المصنف، وما بين أقواس الزيادة من البرهان. (البرهان مخطوط ٣٠٤).

(٢) ومثله في الكشاف ٣/ ٢٢٥،

(٣) في الأصل في نسخ الكتاب (منافقوا) والصواب ما أثبتناه.

(٤) انظر أيضا الكشاف ٣/ ٢٢٥. وتفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني ص ٢٣٤، وقال في الكافي الشافي ١٣٢ بعد أن أورد الروايات مع اختلاف يسير: هكذا ذكره الثعلبي والواحدي بغير سند.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ۝٢﴾ لما قال: إنه عليم بما في قلوب العباد بين أنه عالم خبير بأعمالكم فسووا قلوبكم، وأصلحوا أعمالكم، فهو يوحِي إليك ما يصلح به أعمالكم فلا حاجة لك إلى الاستماع من الكفرة.

ثم قال تعالى ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي: اسند أمرك إلى تدبيره وحفظه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ۝٣﴾ أي: موكولا إليه كل أمر، فإنه كفى به دافعا[1].

---

(١) قال السيد العلوي رحمه الله تعالى تعليقا على قول الزمخشري في الكشاف: وفي فصل هذه الجمل ووصلها من الحسن والفصاحة ما لا يغبى على عالم بطريق النظم، قال السيد: يعني في إخلاء العاطف وتوسيطه بين الجمل من مفتتح السورة إلى ههنا موضع تأمل، وبيانه: أن الأوامر والنواهي في قوله: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ و ﴿وَلَا تُطِعِ﴾ و﴿وَتَوَكَّلۡ﴾ وردت على نسق عجيب، وترتيب أنيق، فإن الإستهلال بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ دال على أن الخطاب دال على أن الخطاب مشتمل على التنبيه على أمر مهتم بشأنه، لائح فيه معنى التهييج والإلهاب، ومن ثم عطف عليه ﴿وَلَا تُطِعِ﴾ كما يعطف الخاص على العام، وأردف النهي بالأمر على نحو قولك: لاتطع من يخذلك، واتبع من ينصرك، ولا تبعد تسميته بالطرد والعكس، ثم أمر بالتوكل على تشجيعا على مخالفة أعداء الدين، وأمر بالإلتجاء إلى الله ليكفيه شرهم، ثم عقب كلا من تلك الأوامر على سبيل التتميم والتذييل بما يطابقه، وعلل قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ﴾ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ تتميما للإرتداع، أي: اتق الله فيما تأتي وتذر في سرك وعلانيتك ؛ لأنه عليم بالأحوال كلها، يجب أن تحذر سخط حكيم لايحب متابعة حبيبه أعداءه، وعلل قوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ﴾ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ تتميما أيضا، أي: اتبع الحق، ولا تتبع أهواءهم الباطلة، وأراءهم الزائغة ؛ لأن الله يعلم عملك وعملهم فيكافئ كلا بما يستحقه، وذيل قوله: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ تقريرا وتوكيدا على منوال: فلان ينطق بالحق، والحق أبلج، يعني من حق من يكون كافيا لكل الأمور حسيبا في جميع ما يرجع إليه أن يتوكل عليه، وفصل قوله: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ﴾ على سبيل الإستئناف تنبيها على طرق من أباطيلهم وتمحلاتهم، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ﴾ فذلكة لتلك الأقوال ؛ لأنها جديرة بأن يحكم عليها بالبطلان، وحقيق بأن يذم قائلها فضلا عن أن يطاع، ثم وصل ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ بهذه الفذلكة لجامع التضاد على منوال ماسبق في: ﴿وَلَا تُطِعِ﴾﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ وفصل قوله: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ وقوله: =

ثم قال تعالى ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ هو مثل ضربه الله تعالى لنبيه ﷺ حين نُهِيَ عن طاعة الكافرين، أي: لا يكون لرجل قلبٌ مؤمنٌ معنا، وقلبٌ كافرٌ علينا؛ لأنه لا يجتمع الإيمان والكفر في قلب رجل واحد، ذكره في البرهان(١).

وقيل: هو زيادة تصور، كقوله ﴿ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج ٤٦] نفى القلبين؛ لأنه إن فعل بأحدهما كما يفعل بالآخر فأحدهما فضلة، وإن فعل به غير ما فعل الآخر أدى إلى أن يكون مريدا كارها، موقنا شاكا ونحوه في حالة واحدة، كان المنافقون يقولون: لمحمد قلبان.

وقيل: سها في صلاته فقالت اليهود: له قلبان، قلب مع أصحابه، وقلب معكم، فأكذبهم الله تعالى.

وقال في التجريد: المعنى أن الله سبحانه كما لم يجعل لإنسان قلبين في جوفه لم يجعل المرأة الواحدة أمّاً لرجل، وزوجة له، ولا أن يكون الرجل دَعِيّاً لرجل وابناً له؛ لأن البنوة أصالة في النسب، والدعوة إلصاق عارض بالتسمية، وذلك أن الله لو جعل لرجل قلبين في جوفه لكان يريد بأحدهما شيئا، ويكرهه بالآخر فتتناقض الأحوال، كذلك لا تكون الزوجة أما، ولا ولد غيره ولداً له لتناقض الأحكام، وهذا مثل ضربه الله في زيد بن حارثة، وهو رجل من كلب سبي صغيرا، واشتراه حكيم ابن حزام لعمته خديجة، فلما تزوجها النبي ﷺ وهبته له وأعتقه رسول الله ﷺ، وكانوا يقولون فيه: زيد بن محمد، ولما تزوج النبي ﷺ زينب، وكانت تحت زيد،

= ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهلم جرا إلى آخر السورة تفصيلا لقول الحق والهداية في السبيل القويم. اللهم وفقنا لقول الحق، واهدنا إلى سواء السبيل، واجعل هادينا إليك أكرم هاد ودليل، محمدا وآله يارب.

(١) ولفظ البرهان: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ وهذا مثل ضربه الله تعالى لنبيه حين نهي عن طاعة الكافرين أنه لايكون لرجل قلب مؤمن معنا، وقلب كافر علينا، لأنه لايجتمع الإيمان والكفر في قلب رجل واحد.

عابه اليهود والمنافقون، وقالوا: تزوج محمد امرأة ابنه فأنزل الله هذه الآية، وقوله ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب ٤٠].

وقيل: في جميل بن أسد الفهري، وكان يقول: إن لي قلبين أفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد، فروي أنه انهزم يوم بدر فمر بأبي سفيان، وهو معلق إحدى نعليه بيده، والأخرى في رجله، فقال له: ما فعل الناس، فقال: هم ما بين مقتول وهارب، فقال له أبو سفيان: ما بال أحد نعليك في رجلك، والآخر في يدك؟ فقال: ما ظننت إلا أنهما في رجلي، فأكذب الله تعالى قوله وقولهم، وضربه مثلا في التبني والظهار(١). اهـ

قال الرازي: وهذا ضعيف، بل الحق أن يقال: إن الله لما أمر النبي ﷺ بالاتقاء بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فكان ذلك أمراً له بتقوى لا يكون فوقه تقوى، ومن يتقي ويخاف شيئا خوفا شديدا لا يدخل في قلبه شئ آخر، ألا ترى أن الخائف الشديد [الخوف] ينسى ما هو به حالة الخوف، فكأن الله تعالى قال: يا أيها النبي اتق الله حق تقاته، ومن حقها أن لا يكون في قلبك تقوى غير الله، فإن المرء ليس له قلبان حتى يتقي بأحدهما الله تعالى، وبالآخر غيره، فإن اتقى غيره فلا يكون ذلك إلا بصرف القلب عن جهة الله إلى غيره، وذلك لا يليق بالمتقي الذي يدعي أنه يتقي الله حق تقاته، ثم ذكر للنبي ﷺ أنه لا ينبغي [أن يتقي أحدا] ولا مثل ما اتقيت في حكاية زينب زوجة زيد، حيث قال الله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب ٣٧] يعني مثل تلك التقوى لا ينبغي أن تدخل في قلبك.

ثم لما ذكر النبي ﷺ بتلك الحالة ذكر ما يدفع عنه السوء فقال: [﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أي: و] ما جعل الله دعي المرء ابنه، ثم قدّمَ عليه

(١) ومثله في الكشاف، قال السيد العلوي رحمه الله: أي فكما لايكون لرجل قلبان كذلك لاتكون امرأة المظاهر أمه، ولا يكون ولد غيره ولده.

ما هو دليل قوي على اندفاع القبح وهو قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ أي: أنكم إذا قلتم لأزواجكم: أنت علي كظهر أمي لا تصير هي أما بإجماع الكل، أما في الإسلام فلأنه ظهار لا يحرم إلا الوطء، وأما في الجاهلية فلأنه كان طلاقا، حتى كان يجوز للزوج أن يتزوج بها من بعد عقد جديد، فإذا كان قول القائل لزوجته: أنت أمي، أو كظهر أمي لا يوجب صيرورة الزوجة أما، كذلك قول القائل للمدعى: أنت ابني لا يوجب كونه ابنا، فلا تصير زوجته زوجة الابن، فلم يكن لأحد أن يقول في ذلك شيئا، فلم يكن خوفك من الناس له وجه، كيف ولو كان أمرا مخوفا ما كان يجوز أن يُخَافَ غيرُ الله، وليس لك قلبان، وقلبك مشغول بتقوى الله فما كان ينبغي أن تخاف أحدا[١].

قلت: وهذا المعنى حسن جدا، والله أعلم.

وإنما نفى الله البنوة بقوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ لأنه إثبات نسب وبنوة لمن ليسا له، وكانوا يقولون في زيد بن حارثة: زيد بن محمد كما مر.

ولما تزوج ﷺ خديجة وهبته له، وجاء له أبوه وعمه، فخيره ﷺ فاختار النبي ﷺ ولم يرجع معهما، فأعتقه ﷺ[٢].

والأدعياء جمع دعي، فعيل بمعنى مفعول، وهو الذي يدعي ولدا وليس به.

---

(١) إلى هنا انتهى كلام الرازي، وما بين الأقواس من تفسير الرازي، وكذلك إصلاح بعض الألفاظ (انظر التفسير الكبير ٢٥/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) انظر الكشاف ٣/ ٢٢٦، قال ابن حجر في تخريجه: هكذا ذكره ابن اسحاق، وابن أبي خيثمة من طريقه، وزاد في آخره (كان رسول الله ﷺ أكبر منه بعشر سنين فتبناه) وهب، عن سالم عن أبيه قال: ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى أنزل الله ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ أي: مجرد قول لا يعضده اعتقاد بصحته، ولا دليل والله سبحانه لا يقول إلا ما هو حق ظاهره وباطنه، وهو معنى ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ في أن المرأة لا تصير بالظهار أما، ولا الدعي بالتبني ابنا.

ثم قال تعالى ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾ أي: والله ما يقول إلا ما هو حق، ولا يهدي إلا سبيل الحق، وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ إشارة إلى أن اتباع ما أنزل الله خير من الأخذ بقول الغير.

ثم بين الهداية فقال سبحانه: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ أي: اجعلوا نسبهم خاصاً لآبائهم، فدعي زيد بن حارثة، وعرفت كلب نسبه، وأقروا به.

ومعنى قوله: ﴿هُوَ أَقْسَطُ﴾ أي: فهو أعدل ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وأدخل في القسط، وهو العدل ـ من دعائهم لغير آبائهم.

ثم تمم هذا الإرشاد فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ حتى تنسبوهم إليهم ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم ﴿فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ فيه، فقولوا: هذا أخي، وهذا مولاي، يريد الأخوة في الدين والولاية فيه.

قال في البرهان: كما فعل المسلمون في من عرفوا نسبه، وفي من لم يعرفوا، فالمقداد بن عمرو كان يقال له: المقداد بن الأسود بن عبد يغوث الزهري ، فرجع إلى المدينة، وممن لم يعرف له نسب سالم مولى أبي حذيفة فنسب إلى ولاء أبي حذيفة اهـ.

قال الهادي عليه السلام: هذه الآية نزلت فيمن كان يربي صبيا ويتبناه، وكانوا يدعونهم إلى من تبناهم ويذرون آباءهم، فيقولون: فلان بن فلان، فيدعونه إلى من رباه وتبناه، فنهاهم الله عن ذلك.

ثم قال: فإن لم تعلموا آباءهم فادعوهم إخوانا ومواليا، ولا تدعوهم إبنا.

ثم أعلم الله سبحانه أنه لا إثم عليهم فيما أخطأوا به من ذلك فقال ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: إثم ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ أي: جهلتم الحكم من الله فيه، فالآن بعد أن نهيتم فمن فعله فقد تعمده، ومن تعمده باء بإثمه، إذ قد نهاه ربه عن فعله اهـ.

أو: لا إثم عليكم إن قلتم: يا بني على الخطأ بسبق اللسان، ويا بني بطريق الشفقة، وقول القائل لغيره يا أبي بطريق التعظيم من غير قصد إلى إثبات النسب.

﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: ولكن الإثم فيما تعمدتم بعد النهي، والتبني يثبت في الشريعة بشرطين: أن يكون مجهول النسب، وأن يولد مثله لمثله.

عنه ﷺ: (من ادعى إلى غير أبيه، أو انتمى إلى غير مواليه ـ أي: أهل نسبه ـ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا).

ثم قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾ يعفو عن الخطأ، وعن العامد إذا تاب يغفر له الذنوب، ويرحم المذنب إذا رجع إليه وأناب.

ثم قرر عزوجل صحة ما صدر عنه ﷺ من التزوج بزينب، فقال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾.

قال الهادي عليه السلام: هذا تأكيد من الله سبحانه لحق رسوله ﷺ، وتعظيم منه لقدره، فجعل الله نبيه ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأحق ببعضهم من بعض، وكذلك أزواجه أمهاتهم، فعلى هذا المعنى يخرج، وفي هذه الآية من تأكيد تحريمهن على غير النبي ﷺ، غاية ما يكون من التحريم، فأراد به تحريمهن على كل مسلم بالحكم، إذ كان المسلم في الحكم من أبنائهن.

ثم رجع الخبر إلى أولي الأرحام المسلمين، فجعلهم أولى بعقد نكاح حرماتهم، ووراثة أموالهم من غيرهم من أحلافهم، وذلك أنه كان يحالف بعض المؤمنين بعضا، فإذا حالفه على المناصرة والمعاشرة انتسب بعضهم إلى بعض، وتوارثوا فيما بينهم، كما يتوارث المتناسبون، فانزل الله هذه الآية تخبر أن أولي الأرحام أولى بالموارثة والمناسبة ممن تحالف من المؤمنين والمهاجرين اهـ.

قال في الكشاف: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ هو عام في كل أمور الدين والدنيا، فعليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم، وأن يفدوه بها؛ لأنه لا يدعوهم إلا إلى الفوز بسعادة الدارين، ومعناه: أنه أرأف بهم، وكذلك الإمام العادل له ما له ﷺ، وعليه ما عليه؛ لأنه خليفته.

[قال في التجريد: لا يصح حمله على العموم؛ لأنه ﷺ لا يملك أموالهم، ولا يعتق مماليكهم، ولا يطلق نساءهم فيجب التأويل، فقيل: أرأف بهم، وأعطف، وأنفع، وقيل: في الجهاد، وقيل: أولى في القضاء عليهم، وقيل: غير ذلك .اهـ

قال في البرهان: سبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ لما أراد غزوة تبوك أمر الناس بالخروج معه، فقام قوم منهم فقالوا: نشاور آباءنا وأمهاتنا، ونستأذنهم، فأنزل الله تعالى ذلك فيهم، وبين لهم أنه أولى بهم منهم، وكذلك من قام مقامه من خيار عترته فهم أولى بأمته . اهـ][1]

والمراد بقوله عز وجل ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ التشبيه لهن بالأمهات، في وجوب تعظيمهن واحترامهن، وفي تحريم نكاحهن، وهن في غير ذلك كالأجنبيات، ولذلك قالت عائشة: لسنا أمهات النساء . أي: إنما كنا أمهات الرجال لتحريمهن عليهم كتحريم الأمهات، ولذلك لم يتعد التحريم الى بناتهن فيكن أخوات.

(١) ما بين قوسي الزيادة غير موجود في بعض النسخ، وهو موجود في النسخة المعتمدة.

قال في البرهان: وعنى بالأزواج: من بانت خيرتها، وصلحت في الله سريرتها كخديجة بنت خويلد أم الأئمة عليهم السلام، وكأم سلمة ابنة أبي أمية رضي الله عنها، فأما من عَنَدَ منهن عن الحق، وشقت عصا الإسلام فلسن بأمهات للمسلين، ولا هن أهل كرامة عند رب العالمين، فإن الله سبحانه قطع نسب الأبناء عن الآباء بالعصيان، فكيف لا يقطع سبب الزوجية بالكفران؛ لأن حكم النبوة آكد[1] وسبيله أمهد، وحبله أوثق، ورحمه أعلى من زوجة أجنبية بعيدة، قال تعالى تأديبا لنبيه نوح حين أقر ببنوة ابنه فقال ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ (هود ٤٥) قال خير القائلين ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ [هود ٤٦] فنفى أن يكون من أهله لما كان من عصيانه وجهله اهـ.

وأما قوله تعالى ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٦﴾ فاعلم أن الله سبحانه ابتدأ بذكر الولاية فقال ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ ثم عقب ذلك بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ دل على أن أولاده أولى بمقامه في الولايات من غيرهم[2].

قال في (تنبيه الغافلين عن فضائل الطالبيين)[3] [ويصحح ذلك ما رويناه] في حديث غدير خم: (أن النبي صلى الله عليه وآله قال: ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى، قال: فمن كنت مولاه فعلي مولاه).

---

(١) في الأصل المنقول عليه زيادة هنا ليست موجودة في البرهان، وهي: (على ما ذكرناه كثير من الأخبار الصحيحة). فلتنظر في نسخ أخرى.

(٢) في النسخة ب زيادة بعد قوله: غيرهم)[وإن دخل في الآية ما ذكره الهادي عليه السلام فلا يصلح قصره عليه بغير دليل، ويدل على ما ذهبنا إليه ما رواه (الحاكم) في تنبيه الغافلين .. الخ]

(٣) للحاكم الجشمي.

وروينا عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: (كل بني أنثى ينتمون إلى أبائهم إلا الحسن والحسين فأنا أبوهما وعصبتهما)[١]، ولا يقال: إن المراد به الميراث لأنه لم يجر له ذكر لا متقدما ولا متأخرا؛ ولأنه قال: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ دل أنه أراد الولاية للذرية في أمته دون غيرهم[٢] اهـ.

[قلت: ومثل هذا ذكره الطوسي رحمة الله عليه في تفسيره، قال في البلغة][٣]: لأن الله عزوجل بين في هذه الآية رتبة عالية لمحمد صلى الله عليه وآله بقوله ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ فجعل كافة المؤمنين بمثابة العبيد له؛ لأنه أخذ منهم ولايتهم لأنفسهم، وأعطى زمامها النبي صلى الله عليه وآله وسلم فوجب على المؤمنين أن يتركوا آراءهم وأمرهم ونواهيهم ومراداتهم عند رأي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمره ونهيه وإرادته، وجعل له رتبة ثانية بأن حرم أزواجه على المؤمنين كما حرم عليهم أمهاتهم، حتى لا يجوز أن ينكح أحد زوجا من أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعده كما حل وجاز من أزواج المؤمنين، وقد قالت امرأة لعائشة: يا أمه، فقالت: ما أنا بأم النساء، وإنما أنا أم الرجال.

وقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ معناه: أولوا أرحام النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا كانوا مؤمنين مهاجرين أولى بالنبي من غيرهم، وإنما أوجب ذلك [أي: كونهم أولى بالنبي من غيرهم][٤] لأن الله ابتدأ الكلام ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ ثم عطف

---

(١) وفي لفظ (ينتسبون إلى آبائهم).

(٢) في النسخة أ زيادة بعد قوله: (غيرهم): [وقيل: هؤلاء هم الذين والوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المهاجرين والأنصار، وتمسكوا بالمعرفة، ومقتضى العقل والبصر. والأصح من معنى الآية هو ما ذكرناه ؛ لأن الله عز وجل بين في هذه الآية رتبة عالية ..] الخ ما اثبتناه.

(٣) ما بين القوسين غير موجود في النسخة أ.

(٤) ما بين القوسين غير ثابت في النسخة أ.

عليه قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ ثم تعقبه: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ وهو القرآن، وحكمه، أو فيما كتبه الله عليكم، أي: فرضه بشرط كونه مؤمنا مهاجرا، فاختص هذا بأولي أرحام النبي صلى الله عليه وآله إذا كان هذا الشرط، ولم يكن من أرحام النبي ﷺ مؤمن مهاجر إلا علي بن أبي طالب عليه السلام؛ لأن العباس كان طليقا، وغيره لم يكن مهاجرا، فدل ذلك على أن عليا أولى بالنبي، وإذا كان أولى من غيره، فأولى ما يكون أولى به من غيره في أن ينوب منابه، ويقوم مقامه، ورفيعُ مجلسه يكون له بعده، ويوم الغدير كان ابتداء كلامه هذا، فقال: (ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: من كنت مولاه فعلي مولاه) وهذا اللفظ قائم هاهنا، وهو قوله: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فقوله ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ الآية الخ كان ذلك مطلقا عاما في كل شئ، فدخل فيه الإمامة وغيرها من الوجوه التي يجب أن تكون الأولى به، ولما كان كذلك رخص في أن يفعلوا إلى أوليائهم الذين ليس لهم شرط الإيمان والهجرة شيئا على وجه المعروف مما كان لأولي الرحم المؤمن المهاجر فقال إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾[1] مكتوبا بأن القرابة يستحقون أن يوصى إليهم بشيء، وأن يستعمل المعروف معهم[2].

ثم قال تعالى[3] ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾ أي: واذكر يا محمد حين أخذنا ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ أي: عهدهم بالطاعة لله.

[قال الرازي: وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما أمر النبي ﷺ بالإتقاء بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وأكده بالحكاية التي خشي

(١) في النسخة أ زيادة بعد قوله: معهم (ذكر معنى هذا في البلغة).
(٢) في نسخة ب [ثم أكد تعالى ما تقدم بوجه آخر فقال ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾ الخ.
(٣) ولفظ البرهان: يعني ليسأل الأنبياء عما جاؤا به قومهم.

فيها الناس لكي لا يخشى أحدا غيره، وبين أمره أنه لم يرتكب أمرا يوجب الخشية بقوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ من أنفسهم أكده بوجه آخر، فقال: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا﴾ كأنه قال: اتق الله، ولا تخف أحدا، واذكر أن الله أخذ ميثاق النبيئين أنهم يبلغون رسالات الله، ولا يمنعهم من ذلك خوف ولا طمع] اهـ لأن أمر الله ونهيه أوثق من جميع العهود، وألزم لهم من جميع العقود.

قال في البرهان: [والميثاق: هو العهد إليهم] وأن يصدق بعضهم بعضا، وأن يبلغ الكل منهم ما أرسل به من أحكام الله تعالى في شرائعه ﴿وَمِنكَ﴾ خصوصا ﴿وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ وإنما قدم ذكره ﷺ لشرفه عليهم اهـ.

ومعنى قوله تعالى ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ۝٧﴾ أي: عظيم الشأن، مستعار من غلظ الأجسام، وهو الأول، كرر ووصف بالغلظ تأكيدا، وقيل: هو اليمين على الوفاء بما حملوا، وإنما فعل ذلك: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ﴾ الله ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ﴾.

قال في البرهان: يعني ليسأل الأنبياء عما أجابوا به قومهم[1] اهـ.

وفائدة سؤالهم تبكيت الكافرين، كسؤال الموؤدة، وكقوله ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [المائدة ١١٦] وعهدهم الذي شهدوا عليه: هو التوحيد وتوابعه، فتشهد لهم الأنبياء، بأنهم صدقوا عهدهم.

أو معناه: ليسأل الصادقين عموما، وهم المؤمنون المصدقون للأنبياء؛ لأن من قال للصادق: صدقت كان صادقا فيصح أن يسموا صادقين.

قال في الكشاف: وأراد بالميثاق ما أشهدهم عليه في قوله ﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ

(١) لفظ النسخة أ (لأن واقعة الإجتماع على الأحزاب واشتداد..) الخ

﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف ١٧٢] أي: بما نصب لهم من الأدلة على التوحيد، ودين الإسلام، فكأنه قال: أشهدهم على أنفسهم لأن عقولهم تشهد بذلك.

قال في التجريد: والصحيح أن الميثاق ما أنزل الله إليهم من الوحي مشددا في ذلك، وإنما خص هؤلاء الأنبياء لأنهم أهل الكتب والشرائع، وأفاضل الأنبياء.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: شديد الألم، وهو عطف على ﴿أَخَذۡنَا﴾ إلى آخره.

ثم ذكَّرَ تعالى المؤمنين نعمته عليهم فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾

قال الرازي: هذا تحقيق لما سبق من الأمر بتقوى الله بحيث لايبقى معه خوف من أحد، وذلك لأن واقعة اجتماع الأحزاب(١)، واشتداد الأمر على الأصحاب، حيث اجتمع المشركون بأَسْرِهِمْ، واليهود بأجمعهم، ونزلوا على المدينة، وعمل النبي ﷺ الخندق، وكان الأمر في غاية الشدة، والخوفُ بالغاً إلى الغاية، والله دفع القوم عنهم من غير قتال، وأمنهم [من الخوف] فينبغي أن لا يخاف العبد غير ربه [فإنه كاف أمره] ولا يأمن مكره، فإنه قادر على كل شئ، فكان قادرا على أن يقهر المسلمين بالكافرين، مع أنهم [كانوا] ضعفاء كما قهر الكافرين بالمؤمنين مع قوتهم وشوكتهم(٢).

---

(١) الرازي ٩/ ١٦٠، وما بين أقواس الزيادة منه.

(٢) انظر البرهان خ ٣٠٦، وفيه (وأبو الأعور السلمي) وكذلك في التفسير المنقول عليه هنا، برفع أبو بالواو معطوفا على جنود لأنه لم يكن له جنود، وإنما حضر هو وحيي بن أخطب في يهود بني قريظة، كما سيأتي النقل قريبا عن البرهان. ولو كان يريد العطف على ما أضيف إلى جنود لجره بالياء كما فعل مع البقية الذين ذكرهم.

قال في البرهان: في قوله تعالى: ﴿ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ يعني به يوم الأحزاب حين أنعم الله عليهم بالصبر، ثم النصر حين جاءتكم جنود أبي سفيان بن حرب، وعيينة بن حصن، وطلحة بن خويلد، وأبو الأعور السلمي وبني قريظة اهـ.

فنعمة الله على المؤمنين دفع الأحزاب من غير قتال، وما ذكر من إرسال الريح، والإمداد بالملائكة، وكانت قريش قد أقبلت في عشرة آلاف، وقائدهم أبو سفيان، وغطفان في ألف ومن تبعهم من نجد، وقائدهم عيينة بن حصن، وعامر بن الطفيل في هوازن وصافهم من اليهود قريظة والنضير، وخرج صلى الله عليه وآله وسلم في ثلاثة آلف، وكان قد أشار عليه سلمان بالخندق، فجعله صلى الله عليه وآله وسلم بينه وبينهم، ومضى على الفريقين قريب من شهر،لا حرب بينهم إلا الترامي، حتى نزل النصر، إلا ما كان من قتل عمرو بن عبد ود، قتله علي عليه السلام، وقتل معه رجلان رمي أحدهما بسهم، والآخر رضخ بحجارة بعد أن وقع في الخندق، وقوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا﴾ إشارة إلى ما فعل الله بهم من إرسال الريح عليهم، وهي الصبا، ريح باردة في ليلة شاتية، فأبردتهم وسفت التراب في وجوههم، وقلعت الخيام، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور فانهزموا من غير قتال.

قال في البرهان: وكذلك روينا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (نصرت بالصبا وأخذت عاد بالدبور).

ثم قال تعالى: ﴿وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾ ألفا من الملائكة، كبَّرَت في جوانب عسكرهم، فقال طلحة بن خويلد الأسدي، أما محمد فقد بدأكم بالسحر، فالنجاء النجاء، فانهزموا، وقذف الرعب في قلوبهم حتى كان البعض يلتزق بالبعض من خوف الخيل في جوف الليل، والحكاية مشهورة.

قال الحسين بن القاسم عليه السلام: فروي ـ والله أعلم ـ أن الله بين لهم خذلان أنفسهم بالريح التي أرسل عليهم، فكانت تكسح بالتراب في

وجوههم، ولا يتهنون بها مأكلهم ولا مشربهم، ولا يدرون ما يدخل معهم لشدة عصفها وغبارها [ولا تثبت لهم نار إن أوقدوها] فلما رأوا ذلك داخلهم الفزع، ولزمهم الرعب والجزع، ففروا منهزمين، ورجعوا عن المدينة مرعوبين اهـ.

وقوله تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾ إشارة إلى أن الله علم التجاءكم إليه، ورجاءكم فضل الله فنصركم على الأعداء عند الاستعداء، وهذا تقرير لوجوب الخوف، وعدم جواز الخوف من غير خوف الله.

ومعنى قوله تعالى ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي: حين جاؤكم يعني غطفان من أعلى الوادي من قبل المشرق.

قال في البرهان: جاء منه عوف بن مالك في بني النضير، وعيينة بن حصن في أهل نجد، وطليحة بن خويلد الأسدي في بني أسد، وأبو الأعور السلمي ومعه حيي بن أخطب اليهودي في يهود بني قريظة مع عامر بن الطفيل من وجه الخندق.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ يعني من أسفل الوادي من قبل المغرب، وهم قريش، قالوا: سنكون حملة واحدة حتى نستأصل محمدا.

ومعنى ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فهو مالت عن سننها، ومستوى نظرها حيرة وشخوصا، وقيل: عدلت عن كل شئ فلم تلتفت إلا إلى عدوها لشدة الروع والفزع.

وقوله: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ كناية عن غاية الشدة، والحنجرة: رأس الحلقوم وهو مدخل الطعام، قالوا إذا انتفخت الرئة لفزع أو غضب أو غم ارفعت، فيرتفع القلب بارتفاعها إلى الحنجرة، ومن ثم قيل للجبان: انتفخ سحره، السحر: الرئة، أو هو مثال لاضطراب القلوب وإن لم ترتفع.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠﴾ الألف واللام يمكن أن تكون بمعنى الإستغراق مبالغة، يعني يظنون كل ظن؛ لأن عند الأمر العظيم كل أحد يظن شيئا، ويمكن أن يكون المراد ظنونهم المعهودة لأن المعهود من المؤمن ظن الخير بالله، كما قال ﷺ: (ظنوا بالله خيرا) ومن الكافر ظن السوء كما قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [ص ٢٧] والمراد: اختلفت ظنونهم، فظن المنافقون أن رسول الله ﷺ وقومه يستأصلون، وأيقن المسلمون أنما وعده الله سبحانه سيظهره على الدين كله، ولو كره المشركون قاله في البرهان[١].

وهو خطاب للذين آمنوا، ومنهم الثبت القلوب والأقدام، والضعاف القلوب الذين هم على حرف، والمنافقون الذين لم يوجد منهم الإيمان إلا بألسنتهم، فظن محققوا الإيمان أن الله يبتليهم ويمتحنهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال، وظن المنافقون ما في آخر الآية، وقرئ (الظنون) بلا ألف وصلا ووقفا، وهو القياس، وقرئ بالألف وقفا لا غير لفاصلة الآي للمطابقة كما زادها في القافية من قال:

أقلي اللوم عاذل والعتابا[٢] [وقولي إن أصبت لقد أصابا]

وكذا (الرسولا) و (السبيلا) وقرئ بالألف وصلا إجراء له مجرى الوقف، قال أبو عبيدة: وهو في الإمام بالألف، يعني في مصحف عثمان.

فإن قيل: المصدر لا يجمع فما الفائدة في جمع الظنون؟

قال الرازي: لاشك في أنه منصوب على المصدر، ولكن الاسم قد يحصل مصدرا كما يقال: ضربته سياطا، وأدبته مرارا، فكأنه قال: ظننتم ظنا بعد ظن، أي: ما ثبتم على ظن، والفائدة: هي أن الله سبحانه لو

---

(١) الذي في البرهان هو من قوله: فظن المنافقون ... إلى قوله: ولو كره المشركون.

(٢) تمامه، وقولي إن أصبت لقد أصابا، وهو لجرير. انظر الكشاف ٣ / ٢٣٠

قال: يظنون ظنا، جاز أن يكونوا مصيبين، فإذا قال: ظنونا تبين أن فيهم من كان ظنه كاذبا؛ لأن الظنون قد تكذب كلها، وقد يكذب بعضها إذا كانت في أمر واحد، مثاله إذا رأى جمع من بعيد جسما وظنه أنه زيد، وآخرون أنه عمرو، وقوم ثالث إنه بكر، وعليها، ثم ظهر لهم الحق، وقد يكون الكل مخطئين، والمرئي شجر أو حجر، وقد يكون أحدهم مصيبا، ولا يمكن أن يكونوا كلهم مصيبين، فقوله: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ أفاد أن فيهم من أخطأ الظن، ولو قال: تظنون بالله ظنا ما كان يفيدها[1].

ثم قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في تلك الحال، وفي ذلك الموضع ﴿ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: اختبروا ليتبين المخلص من المنافق فيظهر الثابتون من غيرهم، فيتميز الصادق الإيمان عن المنافق، والامتحان من الله ليس لإبانة الأمر له، بل لحكمة أخرى؛ لأن الله سبحانه عالم بذلك قبل وجوده، ولكن أراد هنا وفي الآيات التي ذكر فيها الفتنة، ليظهر معلومه موجودا؛ لأن الله تعالى لا يثيب ولا يعاقب على معلومة من أفعال عباده حتى يظهر موجودا، وهو لا يكون كذلك إلا بالابتلاء والفتنة، والله أعلم.

ومعنى قوله ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ أي: أزعجوا وحركوا إزعاجا شديدا، وذلك أن الخائف يكون قلقا ومضطربا لا يستقر في مكانه، والمعنى أن الخوف أزعجهم أشد الإزعاج.

ثم فسر الظنون وبينها فقال تعالى ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ قيل القائل معتب بن قشير لما رأى الأحزاب ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك من الإسلام ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ فظن المنافقون أن ما قال الله ورسوله كان زورا، وما وعد الله به ورسوله كان غرورا، حيث قطعوا بأن الغلبة واقعة، قال بعضهم: يعدنا محمد فتح فارس والروم وأحدنا لا يقدر يبرز خوفا، ما أظن هذا إلا وعد غرور.

(١) الرازي ٩ / ١٦٠ وما بين أقواس الزيادة منه

قال في البرهان: وروينا عن آبائنا أن رسول الله ﷺ كان يحفر الخندق لحرب الأحزاب، فبينما هو يضرب فيه بمعوله إذ وقع المعول على صفا فطارت منه كهيئة الشهاب من نار في السماء، فضرب الثاني فخرج مثل ذلك، فضرب الثالث فخرج مثل ذلك، فرأى ذلك سلمان، فقال له النبي ﷺ: (رأيت ما خرج من كل ضربة ضربتها)؟ قال: نعم يا رسول الله، فقال ﷺ (يفتح الله لكم بيض المدائن، وقصور الشام، ومدائن اليمن) قال: ففشا ذلك في أصحاب رسول الله ﷺ وتحدثوا به، فقال بعض المنافقين: أيعدنا محمد أن يفتح لنا مدائن اليمن، وبيض المدائن، وقصور الشام وأحدنا لا يستطيع أن يقضي حاجته إلا قتل، هذا والله الغرور، فأنزل الله هذه الآية[١]. اهـ

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآيِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ قيل: عبد الله بن أبي وأصحابه قالوا ﴿يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي: لا وجه لإقامتكم مع محمد، كما يقال لا إقامة على الذل والهوان، أي: لا وجه لها، ويثرب اسم المدينة، وقيل: أرض في ناحية منها، قيل: سميت برجل مر بها اسمه يثرب[٢] وقيل: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي: لا قرار لكم هاهنا، ولا مقام لكم تقومون فيه أو تقيمون، فمعنى ﴿لَا مُقَامَ﴾ بفتح الميم المكان الذي يقام فيه، والمقام: الإقامة بضم الميم، يعني لا مقام لكم على القتال ﴿فَارْجِعُواْ﴾ أي: عن محمد من الخندق المدينةَ، واتفقوا مع الأحزاب تخرجوا من الأحزان.

وفي البرهان: فارجعوا إلى طلب الأمان، وقيل: أراد فارجعوا كفارا، وأسلموا محمدا إلى العرب، وإلا فليست يثرب لكم بمكان اهـ.

ثم السامعون عزموا على الرجوع واستأذنوه وتعللوا بأن بيوتنا عورة،

---

(١) انظر البرهان خ ص ٣٠٧.

(٢) يثرب اسم للمدينة، قيل: هو اسمها قديما، فسماها رسول الله ﷺ طيبة، وطابة كراهة للتثريب، وقيل: يثرب اسم أرضها، وقيل: سميت باسم رجل من العمالقة. وهي المعروفة الآن باسم المدينة المنورة، وإذا أطلق اسم المدينة، فهي المرادة به.

أي: فيها خلل لا يأمن صاحبها السارق على متاعه، والعدُوَّ على اتباعه، وهو معنى قوله تعالى ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ﴾ قيل: عبد الله بن أبي وأصحابه.

وقال ابن الجوزي والواحدي: هم بنو حارثة، وبنو سلمة ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾.

ثم بين الله تعالى كذبهم بقوله ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ وبين تعالى قصدهم، وما تكن صدورهم، وهو الفرار بسبب الخوف بقوله ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ والعورة: الخلل يخاف منه العدو، واعتذروا بأنها ممكنة للسراق؛ لأنها غير محرزة ولا محصنة، فاستأذنوه ليحصنوها ويرجعوا.

وقال ابن قتيبة: معنى ﴿عَوْرَةٌ﴾ أي: خالية فقد أمكن دخولها من أراده.

وفي البرهان: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: خالية ليس فيها إلا العورة من النساء والصبيان، مأخوذ من قولهم: قد أعور الفارس؛ إذا كان فيه موضع للضرب فيه خلل، ومنه قول الشاعر: له الشدة الأولى إذا القِرن اعورى[(١)]

ويقال: منزل معور؛ إذا كان فيه خلل من سقوط جدار، أو اضمحلال آثار.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ أي: المدينة ﴿عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي: جوانبها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ إشارة إلى أن ذلك الفرار والرجوع ليس لحفظ البيوت، والمعنى: لو دخلها هؤلاء الأحزاب الذين ملأوهم رعبا على أهليهم ناهبين سابين لهم ولأولادهم ثم سئلوا ذلك عند الفتنة، قيل: هي الردة والرجعة إلى الكفر ﴿لَأَتَوْهَا﴾ لفعلوها أي: لارتدوا، وقرئ ﴿لَآتَوْهَا﴾] بألف بعد الهمزة أي: لأعطوها.

(١) وفي البرهان: له الشبة الأولى إذا القرن اعورى. وفي نسخة أخرى نفس ما أثبته المؤلف رحمه الله.

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه لو دخلت على المنافقين من جوانبها، ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: القتال والحرب إذاً لأتوا بيوتهم فارين منهزمين، وهم نفر من أهل يثرب، كانوا منافقين، ويثرب: هي المدينة التي كان بها الأنصار، وبها اليوم قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ومعنى قوله: ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾ يريد بعد إتيانهم إلى منازلهم، وفرارهم إلى بيوتهم، ما إذا أقاموا بها إلا قليلا من الزمان لجبنهم، وقلة صبرهم، يدل على ذلك قوله عزوجل: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لا تعمرون إلا قليلا، فلا تفروا من القتال والجهاد في سبيل الله، ولستم بباقين، ولا في الدنيا لو عقلتم بمخلدين[١] اهـ.

ويحتمل أن يكون المراد ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ﴾ أي: الفتنة ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ فإنها تزول، وتكون العاقبة للمتقين.

وقيل: ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ قدر السؤال والجواب بعد ارتدادهم، فإن الله يهلكهم، وما ذاك إلا لمقتهم الإسلام، وشدة بغضهم لأهله، وحبهم الكفر [وتهالكهم على حزبه][٢].

ثم قال تعالى بيانا لفساد سريرتهم، وقبح سيرتهم لنقضهم العهود ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أي: حالفوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة العقبة على أن يمنعوه ما يمنعون منه أنفسهم، وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل الخندق، وقيل: هم قوم غابوا عن بدر، فقالوا: لئن شهدنا قتالا لنقاتلن، وقيل[٣]: عاهدوا يوم أحد.

---

(١) انظر تفسير غريب القرآن للحسين بن القاسم العياني أول السورة، والمخطوطة ص ٢٣٥، ٢٣٦.

(٢) هذا اللفظ موجود في الكشاف، ٣/ ٢٣٠. ووقد أصلحنا اللفظ منه.

(٣) هذا القيل نسبه الزمخشري لمحمد بن إسحاق. انظر الكشاف ٣/ ٢٣١.

﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ﴾ أي: ألا نفر بعد ما نزل فيهم ما نزل، وهم معتب بن قشير، وثعلبة بن حاطب، فلما كان يوم الأحزاب نافقوا، وهذا أولى لأن أهل العقبة لم يعتذروا بأن بيوتهم عورة؛ لأنهم مخلصون، قاله في التجريد.

ثم هددهم بقوله ﴿وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ١٥﴾ أي: مسؤولا عنه في الآخرة ليجزي عليه، أي: مطالبا به حتى يوفى، أو على وجه التقريع كسؤال الموؤدة.

ثم قال تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ﴾ أما الموت فلأنه لا يؤخر، وأما القتل، فإن قيل: بأنه كالموت. فظاهر أنه لا يؤخر، وإن قيل: إنه اخترام فمعناه أن بقاءكم هو قليل، ولا بد من الموت، وهو المراد بقوله ﴿وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٦﴾ أي: وإن فررتم من الموت، ونفعكم الفرار مثلا فمنعتم بالتأخير إلى منتهى الآجال لم يكن ذلك التمتع إلا زمانا قليلا، ولا بد لكم من الموت، فالعاقل لايرغب في شئ قليل مع أنه يُفَوِّتُ عليه شيئا كثيرا.

ثم قال تعالى بيانا لما تقدم من قوله: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ﴾ أي: يمنعكم ويدفع عنكم السوء ﴿مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ﴾ أي: نعمة، لم يُرِدْ أو يعصمكم منه إن أراد بكم رحمة، والعصمة لا تكون إلا من السوء، لكن معناه: أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة فاختصر الكلام، أو حمل الثاني على الأول لما في العصمة من معنى المنع؛ كأنه قال: أو يمنعكم من رحمته إن أراد بكم رحمة، أي من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا، ومن ذا الذي يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة، كقوله: متقلدا سيفا ورمحا[1] قاله في الكشاف.

(١) أوَّله: ياليت زوجك قد غدا

وفي البرهان: المراد بالسوء العذاب، وبالرحمة الخير والنعمة.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ يتولى مصالحهم وينصرهم بدفع ما يريده الله بهم من السوء.

ثم قال تعالى: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ أي: المثبطين عنه ﷺ، يقال: عاقه واعتاقه، وعوقه، إذا صرفه عن الوجه الذي يريد ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ وفيهم وجهان أحدهما أنهم قوم من المنافقين كانوا يقولون للأنصار لا تقاتلوا مع محمد وسلموا محمدا إلى قريش وقيل: هم اليهود من بني قريظة قالوا للمنافقين من الأنصار من ساكني المدينة ﴿هَلُمَّ﴾ أي: ارجعوا إلينا، وفارقوا محمدا ﷺ فإنه هالك، قالوا لهم: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، ولو كانوا لحما لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه، فخلوهم و﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ بمعنى هلموا إلا أنه على لغة الحجاز، لأنهم يسوون في هلم بين الواحد والجماعة، وتميم يقولون: هلم يا رجل، وهلما، وهلموا.

وقوله ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾ أي: الحرب ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ معناه: إلا إتيانا قليلا، يوهمون المسلمين أنهم معهم، ولا يبارزون إلا قليلا إذا اضطروا إليه.

وقال في البرهان: لأن إتيانهم ليس على وجه البر والتطوع، فصار قليلا، وكل فعل لم يكن لله تعالى وإن كثر فهو قليل(١).

ثم قال: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ بالخير والنفقة، أو أضِنَّاء بكم في وقت الحرب، يُرُونَكم الترؤف بكم، والشح عليكم لتدفعوا عنهم، وشحهم فرقا على أنفسهم.

---

(١) لفظ الأصل: وكل فعل لم يكن لله تعالى فهو قليل: وإن كثر فهو قليل .وما أثبتناه هو ما في البرهان.

قال الرازي: قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يريد الوجه الأول، وهو أن المراد بهم المنافقون، وهو يحتمل وجهين، أحدهما: بمعنى يتخلفون عنكم، ولا يخرجون [معكم] وحينئذ قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي: بخلاء حيث لا ينفقون في سبيل الله شيئا، وثانيهما: لا يأتون البأس بمعنى: لا يقاتلون معكم، ويتعللون عن الاشتغال بالقتال وقت الحضور معكم، وقوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي: بأنفسهم وبأبدانهم(١).

ثم أشار إلى غاية جبنهم، ونهاية روعهم بقوله تعالى ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾ أي: بإلزام القتال من رسول الله ﷺ ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ لذهاب عقولهم، حتى لا يصح منهم النظر إلى وجهه، ويحتمل أن يكون المعنى: تدور أعينهم لشدة خوفهم حذرا أن يأتيهم القتل من كل جهة، وصفهم أولا بالبخل، ثم ثانيا بالجبن، حتى إنه ينقطع كلامهم، ولا يكون منهم إلا النظر وتدوير الأجفان.

﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: كدوران المغشي عليه من سكرات الموت؛ حذرا وخورا ولواذا بك ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ وحيزت الغنائم، .ووقعت القسمة ﴿سَلَقُوكُم﴾ يعني: رموكم ﴿بِأَلْسِنَةٍ﴾ ذربة ﴿حِدَادٍ﴾ يجادلون على أنفسهم جدال الباطل، ومعنى حدتها: اجتراؤهم بالكلام، أي: عموكم بقبح كلامهم وعداوتهم، وسوء أدبهم، وطعنهم، وسلقه بالكلام: آذاه، وهو شدة القول باللسان، والمسلاق: الخطيب البليغ، وهو من شدة صوته، والمعنى: تشجعوا عليكم عند الأمان، وقالوا: وَفِّرُوْا قِسْمَنَا فإنا قاتلنا معكم، وبنا غلبتم وكسرتم العدو وقهرتم، وكانوا من قبل راضين من الغنيمة بالإياب.

وقوله ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ قال في البرهان: يعني به المال؛ لأنهم

(١) انظر الرازي ٩/ ١٦٢وقد أصلحنا اللفظ منه.

شحوا بإنفاقه في سبيل الله وعمل الخير اهـ.

وقيل: هو المال المغتنم، أو عام وهو بيان لحالهم، أي: نقلوا ذلك الشح والرأفة عليكم إلى الخير وهو الغنيمة، ونسوا تلك الحالة الأولى. ونصب ﴿أَشِحَّةً﴾ في الأولى وهنا على الحال، أو على الذم(١) أي: أذم أشحة، وقرئ بالرفع: أي: هم أشحة.

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ إيمانا خالصا، وإن أظهروا الإيمان ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ قال في البرهان: أحبط حسنات أفعالهم، وإنما الإحباط للثواب على الحقيقة في الحسنات [لا لنفس الحسنات](٢) لأنهم لم يعملوا أعمالهم ابتغاء لوجه الله اهـ.

وقيل: أعمالهم التي يظن عاملوها أنها تنفعهم كالصلاة مثلا؛ لأنها في صورة الأعمال التي يثاب المؤمن عليها، فهو تعليم لمن يظن ذلك(٣) وإلا فالمنافق لا يثبت له عمل حتى يَرِدَ عليه الإحباط، أو عمل يجامع الكفر كالإعتاق ومكارم الأخلاق.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإحباط ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ أي: كان إحباط ثواب

---

(١) قال أبو البقاء: أشحة الأولى حال من الضمير في ﴿وَلَا يَأْتُونَ﴾ والثاني من الضمير المرفوع في ﴿سَلَقُوكُم﴾، وقال مكي: الصحيح أن أشحة حال من الضمير في ﴿يَأْتُونَ﴾ ولا يأتون حال من الضمير في ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ﴾ وكلاهما داخلان في صلة الألف واللام في ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ﴾ وكذا إذا جعلتهما حالين من المضمر في ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ﴾ ويجوز نصبه على الذم. (انظر حاشية العلوي خ ص ١٦٥).

(٢) مابين الأقواس من البرهان، وهو غير موجود في نسخة التفسير المنقول عليه هذا.

(٣) قال السيد العلوي تعليقا على قول الزمخشري: وفيه بعث على إتقان المكلف أساس أمره .: يريد أن إحباط العمل إنما يتصور إذا وجد هناك عمل، والمنافق لاعمل له حتى يحبط، لكن ورد هذا الأسلوب على التعريض بمن له عمل، وحث له على الإحتياط والإتقان فيه يؤول إلى الإحتياط، كقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وليس من المشركين من تزكى، ولكن حث للمؤمنين على أدائها؛ لأن المنع من صفة المشركين فلا ينبغي للمؤمن أن يتصف به.

حسناتهم على الله يسيرا، وكل شئ على الله يسير؛ إلا أن دواعي الإحباط لما تكاملت صح التعبير بذلك، أو معناه: لا تبال بهم ولا بإحباط أعمالهم لهوانهم عليه.

ثم أخبر تعالى أنهم في غاية الجبن عند ذهابهم ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ من قريش وغيرهم ﴿لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ أي: لم ينهزموا، فلذلك انصرفوا عن الخندق أي: المدينة لشدة الخوف، وصفهم بكثرة الجبن حتى إنهم يظنون الأحزاب لم يذهبوا عن حربكم.

ثم قال تعالى ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ إليكم مرة ثانية ﴿يَوَدُّوا۟﴾ يتمنوا، أي: المنافقون ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي: في البادية لخوفهم، مثل ما وقعوا فيه المرة الأولى؛ لأن الأعراب لا يخافون كخوف أهل المدينة، وذلك من الجبن والذل الذي ألهموه أنفسهم، ودخل في قلوبهم حتى تمنوا الخروج من منازلهم مع الأعراب حتى يسلموا من القتال.

ومعنى قوله في المنافقين: ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ أي: أخباركم للنبي صلى الله عليه وآله وأصحابه، ويتحدثون أمَا هلك محمد، أمَا غلب أبو سفيان، المعنى: يودون أنهم بالبعد لا يعرفون أخباركم إلا بالسؤال لا بالمشاهدة، فرقا وجبنا، وقيل: عداوة وبغضا للمؤمنين

ثم قال ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم﴾ أي: معكم ولم يرجعوا إلى المدينة ﴿مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾ رياء وسمعة بلا نية.

ولما وصف حال المنافقين وصف حال المؤمنين فقال ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ يامؤمنون ﴿فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ﴾ أي: قدوة ﴿حَسَنَةٌ﴾ أي: كان عليكم أن تواسوا رسول الله ﷺ بأنفسكم وتثبتوا معه في الصبر على الجهاد، وتواسوه كما واساكم بنفسه حتى كسرت رباعيته في أحد، وشج وجهه، والمعنى: لقد كان لكم به اقتداء لو اقتديتم به في الصبر معه والخطاب عام.

وإنما خص المؤمنين بقوله ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ لأنهم الذين يتأسون وينفع فيهم الوعظ، ومعنى ﴿يَرْجُواْ﴾ أي: يأملهما، أو يخافهما، أي: يأمل الثواب والعقاب، والرجاء: بمعنى الأمل والخوف.

ثم قال: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ بالطاعة، أو ذكر ثوابه وعقابه.

قال في التجريد: لأن ذاكر الله متبع لأوامره، بخلاف الغافل، أو يراد بالذكر خلاف النسيان، وهو ذكر القلب، أي: ذكر ثوابه وعقابه، ويجوز أن يراد ذكر اللسان؛ لأن ذكر القلب قد أغنى عنه ﴿يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ والله أعلم اهـ.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ﴾ تصديقا لوعد الله لهم ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ من الابتلاء، قالوا ذلك أن تزلزلوا حتى يستغيثوه في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ الآية إلى قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾(١) وكأنهم بهذه الآية قد علموا أنهم يبتلون، فلما بلوا بالأحزاب واضطربوا، وأرعبوا الرعب الشديد علموا أن النصر والجنة قد وجبا، وقالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ثم قالوا: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ في مقابلة قولهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾(٢).

وعن ابن عباس أنه ﷺ قال لأصحابه: الأحزاب سائرون إليكم في آخر تسع ليال أو عشر، فلما رأوهم أقبلوا للميعاد، قالوا ذلك وقيل: إنه النصر يدل عليه قوله ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ رؤية الأحزاب ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بما وعد الله ﴿وَتَسْلِيمًا ۝٢٢﴾ لأمره وقضائه.

ثم أشار تعالى إلى وفاء المؤمنين بعهدهم الذي عاهدوا عليه بقوله

(١) البقرة ـ ٢١٤.

(٢) الأحزاب ـ ١٢.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ وهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه وعلى من تبعه من المؤمنين الذين ينتظرون الشهادة والموت.

[سبب نزول الآية]

وفي سبب نزول هذه الآية الكريمة يقول علي بن أبي طالب عليه السلام في وصيته لابنه الحسن بعد أن ضربه اللعين ابن ملجم لعنه الله ما لفظه: (اللهم إنك شهيد وكفى بك شهيدا بأني بايعت رسولك، وحجتك في أرضك محمدا صلى الله عليه وآله وسلم وثلاثة من أهل بيتي على أن لا ندع لله أمرا إلا أمرنا به، ولا ندع له نهيا إلا رفضناه، ولا وليا إلا أجبناه، ولا عدوا إلا عاديناه، ولا نولي ظهورنا عدوا، ولا نمل من فريضة، ولا نزداد لله ولرسوله إلا نصيحة، فقتل أصحابي رحمة الله عليهم ورضوانه، وكلهم من أهل بيتي عبيدة بن الحارث رحمة الله عليه قتل يوم بدر شهيدا، وعمي حمزة قتل يوم أحد شهيدا رحمة الله عليه، وأخي جعفر قتل يوم مؤتة شهيدا رحمة الله عليه فأنزل الله فيّ وفي أصحابي من المؤمنين ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [أنا والله المنتظر وما بدلت تبديلا]. اهـ

[قال خباب بن الأرت: هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ابتغاء مرضاة الله، فمنا من مضى لسبيله لم تنقصه الدنيا، ولم تأكل من حسناته شيئا، منهم: مصعب بن عمير قتل يوم أحد فالتمسنا له كفنا يسعه فلم نجد له ثوبا إلا نمرة[1] كانت إذا غطينا بها قدميه بدا رأسه، وإذا غطينا بها رأسه بدا قدماه، قلنا: يا رسول الله كيف نصنع به؟ قال: غطوا رأسه، وافعلوا على قدميه شيئا من الإذخر، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين وصف مصعب بين يديه فرأى

(١) النمرة: ضرب من أكسية العرب. (انظر أساس البلاغة للزمخشري ٤٧٣).

النبي ﷺ ما به من شدة الجهد والعراء، وعليه أطمار بالية فقال: عجبت للدنيا وتقلبها بأهلها ثم تغرغرت عينا رسول الله ﷺ، وقال: لقد رأيت هذا أجمل من في قريش، وأنظره بين أترابه، فأخرجه من ذلك حب الله ورسوله][1]. اهـ

من دعائم الإيمان لمحمد بن القاسم عليه السلام: والنحب: الموت، قال الشاعر:

وكانت ركابي كلما شئت تنتحي إليك فتقضيى نحبها وهي ضمر

وقال آخر:

قضى نحبه في قسطل الخيل ثابت وصدت غزاة الجيش إذ عظم الكرب

أي: بلغ أجله، وذهاب نفسه، وقيل: معناه قضى نذره، وذهب عمره، والنحب في الأصل: هو النذر، وهو عبارة هنا عن موته شهيدا لما كان كل حيوان لا بد له من الموت كان كنذر لازم.

ومعنى قوله سبحانه ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: ما بدلوا العهد ولا غَيَّرُوا، لا من قتل، ولا من انتظر، وفيه تعريض بمن بدل من أهل النفاق، أي: وما بدلوا تبديلا كثيرا كما فعل أولئك.

ثم وعد بفضله الجزاء فقال: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ يعني الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه مما ذكرنا، ومعنى قوله ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: بصدق ما وعدهم في الدنيا والآخرة كما صدقوا مواعيدهم ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾ في الدنيا والآخرة إذا أصروا على نفاقهم ولم يتوبوا ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إذا تابوا، وهذا تعليل لوفاء الصادقين وتبديل المنافقين، وكان المنافقون نووا عاقبة السوء بتبديلهم، كما قصد الوافون عاقبة الصدق، إذكلا الفريقين مسوف إلى عاقبته، فكأنهما سواء في تحصيلهما؛ لأن العذاب فرع التبديل، كما أن الثواب فرع الوفاء.

---

(١) ما بين قوسي الزيادة غير موجود في النسخة أ.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ لمن تاب حيث رحمهم، ورزقهم الإيمان، وستر عنهم كبائر العصيان.

ثم بين بعض ما جزاهم الله به على صدقهم فقال تعالى ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هم الأحزاب ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ أي: مغتاضين لم يشفوا غيظا و أي: ما هو عندهم خير، وهو الظفر بالمؤمنين ﴿لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ﴾ بالريح والملائكة.

وقال الهادي عليه السلام: بأخيه ووصيه علي بن أبي طالب عليه السلام أفضل المستشهدين، فقتل عمرو بن عبد ود، وكان عماد المشركين، وفارس المتحزبين، فانهزم لقتله جميع الكافرين، وفل الله حد المبطلين، ومثل هذا في البرهان . ثم قال فيه: وروينا عن آبائنا عليهم السلام عن زيد بن علي عليه السلام أنه قرأ ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ﴾ بعلي[1] اهـ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ على استئصال الكفار وإذلالهم ﴿عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ غالبا قد نصر المؤمنين بقوته وعزته ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ أي: عاونوا الأحزاب ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بني قريظة من اليهود، ظاهروا أبا سفيان وجموعه، وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهد فنقضوه، فغزاهم بعد ستة عشر يوما.

قال المرتضى عليه السلام: هذه نزلت في اليهود لما حاربوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتظاهروا عليه، ومالؤا عدوه، فلما حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحاربهم أذلهم الله وأنزلهم كما قال تعالى: ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ وهو الإذلال لهم والإرغام والقهر غير طائعين، فكان إنزاله لهم من عزهم إرغاما، وإنما اشتقت الصياصي من النواصي لأنه إذا أخذ بناصية الإنسان فقد بلغ ذلَّه، وكذلك هؤلاء هدم عزهم، وأذل خدودهم بالقهر لهم، فأذهب [بذلك]

(١) انظر البرهان مخطوط، ولفظه (وكفى الله المؤمنين القتال) بأمير المؤمنين عليه السلام.

نخوتهم، وفرق أمرهم، وقد قيل: إن الصياصي الحصون التي أخرجوا منها، وكانوا فيها، وليس هذا بمخرجها، ولا يصح في اللغة، لأنه لو كان اسم الحصون صياصيا لجاز أن يقال في الحصن الواحد صيصيا، ولو قال ذلك قائلٌ لخرج من المعنى، فلما لم يجز ذلك صح أنها ليست الحصون، والمعنى الأول أصوب، وأحسن في التأويل، والدليل على أن الصياصي مشتقة من النواصي [أن] العرب تسمي قرون الأوعال والبقر صياصي، وقد قال بعض العرب: تسمى شوامخ الجبال صياصي لعلوها وامتناعها، قال الشاعر:

وهم ستة شمخ الصياصي ... كأنها مجللة حوٌّ عليها البراقع

اهـ وقال آخر:

وأصبحت النسوان عقرا وأصبحت ... نساء تميم يبتدرن الصياصيا

وفي التجريد: الصيصية كلما تُحُصِّنَ به كقرن الثور، وقرن الضبي، وشوكة الديك الذي في ساقه[1].

روي ـ والله أعلم ـ أن جبريل عليه السلام أتى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على فرسه حيزوم ليلة انهزام الأحزاب، والغبار على وجه الفرس من متابعة قريش، وقال: إن الملائكة لم تضع السلاح، إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة، وأنا عامد إليهم، فإن الله داقُّهم دقَّ البيض على الصفا، فخرج صلى الله عليه وآله وسلم فحاصرهم خمسا وعشرين ليلة، وأبوا النزول إلا على حكم سعد بن معاذ، فحكم سعد بقتل مقاتلتهم، وسبي نسائهم وذراريهم، وفُقِّهَ لإصابة الحق، ثم استنزلهم فضرب أعناقهم[2].

---

(١) قال في البرهان: وقوله: ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: من حصونهم، شعرا:
وأصبحت النسوان عقرا وأصبحت ... نساء تميم يبتدرن الصياصيا
وسميت بذلك لامتناعهم بها، واحدها صيصية.

(٢) ومثله في الكشاف ٣/٢٣٣، مع اختلاف يسير، قال ابن حجر في تخريجه ص ١٣٣: في سيرة ابن إسحاق في غزوة بني قريظة، عن ابن إسحاق، إلا القدر الأخير.

وقال في البرهان: حتى نزلوا على حكم رسول الله ﷺ الذي نزل به جبريل عليه السلام بقتل مقاتلتهم، وسبي ذراريهم، وعلى أن عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، وأرسل بهذا الحكم سعد بن معاذ، ولم يكن لسعد فيهم حكم(١). اهـ

ثم قال عزوجل ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ﴾ أي: ألقى فيها ﴿ٱلرُّعْبَ﴾ حتى سلموا للقتل، وأولادهم ونساءهم للسبي.

﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ هم الرجال البالغون ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾ وهم الصبيان والنسوان.

قال في البرهان: عرضوا على رسول الله ﷺ فأمر بقتل كل من احتلم، أو أنبتت عانته، فقُتِلَ منهم أربع مائة وخمسون رجلا اهـ.

ثم قال تعالى ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ فجعلكم خالفين لهم في ذلك، كما يخلف الوارث الموروث، روي أنه ﷺ جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، لأنهم في منازلهم فقال عمر: أما تخمس كما خمست في بدر؟ فقال: إنما جعلت لي هذه طعمة دون الناس، فقال عمر: رضينا بما صنع الله تعالى(٢).

---

(١) ولفظ البرهان: وروينا أن جبريل عليه السلام نزل وهو في بيت زينب بنت جحش يغسل رأسه، فقال: عفا الله عنك ما وضعت الملائكة سلاحها منذ اربعين ليلة، فانهد إلى بني قريظة، فإني قد قطعت أوتارهم [أو أدبارهم] وفتحت أبوابهم، وهم في زلزال وبلبال، فسار إليهم رسول الله ﷺ فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة حتى نزلوا على حكم رسول الله ﷺ الذي نزل به جبريل عليه السلام في أن يقتل مقاتلتهم، ويسبي ذراريهم، وعلى أن عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، فأرسل بهذا الحكم سعد بن معاذ، ولم يكن لسعد فيهم حكم، فقال قوم لرسول الله ﷺ لم آثرت المهاجرين بالعقار ؟ وكان القائل من الأنصار فقال: إن المهاجرينَ لقوم لاعقار لهم، وأنتم ذوو العقار.

(٢) ومثله في الكشاف ٣/ ٢٣٣، قال ابن حجر في الكافي الشافي ١٣٣: الواقدي من رواية حارثة بن زيد، عن أم العلاء، قالت: لما غنم رسول الله ﷺ بني النضير. الحديث، =

قال في البرهان: أراد بالأرض المزارع والنخل، وبالديار: المنازل، وبالأموال: المنقولة والماشية اهـ.

ثم قال ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ قيل: فارس والروم، قاله الحسن، وقيل: مكة، قاله قتادة، وقيل: كل أرض تفتح إلى يوم القيامة، قاله عكرمة، وقيل: خيبر، قاله ابن زيد وابن اسحاق ومقاتل.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ من نصر أوليائه، وخذلان أعدائه، فهو قادر على الوفاء بما وعدكم كما قدر على نصركم، ويحتمل أن يقال: هذا يؤكد قول من قال: إن المراد من قوله: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ هو ما سيؤخذ بعد بني قريظة، ووجهه: هو أن الله تعالى لما ملكهم تلك البلاد، ووعدهم بغيرها دفع استبعاد من لا يكون قوي الاتكال على الله تعالى، وقال: أليس الله ملكهم هذه، فهو على كل شئ قدير يملككم غيرها.

واعلم أن الله عزوجل خير نبيه بين ملك الدنيا ونعيم الآخرة، فاختار الآخرة على الدنيا، ثم أمره الله بتخيير نسائه ليكن على مثل حاله فقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾[1].

قال في التجريد: ذكر أهل التفسير أن أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم سألنه شيئا من

= ومن طريق المسور بن رفاعة قال: قال عمر: يا رسول الله: ألا تخمس ما أصبت في النضير ؟.

(١) في النسخة أ زيادة ـ وقد ورد بعضها أثناء التفسير للآية ـ قبل قوله (قال في التجريد): [والأجر العظيم: الكثير في اللذات، الحسن في الصفات، الباقي في الأوقات، والسبب في نزول الآية أنهن أردن شيئا من ثياب وزينة، فغم ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت، فخيرهن فاخترنه].

عرض الدنيا، وطلبن منه زيادة في النفقة، وآذينه بغيرة بعضهن على بعض، فآلى رسول الله ﷺ منهن شهرا، وصعد إلى غرفة، فمكث منهن تسعا وعشرين ليلة فنزلت هذه الآية، فنزل رسول الله ﷺ وعرض عليهن، وبدأ بعائشة، وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله، والدار الآخرة، ثم دعاهن فخيرهن، فاخترن الله ورسوله، فشكر الله لهن ذلك، وقصره عليهن، قيل: لماّ أحسنَّ الاختيار أحسنَ الله إليهن، فقال ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ (الأحزاب ٥٢) الآية[١]ولم يبح له بعد ذلك التزويج عليهن، وكن تسعا، عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وزينب بنت جحش، وصفية بنت حيي، وميمونة، وجويرية.

[وقال في البرهان: إن الله خير نبيئه بين ملك الدنيا ونعيم الآخرة فاختار الآخرة على الدنيا، ثم أمره الله بتخيير نسائه ليكن على مثل حاله فمنهن من اختارت الدنيا ومنهن من اختارت رسول الله ﷺ . اهـ][٢]

ومعنى ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ أي: أقبلن باختياركن لأحد هذين الأمرين، ولم يرد نهوضهن إليه بأنفسهن، كما تقول: أقبل يخاصمني، وذهب يكلمني، وقام يتهددني، وأصل تعال: الأمر من المستعلي في المكان لمن هو منخفض عنه بالارتفاع، ثم كثر حتى عم استعماله في الأمكنة بمعنى أقبل، وقوله: ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أي: أعطيكن متعة الطلاق، وهي واجبة على المذهب في من لم تدخل، ولم يسم لها، ومستحبة في غيرها، وقيل: واجبة في الكل، وهي كسوة مثلها من مثله، والصحيح أن المراد بالمتعة هنا المهر، ونفقة العدة، والله أعلم.

ومعنى قوله: ﴿سَرَاحًا﴾ السراح لهن: هو المضي والتخلية والترك لهن يمضين في شأنهن، ومعنى قوله: ﴿جَمِيلًا﴾ أي: حسنا لا يكون بعده أذى

---

(١) في النسخة أ [وقيل: أبيح له بعد ذلك التزويج عليهم] .. الخ

(٢) ما بين القوسين زيادة في النسخة أ، ساقط من النسخة ب.

ولا عقوبة في دار الدنيا، وقيل: طلاق السنة، والآجر العظيم: الكبير في الذات، الحسن في الصفات، الباقي في الأوقات.

واعلم أنه لما خيرهن النبي صلى الله عليه وآله وسلم واخترن الله ورسوله أدبهن الله وهددهن للتوقي عما يسوء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويقبح بهن من الفاحشة التي هي أصعب على الزوج من كل ما تأتي [به] زوجته، وأوعدهن بتضعيف العذاب فقال ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ﴾ تعالى هي السيئة البليغة في القبح، والمراد: كلما اقترفن من الكبائر، وقيل: عصيانهن له صلى الله عليه وآله وسلم ونشوزهن، وطلبهن كل ما يشق عليه، وقيل: هي الزنا.

ومعنى ﴿مُّبَيِّنَةٖ﴾ ظاهرة الفحش، أي: كبيرة، من بَيَّنَ بمعنى تبين، ومنه قولهم: بين الصبح لذي عينين، أي: تبين، وهذا على قراءة كسر الياء، وأما فتحها فظاهر.

ومعنى ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ أي: يجعل عذابها في الآخرة مثل عذاب من فعل تلك الفاحشة من غيرهن، وكذلك ثوابهن مضاعف؛ لأن زيادة قبح المعصية يتبع زيادة الفضل في العاصي، وزيادة النعمة عليه، وهن أعظم النساء فضلا ونعمة بالنبي صلى الله عليه وآله فيجب عليهن أعظم الشكر الواجب على النساء، قالوا: وذلك لعلمهن، ونزول الوحي في بيوتهن، واختصاصهن برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والعالم يكون عقابه أعظم، وثوابه أعظم، وكذلك من زادت نعمة الله عليه فلم يشكرها، كما أن الولد يعظم ذنبه لوالديه ما لا يكون لغيرهما من المسلمين، ومعنى: ﴿ضِعۡفَيۡنِ﴾ أي: نصيبين، وقسمين، والمضاعفة هي الزيادة على الشيء مثله، أو مثليه.

قال في البرهان: والضعفان: أن يجعل الواحد ثلاثة، وتكون الثلاثة حدودا؛ لأن ضعف الواحد اثنان، وضعفاه: ثلاثة اهـ.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: مضاعفة الثواب والعقاب ﴿عَلَى

﴿ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝٣٠﴾ أي: هينا، وفيه إعلام بأن كونهن نساء النبي ﷺ لا يغني عنهن شيئا، أي: ليس كونكن تحت النبي ﷺ، وكونكن بشرفه شريفات جليلات مما يدفع العذاب عنكن، كيف وذلك سبب مضاعفة العذاب.

ثم بين تعالى زيادة ثوابهن كما بين زيادة عقابهن، فقال: ﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: تطع الله ورسوله، أو من تدع الله بالمغفرة، وإلى رسوله بالشفاعة ﴿وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ فيما بينها وبين خالقها ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ كما كان قال: ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أي: عطائين وأجرين، عطاء بعملها، وعطاء بشفاعة رسول الله ﷺ، وإنما ضوعف لهن لطلبهن رضاء رسول الله ﷺ بالقنوع، وحسن المعاشرة، ولتوفرهن على عبادة الله تعالى.

ومعنى قوله ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ ي: هيأنا ﴿لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝٣١﴾ أكرم الأرزاق وأحسنها، يعني في الجنة.

ولما ذكر أن عذابهن ضعف عذاب غيرهن، وأجرهن مثلي أجر غيرهن، صرن كالحرائر بالنسبة إلى الإماء، فقال تعالى ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أحد في الأصل وحد أي: واحد] وأحد إذا استعمل في النفي استوى فيه المذكر والمؤنث، والواحد وما وراءه . وقوله: ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: كجماعة واحدة من جماعة النساء، إذا تقصيت جماعة النساء جماعة جماعة لم توجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل والسابقة[1]، المعنى: لستن كأحد من نساء الأمة، يزيد في عظم الحرمة

---

(١) ومثله في الكشاف، وما بين القوسين من الكشاف ؛ لأنه لم يكن المعنى واضحا في نسخة التفسير.

ومعنى الكلام هنا: هو تفضيل الجماعة من نساء النبي ﷺ على الجماعة من بقية النساء، لا الواحدة منهن على الواحدة من سائر النساء، وما قاله أحمد في الإنتصاف على الكشاف، وأنه يمكن حمل المعنى على تفضيل الواحدة على الواحدة من سائر النساء أجاب عليه السيد العلوي رحمه الله تعالى بأن أحد هنا للجنس، فيجب حمل أحد في هذا السياق على الجماعة، كما في قوله: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧﴾ ولو حمل =

التي للرسول ﷺ من حفظ الدين والصيانة، وترك الشفاعة، لأنه يجب عليهن أن يحفظن حقه بعد وفاته؛ لأن الله لا يرضى من حرم نبيه بالخيانة بأنفسهن، والخروج من منازلهن، وغير ذلك من حالهن، وإذا كان الأزواج لسن كأحد من النساء بحرمة الوطء لهن، فالبنات أوكد حرمة، وأقرب إلى النبي قرابة، وأرفع منزلة، وأعلى درجة.

ثم قال واعظا لهن، ورحيما لطيفا سبحانه بهن: ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ يحتمل وجهين، أحدهما: أن يكون متعلقا بما قبله، على معنى: لستن كالآحاد إن اتقيتن فإن الأكرم عند الله هو الأتقى . وثانيهما: أن يكون متعلقا بما بعده، على: إن اتقيتن فلا تخضعن، والله تعالى لما منعهن من الفاحشة، وهي الفعل القبيح، منعهن من مقدماتها وهي المحادثة في جواب الرجال، أي: لا تكلمن بالرفث والخضوع، والمهازلة والانبساط والملاعبة؛ لأن ذلك يدلي إلى الفاحشة، ويوقع في المأثم والخطيئة.

﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي: شك ونفاق، وهم أهل الريبة والفجور، والله تعالى لما قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ ذكر بعده ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾

قال الحسين بن القاسم عليه السلام : هو الحدُّ الذي لا لعب فيه ولا هذر ولا هذيان، ولا هتر.

وفي تفسير هذه الآية يقول الهادي عليه السلام: هذا تأديب من الله سبحانه لنساء نبيئه، كرامة لمحمد ﷺ وحياطة من الله له في حرمه، وأمرهن أن لا

= أحد على الواحد لزم التفضيل بحسب الوحدان، ويرجع المعنى إلى تفضيل كلهن على واحد واحد من النساء، ولا ارتياب في بطلانه، أما تأويله بليست واحدة منكن فخلاف الظاهر، وأما قوله: لزم تفضيل الجماعة على الجماعة، ولايلزم ذلك في عكسه، فجوابه أن تفضيل كل واحدة واحدة منهم يعلم من دليل آخر، لامن هذه الآية ..(انظر الكشاف ٣/٥٣٦، وحاشية العلوي خ ١٦٦).

يخضعن بالقول، والخضوع: فهو الكلام اللين الذي يقع فيه المزاح والملاعبة بين النساء الرجال، فأمرهن أن لا يفعلن ذلك كما يفعله غيرهن، ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [يقول: يطمع] فيكن، بما يطمع به [الفاسق] في غيركن من المنكر، والمرض فهو الفسق، والقول المعروف الذي أمرن به: فهو القول الحسن لمن خاطبهن، أو كلمهن، ليس فيه خضوع يطمع به الفاسق، ولا سبب يطمعن به المنافق[١] اهـ.

ثم قال تعالى ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ يقرأ بفتح القاف وكسرها، فمن فتح أراد قرن في بيوتكن من القرار، ومن كسر أراد: كن أهل وقار وسكينة، وأصله: أقررن، حذفت الراء الأولى، وألقيت فتحتها على القاف، فحذفت الهمزة للاستغناء، وهو أمر لهن بالوقار، والقرار جميعا[٢].

ثم قال تعالى ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ التبرج في اللغة: هو البدو والظهور، وهو أن تبدي المرأة من محاسنها مما يستدعى به الرجال، قال الشاعر:

وتبرجت لتروعنا فوجدت نفسي لا تَرُع

أي: ظهرت وبدت ولم تستتر في منزلها.

فالمعنى: لا تظهرن للرجال، ولا تبدين لهم من محاسنكن ما أوجب الله سترها عليكن.

والمراد بقوله: ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ما بين آدم وبين نوح على جميع أنبياء الله [الصلاة والسلام] ففي تلك الفترات، كانت الرجال والنساء يختلطن في الطرقات، وسائر متصرفاتهم من غير أن يكون للمرأة ساتر يسترها عن الرجال . ذكره في البرهان[٣] . وقيل: ذلك زمن إبراهيم عليه السلام،

(١) مجموع تفسير الأئمة مخطوط ٤٢٧ ـ ٤٢٨.
(٢) ومثله في البرهان. خ ٣١٠.
(٣) انظر البرهان خ ٣١٠.

كانت المرأة تلبس قميص اللؤلؤ، فتمر وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال، وقيل: زمن داود عليه السلام، والجاهلية الأخرى ما بين عيسى عليه السلام، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم.

قال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام: وأنا أقول: إن التبرج بالزينة أقل مما فعلت عائشة من الفتنة الجليلة، والشناعة الكبيرة، وذهاب أرواح المسلمين، وسفك دمائهم، وقد زعمت العامة أنها تابت واعتذرت بالقضاء والقدر، وهذا بحمد الله أفل لعذرها، وأكمل لكفرها إن صح ذلك عنها؛ لأن الله لا يقضي بالكفر والفجور، ولا يرضى بالشنع والقبائح من الأمور، ولعلها لم تقل بالجبر، وما أحسب أن هذا إلا من حجج العامة على تجوير الله في حكمه، وتشبيه الخالق بخلقه اهـ.

ثم قال تعالى ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قيل: إنما أمرهن بالصلاة والزكاة؛ لأنهما أصل سائر الطاعات، ومن اعتنى بهما حق الاعتناء جرتاه إلى ما ورائهما، ثم جاء بالأمر عاما في جميع الطاعات فقال عز وجل ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ يعني ليس التكليف في النهي حتى يحصل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَخْضَعْنَ﴾ ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ بل فيه، وفي الأوامر، ومعناه ليس منحصرا في المذكور بل كل ما أمر الله به فأتين به، وكل ما نهى الله عنه فانتهين عنه

ولما نهاهن وأمرهن أراد سبحانه التعريض بهن أنهن غير معصومات بقوله عز وجل ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

[قال في البلغة: لما بين الله حال أزواج بما تقدم ذكره، وميزهن من نساء المؤمنين بأحكام مخصوصة ـ رجع بالخطاب الى أهل بيت رسول الله عليه و عليهم السلام بقوله: وجل ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ توفيرا لحظهم في المنزلة، وبيانا للخلق ما هم عليه

من الصفة، ومعنى ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ ليحكم بأنكم طاهرون من كل عيب ورجس تدنس به غيركم، كما يقال: زكى فلان فلانا إذا وصفه بالعدالة والطهارة؛ لا أنه كان فيهم عيب ودنس فأذهب الله ذلك عنهم][(١)].

قال الزجاج: الرجس: كل مستقذر من مأكول وعمل فاحشة، والرجس: الإثم، شبه بالنجس استعارة، واستعار للتقوى التطهير من نجس الإثم، كما تطهر النجاسة بالماء.

[سبب النزول في هذه الآية]

قال أئمتنا عليهم السلام وشيعتهم: وهذه الآية نزلت في رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين علي عليه السلام، وسيدة نساء العالمين فاطمة ابنة رسول الله ﷺ والحسن، والحسين صلوات الله عليهم أجمعين، وهم في بيت أم سلمة رضي الله عنها، ورسول الله ﷺ معهم على منامة في البيت، وقد كان جللهم كساء خيبريا[(٢)].

فخالف أهل البيت عليهم السلام من خالف فزعم أن هذه الآية في زوجات النبي ﷺ، فإن قيل: ما أنكرتم أن يراد بها أزواج النبي ﷺ، أو أنهن من

(١) ما بين القوسين ساقط من النسخة أ، وثابت في النسخة ب.

(٢) وفي نسخة أخرى من المصابيح بعد قوله: (خيبريا) (في البيبت، وقد فسر هذه الآية وأوضح معناها رسول الله ﷺ من ذلك ما رويناه عن الإمام المرشد بالله عليه السلام قال: أخبرنا أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أحمد الذكواني، قال: أخبرنا أبو محمد الحسين بن إسحاق بن زيد المعدل، قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن ماهان، قال: حدثنا عمر بن عبد الرحيم، قال: حدثنا الحماني، قال قيس بن الربيع عن الأعمش، وعن عبادة عن ابن عباس، عن النبي ﷺ في قوله الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾: (فأنا وأهل بيتي مطهرون من الذنوب) اهـ.

وأما الجاهل لفضلهم، أو المتجاهل لحقهم المتنكب عن سبيلهم فزعم أن هذه الآية في زوجات النبي ﷺ .. الخ.

أهل البيت، مع أن هذا ظاهر قول صاحب الكشاف، والحاكم في التهذيب، وغيرهما؟ قالوا: بدليل أن أول الآية، وما بعدها فيهن، قال الله في أولها: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ وقال تعالى في آخرها: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ وهذا يقتضي بأنها واردة فيهن، ولهذا قال الزمخشري في كشافه: وفي هذا دليل بين على أن نساء النبي من أهل بيته؟.

فالجواب[١]. وبالله التوفيق ـ إن ذلك ليس بحجة؛ لأن الذين قالوا بذلك لم يرجعوا إلى رواية تقوم بها الحجة، [وعلى الجملة إن ذلك هو قول مخالفنا، فلا يحتج به علينا، وأيضا هذا منهم][٢] ادعاء لهن بما لم تدع ذلك واحدة منهن، بل قالت أم سلمة رضي الله عنها في خبر الكساء، وقد جاءت لتدخل رأسها معهم: وأنا معكم يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (لست منا، وإنك على خير) وفي خبر: وإنك لمع جيرانك إلى خير[٣]، فسميت أم سلمة الخير، روى هذا عنها جماعة من طرق كثيرة[٤].

---

(١) واللفظ في النسخة ب (فالجواب ـ والله الموفق: أن قول من قال بذلك ليس بحجة ..)

(٢) ما بين أقواس الزيادة ساقط في النسخة ب.

(٣) ما أثبتناه هو اللفظ في النسخة أ، وفي النسخة ب (وإنك لم خير، وإنك إلى خير، فسميت .. الخ.

(٤) . قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ الآيه

أعترض على الإستدلال بها وجهيين :-

أحدهما : أن المنصوص عليه في الآية إرادة الإذهاب لا الإذهاب بنفسه ولايلزم من وقوع الإرادة وقوع المراد لإن الله تعالى قد يريد شيئاً ولايقع كما يريد الطاعات من العصاة ولاتقع

الثاني : أن الآية واقعةٌ في سياق ذكر الزوجات فالمقام يقتضي أن المراد بها هنا الزوجات.

والجواب عن الأول : أن نقول:- قولك لايلزم من وقوع الإرادة وقوع المراد مُسَلَّمٌ إذا تعلقت إرادة الله بأفعال المخلوقين لإنه تعالى أرادها منهم باختيارهم ولم يردها منهم مطلقاً ،وأما ما أراده الله من أفعاله فهو واقع لامحالة عند الإرادة. =

. . . .

= فإن قلت :- من أين علمت أنَّ إذهاب الرجس هذا أو التطهير فعله تعالى.
قلت :- من قوله تعالى ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾، ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾فأسند الفعلين إلى نفسه تعالى فهما فعله قطعاً.
فإن قلت :- يحتمل التجوز في الإسناد.
قلت :- حلاف الظاهر والعدول عن الظاهر بلاقرينه تحريف وتبديل.
فإن قلت: إذا كانفعله لظاهر الإسناد وقد أرادها بصريح الآية فلم قلت قد وقعا قطعاً؟
قلت: لأنه تعالى إذا أراد شيئا من أفعاله ولم يقع كان عجزاً أو بدأ وهما محالان على الله تعالى، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾، وأيضا هو نظير قوله تعالى﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ ، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ فكل هذه قد أرادها وهي واقعة لأنها فعله بخلاف ما أراده ، وهو موقوف على إختيار العباد مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ فقد أراد الله التوبة عليهم ولايلزم وقوعها لتوقفها على إختيارهم (وهو فعل التوبة منهم).
فإن قلت: إذا كان إذهاب الرجس والتطهير فعله لزم إرتفاع التكليف.
قلت: ليس فعله عين فعل الواجبات، وعين ترك المحرمات حتى يلزم ماذكرت بل معنى الآية العصمة في حق الأنبياء كذلك هنا [أي تطهير أهل البيت].
فإن قلت: لم ذكر الإرادة دون الإذهاب؟
قلت: ليدل [على] أن إذهاب الرجس واقع على أكمل الوجوه، وأتمّها من حيث أنه حصر إرادته لهم في إذهاب الرجس والتطهير ونزّل سائر المرادات من جميع النعم والمصالح منزلة غير المراد مع عظمها وجلالتها وظهورها لأن إذهاب الرجس هو أكبر النعم من حيث تعلقها بالدين بخلاف غيرها من النعم.
فإن قلت: فعلام دلت الآية؟
قلت: على العصمة من وجوه:
الوجه الأول: أنه قصر الإرادة على الإذهاب للرجس
الوجه الثاني:أنه أثبت إذهاب الرجس أولاً ومن لازمه ثبوت التطهير ولم يكتف به حت صرح بإثبات التطهير.
الوجه الثالث:أنه لم يكتف بإثبات التطهير حتى أكده بقوله ﴿تَطْهِيرًا﴾.
الوجه الرابع: أنه أتى باللام في قوله: ﴿لِيُذْهِبَ﴾ المؤكدة لإرادة الإذهاب وأصله: إنما يريد الله ليذهب فزيدت اللام لتأكيدتعلق الإرادة بالإذهاب كما زيدت لتأكيد الإضافة في قولهم: (لا أبا لك) =

. . . .

= الوجه الخامس: أنه قرنهم في الحكم بالنبي ﷺ المعصوم قطعاً ولم يثبت لهم وحدهم إشارة إلى أن حكمهم حكمه ﷺ.

الوجه السادس: أنه قرن الحكم عليهم بالتطهير بالنداء الذي يشعر بكون المنادى في أعلا مراتب التعظيم

فإن قلت: إن ظاهر الآية إذهاب الرجس الذي هو النجاسات الحقيقية والتطهير منها.

قلت: لوحمل عليه وهو هنا مختلف قطعاً فيلزم أن يكون كذباً وهو محال على الله تعالى، فوجب أن يحمل على الأرجاس المجازية التي هي رجس المعاصي.

فإن قلت: من أين تعلم إذهاب كل رجس حتى يثبت العصمة؟

قلت: من الصيغة لأنها من صيغ العموم أعني لفظ (الرجس) لأنه إسم جنس معرف باللام وهو من صيغ العموم كما حقق في الأصول وهي متعلق الإذهاب لفظا ومتعلق التطهير تقديراً على أنه قد ذكر إمام أهل اللغة (أحمد بن يحي بن فارس) في كتابه مجمل اللغةمالفظه: (وقال في القاموس: التطهير عن الإثم فيعم إذهاب كل المعاصي عنهم وصغائرها وكبائرها الخطأ منها والنسيان، سواء تعلقت بالأفعال أو بالأقوال أو بالإعتقاد، فيكون كل ماقالوه حقاً

؟وكذاما اعتقدوه أو فعلوه وكل حق يجب إتباعه،وهو معنى حجية القول ومعنياالعصمة أيضا.

وأما الجواب عن الثاني فنقول:إعلم أن لفظ البيت له معنيان: أحدهما البيت السكنى، والثاني بيت النسب، وإذا أضيف إليه [لفظ] أهل صار مجملاًيحتاجإلى البيان إن كان مشتركا، وإن كان حقيقة في بيت السكنى مجازاً في بيت النسب، حمل على المعنى الحقيقي إلابصارفة تصرفه عنه إلى المجاز، وهذا الأحاديث المتواترة القطعية تصلح معينا للمراد على الأول وصارفا إلى المعنى المجازي عل الثاني.

فإن قيل: تعارض الأخبار دلالة السياق على المراد.

قلت: دلالة السياق ظنية ودلالة الإخبار قطعية والظن يضمحل عند القطع، على أن الآية كلام مستقل مفيد لايحتاج إلى ماقبله ولا إلى مابعده.

فإن قيل: يؤدي إلى أن لايتلائم طرفا الكلام وهي خلاف البلاغة التي هي وجه إعجاز القرآن.

قلت: غير مسلم بل الملائمة حاصلة ووجهها أن التعلق برسول الله ﷺ ثابت لأهل بيته وزوجاته، وأيضا قد أمرهن بأوامر قبل الآية وبعدها، فحثهم على القيام بتلك الأوامر، بأن ذكر أهل البيت المطهرين ليحرصن على القيام بما أمرن به لأن أهل البيت المذكورين لم يستحقوا التطهيروإذهاب الرجس إلا لقيامهم بما أمروا به، وهذا وجهان =

. . . .

= ظاهران لمن له أدنى معرفة بدقائق في علم المعاني على أنه لوكان فيه شيء من التنافر ما وردتبه الأخبار متواترة.

فإن قلت: تحمل الآية على أن المراد بها أهل بيت النسب بدلالة الإخبار وأهل البيت السكنى لقرينة المقام، وأيضا هو مشترك يحمل على معنييه مطلقا فكيف مع قرينة إرادة الجميع؟

قلت وبالله التوفيق: لايورد هذا السؤال إلا ذو غفلة أو من أعمى التعصب والتقليد قلبه وعقله، كيف وقد دل الحديث على تخصيص علي وفاطمة والحسن والحسين،وأخرج غيرهم من الموجودين في ذلك الوقت من وجوه:

الأول: أنه دعاهم دون غيرهم، ولوشاركهم غيرهم في كونه من أهل البيت عليهم السلام لدعاه.

الثاني: إشتماله عليهم بالكساء دون غيرهم ليكون بياناً بالفعل مع القول.

الثالث: أنه قال اللهم إن هؤلاء أهل بيتي مؤكداً للحكم بأنّ.

الرابع: تعريف المسند إليه بإسم الإشارة الذي يفيد تمييزه أكمل تمييز كما يعرفه علماء المعاني.

الخامس: أنه أتى بالجملة مكررة للتأكيد ليرفع توهم دخول الغير كما هو شأن التأكيد اللفظي عند أهل اللغة.

السادس: دفعه لأم سلمة رضي الله عنها، بأن قال لها مكانك أنت إلى خير وفي بعض الأخبار: (لست من أهل البيت أنت من أزواج النبي ﷺ) والرواية التي عند أبي ليلى الكندي عن أم سلمة أنه قالها ثلاثا.

وفي بعضها أنت ممن أنت منه دل بإخراجها على خروج جميع الزوجات، وأيضا علل إخراجها بأنها من الزوجات.

فإن قلت:إن في بعض الأخبار عن أم سلمة قالت : يا رسول الله ألست من أهل البيت ،قال بلى فأدخلي في الكساء فدخلت.

قلت الجواب عنه من وجوه ثلاثة :

الأول :- أن رويات دفعها أكثر وأصح فكانت أوليوأرجح.

الثاني :-أنه لم يشر إليها معهم بقوله هؤلاء أهل بيتي ولم يدعها وأيضاً قالت فدخلت بعدما قضا دعاه لإبن عمه وأبنيه وفاطمه فعرفت أن دخولها كان على جهة التبرك فقط.

الثالث :-انه ما أدخلها إلاعلى وجه الإيناس وتجنباً للإيحاش بدليل أنه ما أدخلها إلا بعد أن سألته ،ثم أن في الرويات الآخرة مثل رواية أبي الحمراء

وغيره أنه كان يأتي إلى باب علي وفاطمة ثمانية أشهر أو تسعة[عشر] أشهر ويتلو الآيه =

= ولم يكن في البيت أم سلمه ولاغيرها وهكذا ما قاله في حق واثله بن الأسقع فظهر أنه لم يرد إلا الإيناس.
السابع :- أنه لوأريد غيرهم في الآيه معهم لما دعاهم ومدهم ولما أشار إليهم وحدهم بل يكون ذلك الفعل والحكم بأنهم أهل البيت وحدهم وخيانة في التبليغ وحاشا رسول الله ﷺ عن ذلك فيقطع حينئذٍ مع هذه الوجوه بخروج غيرهم عن أن يكون من أهل البيت سواءً كن الزوجات أوسائر الأقارب كبني العم ونحوهم كما يقتضيه بيانه وإيضاحه ﷺ للمقصود من الآيه.
فإن قلت :- يُعْلَمُ مما ذكرت أن أهل البيت هم الأربعه فقط فلا يكون ذريتهم من أهل البيت
كما ذكرت أنه يقتضيه البيان.
قلت وبالله التوفيق :-إنما أراد بقصر الحكم على الأربعة وإخراج من عداهم من الموجودين في زمنه ﷺ من الزوجات والأقارب ولو وُجِدَ في ذلك الوقت أحدٌ من ذريتهم لأدخلهم لكن لم يوجد إلاَّ الأربعة وأيضاً أهل البيت يتناول الآتين بعده ﷺ كما يتناول الموجودين في زمنه ﷺ مثل ما أن لفظ الأمة يتناول الآتين من بعده ﷺ كما يتناول الموجودين في زمنه ﷺ.
ولنا على إدخال ذريتهم في جملة أهل البيت إيضاحاً لما تقدم أدلةٌ :-
الدليل الأول :قوله ﷺ ((المهدي منا أهل البيت يصلحه الله في ليله))
أخرجه إبن أبي شيبه وأحمد وإبن ماجه عن علي ،وأخرجه أبو داود أيضاً عن علي وقد نظر إلى الحسن إبنه وقال :إن هذا سيد كما سماه النبي ﷺ وسيخرج من صلبه رجل يسمى بإسم نبيكم يشهر في الخلق يملأ الأرض عدلاً. وأخرج الترمذي وصححه عن أبي هريره قال :قال رسول الله ﷺ :لولم يبقَ من الدنيا إلايوم لطول الله ذلك اليوم حتى يلي رجل من أهل البيت يواطي إسمه إسمي ، وأخرج أبو داود والحاكم وإبن ماجة والطبراني عن أم سلمة قالت :قال رسول الله ﷺ :- ((المهدي من عترتي من ولد فاطمة)) فدلت هذه الأخبار على أن اللاحقين يكونون من أهل البيت كالسابقين.
والأحاديث في المهدي وكونه من أهل البيت متواترة.
الدليل الثاني :- قول النبي ﷺ ((النجوم أمان لإهل الأرض فإذا ذهب أهل بيتي من الأرض ذهب أهل الأرض)) أخرجه أحمد بن حنبل عن علي عليه السلام وعمار،وأخرج معناه الطبراني والحاكم وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
فلوكان أهل البيت هم الأربعة فقط لكان قد ذهب أهل الأرض
الدليل الثالث :- قول النبي ﷺ ((إني تارك فيكم ....)) الحديث إلى قوله ((لن =

. . . .

= يفترقا حتى يردا عليّ الحوض))وهذا الحديث متواتر كما سيأتي ،فلو كانوا هم الأربعة فقط لكانوا بموتهم قد فارقوا الكتاب قطعاً يعني في الدنيا وقد أخبرنا بان مدة إجتماع الكتاب و أهل بيته في دار التكليف إلى آخر الدهر.

الدليل الرابع :- قول النبي ﷺ ((كل ولد أم فإن عصبتهم لأبيهم ماخلا ولد فاطمة فإني أنا أبوهم وعصبتهم)) أخرجه الطبراني والدار قطني وأبو نعيم في معرفة الصحابه وابن السمان وأبو صالح المؤذن في أربعينيته كلهم عن عمر بن الخطاب من طرق إليه وأخرجه أيضاً الطبراني وأبو يعلى والخطيب عن فاطمة الزهراء رضي الله عنها.

قال السماوي :في بعض طرقه ورجاله موثوقون إلاشريك ،وشريك إستشهد به البخاري وروى له مسلم في المتابعات وأخرجه اين عساكر إن جابرعن التبي ﷺ ((أن لكل أبٍ عصبة ينتمون إليها إلاولد فامة فأنا وليهم وعصبتهم وهم عترتي)).

قلت :- فبين فيه عترته بقوله ((وهم عترتي)) وإذاكانو أولاده وهو أبوهم وعصبتهم فهم عترته وأهل بينه.

الدليل الخامس :- قول النبي ﷺ لإمير المؤمنين علي عليه السلام ((أنت أخي وأبوولدي تقاتل على سنتي)) أخرجه أحمد وأبو يعلي عن حديث علي عليه السلام

وأخرجه أحمد أيضاً من حديث زيد بن حارثة وأخرجه الدار قطني بمعناه من حديث عامر بن واثلة وعاصر بن ضمره.

الدليل السادس :- قول النبي ﷺ وقد سئل أي أهل بيتك أحب إليك

قال ((الحسن والحسين)) وكان يقول لفاطمة ((إدعي لي ابنيَّ)) فيشمها ويضمها ، أخرجه الترمذي عن أنس ، وعن أسامة قال :قال رسول الله ﷺ للحسن والحسين ((هذان أبناي وأبناء ابنتي اللهم إني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما)) أخرجه الترمذي.

وقوله ﷺ مشيراً إلى الحسن ((إن ابني هذا سيد)) أخرجه أحمد بن حنبل والبخاري وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي والطبراني عن أبي بكرة وابن عساكر عن أبي سعيد والطبراني في الكبير والبيهقي والخطيب وابن عساكر والضياء المختاره عن جابر

وقوله ﷺ مشيراً إلى الحسين ((إن ابني هذا يقتل بأرض العراق)) أخرجه البغوي وابن السكن وابن مندى وابن عساكر عن أنس بن الحرث.

وقوله ﷺ ((إني سميت بني هؤلاء تسمية هرون بنيه شَبرَّ وشَبِير)) أحرجه أحمد والدار قطني في الأفراد والطبراني في الكبير والحاكم في المستدرك على الصحيحين والبيهقي وابنعساكر عن علي عليه السلام والطبراني في الكبير أيضاً والبغوي عن سلمان.

وقوله ﷺ وقد إرتحله حسن أوحسين وهو في إحدى صلوات العشاءبعد أن انكر الناس عليه طول السجدة وقالوا :ظننا أنه قد حدث إمر وأنه يوحى إليك. =

. . . .

= قال ((كل ذلك لم يكن ولكن إرتحلني إبني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته))
أخرجه النسائي عن عبد الله بن شداد ،وعن بريده قال :خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجاء الحسن والحسين يمشيان ويعثران فنزل عن المنبر فحملهما ووضعهما ثم قال ((صدق الله إنما اموالكم وأولادكم فتنة نظرت إلى يمشيان ويعثران فلم أصبر فلم أصبر حتى قطعت حديثي)) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذيي والنسائي
قلت :- فحكم عليهما في هذه الأحاديث أنهما إبناه وولداه وأنه هو أبوهما وعصبتهما فيكون أولاد أولادهما أولاده وعصبته وذريته.
فإن قلت :- إنما أراد أنما إبناه مجاز للعلم بأنهما أولاد إبنته.
قلت :- الأصل في الإطلاق الحقيقه فيكونان إبنيه حقيقة شرعية لغوية من آبائهم تبث لهما منه صلى الله عليه وآله وسلم.
الدليل السابع: قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم ((إن الله جعل ذرية كل في صلبه وجعل ذريتي في صلب علي)) أخرجه الإمام المرشد بالله عليه السلام عن جابر .واخرجه الطبراني في الكبير وابن عدي عنه واخرجه الخطيب والحاكم أبوالخير عن ابن عباس واخرجه صاحب كنوز المطالب عن العباس مرفوعاً بلفظ أنه لم يكن نبي إلا ذريته البافية من بعده في وإن ذريتي من بعدي في صلب هذا.
فإن قلت :- هذا يقضي بدخول أولاد علي من غير فاطمه.
قلت :- لإن قوله صلى الله عليه وآله وسلم ((في صلب علي)) يشعر بظرفية صلب علي لذريته ولابلزم أن لايو جد الظرف سوى المظروف كما يقول أولادي في الدار فيجوز أن يكون فيالدارغيرهم فهو مطلق لاعام وقد بين أن المظروف هم أولاد فاطمة كما تقدم وان سلم عمومه فمخصوص بما تقدم من فإن قلت :- فهل يدخل العلويون فى أهل البيت لظاهر حديث الكسا لشموله أمير المؤمنين علي عليه السلام كما شمل السبطين عليهما السلام.
قلت :لا لأن المراد بأهل البيت هم ذريته وعترته وليسوا إلا أولاد فاطمة دون غيرهم وأيضاً ذرية السبطين مقطوع بدخولهم بما تقدم وغيرهم
لا قطع بدخولهم فيكفي في إخراجهم أدنى دليل.
ولنا على إخراجهم أدلة :-
الدليل منها :- ما تقدم من حديث كل بني أنثى فعصبتهم لأبيهم فحُكم بأنهم أي العلوين لا ينسبون إليه بل إلى أميرالمؤمنين فقط.
فإن قلت :-إذا انتسبوهاإلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بواسطته كما نسب اولاد السبطين إليه صلى الله عليه وآله وسلم بواسطتهما.
قلت: ـ انتساب أمير المؤمنين الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انتساب الاخوة والأهلية فأولادهأولاد=

. . . .

= أخ ، وانتساب السبطين اليه ﷺ انتساب النبوه والاهليه والذريه والولديه كما بيناه فاولادهما اولاد اولاد ، وفرق بين اولاد الاخ والذرية.

الدليل الثاني :- ما جاءفي ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ انها لما نزلت قالوا :- يا رسول الله من قرابتك الذين امرنا الله بمودتهم ؟ قال :- "علي وفاطمه وولدهما " اخرجه أحمد بن حنبل والثعلبي في تفسيره عن ابن عبهس وسيأتي بطرقه مستوفي فلو كان غير اولاد فاطمه منهم في وجوب محبتهم وإتباعهم لما ذكرهم وحدهم في مقام البيان.

الدليل الثالث :- ما جاء في وصية أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه أوصى لأولاده من فاطمة وحضهم بشئ من الوصية وقال :"تكريماً لرسول الله ﷺ " فلو كان كل اولاده ذرية لرسول الله ﷺ لما كان لإختصاصهم بالذكر فائدة وسيأتي في كتاب الوقف من رواية أمالي الامام أحمد بن عيسى مسنداً.

الدليل الرابع :- قول النبي ﷺ :"أن فاطمه أحصنت فرجها فحرمها الله وذريتها على النار " اخرجه النسائي والطبرني في الكبير وابو يعلي وابن عدي في الكامل والحاكم في المستدرك على الصحيحين ، وابن عساكر عن ابن مسعود واخرجه تمام وابن عساكر عن زر بن حنيش مرسلاً وصححه الدار قطني عن زر مرسلاً واخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ " إن الله غير معذبك ولا ولدك " مخاطباً لفاطمة.

وأخرج الامام علي بن موسى الرضى في صحيفته عن آبائه عن علي عليه السلام قال : ـ قال رسول الله ﷺ "إن الله فطم فاطمه وولدها ومن أحبهم من النار فلذلك سميت فاطمه"

؟واخرجه الحافظ الدمشقي عن عتي علي عليه السلام قال رسول الله ﷺ :- "اتدرين لِمَا سميت فاطمه " قال علي (عليه السلام) يا رسول الله لما سميت فاطمه قال :- لأن الله فطمها وذريتها عن النار يوم القيامه.

؟وفي مناقب العلامه محمد بن سليمان الكوفي رحمه الله ثنا أحمد بن عبدان قال ثنا سهل بن سفير قال ثنا موسى بن عبدربه قال :- سمعت سهل بن سعد الساعدي يقول: سألت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله لما سميت فاطمه؟ قال: "لأن الله فطمها وذريتها عن النار".

واخرج ابو سعد والملا في سيرته عن عمران بن الحصين قال : ـ قال: رسول الله ﷺ: ـ "سألت ربي أن لا يدخل احداً من أهل بيتي النارفأعطاني ذلك "

قلت :وهذا معنى العصمه لأنهم لايحرمون على النار قطعاً الاّ وهم معصمون.

فإن قلت :كيف جعلت معنى هذا الحديث العصمه ؟ قلت :- لان اخباره ﷺ بأنهم لايدخلون النار إخبار بالعصمه وأنهم لا يخرجون عن دخولهم النار على السبب الذي هو =

وكذا عن عائشة روى عنها حديث الكساء جماعة من طرق منها عن جميع بن عمير، قال: تطلعت مع أمي إلى عائشة فسألتها أمي عن علي، قالت: ما ظنك برجل كانت فاطمة تحته، والحسن والحسين ابنيه، ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله التف عليهم بثوب، وقال: (اللهم هؤلاء أهل بيتي

= عدم إرتكاب المعاصي.
فإن قلت :- ما القرينه على هذا المجاز ؟ قلت :القرينة قطعية وهي آيات الوعيد
فإن قلت :- هل قرينة أُخرى ؟ قلت :نعم وهي أنه جعل الحكم ذيلاًلقوله : "إن فاطمه أحصنت فرجها "قرينة تنبه أيضاًعلى أنها لم تحرم على النار إلا لعصمتها فكذا ذريتها.
وتنبه أيضاً على أن طهارة الماء موجبة لطهارة ما تفرع منه وإن كانت الطهاره الأولى من السفاح والثانيه من المعاصي القباح فالمناسبه ظاهرة.
فإن قلت :- من أين دل على ما ذكرت من خروج العلويين عن العتره.
قلت :من حيث أن حديث الكساء يدل على العصمة وهذا يدل عليهاكذلك فهو كالمبين لمن أُريد بحديث الكساء من الذريه فلو دخل العلويون لم يكن لإختصاص ولد فاطمه فائده فتأمل.
فإن قلت بعد هذا يدل هذا الحديث وآية التطهير على العصمة لكل فرد منهم.
قلت دلاّ على ثبوت العصمة ولا يمكن اثباتها لكل فرد لأن المعلوم خلافه فيحكم بها للجماعة لئلا تبطل فائدة الإخبار ورسوله صلى الله عليه وآله بالآيه والأحاديث.
فإن قلت :- إن دل حديث الكساء على أن الأربعة وذريتهم هم أهل البيت عليهم السلام فقط فقد جاء ما عارضه وهو حديث زيد بن أرقم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله.
قلت : ـ لنا في الجواب عن هذا الحديث وجوه :- الوجه الأول أن حديث الكساء وحديث الثقلين جاءا متواترين ولم تثبت هذه الزياده إلا بهذه الطريق الواحده فهي شاذه منكرة.
الوجه الثاني :- أن في رجال إسناده من لايرتضى عنهم فمنهم أحمد بين بشار مجهول، أبو عوانه وضاح بن عبد الله الوسطي البزا ر قا ل أحمد وأبو حاتم إذا حدث من حفظه وَهَمَ ويغلط كثيراً وضعفه ابن المديني عن عن قتاده ، ومن الأعمش سليمان بن مهران قالوا فيه مدلس تدليس التسويه قال العراقي وابن حجر ذلك قادح في العداله
الوجه الثالث :-انا لو سلمنا صحته وسلامته عن كل قادح فهو أحادي ظني وأحاديث الكساء متواتره قطعيه والظني يبطل إذا قابله قاطع
وفي هذا البحث كفاية لأهل البصيرة وإزاله لكل شك وحيره فتامل بعين الإنصاف وأنظر بفكر صحيح وذهن صافٍ تبلغ الحق والتحقيق

أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، فقلت: يا رسول الله ألست من أهلك؟ قال: إنك إلى خير).

وفي رواية من طريق أخرى، قال: انطلقت مع أمي إلى عائشة فدخلت أمي، فذهبت لأدخل فقالت عائشة: إني أراه قد احتلم، فحجبتني، وسألتها أمي عن علي، فقالت: ما ظنك برجل كانت فاطمة تحته، والحسن والحسين ابنيه، ولقد رأيت رسول الله التفع عليهم بثوب، وقال: اللهم هؤلاء أهلي أذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرا، قلت: يا رسول الله ألست من أهلك؟ قال: إنك لعلى خير، ولم يدخلني معهم.

وفي رواية أخرى فقلت: يا رسول الله أنا من أهلك؟ قال: تنحي فإنك إلى خير.

[فلو كانت أم سلمة وعائشة داخلتين في أهل البيت لم يقل لكل واحدة منهما: أنت إلى خير، بل كان يقول لها: أنت منا، وهذا دليل بحمد الله واضح على صحة ما قلناه][١].

يزيد هذا وضوحا ما روته هي أيضا، قالت: ولد لأبي غلام فحملته إلى النبي ﷺ، فقلت يا رسول الله سمه، فسماه محمدا، فقلت: يا رسول الله ادع له بالبركة، فقال: اللهم بارك فيه، واجعله محبا لنبيك وأهل بيته، قالت عائشة: فقاتلني والله بالبصرة لعلي بن أبي طالب. وذكرت عند ذلك الدعوة، فوددت أن كنت سقيمة سبع سنين، ولم أسر ذلك المسير، فهذه عائشة اعترفت على نفسها أن أهل البيت عليهم السلام غير نسائه، وأنهم قرابة الرسول ﷺ، فمن قال غير ذلك فقد ادعى ما لم يدع الخصم لنفسه.

ويتأكد هذا بما رواه المؤيد بالله في حديث المناشدة يوم الشورى، عن علي عليه السلام أنه قال: (أنشدكم بالله هل فيكم من أحد أذهب الله عنه

(١) ما بين أقواس الزيادة ثابت في النسخة أ، وساقط من ب.

الرجس وطهره تطهيرا غيري؟ قالوا: اللهم لا، لا نعلمه اهـ.

واعلم أن خبر الكساء هذا مما ظهر بين الأمة واشتهر، حتى قيلت فيه الأشعار، وتواترت فيه الأخبار، فكان ذلك تخصيصا لأهل بيته من دون سائر أقاربه، ومن دون زوجاته بإقرارهن على أنفسهن أقوى حجة.

قال زيد بن علي عليه السلام في كتاب (الصفوة): ما لفظه: وقد أعلم أن جهالا من الناس يزعمون أن الله إنما يريد بهذه الآية أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة، فانظر في كتاب الله، فإن كان الله إنما جعل أهل الأنبياء أزواجهم في الكتاب الذي أنزله عليهم فصدقوه، وإن كان سمى للأنبياء أهلا سوى أزواجهم فما هذه الجهالة بأمر الله !؟.

ثم بين عليه السلام ذلك في كتاب الله، وأورد الآيات الكثيرة المتظاهرة المنيرة في الاحتجاج على من قال بهذه المقالة، إلى قوله عليه السلام: وأما الآية التي ذكر الله فيها التطهير فإنما هو بيت النبي صلى الله عليه وآله في أهله وذريته، وإنما قال: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ولم يقل: إنما يريد الله ليذهب عنكن الرجس اهـ.

ومما يدل على بطلان دعوى من يدعي دخول أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم في آله وأهله حديث بريرة إذ قد قال صلوات الله عليه وآله وسلم لأبي رافع مولاه: (إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة، وإن مولى القوم منهم) . فلو كان زوجات النبي صلى الله عليه وآله من آله وأهله لوجب أن لا تحل الصدقة لبريرة؛ لأنها مولاة عائشة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أقرها صلى الله عليه وآله وسلم على قبول الصدقة، وملكها إياها بدليل صحة الإهداء منها، فاعرف ذلك.

ولنا أيضا إجماع آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وشيعتهم أن أهل البيت النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم وعليٌّ، وفاطمةُ، والحسنان عليهم السلام، لقوله: ﴿عَنكُم﴾ وهي الحجة على عصمتهم، وعلى وجوب اتباعهم، وعلى أن إجماعهم حجة.

والخبر دل أيضا على أن إجماعهم حجة، وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (وإني تارك

فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبدا كتاب الله وعترتي أهل بيتي) إلى آخره، فقرن بين العترة والكتاب، وقد ثبت أن كتاب الله حجة فوجب لاقترانهم أن يكون قولهم حجة، وإلا لبطل معنى الاقتران، وهو لا يجوز.

وأما عصمتهم ووجوب اتباعهم فالدليل على ذلك من الكتاب والسنة أدلة كثيرة، قد ذكرنا منها طرفا في مقدمة كتابنا هذا لمن نظر فيها بعين الإنصاف، من أهل النظر والبصيرة، وترك سبيل الاعتساف.

وينبغي أن نذكر هاهنا وجه الدلالة من هذه الآية الكريمة، فنقول كما قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام: إنه قد ثبت أن الآية كلام الحكيم الصادق، الذي لا يجوز عليه الكذب، ولا العبث ولا شئ من القبيح، وقد أخبرنا بإذهاب الرجس عنهم، فلا يخلو إما أن يريد رجس الأقذار، أو رجس الأوزار، أو رجس العذاب؛ لأن لفظ الرجس يحتمل هذه المعاني لغة وشرعا، ولا يجوز أن يريد رجس الأقذار؛ لأن المعلوم ضرورة أنهم وغيرهم في وجوب توقي الأقذار والاستنزاه منها على سواء، فلم يبق إلا رجس الأوزار، ورجس العذاب، ورجس العذاب لا يذهب إلا بتجنب الأوزار بالاتفاق من الأمة، وربما قامت به الدلالة، قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ (الزمر ـ ٦٥) الآية، وحال الذرية لا يكون أعلى من حاله صلوات الله عليه وآله وسلم، فأحد المعنيين يدخل في الآخر، فلم يبق إلا أن المراد إذهاب رجس الأوزار، ولا يجوز وقوعها وتسقط عنهم أحكامها؛ لأنهم وغيرهم في ذلك سواء، بل قد وردت الآية بمضاعفة العذاب على من عصى منهم بما ذكر تعالى في الزوجات بقوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ وقد ثبت أنهن لم يفارقن جميع النسوان، ويفضلنهن إلا بسبب نكاح

النبي صلى الله عليه وآله، ولا يكون لغيره أصلا؛ لأن ما به غيرٌ يشار إليه إلا ولغيرهن نصيب، إلا هذا الذي أوجب التميز لهن بهذه المزية، وقد ثبت أن اتصال الذرية بالنبوة آكد من اتصالهن بالزوجية، ولهذا يشرف الولد بشرف أبيه عقلا وشرعا، ولا يقع للزوجية إلا بمزية الاتصال كما في الجارية والخادم، فالآية الأولى للأولاد ألزم، وحكمها فيهم أوجب، بطريق الأولى التي هي أدلة الأحكام الشرعية، وأحد الأدلة العقلية، فقامت الأدلة بما ذكرنا على ارتفاع وقوع الأوزار، وارتفاعها لا يكون إلا بالعصمة، والآية وقعت فيهم عموما فدل ذلك على عصمتهم [مجتمعين، فمتى اجتمعوا على أمر علمنا عصمتهم] من الخطأ والزلل الموجب للعقاب من الله عزوجل، ولولا ذلك لتعرت الآية من الفائدة، وذلك لا يجوز وقوعه في كلام الحكيم سبحانه، وإنما يقع في كلام المجانين والسفهاء العابثين، ويتعالى عن ذلك رب العالمين، فإذا ثبتت عصمتهم فيما اتفقوا عليه وجب اتباعهم؛ لأن اتباعهم يكون اتباعا للحق، واتباع الحق من فرائض رب العالمين، والحق أحق أن يتبع، وقد علمنا ضرورة أن آحادهم يقع منهم المعاصي، فلو قيل أيضا: إنها تقع من جماعتهم لعرت الآية الشريفة من الفائدة، وهذا لا يجوز اهـ.

وأما شبهة من قال: إنها في الزوجات بدلالة أن أول الآية وما بعدها فيهن، فقد أجاب عنه بعض أكابر أئمة أهل البيت عليهم السلام بما يشفى وحاوح الصدور، ويزيل ظلمة كل ديجور، حيث قال: ومجيء هذه الآية مع أزواج النبي صلى الله عليه وآله على طريقة مجيء قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ (الأنعام ٠٣٦) الآية مع قوله قبل: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ إلى قوله ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ (الأنعام ٠٣٥) وقوله تعالى ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ (الأنعام ٠٣٧) والوجه أنه تعريض بهن أنهن غير معصومات كما أن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ تعريض بالذين ذكرهم الله تعالى قبلها وبعدها؛ أنهم لا يسمعون، أي: لا يعلمون بما

يسمعونه من النبي ﷺ عن الله تعالى، وقد أطبق البلغاء على أن أحسن مواقع إنما التعريض كما ذكرته في الآيتين.

ويؤيد ذلك تذكير الضمير حيث قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ﴾ وقال: ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ بخلاف ما قبل ذلك وبعده، فإنه مؤنث.

لايقال: إن الله مريد لمثل ذلك من جميع البشر؟ لأنا نقول: هو تعالى مريد لأن يفعل ذلك البشر كلهم، لا أن يفعله هو لهم تعالى، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[1] الآية بخلاف أهل البيت عليهم السلام فإن الآية نص صريح على أنه يريد أن يفعل ذلك لهم، حيث قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ﴾ وقال ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ ولم يقل: يريد الله لتذهبوا عنكم الرجس، وتطهروا تطهيرا، وإذا أراد شيئا من فعله سبحانه فعله، إذ هو على كل شئ قدير.

فإن قيل: ما فِعْلُهُ تعالى الذي ذكرت؟ قلت وبالله التوفيق: هو عصمته، والعصمة: هي رد النفس عن تعمد فعل المعصية، أو ترك الطاعة مستمرا لحصول اللطف والتنوير عند عروضهما اهـ.

فالعجب من صاحب الكشاف، ودعواه الدليل البين من هذه الآية، والمعلوم أن لفظة أهل البيت إذا أطلقت لم تسبق إلى فهم سامعها بأن المقصود بها إلا ذرية النبي ﷺ.

والدليل على ذلك ما أخرجه مسلم عن يزيد بن حبان، قال قال رسول الله ﷺ: (إني تارك فيكم ثقلين أحدهما كتاب الله وهو حبل الله من اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على الضلالة، وعترتي أهل بيتي). فقلنا: من أهل بيته نساؤه؟ فقال: لا أيم الله إن المرأة تكون مع الرجل

(١) المائدة ـ ٤١.

العصر من الدهر فيطلقها فترجع إلى أبيها وقومها، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده.

قال إمامنا المنصور بالله عليه السلام: فيزيد بن حبان من أهل اللسان العربي لم يثبت الأهل إلا القرابة، ورد على من أدخل النساء فيهم لما لم يكن إطلاق الأهل على الزوجات إلا مجازا لافتقاره إلى القرينة، ولذلك إذا قيل: هذا الأمر أهل لكذا ليس بحقيقي، وإنما هو مجازي لافتقاره إلى القرينة حالية أو مقالية،، وذلك أنه لما كان استحقاق الشيء لشيء آخر شبه بالقرابة بالقرابة الأدنين، فقيل: هذا أهل لكذا اهـ.

وأيضا إن البيت المذكور في الآية هو بيت النبي صلوات الله عليه وآله وسلم فيجب من طريق الظاهر أن يحكم بأن المراد بها أهله الذين يتناولهم الاسم حقيقة، وقد علمنا أن من يختص ببيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فهم أولاده، وأولاد أولاده، وإذا استعمل في غيرهم كان مجازا فيجب القطع على أن المراد بالآية أولاده، وأولاد أولاده.

يؤيد ذلك أنه إذا أطلق فقيل: أهل بيت فلان فهم منه أولاده، وأولاد أولاده، وإذا قيل: أهل بيت فلان أهل الطهارة والعفاف إنما يراد به الأولاد وأولادهم؛ ولأنه صلى الله عليه وآله وسلم يوم المباهلة لم يدع إلا أهل بيته، ولم يدع نساءه.

إذا عرفت ذلك فلا مقتضى للعدول عن الحقيقة، فاعجب من صدور مثل هذه الشبهة عن مثله، مع كونه مبرزا في العلم، ولا سبب لمثل هذا إلا الميل عن الصواب، واتباع مذاهب هذه الأسلاف، والله المستعان.

فإن قيل: من أين أنه حقيقة فيهم؟.

فجوابنا: أن أمارة كون اللفظ حقيقة في الشيء استعماله فيه مطردا، ويكون مفهوما سابقا إلى الفهم عند إطلاقه فيحمل عليه خطاب الله تعالى؛ لأن الواجب حمله إلى ما هو السابق إلى الأفهام كما بينا.

ولذلك قال الإمام يحي عليه السلام في الانتصار: فظاهر هذه الآية دال على إذهاب الرجس عنهم، وتطهيرهم من سائر الأدناس على جهة المبالغة، حيث صدَّرَ الآية بإنما، وهي موضوعة للحصر في الجملة؛ لأنها في معنى النفي والإثبات، كأنه قال: ما يريد الله إلا إذهاب الرجس عنكم، ولأنه أكد الفعل بالمصدر حيث قال: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ كأنه قال: تطهيرا لا زيادة فوقه، ولا شك أن كل من أخبر الله عنه بإذهاب الرجس عنه، وتطهيره عن كل مكروه فلا مرية في اختصاصه بالفضل على غيره.

وأهل البيت هم: علي أمير المؤمنين، وفاطمة، والحسن، والحسين، وأولادهما عليهم السلام في كل عصر، بدليل خبر الكساء حيث حفهم به اهـ.

ولما أنزل الله عزوجل على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ كان يأتي ستة أشهر باب علي وفاطمة عليهما السلام فيناديهما (الصلاة يا أهل البيت) ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ولو كانت المخاطبة للنساء لذكرهن بالتأنيث، كما ذكرهن: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾ فلما بلغ موضع التطهير ذكّرَهم، وأذهب عنهم التأنيث فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ مع شهادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (نزلت هذه الآية في خمسة، فيَّ، وفي علي، وفاطمة، والحسن، والحسين) صلوات الله عليهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ﴾ الآية.

فإذا عرفت هذا علمت أن توسط ذكر أهل البيت عليهم السلام بين نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس بشبهة إلا على من جهل أو تجاهل من العامة.

كما قال الإمام الحسين بن القاسم عليه السلام: وزعمت العامة أن أهل البيت عليهم السلام لا يستحقون ذلك؛ لأن الآية إنما هي في نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا من ضعف عقولهم، وعمى قلوبهم؛ لأن النساء إذا كان لهن هذا

المدح فرجالهن أحق به منهن؛ لأن الرجال أفضل وأكمل وأعقل، والله يقول ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة ٢٢٨] فبكم ترون الرجال أحق بالآية وأولى، وإنما القرآن متداخل فربما أتى بالخبر الذي هو غير الخبر الأول، ثم أوشك أن يرجع إلى الخبر الأول، مثل قوله تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء ٣] فأدخل خبر النكاح في خبر اليتامى اهـ.

ومثل هذا أعنى التداخل في هذه الآية ذكر المرتضى في الإيضاح عن أبيه الهادي إلى الحق عليه السلام، وأطال الكلام في شرح ذلك وبيانه، فظهر لك أنه لا مانع من التوسط؛ لأن آيات القرآن يتخلل بعضها بعضا، ويتوسط إذا كانت الجملة مستقلة بنفسها غير مرتبطة بما قبلها وما بعدها كما ورد في سورة الصافات في قوله تعالى حاكيا عن الملائكة عليهم السلام: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ ثم رجع الخطاب إلى قريش، أو بني آدم قال الله عزوجل: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩)﴾ وهذا يشاكل ما ورد في هذه الآية من توسط ذكر أهل البيت عليهم السلام بين أوصاف نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم سواء، لتداخل ذكره بكلام وختم عليه، وجعل بين الكلامين فاصلة ليست من جنسها، فصح مارُمْنَاهُ من اختصاص أولاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمعنى الآية إلى آخر الأبد.

ولو سُلِّمَ أيضا ما زعموا ـ على وجه المسامحة ـ فالظاهر لا يقتضي الأزواج فقط، ولأنه يقال للزوجة: أهل الرجل، ولا يقال: أهل البيت، وعلى أن إطلاق أهل البيت لو أفاد الأزواج مع الأولاد وأولادهم، فتخصيص الأزواج بها، وإخراج الأولاد منها لغير دلالة لا يصح.

فإن قال: فإذا جاز أن يحتمل الأزواج والأولاد، فلم خصصتم الأولاد دون الأزواج بالآية؟ قلنا: إنما خصصنا الأولاد لوجوه . منها: أن

الآية تقتضي عصمة المراد بها، وأن قولهم حجة، وهذا لم يقل به أحد في أزواج النبي ﷺ.

ومنها: لو أراد الأزواج وحدهن لكان يقول: إنما يريد الله ليذهب عنكن الرجس.

ومنها: إجماع أهل البيت عليهم السلام، والسنة النبوية . أما إجماع أهل البيت عليهم السلام فلا تختلف كتب من بحث في شأن ذلك، فلم ينقل عنهم إنكار ولا خلاف، وهذا كفاية لمن له من ربه هداية.

وأما السنة النبوية، فمنها: الأخبار المروية عن النبي ﷺ برواية عامة من غير نكير عليها ولا دفع، فدلت على أن المراد بها غير أزواج النبي ﷺ، وذلك من الأخبار كثير يطول شرحه هاهنا لو ذكرناه، ولكن نذكر من ذلك طرفا مما حضرنا، فنقول: روى الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام في الشافي، قال: أخبرنا الفقيه الأجل الفاضل بهاء الدين علي بن أحمد بن الحسين المعروف بالأكوع، بإسناد رفعه إلى أن بلغ به أحمد بن حنبل يرفعه إلى أم سلمة رضي الله عنها، تذكر أن النبي ﷺ كان في بيتها فأتت فاطمة عليها السلام ببرمة فيها خزيرة، فدخلت بها عليه، قال: ادعي لي زوجك وابنيك قالت: فجاء علي، وحسن، وحسين عليهم السلام فدخلوا، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة، وهو وهم على منامة له على دكان، تحته كساء خيبري، قالت: وأنا في الحجرة أصلي فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ قالت: فأخذ فضل الكساء وكساهم به، ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء وقال: (هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا) قالت: فأدخلت رأسي البيت وقلت: وأنا معكم يا رسول الله قال: (إنك إلى خير، إنك إلى خير).

وبإسناد بهاء الدين هذا يبلغ به أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة عليها السلام: (ائتني بزوجك وابنيك) فجاءت بهم فألقى عليهم كساء فدكيا،

قالت ـ أي ـ أم سلمة: ثم وضع يديه عليهم وقال: (اللهم إن هؤلاء آل محمد فاجعل صلواتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد إنك حميد مجيد). قالت أم سلمة: فرفعت الكساء لأدخل معهم، فجذبه من يدي، وقال: (إنك على خير).

وبإسناد بهاء الدين هذا إلى ابن عباس في خبر ابن أبي زائدة قال: وأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثوبه فوضعه على علي عليه السلام، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام، وقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

قال عليه السلام: والأخبار في هذا كثيرة روايتنا لها من طرق جمة بحمد الله تعالى اهـ.

قال الإمام الحسن بن علي بن داود المؤيدي عليه السلام: واعلم أن حديث الكساء هذا مما اتفقت عليه كتب النقلة من أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم وغيرهم، فمن ذلك في موضع واحد من أنوار اليقين في آية التطهير نيف وعشرون حديثا بين مسند ومرسل، إلى غير ذلك.

وفي شرح الملل والنحل للإمام المهدي عليه السلام أربعة عشر حديثا من كتب المخالفين، وإن كانت روايات الإمامين متداخلة باتفاق بعض طرق روايات الإمامين.

وكذلك الجم الغفير من كلام الإمام شرف الدين عليه السلام، و (محاسن الأزهار)[2] وكلام (شرح الأثمار) لسيدنا الفقيه العلامة محمد بن بهران نفع الله بعلومهم، وغيره مما يتعسر حصره، ويجل رسمه وضبطه، من كتب الموافق والمخالف.

وهو من المتواتر معنى، لا تراها إلا مصرحة بأن أهل الكساء هم من ذكرنا لا غير، ولقد تسامح الإمام المهدي عليه السلام حيث جعل حديث الكساء

(١) الأحزاب ٣٣.

(٢) للشهيد حميد بن أحمد المحلي.

مما يقرب من التواتر المعنوي، فإن من طالع في كتب الموافق والمخالف لم يجدها قاصرة على التواتر معنى، وتأبى إلا أن تكون كذلك.

فإن قيل: المراد بالآية أهل البيت في ذلك الوقت؟ وهم أمير المؤمنين عليه السلام وفاطمة وولداها عليهم السلام؟

فالجواب ـ وبالله التوفيق ـ: أن ما رويناه هو السبب ولا يجوز قصره عليه، بل يراعى عمومه، وإنما أخرجنا أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنه نطق بذلك، ولم يُدخِل أم سلمة وعائشة في أهل البيت، وإنما خصهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالذكر لأنهم كانوا أهل بيته في ذلك الوقت، وليس فيه ما يمنع ما دل عليه الظاهر من أن حكم من بعدهم حكمهم في تناول هذا الاسم لهم، وعلى أنه لما ثبت أن قول أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام حجة، فيجب أن يكون قول من بعدهم حجة فيما أجمعوا عليه؛ لأن أحدا لم يفصل بينهما اهـ.

وأيضا قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام: هذا القول باطل لوجهين.

أحدهما: ما قدمنا من الدلالة أن هذا اللفظ حقيقة فيهم في جميع الأعصار، لسبقه إلى الأفهام عند الإطلاق، وكلام الحكيم يجب حمله على الحقائق؛ لأن القول بغير ذلك يؤدي إلى اطراحه، وذلك لا يجوز.

وثانيهما: أن هذا القول خارج عن أقوال الأمة فلا يجوز إحداثه؛ لأنه يكون بدعة، وكل بدعة ضلالة، ألا ترى أن الناس في هذه الآية بين قائلين قائل يقول: هم المرادون بذلك، ويشرك معهم أزواجه وأقاربه، وقائل يقول: المراد بذلك علي وولداه وأولادهما إلى انقطاع التكليف فقد أدخلهم الفريقان كما ترى، فمن أخرج أولادهما من ذلك أتى بقول خارج من أقوال الأمة، وذلك لايجوز بالإتفاق".

ثم رجع الخطاب إلى الزوجات فقال تعالى ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني القرآن [ليعلمن الواجبات كلها فيأتين بها،

والمحرمات بأسرها فينتهين عنها، قال في التجريد: في الذكر وجهان. أحدهما: أنه الاعتراف بالنعمة فتحفظها بالشكر والطاعة، والثاني: أنه بمعنى الحفظ، أمرن أن يحفظن آيات الله][1] ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ يعني به الحلال والحرام، والحدود والأحكام ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ بما أنعم على الخلق من معرفتها ﴿خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ بوضعها وشرعها حين علم ما ينفعكم ويصلحكم فأنزله، أو علم من يصلح لنبوته ومن يكون أهل بيته.

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿لَطِيفًا﴾ أي: ملطفا لأمر العباد، حسن التدبير قال الشاعر: فأدنيته كي أستميل فؤاده بلطفي فولى باسر الوجه نافرا

بلطفي: أي: برفقي وحسن تدبيري، وقالت الخنساء في أخيها:

لطيف في الأمور بلا التياث ويوم الروع من أسد العرين

أي: حسن الرفق والتدبير للأمور. والخبير: هو العالم الخابر اهـ.

ثم قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ المسلم: الداخل في الإسلام بعد الحرب، المنقاد، أو المفوض إلى الله المتوكل عليه ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ المؤمن: المصدق بالله ورسوله، وبما يجب أن يصدق به، والإيمان أعم من الإسلام، لأن كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمن.

﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾ القانت: القائم بالطاعة الدائم عليها.

قال في البرهان: يعني المطيعين والمطيعات، ويحتمل أن يريد الداعون إلى الله والداعيات.

قال الهادي عليه السلام: خير القنوت ما كان في صلاة الصبح في الفريضة بعد الركوع

---

(١) ما بين قوسي الزيادة ساقط من ب، وثابت في أ.

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في إيمانهم ﴿وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ كذلك، أي: من يصدق في نيته، وقوله وعمله.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على أمر الله ﴿وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ أي: الذين يصبرون على تعب طاعة الله واختباره لهم بالمحن. والصبر: هو حبس النفس على المكاره، وعن المعاصي، وعلى المصائب؛ لأنه لما ذكر هذه الحسنات، أشار إلى ما يمنع منها، وهو إما حب الجاه، أو حب المال من الأمور الخارجية والشهوة من الأمور الداخلة، والغضب منهما يكون؛ لأنه يكون سبب نقص جاه، أو فوت مال أو المنع من أمر مشتهى.

ثم قال تعالى ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ أي: المتواضعين الذين لا يميل بهم الجاه عن إخلاص العبادة.

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: يريد الساكنين والساكنين في الصلوات، وسكون القلب في جميع الحالات، والخشوع: هو التذلل والخضوع اهـ.

ثم قال سبحانه ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ أي: الباذلين الأموال، الذين لا يكنزونها لشدة محبتهم إياها.

قال في البرهان: يعني المؤدين الزكاة المفروضة اهـ.

ثم قال: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ إشارة إلى الذين لا تمنعهم الشهوة البطنية عن عبادة الله.

قال في البرهان: يعني صوم شهر رمضان، وقيل: ومن صام البيض من كل شهر فهو من الصائمين.

ثم قال ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ من الفواحش ﴿وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ عما لايحل، أي الذين لا تمنعهم الشهوة الفرجية، ثم قال: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ الذين يذكرونه ويستغفرونه بقلوبهم وألسنتهم. الذاكر:

من لا يكاد يخلو من ذكر الله تعالى بقلبه ولسانه، أو بأحدهما، ومن الذكر قراءة القرآن، والاشتغال بالعلم، بل هو أعظمه وأعلاه.

وفي الحديث (من استيقظ من نومه، وأيقظ امرأته فصليا جميعا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات)(١).

يعني هم في جميع الأحوال يذكرون الله تعالى، ويكون إسلامهم وإيمانهم، وقوتهم وصدقهم، وصبرهم وخشوعهم، وصدقتهم وصومهم بنية صادقة لله تعالى.

قال الرازي: واعلم أن الله في أكثر المواضع حيث ذكر الذكر قرنه بالكثرة هاهنا، وفي قوله بعد هذا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١﴾ وقال من قبل: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ لأن الإكثار من الأفعال البدنية غير ممكن، أو عسر، فإن الإنسان أكله وشربه، وتحصيل مأكوله ومشروبه يمنعه من أن يشتغل دائما بالصلاة، ولكن لا مانع له من أن يذكر الله تعالى، وهو آكل، ويذكره وهو شارب [أو بائع أو شار] أو ماش أو قائم، وإليه أشار بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾(٢) ولأن جميع الأعمال صحتها بذكر الله تعالى وهي النية(٣) اهـ.

وروي (سبب هذه الآية أن أزواج النبي صلى الله عليه وآله قلن: يا رسول الله ذكر الله الرجال في القرآن بخير، فما فينا خير نذكر به؟ إنا نخاف أن لا تقبل منا طاعة(٤).

---

(١) قال ابن حجر في تخريج الكشاف ١٣٤: أصحاب السنن إلا الترمذي، من رواية الأعز، عن أبي سعيد، وأبي هريرة مرفوعا.
(٢) آل عمران ـ ١٩١.
(٣) الرازي ٩/١٦٩.
(٤) قال ابن حجر في تخريج الكشاف: الطبراني، وابن مردويه، من رواية ابن ظبيان، عن ابن عباس (قال النساء: يا رسول الله، ما لنا لا نذكر في القرآن ؟ ..) الحديث.

وقيل: السائلة أم سلمة[(١)].

وروي أنه لما نزل في نساء النبي ﷺ ما نزل قال نساء المؤمنين: فما نزل فينا شئ[(٢)]؟.

ثم قال تعالى في الجامعين والجامعات لهذه الطاعات: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٣٥﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ ما صح لهم ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ أي: أراده واختاره، وقضاء الرسول قضاء الله تعالى، والمعنى: ما كان لهم إذا حكم الله حكما ورسوله ﷺ: ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ وإنما الواجب أن يجعلوا اختيارهم تبعا لاختياره.

قال في البرهان: وهذه الآية نزلت في شأن زينب بنت جحش، حين خطبها رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة فامتنعت، وامتنع أخوها عبد الله بن جحش لنسبها من قريش، وأنهما ولدا عمة رسول الله ﷺ، وأمهما أميمة بنت عبد المطلب، وقال: إن زيدا بالأمس كان عبدا، إلى أن نزل فيه قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾[(٣)] فقالت زينب: أمري بيدك يا رسول الله، فزوجها إياه.

---

(١) قال ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه النسائي من رواية شريك عن محمد بن عمر، عن أبي سلمة، عن أم سلمة، قالت: يا رسول الله، ما لي أسمع الرجال يذكرون في القرآن، والنساء لا يذكرن؟ فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ..﴾ الآية. وأخرجه الطبراني، والطبري من وجه آخر عن محمد بن عمرو، ورواه أحمد، وابن راهويه، والنسائي من رواية عثمان بن حكيم عن عبد الرحمن بن شيبة، عن أم سلمة، وأخرجه الحاكم من طريق مجاهد عن أم سلمة، وروى الترمذي عن أم عمارة نحوه.

(٢) هو في الكشاف بلفظ (نساء المسلمين) ٣/٢٣٦، قال ابن حجر في تخريج الحديث: الطبري من رواية سعيد عن قتادة، قال: دخل نساء من المؤمنات على نساء النبي ﷺ فقلن: قد ذكرنا الله في القرآن .. الحديث).

وأخرجه ابن سعد، عن الواقدي، عن معمر، عن قتادة.

(٣) الأحزاب ـ ٥.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بخروجه عن الطاعة واختياره خلاف ما يختار ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ أي: ذهب عن طريق الحق ﴿ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ أي: ظاهرا.

ثم قال تعالى ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ أي: وقد عفا عنك حين تقول ﴿لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ هو زيد بن حارثة أنعم الله عليه بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعتق ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ يعني زينب بنت جحش، أي: الزم زوجتك يا زيد، ولا تفارقها صبرا من رسول الله ﷺ عنها مع ما دخل في قلبه من حبها، وكان فيما روي قد دخل على زيد بن حارثة فواجهها، ونظر عند ذلك منها منظرا بهجا أعجبته حتى شغل في ذلك الحين قلبه؛ لأنه ﷺ بشر مركب على طباع البلوى، ليظهر الله فضله عند صبره عن الهوى، ثم رجع ولم يقف، وخرج مسرعا مجدا، فقال زيد: ما لرسول الله ﷺ رجع منا ولم يدخل كما أراد إلينا، فقالت: إني عجلت فقلت: تقدم يا رسول الله قبل انحرافي عن طريقه، فلما رآني سبح الله، ورد وجهه مسرعا، ففطن زيد رحمة الله عليه أنه ﷺ قد أعجب بها لعلمه بحسنها، يعني من قبل الحجاب فطلقها، وأخبر رسول الله ﷺ بطلاقها، وعرض له في أخذها، فقال النبي ﷺ: أمسك عليك زوجك ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فيها ولا تطلقها، وهو نهي تنزيه.

وقال ابن زيد: جاء رسول الله ﷺ إلى باب زيد، وعلى الباب ستر من شعر، فرفعت الريح الستر فرأى زينب فوقعت في قلبه، فقال: سبحانه الله مقلب القلوب، وذلك أن نفس رسول الله ﷺ كانت تجفو عنها قبل ذلك ولا تريدها، وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد ففطن، وألقى الله في نفسه كراهة صحبتها، والرغبة عنها لرسول الله ﷺ فقال لرسول الله ﷺ: إني أفارق صاحبتي، فقال: مالك أرابك منها شئ؟ قال: لا والله، ولكنها تتعظم علي لشرفها، وتؤذيني، فقال: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ يعني: لا تطلقها . وقيل: أراد اتق الله فلا تذمها بالنسبة إلى الكبر، وأذى الزوج.

ثم قال تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ من أن يقولوا: أخذ زوجة الغير أو الابن.

وقال في البرهان: والذي أخفى في نفسه [هو] ما أعلمه الله سبحانه من أنها تكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، وذلك أن رسول الله ﷺ خشي قالة الناس فكتم من أمرها ما أعلمه الله تعالى من أنه يتزوج بها من بعد طلاق زيد لها اهـ.

وقيل: لأنه خشي اليهود أن يقولوا تزوج امرأة ابنه عن ابن عباس، وقيل: إنه خشي لوم الناس أن يقولوا: أمر رجلا بطلاق امرأته ثم نكحها.

ثم قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ وتراقبه فيما أمرك به من زواجها، وأطلعك عليه من حكمة ما غيبه عن غيرك، ولما طلقها زيد وبانت منه نزل قوله تعالى ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾[1].

قال الزجاج: الوطر: كل حاجة لك فيها همة، فإذا بلغها قيل: قد قضى وطره.

وقال غيره: الوطر منتهى ما في النفس من الشيء، وقيل: لم تبق له فيها حاجة.

والمعنى: لما قضى منها حاجته وشهوته ونال منها محبته وإرادته زوجها الله نبيئه وملكها بعد فراق زيد وليه.

قال في البرهان: وكان تزويجها من رسول الله ﷺ بأمر الله تعالى للحكمة التي نذكرها ونشرحها لئلا يتوهم الجاهل، ويحسب الغر الغافل أن رسول الله ﷺ دعته شهوة نفسه إلى نكاحها، أو نظر إليها متعمدا لتحرم على زيد بعد نظره إليها حاشا لله ولرسوله مما يقول الجاهلون الضالون،

---

(١) قال في الكشاف ٢٣٨/٣: وقراءة أهل البيت: زوّجتكها. وقيل لجعفر بن محمد رضي الله عنهما: أليس تقرأ عليّ غير ذلك، فقال: لا والذي لا إلاه إلاّ هو، ما قرأتها على أبي إلاّ كذلك، ولا قرأها الحسن بن عليّ على أبيه إلاّ كذلك، ولا قرأها علي بن أبي طالب على النبي ﷺ إلا كذلك.

والله سبحانه أنزه وأعلى من أن يأمر رسول الله ﷺ إلا بفعل يكون فيه حكمة باهرة، ومصلحة في دينه وافرة، والحكمة في ذلك أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبطل بتزويج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بما كان عليه أهل الجاهلية أن ابن التبني وابن الصلب حكمهما واحد، وأن حليلة الابن المناسب محرمة على أبيه، وأن حليلة ابن التبني محرمة، ولذلك أنكر المشركون الجاحدون أن حليلة الابن لا تحل للأب، وقد تزوجت بحليلة ابنك زيد، فبين الله تعالى بقوله ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ﴾ أي: حليلة ابن التبني غير محرمة بخلاف ابن النسب، ونفي الحرج عن آباء التبني إذا تزوجوا بحلائل أدعيائهم، ولولا فعل رسول الله ﷺ من هذا التزويج بأمر من الله تعالى لما عرف هذا الحكم العظيم الخطر، فسبحان الله الذي نزه رسله عن مقال الكاذبين، وافتراء المبطلين.

﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ۝٣٧﴾ يعني أمره عند رسوله مطاعا مقبولا، بتزويج زينب بنت جحش بعد ما طلقها زيد للغرض الذي أوضحناه اهـ.

ثم قال تعالى ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ﴾ أي من ضيق ولا مأثم ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ﴾ أي: فيما أحل له من تزويج زينب بنت جحش، وأباح له من الوطء والنكاح لزوجة دعيه، فبين الله عزوجل أن دعيه لا يكون ابنه، ولكن وليه وغذيه.

ثم قال ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ في الأنبياء ﴿فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ﴾ أي: بين الله ذلك سنة فيهم، وهو لا يضيقه عليهم في الإقدام على ما أباح لهم ووسع في باب النكاح وغيره، وقد كان لداود عليه السلام مائة زوجة وثلاثمائة سرية، ولولده سليمان ثلاث مائة مهيرة[1] وسبع مائة سرية.

قال في البرهان: والسنة: الطريقة المعتادة، أي: ليس على الأنبياء

---

(١) أي: منكوحة بالمهر، وهو كناية عن الزوجات.

حرج فيما أحله الله تعالى لهم، كما أحل لداود في المرأة التي سبقت منه النظر إليها فتزوجها، وزينب بنت جحش هي أول من مات من نساء رسول الله ﷺ بعده، وأمرت أسماء بنت عميس لها بنعش فحملت فيه اهـ.

ولما كان أمر الله وجميع أفعاله لا تكون إلا على مقتضى الحكمة والمصلحة قال تعالى ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾ أي: يقدر المصلحة مُقَدَّر على قدر ما يرى في كل ما خلق أو حكم أو برأ، لا يجاوز شئ من ذلك مقدار حده، فيخرج من حد الصلاح إلى ضده.

ثم ذكر الأنبياء الماضين وأثنى عليهم بقوله ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ولا يخشون قالة الناس فيما أحل لهم، وفيه تعريض به ﷺ بعد التصريح بقوله: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٣٩﴾ أي: كافيا للمخاوف، أو حافظا لأعمال خلقه، محاسبا على الصغيرة والكبيرة فيجب أن يكون حق الخشية من مثله.

ولما بين الله ما في تزويج النبي ﷺ بزينب من الحكمة والفوائد الجمة بَيَّنَ أنه كان خاليا من وجوه المفاسد فقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾.

قال الهادي عليه السلام: كان النبي ﷺ قد ربى زيد بن حارثة وغذاه وتبناه كما كانوا يفعلون أولا، فكانوا يسمونه قبل الإسلام زيد بن محمد، وفي طرف من الإسلام، حتى كان من أمر زينب بنت جحش امرأة زيد ما كان من تزويج الله نبيه إياها، فقالت قريش: تزوج محمد امرأة ابنه، فأنزل الله تعالى في ذلك ما تسمع بنفي أن يكون من ربى ابنا ممن لم يلد ولم يرضع يثبت نسبه، أو تحرم على المربي له زوجته، وأمرهم بما أمرهم في الآية الأولى من أن يدعوهم لآبائهم، فحرم الله عليهم أن يدعوهم إلى من يربيهم ويتبناهم[1] اهـ.

---

(١) مجموع تفسير الأئمة ص ٤٢٨.

قال في البرهان: وأكذبهم الله تعالى، ونفى البنوة بينه وبين زيد بن حارثة، وهذا خطاب خاص في زيد وليس بعام؛ لأن الحسن والحسين عليهما السلام ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقوله تعالى ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ (آل عمران ٠٦١) وكتاب الله سبحانه يعضد بعضه بعضا اهـ.

قلت: وهذا يبطل شبهة قول من قال: من أين يجوز إثبات بنوتهما من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والله عزوجل يقول: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾.

ويبطل قول هذا القائل أيضا لوجوه أخر ذكرها الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام.

أحدها: تظاهر النصوص من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بدعائهما بالبنوة.

وثانيها: إجماع الصحابة على نسبتهما بالبنوة، وثالثها: إجماع العترة عليهم السلام على ذلك، وقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (كل بني أنثى ينتسبون إلى أبيهم إلا الحسن والحسين فهما ابناي وأنا أبوهما) وعادة أئمة الهدى من عبد الله أمير المؤمنين، فلان بن فلان بن رسول الله صلى الله عليه وآله بغير مناكرة من الأمة، ولا إنكار من بعضهم على بعض.

فأما قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ فذلك من قصة زيد بن حارثة كما قدمنا، والخطاب لعامة المسلمين دون أهل البيت عليهم السلام، وهما طفلان يوم نزول هذه الآية، والطفل لا يطلق عليه اسم الرجل، فظاهر الآية مستقيم فاعلم ذلك موفقا.

ثم قال: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: ولكن كان رسول الله، وكل رسول أبو أمته فيما يرجع إلى حق التوقير والتعظيم، وعيسى عليه السلام وإن نزل آخر الزمان فهو نبي قبله صلى الله عليه وآله وسلم، ويعمل بشرع محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

قال الحسين بن القاسم عليه السلام: والمعنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاتم النبيين

بغير واو، وذلك شائع في لغات العرب وفي القرآن، قال تعالى في يحي بن زكريا: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[١] وإنما المعنى بغير واو: سيد وحصورا نبيا، ولكن العرب تزين الكلام بالواو ههنا، وتنسق وتعطف بها أيضا في غير هذا الموضع.

قال الهادي عليه السلام يهجو فاسقا كذب عليه عند أهل بيته ليباعد بينه وبينهم:

الله يعلم ما قد قيل من كذب ... ومن أحق بقول الزور والكذب

من ذلك الفسل وابن الفسل إذ نطقت ... منه الجوارح بالبهتان والريب

فقال: وابن الفسل، أي: من ذلك الفسل ابن الفسل، ولكنه وصل كلامه بالواو، وهي زينة في هذا الموضع، ومثله في غير هذا الموضع يكون عطفا ونسقا.

ثم أخبر عزوجل أن علمه قد أحاط بجميع الأشياء فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ ومن ذلك ما أعلمكم أن محمدا رسوله، وخاتم أنبيائه، وليس بأب لأحد منكم كما زعمتم، وهو أعلم بمصالحكم في هذه الأحكام.

قال في التجريد: قرأ الأكثرون بكسر التاء، وقرأ عاصم بفتحها، قال أبو عبيدة: الكسر أولى،ومعنى الكسر أنه فاعل للختم، يقويه قراءة ابن مسعود (ولكن نبيئا ختم النبيئين) ومعنى الفتح أنه آخر النبيين، والخاتم بفتح التاء الشيء الذي يختم به، كالطابع قال ابن عباس: أراد لو كان له ولد بالغ لكان نبيئا، ولم يكن هو خاتم الأنبياء، ولو لم أختم به النبيين لجعلت له ولدا يكون بعده نبيا[٢].

---

(١) آل عمران ـ ٣٩

(٢) وفي الكشاف ٢٣٩/٩: وخاتم بفتح التاء بمعنى الطابع، وبكسرها بمعنى الطابع وفاعل الختم. وتقويه قراءة ابن مسعود: ولكنّ نبياً ختم النبيين.

ثم قال سبحانه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١﴾ أي: اذكروه بالقلب واللسان ذكرا مستديما يؤدي بكم إلى طاعته، ويجنبكم سبيل معصيته،.

وقال فيه [اي: التجريد]: معناه اثنوا عليه بضروب الثناء، من التقديس والتحميد والتهليل والتكبير وما هو أهله ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ أي: إذا ذكرتموه فينبغي أن يكون ذكركم إياه على وجه التعظيم والتنزيه عن كل سوء، وهو المراد بالتسبيح، والتسبيح من جملة الذكر، وإنما اختصه الله تعالى من بين أنواعه ليبين فضله على سائر الأذكار؛ لأن معناه: تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه.

ومعنى ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾ أي: بكرة وعشية، قال فيه: يجوز أن يراد بالتسبيح قول: سبحان الله بكرة وأصيلا يجوز أن يكون طرفا في المعنى، لقوله: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ ولقوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ كأنه قال: افعلوا الذكر والتسبيح في هذين الوقتين، ويجوز أن لا يتصل الذكر ببكرة وأصيلا، [ويكون ذكرهما إشارة الى المداومة، وذلك لأن مريد العموم قد يذكر الطرفين، ويفهم منهما الوسط، كقوله صلى الله عليه وآله (ولو أن أولكم وآخركم) ولم يذكر وسطكم، وفهم منه المبالغة في العموم][(١)] وقيل: المراد بالتسبيح الصلاة غدوة وعشيا، أما بكرة: فصلاة الفجر، وأما أصيلا فقيل: هي صلاة الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، وقيل: صلاة العصر، وقيل: صلاة الظهر والعصر.

ثم قال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ﴾ معنى: يصلي عليكم يرحمكم وأنتم لا تذكرونه، فذكر صلاته تحريضا للمؤمنين على الذكر والتسبيح، فالصلاة من الله سبحانه الرحمة والكرامة، ومن الملائكة الاستغفار، ودعوتهم للمؤمنين، وترحمهم على المسلمين، وقيل: يصلي

(١) ما بين قوسي الزيادة ساقط من ب، وثابت في أ.

عليكم يترحم بدعائه لكم إلى الخير، ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ جعلوا مصلين لكونهم مستجابين الدعوة، فكأنهم فاعلون الرحمة[1] وصلاتهم قولهم: اللهم صل على المؤمنين.

﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: يترحم عليكم حيث يدعوكم إلى الخير، ويأمركم بإكثار الذكر والتوفر على الصلاة والطاعة، ليخرجكم من ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة.

قال في البرهان: يعني بذكركم له، وتوبتكم إليه يخرجكم من الضلالة والعمى، إلى الرشاد والهدى.

قوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ بشارة لجميع المؤمنين، وإشارة إلى أن قوله تعالى: ﴿يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ غير مختص بالسامعين وقت الوحي، ومعنى ﴿رَحِيمًا﴾ حيث ترحم عليهم بالدعاء إلى ما يسعدهم، وفيه دليل على أن المراد بالصلاة الرحمة.

ولما بين الله تعالى عنايته في الأولى بين عنايته في الآخرة فقال تعالى ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ قيل: معناه تحية المؤمنين من الله يوم القيامة سلام؛ لأنه الدليل على الخيرات، يجوز أن يعظمهم الله بسلامه كما يفعل لهم من أنواع التعظيم، وقيل: هو سلام ملك الموت والملائكة معه، وبشارتهم بالجنة، وقيل: سلام الملائكة عند الخروج من القبور، وقيل:

---

(١) ورد مثل هذا في الكشاف، وقد قيل: إنه من باب الجمع بين الحقيقة والمجاز، وأن هذا من الدليل على جوازها ؛ لأن الصلاة من الله الرحمة حقيقة، ومن الملائكة مجاز كما قال: كأنهم فاعلون للرحمة والرأفة، وقد أجيب عنه بأجوبة منها: أن ﴿يُصَلُّونَ﴾ فيه ضمير جمع فهو منزل منزلة تكرار لفظة يصلي، فليس هذا من إرادة الحقيقة والمجاز بلفظ واحد. وثانيها: قال الطيبي: ذهب المصنف إلى أن القول بالقدر المشترك وعموم المجاز، وهو معنى الرحمة والرأفة، وإطلاق هذا المعنى على الصلاتين مجاز. فهو هنا مجاز فيهما معا استعير لمن يتعطف على غيره، نعم: وهذا في حق الملائكة مجاز بمرتبتين، وذلك لايمنع من الإرادة. (حاشية العلوي خ ٢/ ١٦٧)

عند دخول الجنة، وقيل: هو كلامهم ودعاؤهم لإخوانهم بالسلامة من العذاب

ومعنى قوله ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ فهو ادخر وهيأ لهم ﴿أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ وهو الجنة.

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على أمتك بتكذيبهم وتصديقهم، أي: مقبولا قولك لهم وعليهم ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ بالجنة لمن أطاع ﴿وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ من النار لمن عصى ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى دينه وتوحيده ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بأمره، وقيل: بتسهيله ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ يعني رسول الله ﷺ مثل السراج المضيء في الهداية للخلق إلى طريق الحق كما يهدي السراج من ضل عن الطريق، شبهه بالمصباح لما فيه من النور والهدى والإيضاح، أو كشف به ظلمات الشرك كما يكشف بالسراج ظلمات الليل[١].

[وإنما شبهه بالسراج دون الشمس، والشمس أتم وأكمل؛ لأن المراد بالسراج ضياء الشمس كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ وإنما شبهه بالسراج؛ لأن السراج يتفرع ويتولد منه سرج لا تعد ولا تحصى، بخلاف الشمس، وهو ﷺ تفرع منه بواسطة إرشاده جميع أئمة الهدى، ومصابيح الدجى إلى يومنا هذا، وهلم جرا إلى يوم القيامة][٢]

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطف على مفهوم تقديره: إنا أرسلناك

---

(١) عنى بهذا الكلام أن قوله: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ موقعه موقع المشبه به، والمشبه الكاف في ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ وهو على وجهين، أحدهما: أن يكون من باب التشبيه المركب العقلي، شبهه سبحانه وتعالى بالسراج المنير في أنه جلى به الظلماء، وهدى به الضالون.
وثانيهما: أن يكون من التمثيل وهو أن يكون الوجه منتزعا من عدة أمور متوهمة. (حاشية العلوي ٢/١٦٧).

(٢) ما بين أقواس الزيادة ثابت في أ،وساقط في ب.

شاهدا ومبشرا، فاشهد وبشر، ولم يذكر فاشهد للاستغناء عنه[١].

وقوله تعالى ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ هو مثل قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾[٢] يريد الجنة، وتحقيق ذلك أن الفضل قد يراد به العطاء الكبير، وقد يراد به التفضل الذي ليس بواجب، فإن أريد الأول فظاهر، وإن أريد الثاني فلهم تفضل من الله مع ثوابهم، أو فضلا من الله على سائر الأمم.

ثم قال تعالى ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ من أهل مكة مثل أبي سفيان بن حرب، وعكرمة، وأبي الأعور السلمي ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ مثل عبد الله بن أبي بن سلول، وعبد الله بن سعد[٣] وهذا وإن كان خطابا للنبي ﷺ، ونهيه عن طاعتهم، فالمراد بالنهي الأمة ذكره في البرهان.

قيل: والمعنى دم على مخالفتهم، أو هو من باب التهييج.

وقوله ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ أي: اصبر على أذاهم، ومعناه: دع ما يؤذونك به، ولا تجازهم عليه حتى تؤمر، قيل: وهي منسوخة بآية السيف.

قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معناه خل عنك أذاهم [فسوف نعاقبهم على وجه التهديد والوعيد][٤] ويحتمل وجها آخر، وهو دع أذاهم وقتلهم

(١) وذلك حتى يكون من باب عطف الجملة على الجملة، لا الجملة على المفرد.

(٢) الأحزاب ـ ٤٤ ـ في الأصل (وأعد لهم أجرا عظيما) ونص القرآن ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾

(٣) يحتمل أنه عبد الله بن أبي السرح، ثم ارتد بعد ذلك عندما أكمل آية قبل أن يكملها رسول الله ﷺ فقال: وأنا أيضا يوحى إلي. وقد عاد إلى الإسلام فيما ذكر، وقاد بعض معارك المسلمين.

(٤) ما بين القوسين غير موجود في تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني، والذي فيه (أي خل عنك أذاهم، ولا تشتمهم، ويمكن أن يكون نسخ هذه الآية بالجهاد والغلظة عليهم .. الخ.

حتى تعذر إليهم، فإن كرهوا إعذارك وإنذارك فآذهم واقتلهم؛ لأنه لا يحسن لحجة الله أن يبدأ بالقبيح قبل الوعظ الحسن والقول اللين.

وقد روي أن رجلا كان يؤذي رسول الله ﷺ ويشتمه ويقاتله، فلزمه النبي ﷺ فقال: يا محمد اعف عني، فعفا عنه، فرجع إلى ما كان فيه فلزمه بعد ذلك وشتمه وآذاه ووقفه على فعاله، ثم أمر به أمير المؤمنين عليه السلام، وقال: قم يا علي فاضرب عنقه، فقام أمير المؤمنين عليه السلام فضربه وأتلفه . ولم يأمر به رسول الله ﷺ [إلا بعد الإعذار والبيان، وروي أن رسول الله ﷺ لم يؤذه، ولم يشتمه][1] في السفرة الأولى، بل عفا عنه ووعظه، ولكنه آذاه في السفرة الثانية، لجواز الأذى بعد الإعذار، ولم يؤذه قبل ذلك حتى أعذر إليه، والذي يرادون به من القتل أكبر من أذاهم وشتمهم وتعنيفهم اهـ.

ثم قال تعالى ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ . . . .

ثم قال تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ في الأمور كلها، أي: فوض إليه أمرك فهو يكفيكهم.

ثم قال تعالى إشارة إلى ما يتعلق بجانب ما هو من خواص المرء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ سمى العقد نكاحا؛ لأنه سبب فيه، كما سمي الخمر إثما؛ لأنها سبب في اقتراف الإثم، ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله تعالى إلا بمعنى العقد؛ لأنه في معنى الوطء من باب التصريح به، ومن آداب القرآن الكناية عنه بالمماسة والقربان والتغشي.

﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: تدخلوا بهن، ومن العلماء من حمل المسيس على الخلوة الصحيحة، وذلك أنه جعل المس مس اليد ونحوها، ثم لا يخلو إما أن يكون مع خلوة صحيحة أم لا، جائز أن لا

(١) ما بين المعقوفين موجود في تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام.

يكون معها كأن يكون بحضرتهما غيرهما للإجماع، فبقي المس مع الخلوة الصحيحة، ثم الخلوة الصحيحة كافية وإن لم يمس بيده ولا بغيرها للإجماع أيضا أنه لا فرق، وهذا قول القاسمية، وهو قول أبي حنيفة، ومنهم من يقول: كنى بالمسيس عن الجماع، كما كنى عنه بالملامسة في ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء ٤٣] وبالقربان في ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة ٢٢٢] كما كنى بالتغشي والإتيان، وهذا قول الشافعي، ذكر هذا في التجريد[١].

وقوله ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ دليل على أن العدة حق للرجال على النساء.

ومعنى ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ هو تستوفون عددها من قولك: عددت الدراهم فاعتدها، وكلته كذا فاكتاله، وزنته كذا فاتزنه.

قال في البرهان: إن الطلاق إذا كان لها قبل المسيس والخلوة فلا عدة فيه، وليس للمطلقة من المهر إلا نصفه إن كان لها مهر مسمى، ولا رجعة للمطلق، ولكنه كأحد الخطاب إن كان طلاقه دون الثلاث، وإن كان ثلاثا حرمت عليه حتى تنكح زوجا غيره، وهذا الحكم في المطلقة التي لم يدخل بها زوجها، ثم راجعها بنكاح جديد ومهر مستأنف ثم طلقها، ثم راجعها بنكاح جديد، حتى بانت منه بثلاث تطليقات في رجعتين.

ثم قال ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي: متعة الطلاق بدلا من الصداق؛ لأن المطلقة قبل الدخول إذا كان لها صداق مسمى فليس لها متعة، وإن لم يكن لها صداق مسمى فلها بدل نصف المسمى متعة تقوم مقام المسمى تختلف باختلاف اليسار والإعسار أكثرها نصف المسمى، وأقلها عند العسرة ماله ثمن.

فأما المدخول بها إذا لم يسم لها مهرا فإنه يجب لها المتعة بالطلاق والصداق بالدخول.

---

(١) التجريد: هو شرح التجريد للإمام المؤيد بالله عليه السلام.

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ والسراح الجميل: دفع المتعة على قدر اليسار والإعسار اهـ.

وقيل: معنى ﴿سَرِّحُوهُنَّ﴾ أرسلوهن بالتطليق، و﴿جَمِيلًا﴾ من غير ضرار ولا منع واجب، وقال قتادة: هو طلاقها طاهرا من غير جماع.

ثم قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن، وهذه الآية ناسخة لقوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ ذكره في البرهان[1].

وإيتاؤها: إما إعطاؤها عاجلا، وإما فرضها وتسميتها في العقد، وسمى المهر أجرا؛ لأنه أجرة البضع.

﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ من الإماء ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ من الغنيمة جعلهن غنيمة تسبى، وتُسْتَرَق بحكم الشرع، وهذا حاصر لسبي الوطء كأنه قال: أحللنا لك الزوجات وملك اليمين.

ثم قال تعالى ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ﴾ أي: أحللنا أن تزوجهن،

---

(١) ولفظ البرهان: (قال الإمام الناصر لدين الله صلوات الله عليه: إن الطلاق إذا كان لها قبل المسيس والخلوة فلا عدة فيه، وليس للمطلقة إلا نصفه إن كان لها مهر مسمى، ولا رجعة للمطلق، ولكنه كأحد الخطاب إن كان طلاقه دون الثلاث، وإن كان ثلاثا حرمت عليه حتى تنكح زوجا غيره، وهذا الحكم في المطلقة التي لم يدخل بها زوجها، ثم راجعها بنكاح جديد ومهر مستأنف ثم طلقها، ثم راجعها بنكاح جديد حتى بانت منه بثلاث تطليقات في رجعتين ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ معنى قوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ متعة الطلاق بدلا من الصداق، لأن المطلقة قبل الدخول إذا كان لها صداق مسمى فليس لها متعة، وإن لم يكن لها صداق مسمى فلها بدل نصف المسمى متعة تقوم مقام المسمى تختلف باختلاف اليسار والإعسار، أكثرها نصف المسمى، وأقلها عند العسرة ماله ثمن، فأما المدخول بها إذا لم يسم لها مهر فإنه يجب لها المتعة بالطلاق، والصداق بالدخول، والسراح الجميل: دفع المتعة على قدر اليسار والإعسار. قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ وهذه الآية ناسخة لقوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ انظر البرهان مخطوط ٣١٢.

وهن نساء بني عبد المطلب ﴿وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾ نساء بني زهرة.

قال في البرهان: وهذا من أدل الدليل على أن هذه الآية ناسخة؛ لأنه لما نزل ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ ولم يكن عنده يومئذ في حباله من بنات عمه، ولا من بنات خاله امرأة، فلما جاء إحلال من ذكرنا كان ذلك حكما مستجدا ناسخا لنهي تحريم النساء له اهـ.

ثم وصفهن فقال ﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ يعني من المسلمات، فمن لم تهاجر منهن لم يحل له نكاحها.

وعن أم هاني بنت أبي طالب قالت: خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت، فأنزل الله هذه الآية، فلم أحل له لأني لم أهاجر معه، إنما كنت من الطلقاء[١].

وقيل: هؤلاء المذكورات بخِصِّيَصات، وفائدتها أن الله سبحانه قد اختار له ﷺ الأفضل واختصه بالأطيب كما اختصه بغيرها.

وأما قوله: ﴿اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ وقوله: ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ فلا يدل على تحريم ما خالف ذلك؛ لأن التسمية أفضل من تركها، وإنجاز العقد وتعجيل المهر أفضل، وكان عادة السلف تعجيل المهر، وكذلك المسبيات من دار الحرب أطيب مما يُشْتَرَى من المسلمين لجواز الغصب والحرية وغير ذلك، وإن كان يجوز للنبي ﷺ بغير ذلك الملك، فإن مارية أهداها له المقوقس.

ثم قال عزوجل: ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ أي: وأحللنا لك من وقع لها أن تهب لك نفسها.

وقوله: ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ آخر هو تقييد للأول بشرط الهبة

---

(١) قال ابن حجر في تخريج الحديث: الترمذي، والحاكم، وابن أبي شيبة، وإسحاق، والطبري، وابن أبي حاتم، كلهم من رواية السدي، عن أبي صالح، عنها ..

أن تكون مؤمنة، وأن يريد النبي أن يستنكحها؛ لأن إرادته قبول للهبة، أو تحل محل القبول كأنه قال: أحللنا لك إن وهبت لك نفسها، وأنت تريد أن تستنكحها.

وقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تأكيد بمعنى خلوصا، أي: خلصت الإحلالات الأربع، واختصصت بها من دونهم.

قال في التجريد: وفي المرأة التي وهبت نفسها للنبي أقوال، أحدها: أنها أم شريك، والثاني: أنها خولة بنت حكيم، ولم يدخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم بواحدة منهما، وذكروا أن ليلى بنت الخطيم وهبت نفسها فلم يقبلها.

وعن ابن عباس: أنها ميمونة بنت الحارث، وعن الشعبي: أنها زينب بنت خزيمة.

وقال الهادي عليه السلام: هذه ميمونة الهلالية وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فأجاز الله ذلك له من دون المؤمنين، وجعلها خالصة له، وخاصة من دون المسلمين اهـ.

قال الحسين بن القاسم عليه السلام: معنى ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ أي: خالصة المودة لك من بين المؤمنين، وأما قوله:﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا﴾ فهو إذ وهبت نفسها، فقامت إن مقام إذ، وفي ذلك ما يقول الله عزوجل ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: اسألوهم إذ كنتم لا تعلمون مثل علمهم اهـ.

قال في البرهان: وروينا عن آبائنا عليهم السلام عن زين العابدين [علي بن الحسين] عليه السلام أنها أم شريك ابنة جابر، وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فتزوجها من وليها، وقوله:﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ يعني لم تطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صداقا، ولا رغبت منه في جهاز[1]. اهـ

(١) وزاد في البرهان بعد قوله ولا رغبت منه في جهاز: وقد ينعقد اسم النكاح بلفظ الهبة فيقول الولي للزوج: قد وهبتك كريمتي، وتقول المرأة: قد وهبت نفسي لفلان، أي: رضيته. انظر البرهان خ ٣١٢.

وإنما ذكر هذا لئلا يحمل واحد من المؤمنين نفسه على ما كان للنبي ﷺ فإن له في النكاح خصائص ليس لغيره، والله سبحانه عليم بمصالح عباده، ولذلك قال تعالى ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ معناه إنما ذكرنا فرضك وحكمك مع نسائك، وأما حكم أمتك فعندنا علمه، ونبينه لهم من الفروض التي فرض الله تعالى ألا تتزوج المرأة إلا بولي وشاهدين، وألا يتجاوز الرجل الأربع، والنفقة لهن والقسم بينهن بالسوية.

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ يعني أنهن يحللن من غير عدد محصور، ولا قسم مستحق.

ثم قال تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ قال في البرهان: هو راجع إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾(١) اهـ.

ومعنى ﴿حَرَجٌ﴾ أي: لئلا يكون عليك ضيق ولا مأثم، وقيل: هو متصل بـ﴿خَالِصَةً﴾ وما بينهما جملة اعتراضية فاصلة للتأكيد، أي لئلا يكون عليك ضيق في دينك، حيث اختصصناك بالتنزيه، واخترنا ما هو لك أولى وأفضل في دينك، حيث أحللنا لك أجناس المنكوحات، وزدنا لك الواهبة نفسها، أراد باختصاصه بالتنزيه في دينه اختصاصه نبيه بهذه الإحلالات التي هي أطيب النكاح وأفضله، وأراد بأجناس المنكوحات أن الوطء لا يحل إلا بعقد نكاح، أو ملك يمين، وقد زاد له ﷺ الواهبة بغير مهر، والمعنى: أن الله سبحانه قد علم ما يجب فرضه على المؤمنين ففرضه، وعلم اختصاص رسوله بما اختصه ففعله.

ثم قال ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ للواقع في الحرج إذا تاب ﴿رَّحِيمًا ۝٥٠﴾ بالتوسعة على عباده.

(١) وما قبله أيضا من البرهان، انظر البرهان خ ٣١٢.

ثم لما بين أنه أحل له ما ذكر من الأزواج - بين أنه أحل له وجوه المعاشرة بهن، حتى يفعل كيف شاء، ولا يجب القسم عليه فقال سبحانه ﴿۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾

قال الهادي عليه السلام: معنى ﴿تُرْجِي﴾ فهو تترك وتقصي من شئت منهن، ﴿وَتُـْٔوِيٓ﴾ أي: تضم إليك[1] ﴿مَن تَشَآءُ﴾ أي: تدعو وتخلو بمن أحببت منهن، وذلك أن الله أمره أن ينحيهن كلهن عنه إلى دار معتزلة عنه، ويكون هو في دار على حدة، فإذا أراد منهن واحدة، أرسل لها فدعاها، وإذا لم يرد واحدة أرجأها، وكان ذلك أحب إليهن، وأقر لأعينهن من أن يغشى واحدة إلى منزلها أكثر مما يغشى منازلهن، فعرفه الله سبحانه ما فيه الرشاد له ولهن .اهـ

فمعنى ﴿وَتُـْٔوِيٓ﴾ أي: تدخل إلى دارك، وتلاقي، قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ أي: دخلوه، وصاروا فيه . قلت: وهذا قول أكثر المفسرين: إنها نزلت مبيحة له ترك القسمة، قيل: وكان القسم والتسوية واجبا عليه، فلما نزلت هذه الآية سقط وآل الاختيار إليه والله أعلم.

ومعنى ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ أي: من تركت منهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾

أي: لا إثم في ذلك كله، أي إذا طلبت من كنت تركتها فلا جناح عليك في شئ من ذلك.

وفي البرهان: معنى ﴿تُرْجِي﴾ أي: تطلق من تشاء من نسائك، وتمسك من تشاء، ومن ابتغيت ممن عزلت، وعنى بالعزل هنا الطلاق، والمراد: فمن ابتغيت أن تؤويه وتراجعه بعدما عزلت بالطلاق فلك الرجعة، ولا جناح عليك في ذلك، في من ابتغيت، وفي من عزلت .اهـ

---

(١) لفظ مجموع الأئمة عليهم السلام ص ٤١٩: وتؤوي إليك من شئت، يقول: تدعو .. الخ

وروي أنه آوى سودة، وجويرية، وصفيه، وميمونة، وأم حبيبة، وكان يقسم لهن ما شاء، وآوى إليه عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وزينب، والأصح[(١)] أنه كان يسوي مع ما خير فيه إلا سودة فوهبت ليلتها لعائشة[(٢)].

ثم قال سبحانه ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: تنحيتهن إلى دار معتزلة، والتفويض إلى مشيئتك، تطلب من شئت وتترك من شئت ﴿أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ أي: أقرب إلى قرة أعينهن، وسرورهن، وخير من الطوفان عليهن والتردد بينهن، والاشتغال بذلك من حالهن ﴿وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ من الإرجاء والإيواء قيل: إذا علمن أن هذا التفويض بوحي الله زال التغاير وطابت نفوسهن، ومعناه على قول البرهان: إذا علمن أن لهن ردا إلى فراشه بعد عزله وطلاقه قرت أعينهن فلا يحزن.

ثم قال تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ من أمر النساء، والميل إلى بعضهن، فخيرك تيسيرا عليك، وهو وعيد لمن لم ترض منهن بما دبر وفوض إلى رسول الله ﷺ، وحث لهن على التصافي بينهن.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما في قلوب عباده ﴿حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾ لا يعاجل بالعقاب فهو حقيق بأن يتقى ويحذر.

ثم قال تعالى ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من بعد أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، فقصره الله تعالى على أولئك التسع، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، وغيرهم، وذكروا أن طلاقه لحفصة وعزمه على طلاق سودة كان قبل التخيير، ومن هؤلاء من قال: من بعد التسع؛ لأنها نصابه ﷺ، كما كان الأربع نصاب أمته، فلا يحل له أن يتجاوز النصاب،

---

(١) في النسخة ب (والأصح على هذا أنه كان يسوي) ولفظة (على هذا) في النسخة أ مخدوشة.

(٢) قال ابن حجر في تخريجه على الكشاف ١٣٥: ابن أبي شيبة، عن جرير، وعبد الرزاق، عن معمر، كلاهما عن منصور، عن أبي رزين، وهذا مرسل.

وهن عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وسودة بنت زمعة، وأم سلمة بنت أمية، وصفية بنت حيي بن أخطب الخيبرية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية.

وقيل: المراد من بعد ما ذكر في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ الآية أي: لا يحل لك غير الأجناس الأربعة، فلا يحل له الأعرابيات، وهن غير المهاجرات، ولا الغرائب، وهن غير القرائب المعنيات بقوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ ولا الكتابيات اليهوديات، ولا النصرانيات، ولا الإماء بالنكاح، وتتزوج ممن تقدم في الآية ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ﴾ ما تشاء ولو ثلاث مائة، وهؤلاء يقولون: إنه غير ممنوع من طلاق اللاتي خيرهن واخترنه، ذكر هذا صاحب التجريد، قال: واختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية فقال بعضهم: إنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ وهذا مروي عن علي عليه السلام، وابن عباس، وعائشة، وأم سلمة، وعلي بن الحسين عليه السلام، والضحاك، وقالت عائشة: ما مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى أحل الله له النساء.

قلت: وهذا قول الإمام الناصر لدين الله أبي الفتح الديلمي عليه السلام، وقد مر ذكره.

وقال آخرون: إنها محكمة، وإن الله أثاب نساءه اللاتي اخترنه بأن قصره عليهن كما تقدم، وهذا قول الحسن، وابن سيرين، وأبي أمامة ابن سهل.

ثم قال: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ من لتأكيد النفي، وقوله ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ في معنى الحال، ولا يجوز أن يكون ذو الحال قوله: ﴿مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ لغاية التنكير فيه، وبكون ذي الحال لا يحسن أن يكون نكرة، فإذا هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم، يعني لا يحل لك النساء، ولا أن تبدل بهن من

أزواج وأنت معجب بحسنهن، قاله في الكشاف[(١)].

وفي التبدل أقوال، أحدها: من أن يتزوج غير من ذكر قاله الضحاك.

الثاني: أن يتبدل من المسلمات المشركات، قاله مجاهد وغيره.

والثالث: أنه من البدل في الجاهلية، وهو أن يعطي الرجل زوجته غيره، ويأخذ بها زوجته، قاله أبو هريرة وابن زيد.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ قال ابن عباس: ملكه بعد هؤلاء مارية، وفي ملك يمينه ﷺ أقوال، أحدها: إلا أن يملك بالسبي، وإلى هذا أومأ أبي بن كعب، وقوم.

والثاني: إلا أن يصيب يهودية أو نصرانية فيطأها بملك اليمين، قاله ابن عباس ومجاهد.

والثالث: إلا أن تبدل بأمتك أمة غيرك، قاله ابن زيد، قال أبو سليمان الدمشقي: وهذه الأقوال جائزة إلا أنا لا نعلم أن رسول الله ﷺ نكح يهودية ولا نصرانية بتزويج ولا ملك يمين، ولقد سبى ريحانة القريظية فلم يدن منها حتى أسلمت، وكان يستبشر بإسلامها وبشر به، وهذا دليل على أن الإسلام شرط .اهـ

ثم قال تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾ أي: حافظا عالما بكل شئ، قادرا عليه؛ لأن الحفظ لا يحصل إلا بهما، وهو تحذير عن مجاوزة حدوده.

---

(١) قال في الكشاف: لأنه موغل في التنكير. قال السيد العلوي رحمه الله: قال بعض الفضلاء: وفيه نظر ؛ لأنه إذا كان في الحال واو جاز تأخيرها عن ذي الحال النكرة ؛ لأن الواو تدفع التباسها بالصفة بناء على أنه لاتجوز الواو بين الصفة والموصوف. قلت: لما كان عند المصنف أنه يجوز دخول الواو بين الصفة والموصوف لتأكيد لصوق الصفة به فلا نظر، وأيضا فإنه لما كان هنا معرفة يمكن أن يكون الحال عنه، فجعل الحال عن النكرة غير جائز لأنه خلاف الأصل. انظر حاشية العلوي خ ص ١٦٨.

واعلم أنه لما ذكر الله تعالى في النداء الثالث: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ بيانا لحاله مع أمته[1]، قال للمؤمنين بعد ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾ إرشادا لهم، وبيانا لحالهم مع النبي ﷺ من الاحترام، ولا يشترط في الإذن التصريح بل إذا حصل العلم بالرضى جاز الدخول، ولهذا قال للمؤمنين ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ﴾ من غير بيان فاعل، والآذن إن كان هو الله، أو النبي، أو العقل المؤيد بالدليل جاز.

قال في الكشاف[2]: الخطاب كان مع قوم يتحينون الطعام، وقبل استوائه ويدخلون من غير إذن، فمنعوا من الدخول في وقتهم بغير أذن، وهذا حكم من الله تعالى في منع الداخل منزل غيره إلا بإذنه، وهذا موافق لما سيأتي إن شاء الله تعالى في سورة النور من وجوب الاستئذان، أي: إلا أن تدعوا ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي: غير متوقعين حينه، ووقت نضجه وبلوغه، يقال: أَنِيَ الطعام إنىً، أي: أدرك، ويقال: أَنِيَ الحميم، أي: انتهى حره، ومنه ﴿يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ٤٤﴾ أي: متناه حره، وأناه يؤنيه أينا، أي: أخره وحبسه وأبطأه، قال الكميت:

ومرصوفة لم تأن في الطبخ طاهيا عجلت إلى مخورها حين غرغرا

والاسم منه الأَنَاء: على فَعَال بالفتح، قال الحطيئة:

وآنيت العشاء إلى سهيل أو الشعرى فطال بي الأناء

وقوله: ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ﴾ حال من ﴿لَا تَدۡخُلُواْ﴾ إلا وقت الأذن، ولا تدخلوا إلا غير ناظرين إناه.

---

(١) في النسخة أ (بيانا لحاله مع أمته إنعامه).

(٢) انظر الكشاف ٣/ ٢٤٤.

وقوله ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾ دل على حظر الدخول بغير أذن، وفي قوله: ﴿فَٱدْخُلُوا۟﴾ فائدة وهي أن في العادة إذا قيل لمن كان يعتاد دخول دار من غير إذن لا يدخلها إلا بإذن يتأذى وينقطع بحيث لا يدخلها أصلا ولا بالدعاء، فقال: لا تفعلوا كما يفعله المستنكفون، بل كونوا طائعين سامعين إذا قيل لكم: لا تدخلوا، لا تدخلوا، وإذا قيل لكم: ادخلوا، فادخلوا.

﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ﴾ أي: فرغتم من أكل الطعام ﴿فَٱنتَشِرُوا۟﴾ أي: فاخرجوا، فدل على أن الدخول للأكل يمنع من المقام بعد الفراغ من الأكل، روي أن رسول الله ﷺ أولم على زينب بنت جحش بتمر وسويق وشاة، وأمر أنسا أن يدعو الناس، فلما فرغوا وانصرفوا بقي ثلاثة يتحدثون، فأطالوا فأراد رسول الله ﷺ أن يدخل على أهله فشق عليه مكان أولئك النفر، واستحيا أن يأمرهم بالانصراف، فقام ليقوموا، وطاف على حجرات أزواجه ورجع فإذا الثلاثة جلوس فتولى، فلما رأوه متوليا خرجوا، ونزلت.

وقوله ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ معطوف على ﴿نَٰظِرِينَ﴾ مجرور، وقيل: منصوب بتقدير ولا تدخلوها مستأنسين، فيكون عطفا على المعنى، فإن معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ لا تدخلوها هاجمين، فيعطف عليه ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ﴾ أي: يستأنس بعضهم بحديث بعض، أو يستأنسوا[1] حديث أهل البيت، أي: يستمعوه، فالأول من الأنس خلاف الوحشة، والثاني من الإيناس بمعنى الإدراك.

ثم إن الله تعالى بين كون ذلك أذى، وكون النبي ﷺ حليما بقوله سبحانه ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ الذي نهيتم عنه ﴿كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ

(١) جزمه هنا وذلك على تقدير أنه تفسير لقوله تعالى ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ﴾ على معنى ولا تستأنسوا.

مِنكُمْۖ﴾ أي: من إخراجكم، أو أن يخبركم به ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ﴾ أي: لا يترك الأمر بالحق.

قال في البرهان: وذلك أنهم كانوا إذا أكلوا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جلسوا يتحدثون حتى جاء النهي من الله تعالى عن ذلك.

وقال الحسين بن القاسم عليه السلام: والأصل في هذا القول أن [مولانا] رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما ذكر والله أعلم لما دخل بزوجته، ودعا أصحابه إلى طعام، فلما أكلوا عنده لم يسخوا بمفارقته سرورا منهم برؤيته، وحسن حديثه وحلاوته، وكان يريد الخلو مع أهله قبل حضور وقت صلاته، وأصحابه يريدون حديثه حتى يفوته وقته كله الذي هو له، فأما وقت الصلاة فهو لله تعبده به، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يستحي منهم، وهو أهل ذلك فأدبهم الله عزوجل في انتظارهم .اهـ

ثم ذكر الله عزوجل أدبا آخر بقوله ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ نساءه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿مَتَٰعًا﴾ أي: شيئا ينتفع به من آلة المنزل ونحوها ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ﴾ يحجبهن عن أبصاركم، أمرن وسائر النساء بالاحتجاب عن أبصار الرجال، وأمر الرجال بغض أبصارهم عن النساء ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الحجاب ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾ يعني أطهر من الشهوة والريب والوساوس.

ثم إن الله تعالى لما علم المؤمنين الأدب أكده بما يحملهم على محافظته فقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ في شئ من الأشياء، وكلما منعتم عنه مؤذ فامتنعوا عنه.

[سبب نزول الآية]

وأما قوله تعالى ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ﴾ فقال في البرهان: روينا أن رجلا من قريش قال عند نزول آية الحجاب حجبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن بنات عمنا، ويتزوج نساءنا؛ لئن حدث عليه حدث الموت لنتزوجن نساءه من بعده، فنزلت هذه الآية.

قال في التجريد: ويقال: هو طلحة بن عبيد الله قال: أنهى أن نكلم بنات عمنا إلا من وراء حجاب، والله لئن مات محمد لأتزوجن عائشة[١]، فأعلم الله بتحريم ذلك تعظيما لحرمة رسول الله ﷺ ثم أكده بقول الله تعالى ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ أي: إيذاء الرسول، وهذا تعظيم من الله تعالى لرسوله حيا وميتا.

[حديث ابن عباس مع الشامي في شأن أمير المؤمنين علي عليه السلام]

قال أئمتنا عليهم السلام: نزلت الآية في وليمة زينب بنت جحش لما تزوجها النبي ﷺ.

روى القاسم بن إبراهيم في الكامل المنير، وحديث عبد الرزاق، قال: أخبرنا يحي بن العلاء، عن عمه شعيب بن خالد، عن سلمة بن كهيل، أن عبدالله بن عباس كان يحدث الناس على شفير زمزم، فلما قضى حديثه قام إليه رجل من أهل الشام فقال: يا ابن عباس إني رجل من أهل الشام، قال ابن عباس: أعوان كل ظالم إلا من عصم الله منهم، سل عما بدا لك ياأخا أهل الشام، قال: إني رجل من أهل حمص، وإنهم يبرون من علي بن أبي طالب ويلعنونه، قال ابن عباس: لعنهم الله، له القرابة من رسول الله ﷺ ألم يكن أول العالمين إيمانا بالله ورسوله؟! قال: ليس هم

(١) الرواية في الكشاف ٣/ ٢٤٥، ولم يسم القائل، قال ابن حجر في الكافي الشافي ١٣٧: ابن سعد عن الواقدي، عن عبد الله بن جعفر، عن ابن أبي عون، عن أبي بكر بن حزام في هذه الآية قال: نزلت في طلحة، قال: إذا توفي رسول الله ﷺ تزوجت عائشة، وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة، أن رجلا قال: لو قد مات محمد لأتزوجن عائشة رضي الله عنها، فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ الآية، وروي ابن أبي حاتم وابن مردويه من رواية دواد، عن عكرمة، عن ابن عباس في هذه الآية قال: أنزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ. الحديث من طريق السدي أن الذي عزم على ذلك عائشة رضي الله عنها.

وقال الرازي في تفسيره ٩/ ١٨٠: قيل سبب نزوله أن بعض الناس، قيل: هو طلحة بن عبيد الله قال: لئن عشت بعد محمد لأنكحن عائشة.

يجهلون قرابته ولا سابقته غير أنهم يزعمون أنه أحدث أحداثا، ووضع سيفه على عاتقه، فلم يزل يضرب به أهل شهادة أن لاإله إلا الله، ولم يكفروا حجا ولا عمرة، ولا صلاة ولا زكاة، ولا صوم شهر رمضان، قال ابن عباس: ثكلتك أمك وعدمتك، سل عما يعنيك ودع ما لايعنيك، قال: ما من أمر أنا له أعنى، وعليه أحرص مني على هذا، قال ـ هو ابن عباس ـ وهو يريد أن يصرفه عن الذي يريد: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة ١٣٤] قال الشامي: يا ابن عباس إن قومي جمعوا لي نفقة من أموالهم وأرسلوني إليك، فأنا رسولهم وأمينهم، ولا يسعك في دين الله أن تردني إليهم بغير قضاء حاجتهم، وقد رضي القوم جميعا بك، ففرج عنا فرج الله عنك، فقال ابن عباس: إن العلم الغائب يستصعب لايقوى على حمله إلا ثلاثة: ملك مقرب، أو نبي منتجب، أو مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان، وقد علمت أنك لست بملك ولا نبي، ولعلك ممن امتحن الله قلبه للإيمان، فكيف إذا مر بمسامعك مالم تسمع بمثله قط، وكيف احتفاظك بما عسيت أن لايبلغ فهمك ذكره، وإن كان هو الحق؟ قال الشامي: أرجو أن يلهمني الله معرفته، قال ابن عباس: يا أخا أهل الشام احفظ وافهم واسمع وبلغ أصحابك أني أخبرك أنه كان مثل علي بن أبي طالب عليه السلام في هذه الأمة كمثل العبد الصالح الذي لقيه موسى عليه السلام على ساحل البحر، كما وصفه الله في كتابه، قال ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف ٦٥] فلما أن لقيه موسى وكلمه وسمع كلامه أقر له بفضله ولم يحسده عليه كما حُسِدَ علي على علمه، بل خضع له موسى إذ لقيه فطلب إليه أن يتبعه ويتعلم منه، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف ٦٦] قال له العالم: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف ٦٧ ـ ٦٩] قال العالم: إن علمي لايطاق ولا تصبر عليه ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن

شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ [الكهف ٧٠] فأعطاه موسى ذلك .﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ﴾ [الكهف ٧١] قال العالم: وكان خرقه إياها رضى وصلاحا لأهلها، فلما رأى موسى أن ذلك عنده فساد لم يصبر أن قال ﴿خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا﴾ [الكهف ٧١] قال له العالم: ﴿أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ [الكهف ٧٢] قال له موسى وهو يعتذر إليه ﴿لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا﴾ [الكهف ٧٣] فكف عنه العالم، ورفق به ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ﴾ العالم وكان قتله لله رضا، ولأبويه صلاحا، وسخطا لموسى، قال له موسى ولم يصبر ﴿أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا﴾ [الكهف ٧٤] قال له العالم ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ له موسى ﴿إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ﴾ [الكهف ٧٥ ـ ٧٧] العالم وكان إقامته لله رضا، وللغلامين صلاحا وسخطا لموسى، قال له موسى ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾ [الكهف ٧٧.] وكان العالم أعلم بما أتى، فكيف أنت يا أخا أهل الشام ! أَعْلِمْ أهل الشام أن عليا لم يقتل إلا من كان قتله لله رضا، ولأهل الجحود سخطا، والذي نفسي بيده لا أحابي عليا في ديني وأمانتي، ولا القرابة من رسول الله ﷺ، ولا أقول في ذلك إلا حقا، فأبلغ عني، أخبرك أن رسول الله ﷺ تزوج زينب بنت جحش بعدما طلقها زيد فأولم رسول الله ﷺ، وكانت وليمته الحيس، فكان يدعو كل عشرة على قصعة، ثم كانوا إذا فرغوا استأنسوا لحديثه، وأحبوا النظر إلى وجهه، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يخففوا عنه، ويخلو مع أهله، وكان حديث عهد بالعرس، وأراد أن يؤذن المؤمنين، فلما علم الله ذلك من نبيه أنزل قرآنا في ذلك أذنا للمؤمنين، وذلك قوله عزوجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا

طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ قال ابن عباس: فلما نزلت هذه الآية كانوا إذا أكلوا قالوا: الحمد لله المطعم المنعم، ثم مضوا ولم ينتظروا الخرق ليمسحوا بها أيديهم، فمكث النبي ﷺ بعد ذلك اسبوعا، ثم تحول بعد ذلك إلى بيت أم سلمة ابنة أبي أمية، وكانت مع رسول الله ﷺ ليلتها ويومها حتى تعالى النهار، وإن عليا أتى الباب فدقه دقا خفيفا، فعرفه رسول الله ﷺ وأنكرته أم سلمة فقال النبي ﷺ (قومي ياأم سلمة فافتحي الباب) فقالت أم سلمة من هذا يا رسول الله الذي بلغ من خطره أن أقوم فأفتح له الباب وأستقبله بمحاسني ومعاصمي؟ [وقد أنزل الله بالأمس ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ الآية فقال لها رسول الله ﷺ كهيئة المغضب]: يا أم سلمة إن طاعتي طاعة الله، ومن يطع الله ورسوله فقد أطاع الله، قومي فافتحي الباب، فإن في الباب رجلا ليس بالخرق ولا بالنزق، ولا بالعجل في أمره، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يا أم سلمة إنه يأخذ بعضادتي الباب فليس بفاتح ولا داخل حتى يخفى عليه صوت الوطي، فقامت أم سلمة لاتدري من بالباب، وقد حفظت الصفة والمدحة: فمشت نحو الباب وهي تقول: بخ بخ لرجل يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، فلما فتحت أم سلمة الباب أخذ بعضادتي الباب فلم يزل قائما حتى خفي الوطي، ثم فتح ودخل، وأم سلمة عند رسول الله ﷺ، ثم جلس فقال رسول الله ﷺ هل تعرفين الرجل؟ قالت: نعم هذا علي بن أبي طالب، وهنيئا له فقال النبي ﷺ: يا أم سلمة لحمه لحمي، ودمه دمي، وهو مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لانبي بعدي، يا أم سلمة هذا علي سيد المسلمين، وأمير المؤمنين، علمه علمي، والوصي على أهل بيتي من بعدي، وبابي الذي أوتى منه، والوصي من أهلي، والخليفة على الأخيار من أمتي، أخي في الدنيا ورفيقي في الآخرة، يكون معي

في السناء الأعلى، اسمعي واشهدي يا أم سلمة إنه يقتل الناكثين والمارقين والقاسطين.

قال الشامي: ومن الناكثون؟ قال: الذين أقروا بالمدينة وأنكروا بالبصرة، وأما القاسطون: فمعاوية وأصحابه، وأما المارقون: فأهل النهروان.

قال الشامي: ملأت صدري نورا وحكمة، وفرجت عني فرج الله عنك اهـ.

ومثل هذا ذكر الطوسي رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية ا لكريمة في سورة الأحزاب والحمد لله.

ثم قال تعالى ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا﴾ بألسنتكم، يريد الذي قال: لأنكحن عائشة ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في صدوركم، المعنى إن كنتم لا تؤذونه في الحال، وتعزمون على إيذائه ونكاح أزواجه بعده ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ فهو يعلم ذلك فيعاقبكم به.

ثم إن الله تعالى لما أنزل آية الحجاب استثنى المحارم بقوله تعالى ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: لا إثم عليهن ﴿فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ﴾ يعني في ترك الحجاب أي: ﴿وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ اخوتهن ﴿وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ ولم يذكر العم؛ لأنه بمنزلة الأب والخال؛ لأنهما يجريان مجرى الوالدين، فاستغنى عن ذكرهما، وزعم عكرمة والشعبي أن العلة في عدم ذكر الخال والعم أن المرأة تحل لأبنائهما، فكره أن تضع خمارها عند عمها وخالها؛ لأنهما ينعتانها لأبنائهما.

ثم قال ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ مضافة إلى المؤمنات، حتى لا يجوز الكشف للكافرات.

قال المرتضى عليه السلام: فدل على أن ثم نساء ممنوعات أن يبدين زينتهن

لهن، فحظر عليهن أن يبدين زينتهن عند غير نسائهن، ومعنى ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ فهو أهل ملتهن، واللواتي لسن من نسائهن فهن المخالفات لهن في دينهن فقد حظر عزوجل على المسلمات أن يكشفن قدامهن شيئا من محاسنهن كما حظر عليهن في الرجال سواء سواء، وهن الذميات والمشركات اللواتي لسن من نسائهن، ولا من أهل ملتهن.

ثم قال ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ من الإماء اللواتي لسن من أهل ملتهن، ولم يسلمن بعد، فاستثناهن عزوجل من هؤلاء النساء الممنوع منهن المؤمنات، مثل الروميات والحبشيات، وما أشبههن من الأجناس، فأجاز الله لهن كشف محاسنهن قدامهن قبل أن يسلمن إذ قد حواهن ملكهن، فهذا معنى الآية، ومجرى تفسيرها فيما ملكت أيمانهن اهـ.

وفي البرهان: يعني من الإماء وصغار العبيد، الذين لم يطلعوا على عورات النساء.

وسبب هذه الآية ما روينا أنه لما نزلت آية الحجاب قام الآباء والأبناء فقالوا: يا رسول الله ونحن فلا نكلمهن أيضا إلا من وراء حجاب؟ فنزل قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ الآية اهـ.

ثم قال تعالى ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ فيما أمرتن به من الاحتجاب والاستتار، واحتطن ما قدرتن، دل ذلك على أن التكشف لهم مشروط بشرط السلامة والعلم بعدم المحذور.

وقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾ في غاية الحسن في هذا الموضع، وذلك لأن ما سبق إشارة إلى جواز الخلوة بهم، والتكشف لهم، فقال: إن الله شاهد عند اختلاء بعضكم ببعض، فخلوتكم مثل مَلاَئِكم، بشهادة الله تعالى، فلا تفاوت في علمه في الأحوال من سر وعلن، وظاهر حجاب وباطنه، فاتقوا الله.

ثم قال تعالى تكميلا لحرمة نبيه وتشريفا له صلى الله عليه وآله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ

﴿يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ قد مر الكلام في تفسير صلاة الله عزوجل، وصلاة الملائكة عليهم السلام.

[كيفية الصلاة على النبي والنهي عن الصلاة البتراء]

ومعنى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾ أي: قولوا: اللهم صل على محمد، أي: زد محمد بركة ورحمة ﴿وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ أي: سلموا لأمره بالطاعة تسليما، وسلم مأخوذ من السلامة والدعة، ومنه أخذ السلام، سلام عليكم، معناه: أمن ودعة عليكم منا، والله سبحانه السلام؛ لأن ذلك لا يكون حقيقة خالصا إلا منه الأمن والدعة.

قال الحسين بن القاسم عليه السلام[1]: معنى ﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾ أي: رحموا عليه، وعظموا قدره حتى تثابوا على ذلك، فأما هو فلا يحتاج إلى شفاعتكم، بل أنتم المحتاجون إلى شفاعته، ومعنى ﴿وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ أي: قولوا: صلى الله على محمد وعلى آل محمد وسلم تسليما، أما الصلاة على محمد صلى الله عليه وآله وسلم ففرضها الله في القرآن، وأما الصلاة على آله الطاهرين ففرضها الله في السنة على لسان رسوله، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: (لاتصلوا علي الصلاة المبتورة) أي: المقطوعة المنقوصة، لأن البتر في اللغة هو القطع، وسئل صلى الله عليه وآله وسلم: ما الصلاة المبتورة؟ فقال: هي أن تصلوا علي وحدي ولا تصلوا على أهل بيتي) اهـ.

فإن قال قائل: إن قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (لاتصلوا علي الصلاة البتراء) غير صحيح لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ ولم يذكر الآل؟

قلنا: ـ ولا قوة إلا بالله ـ قال أئمتنا عليهم السلام وشيعتهم رضي الله عنهم

(١) في النسخة ب: قال بعض أئمتنا عليهم السلام، وما أثبتناه هو الثابت في النسخة أ.

في الجواب عن ذلك: إن الصلاة عليهم بعد الصلاة على أبيهم ﷺ ثابتة في الكتاب والسنة، أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية، فقد ألحقهم الله بما ذكر في هذه الآية.

وأما السنة: فما رواه الخاص والعام، فمن ألفاظ ذلك ما رواه زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام قال: عدهن في يدي أبي علي بن الحسين، وقال لي: عدهن في يدي أبي الحسين بن علي، وقال لي: عدهن في يدي أبي علي بن أبي طالب، وقال: عدهن في يدي رسول الله ﷺ، وقال رسول الله ﷺ: عدهن في يدي جبريل، وقال جبريل: هكذا نزلت بهن من عند رب العزة: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم وترحم على محمد وعلى آل محمد كما ترحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم وتحنن على محمد وعلى آل محمد كما تحننت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم وسلم على محمد وعلى آل محمد كما سلمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد).

ورواه أبو طالب في أماليه والحاكم في كتاب أصول الحديث، والزرندي في كتابه درر السمطين في مناقب السبطين، ورواه محمد بن منصور المرادي في الذكر، والقاضي عياض في الشفاء.

ورواه الإمام المرشد بالله بإسناده عن عنبسة بن سعيد[١] عن زيد بن علي بن الحسين عن أبيه عن علي عليه السلام، قال: لما نزلت هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية جاء رجل قال يا رسول الله قد عرفنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك؟ فأخذ بيده ثم قال: اللهم صل على

(١) نسخة (عيينة).

محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد . فذكر الخمس الصلوات، ثم قال: خذها يا علي خمسا.

وروي بإسناده إلى حنظلة بن علي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (من قال: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ...كما ترحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ـ شهدت له بشهادة، وشفعت له بشفاعة).

وروى بإسناده إلى موسى الكاظم عن أبيه جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر، عن أبيه زين العابدين علي بن الحسين عن أبيه سبط رسول الله ﷺ الحسين الشهيد، قال: قال رسول الله ﷺ: (ذا صليتم علي فصلوا علي وعلى أهلي، وعلى أنبياء الله ورسله كانوا قبلي فإنهم قد بعثوا كما بعثت).

وروى بإسناده إلى عبد الرحمن ابن أبي ليلى عن كعب بن عجرة الأنصاري قال: لما نزلت هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ الآية قلنا: يا رسول الله هذا السلام عليك قد عرفناه، فكيف الصلاة عليك؟ قال: تقولون: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد[١]،كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وصل علينا معهم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك علينا معهم، والسلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته).

وروى الهادي عليه السلام في التشهد في الصلاة في الأحكام إتباع الصلاة على الآل بالصلاة على النبي ﷺ عن علي موقوفا.

ومن ألفاظه ما رواه مالك في الموطأ ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، عن أبي مسعود البدري قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في

(١) في نسخة زيادة هنا (وبارك على محمد وعلى آل محمد).

مجلس سعد بن عبادة فقال بشير بن سعد: أمرنا الله تعالى أن نصلي عليك يا رسول الله فكيف نصلي عليك؟ قال: قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم).

ومن ذلك ما رواه أحمد بن حنبل، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجة عن كعب بن عجرة، عن النبي ﷺ قال: (قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد).

وروى أحمد بن حنبل، وابن حبان، والدار قطني، والبيهقي عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: (إذا صليتم علي فقولوا: اللهم صل على محمد النبي الأمي، وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد النبي الأمي، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد).

وروى نحو هذا الحديث بإتباع الذرية والآل في الصلاة على النبي ﷺ أحمد بن حنبل، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجة، عن أبي حميد الساعدي عن النبي ﷺس.

ورواه عبد الرزاق، وأحمد بن حنبل والبخاري ومسلم وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، وابن حبان عن كعب بن عجرة عن النبي ﷺ.

ورواه النسائي عن طلحة، عن النبي ﷺ.

ورواه ابن أبي شيبة في مسند طلحة، ورواه أحمد بن حنبل، والبخاري، والنسائي، وابن ماجة، عن أبي سعيد الخدري.

ورواه ابن حبان، والبيهقي، عن أبي مسعود الأنصاري.

ورواه عبد الرزاق، عن محمد بن عبد الله بن زيد، عن النبي ﷺ.

ورواه احمد بن حنبل، عن بريدة، عن النبي ﷺ.

ورواه ابن عساكر عن عائشة، عن النبي ﷺ.

وعد البغوي[١] حديث أبي حميد الساعدي من الصحاح، ولفظه (قالوا: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ قال: قولوا: اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد).

وروى أبو داود بسنده إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل: اللهم صل على محمد النبي الأمي، وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته، وأهل بيته، كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد).

وقال الحاكم صاحب المستدرك: وقد صحت الرواية على شرط الشيخين، وأنه ﷺ علمهم الصلاة على أهل بيته، كما علمهم الصلاة على آله، ثم ساق الحاكم بإسناده إلى عبد الرحمن بن أبي ليلى، وقال: لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية سمعتها من النبي ﷺ؟ قلت: بلى فاهدها إلي، قال: سألنا رسول الله ﷺ فقلنا: كيف الصلاة عليكم أهل البيت؟ قال: (قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد).

---

(١) في النسخة ب (وعد البغوي حديث كعب بن عجرة من الصحاح، وعد حديث أبي حميد .. الخ

قال الحاكم، وقد روي هذا الحديث بإسناد وألفاظ، حرفا بعد حرف الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، عن موسى بن إسماعيل في الجامع الصحيح، قال الحاكم: وإنما أخرجته ليعلم المستفيد أن أهل البيت، والآل جميعا [هم حِبُّه، أيُّ واحد].

وأخرج أحمد بن حنبل والنسائي، وابن سعيد، وسمويه، والبغوي، والباوردي، والضياء المقدسي، وابن قانع، وأبو نعيم في المعرفة، وابن أبي عاصم، والطبراني، عن زيد بن خارجة عن النبي ﷺ أنه قال: (صلوا علي واجتهدوا في الدعاء، وقولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد).

وروى الشافعي بإسناده من طريق إبراهيم بن أبي يحي، عن أبي هريرة، أنه قال: كيف نصلي عليك؟ ـ يعني في الصلاة ـ قال: (تقولون: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم ..) الحديث.

وروى الشافعي أيضا بإسناده من طريق إبراهيم بن أبي يحي، إلى كعب بن عجرة، عن النبي ﷺ أنه كان يقول في الصلاة: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم .. الحديث.

وقال ابن الخطيب الرازي في مفاتح الغيب في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ الآية سئل النبي ﷺ كيف نصلي عليك يا رسول الله؟ فقال: قولوا: (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد) .(١)

(١) تفسير الرازي ٢٥/٢٢٧، ٢٢٨.

وروى خبر كعب بن عجرة المؤيدُ بالله عليه السلام في شرح التجريد، والإمام أحمد بن سليمان عليه السلام في أصول الأحكام، والأمير الحسين في الشفاء، والإمام محمد بن المطهر في المنهاج.

وإلى خبر أبي مسعود البدري، وخبر كعب بن عجرة أشار الإمام المهدي عليه السلام في البحر، في قوله: وسئل صلى الله عليه وآله وسلم كيف نصلي عليك الخبر، ونحوه.

وسرد ابن بهران في تخريجه خبر أبي مسعود البدري.

وسرد خبر الهادي عليه السلام الموقوف على علي عليه السلام من طريق زيد بن علي عليه السلام.

وروى القاضي عياض في الشفاء حديث أبي حميد الساعدي، وحديث أبي مسعود الأنصاري البدري، وحديث كعب بن عجرة، وحديثا عن عقبة بن عامر بإتباع الآل نحو حديثهم، وحديث أبي سعيد الخدري، وحديث أبي هريرة، وحديث زيد بن خارجة الأنصاري، وحديث عبد الله بن مسعود.

قال إمامنا المنصور بالله رحمة الله عليه: وقد ذكر هذا كله: قلت وبالله التوفيق: هذه شواهد تدل على صحة ما رواه القاسم بن إبراهيم عليه السلام في كتاب الكامل المنير، فإنه روى بصيغة الجزم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (لا تصلوا علي الصلاة البتراء، فقيل: يا رسول الله وما الصلاة البتراء؟ فقال: أن تصلوا علي وحدي، ولكن صلوا علي وعلى أهل بيتي، فقولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد).

وقال الإمام المنصور بالله عليه السلام في الشافي في جوابه على فقيه الخارقة في كلامه فقال عليه السلام: وأنا أروي هذا الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أو كلاما هذا معناه.

وروى الأمير الحسين عليه السلام في الشفاء بصيغة الجزم أيضا عن علي عليه السلام أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إذا صليتم علي فصلوا على آلي معي، فإن الله لا يقبل الصلاة إلا مع آلي).

وقال القاضي عياض في الشفاء ما لفظه: وفي حديث أبي جعفر، عن أبي مسعود، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (من صلى على صلاة لم يصل فيها علي وعلى أهل بيتي لم تقبل منه).اهـ كلامه عليه السلام.

وروى أبو طالب عليه السلام في الأمالي بإسناده من طريق جعفر بن محمد عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (ارفعوا أصواتكم بالصلاة علي وعلى أهل بيتي فإنها تذهب بالنفاق) اهـ

قال الواحدي: والحديث الصحيح الجامع لتفسير هذه الآية ما روى البخاري، ومسلم، عن كعب بن عجرة، قال: قلنا: يا رسول الله قد عرفنا التسليم عليك، فكيف الصلاة عليك؟ قال: قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد) .اهـ ما رواه إمامنا المنصور بالله عليه السلام.

وفي الحديث (من ذكرت عنده فلم يصل علي فدخل النار فأبعده الله).

وفيه أيضا (إن الله وكل بي ملكين فلا أذكر عند مسلم فيصلي علي إلا قالا: غفر الله لك، وقال الله وملائكته: آمين جوابا لهما، ولا أذكر عند مسلم فلم يصل علي إلا قالا: لاغفر الله لك، وقال الله وملائكته: آمين جوابا لهما، ولا أذكر عند مسلم فلا يصلي علي إلا قال: لا غفر الله لك، وقال الله وملائكته آمين).

وبعض العلماء أوجب الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم كلما جرى ذكره، وهو قول الشافعي، ومنهم من أوجبها في كل مجلس مرة، ومنهم من أوجبها في

العمر مرة، وأما في الصلاة فعند الشافعي أنها واجبة شرط، وهو قول القاسمية، وعند أبي حنيفة غير شرط.

واعلم أنه لما كان الله مصليا على نبيه لم ينفك إيذاء الله عن إيذائه ﷺ، فإن من آذى الله فقد آذى الرسول، فبين الله تعالى ذلك بقوله عزوجل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى فضل الأشياء بتبيين بعض أضدادها، فبين حال مؤذي النبي ﷺ ليبين فضيلة المسلم عليه.

قال في البرهان: وهذه الآية نزلت في المنافقين الذين كانوا يؤذون النبي ﷺ، ويبهتونه، ويكذبون عليه، ومعنى قوله: ﴿يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ﴾ يؤذون رسوله، فجعل أذى رسوله أذى له، تشريفا لمنزلته، وتشييدا لكلمته اهـ.

وذلك لأن الأذى مستحيل على الله، وإنما أضافه إلى نفسه مبالغة في تعظيم المعصية، وعن علي عليه السلام: (حدثني رسول الله ﷺ وهو آخذ بشعري فقال: من آذى شعرة منك فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فعليه لعنة الله في الدنيا والآخرة، لعنة الله في الدنيا القتل والجلاء، ولعنته في الآخرة النار، والبعد عن الرحمة) . فقوله: (في الدنيا والآخرة) . إشارة إلى بعد لا رجاء للقرب معه؛ لأن المبعد في الدنيا يرجو القرب في الآخرة، فإذا خاب في الآخرة فقد خاب وخسر.

ثم إنه تعالى لم يحصر جزاءه في الإبعاد، بل أوعده بالعذاب الدائم المهين.

ثم قال عزوجل ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ﴾ أي: بغير جناية ولا استحقاق، وأطلق في الله ورسوله، إذ لا يكون أذاهما إلا بغير حق أبدا ﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا﴾ أي: عقاب بهتان، بهت به من لم يفعله، فبهت أي: حُيِّرَ ﴿وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾﴾ أي: بَيِّناً، وعن

الفضيل: لا يحل أن تؤذي كلبا أو خنزيرا بغير حق.

قال في البرهان: وهذه الآية نزلت في كل من كان يؤذي أمير المؤمنين عليا عليه السلام، وفاطمة بنت رسول الله صلوات الله عليهم أجمعين، ويكذبون عليهما(١).

ولما ذكر أن من يؤذي المؤمنين يحتمل بهتانا، وكان فيه منع المكلف عن إيذاء المؤمن، أمر المؤمن باجتناب الموانع التي فيها التهم الموجبة للتأذي، لئلا يحصل الإيذاء الممنوع منه، فقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ والجلباب: هو كل ثوب تلبسه المرأة فوق ثيابها اهـ.

أي: يرخين عليهن من ثيابهن، قال الشاعر:

(مجلببا من سواد الليل جلبابا).

أي: ملحفا من الظلمة لحافا وثيابا، وإنما أمرت بذلك لتغطي به وجهها وبدنها، حتى لا تبدو غير عينها اليسرى، والجلباب أوسع من الخمار، ودون الرداء، تلوث به المرأة على رأسها، ويبقى منه ما ترسله على صدرها.

ثم قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أمرن به ﴿أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ أي: ذلك أقرب إلى أن يعرفن بالعفة والورع، وبالصيانة والحياء ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ بالكلام والتعرض، وقيل: كان النساء أول الإسلام يخرجن لقضاء حوائجهن في النخيل بغير خمر كالإماء، فيتعرض لهن الفساق في الليل بعلة أنها الأمة، فيقولون: حسبناهن إماء، فأمرن بمخالفة زي الإماء لِيُهَبْنَ، فلا يطمع فيهن طامع.

(١) وفي الكشاف ٣/٢٤٦، قال: وقيل: نزلت في ناس من المنافقين يؤذون عليا رضي الله عنه، ويسمعونه.

وفي التجريد: وذلك أن النساء كن يبرزن على عادتهن في الجاهلية في درع وخمار، ولا فصل بين الحرة والأمة، ولعله الأولى.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ إذا تبن عن تفريط ما سلف ﴿رَّحِيمًا ۝٥٩﴾ بقبول التوبة.

ولما ذكر حال المشرك الذي يؤذي الله ورسوله، والمجاهر الذي يؤذي المؤمنين ذكر حال المسر الذي يظهر الحق، ويضمر الباطل، وهو المنافق فقال تعالى ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عن عداوتهم ونفاقهم ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ لما كان المذكور من قبل أقواما ثلاثة ـ نظر إلى اعتبار أمور ثلاثة، وهي [الموذون لله] والمؤذون للرسول، والمؤذون للمؤمنين، ذكر من المسرين ثلاثة نظرا إلى اعتبار أمور ثلاثة، أحدها: المنافق الذي يؤذي الله سرا، والثاني: الذي في قلبه مرض للذي يؤذي المؤمنين . قال في البرهان: معناه لئن لم ينته عن إظهار النفاق والشرك الذي في قلبه مرض .اهـ وهم قوم كان فيهم ضعف إيمان وشك فيه، وقيل: هم الزناة.

والثالث: قوله ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ بأخبار السوء عن سرايا رسول الله ﷺ كانوا يقولون: هزموا، قتلوا، يذكرون من الأخبار ما يضعفون به قلوب المؤمنين، فالإرجاف: التماس الفتنة، وسميت الأراجيف لاضطرابها، أي: سمى الخبر الذي على غير حقيقة إرجافا؛ لأنه متزلزل غير ثابت، ومنه الرجفة، وهي الزلزلة.

ومعنى قوله: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي: لنسلطنك عليهم، ولنأمرنك بحربهم وعداوتهم، ولنفعلن بهم الأفاعيل التي تسوؤهم، وتضطرهم إلى الجلاء، وهو معنى قوله ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠﴾ يعني في المدينة؛ لأنه ينفيهم عنها، المعنى: لا يسألونك فيها إلا زمنا قليلا ريثما يرتحلون، فسمى ذلك إغراء، وهو التحرش على سبيل المجاز.

وقوله ﴿مَّلۡعُونِينَۖ﴾ منصوب على الشتم، أو حال، أي: لا يجاورونك فيها إلا ملعونين مبعدين عن رحمة الله، وقيل: ثم لا يجاورونك فيها إلا أقلاء أذلاء ملعونين.

﴿أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ﴾ أي: إذا خرجوا لا ينقلون عن الذلة، ولا يجدون ملجأ، بل أينما يكونوا يطلبوا ويؤخذوا ويقتلوا[1]، والثقف: الوجود مع القدرة أخذا، أي: لُزِمُوا وظُفِرَ بهم، واستُمْكِنُوا، قال الشاعر:

فإما تثقفن بني لؤي جذيمة إن قتلهم دواء

ومعنى قوله ﴿وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ٦١﴾ أي: قتلا شديدا، وهو داخل تحت الشرط، أي: لئن لم ينتهوا ليكونن هذا الحكم، وهو أنهم أين ما وجدوا أخذوا وقتلوا، وقيل: هو في معنى الأمر، أي: خذوهم واقتلوهم، قالوا: وقد أغري بهم، فقيل له: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ وقال صلى الله عليه وآله وسلم يوم الجمعة: اخرج يا فلان من المسجد فإنك منافق، ويا فلان أخرج فإنك منافق، وعلى الأول توعدهم بالإغراء بهم إن لم ينتهوا، وقد انتهوا فلم يكن الإغراء واقعا بهم.

ثم قال تعالى ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ أي: سن الله ذلك سنة، أي: عوده عادة ﴿فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ﴾ يعني هذا ليس بدعا، بل هو سنة جارية، وعادة مستمرة يفعل بالمكذبين، أي: سن الله في المنافقين للأنبياء من قبلك أن يقتلوا أينما ثقفوا.

قال في البرهان: وسنة الله [في الذين خلوا من قبل][2] هو من أشرك بالله قتل، ومن نافق بُعِدَ.

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾ يعني: تغييرا وتحويلا، فلتحذر عادته في أعداء الأنبياء.

---

(١) في الأصل (يطلبون ويؤخذون ويقتلون).

(٢) ما بين أقواس الزيادة من البرهان.

واعلم أنه تعالى لما بين حالهم في الدنيا أنهم يُلعنون ويُهانون ويُقتلون، أراد أن يبين حالهم في الآخرة، فذكرهم بالقيامة، وذكر ما يكون لهم فيها فقال عز من قائل ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ كان المشركون يسألونه استعجالا هزؤا، واليهود امتحانا، ويسألونه عن وقتها ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ استأثر به، ولم يطلع عليه ملكا ولا نبيا، وعمى عليها في كل كتاب، وأخفاها لمصلحة وحكمة.

ثم قال تعالى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ متى تأتي فإن الله لم يعلمك ولا غيرك بذلك، بل قال متهددا للسائلين ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ أي: لعل الساعة تكون شيئا قريبا مرئيا، وَذَكَّرَ لأن الساعة في معنى اليوم، أو أراد ذات قرب(١).

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أبعدهم وطردهم عن رحمته، يعني كما أنهم ملعونون في الدنيا عندكم، فكذلك هم ملعونون عند الله ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾ النار المسعورة الشديدة الايقاد.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي: مطيلين المكث فيها، مستمرين فيها لا أمل لخروجهم منها ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يتولى مصالحهم ﴿وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ يرفع العذاب عنهم، لما ذكر خلودهم بين تحقيقه، وذلك لأن المعذب لا يخلصه من العذاب إلا صديق يشفع له، أو ناصر يدفع عنه، فأخبر سبحانه أنه لا ولي لهم يشفع ولا نصير يدفع.

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: تدور في النار، وتصرف في جهاتها، كما ترى البضعة من اللحم تدور في القدر إذا غلت، أو تغير عن أحوالها وهيآتها، إذ يطرحون في النار مقلوبين، أي:

---

(١) وقيل: لأن قريب فعيل، وهو مما يستوي فيه المذكر والمؤنث، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

منكوسين، وخصت الوجوه بالذكر؛ لأن الوجه أكرم ما في الإنسان، ويجوز أن يكون الوجه عبارة عن الجملة، وذلك أنه لما بين أنه لا شفيع لهم يدفع عنهم العذاب بين أن بعض أعضائه أيضا لا تدفع العذاب على البعض، بخلاف عذاب الدنيا، فإن الإنسان يدفع عن وجهه الضربة اتقاء بيده، فأن من يقصد رأسه ووجهه تجده يجعل يده جنة، أو يطأطئ رأسه كيلا يصيب وجهه، وفي الآخرة تقلب وجوههم في النار، فما ظنك بسائر أعضائهم التي تجعل جنة الوجه ووقاية له.

ثم أخبر تعالى أنهم ﴿يَقُولُونَ﴾ يوم تقلب وجوههم في النار ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾ يتحسرون ويتندمون حيث لا تغنيهم الندامة والحسرة، لحصول علمهم بأن لا خلاص، ولات حين مناص، وزيادة الألف في هذا، و(السبيلا) لإطلاق الصوت، جعلت الفواصل للآي، كقوافي الشعر، وفائدتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع.

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ يعني بدل طاعة الله أطعنا السادة، وبدل طاعة الرسول أطعنا الكبراء، وتركنا طاعة سيد السادات، وأكبر الأكابر فبدلنا الخير بالشر، لاجرم فاتنا خير الجنان، وأوتينا شر النيران.

قال في البرهان: عنوا بهم من كانوا يأمرونهم بالضلال، وينهونهم عن الرشاد [وهم رؤساؤهم الذين لقنوهم الكفر وزينوه لهم][1] ومعنى ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ أي: طريق الإيمان والهداية، وهذه الآية نزلت في اثني عشر رجلا من كفار قريش هم المطعمون يوم بدر اهـ.

ثم إنهم يطلبون بعض التشفي بتعذيب المضلين، فيقولون ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ

---

(١) مابين القوسين غير موجود في النسخة من البرهان المخطوطة الموجودة لدي، وهو ثابت في اصل هذا التفسير.

ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ يريد مثلين منه، أي: ضعفا لضلاله، وضعفا لإضلاله.

وفي البرهان: معناه ضَعِّفْ عليهم الانتقام في الدنيا، والعذاب في الآخرة اهـ.

﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ أي: كثيرا عدده، قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وابن عامر بثاء مثلثة، وقرأ عاصم بباء موحدة، قال أبو علي: الكثرة أشبه بالمرات المتكررة، قيل: والباء الموحدة تفيد أعظم اللعن وأشده.

ولما أخبر الله تعالى أن من يؤذي الله ورسوله يلعن ويعذب، أرشد المؤمنين إلى الامتناع من كل أذى فقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ﴾ قال الهادي إلى الحق عليه السلام: هذا نهي من الله سبحانه عن أذاية الأنبياء، والاجتراء عليهم في سبب من الأسباب ومعنى، وقد قيل: إن الذين آذوا موسى صلى الله عليه الذين قالوا: ﴿ساحران تظاهرا﴾ فنسبوا إليه وإلى أخيه السحر فبرأه الله من ذلك بما أفلج من حجته، وأظهر من حقه عند تلقف عصاه إفك السحرة، وإبطال الله لسحرهم، وتبيينه لفضيحتهم، وقد قيل: إنه السامري ومن تبعه على دينه من خاصته حين عمل العجل، وقال لبني إسرائيل: هذا إلهكم وإله موسى، فبرأه الله من ذلك عند من اختدع بما أظهر موسى في العجل من التحريق والنسف له في اليم، فكلا المعنيين حسن؛ إذ كان كلا الفريقين له مؤذيا، والآخر أحسنهما عندي في المعنى؛ إذ كان أهله من قبل كفرهم بموسى مؤمنين، ولرب العالمين عابدين، ثم ذكروا في موسى ما ذكروا من بعد معرفتهم بالحق، وبعدهم من الكفر والفسق، فنهى الله المؤمنين أن يفعلوا كفعل أولئك الإسرائيليين في الأذى لمحمد ﷺ في أي وجوه الأذى كان.

وقوله تعالى ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ فهو كريم معظم مقدم اهـ.

قال في البرهان: والذي آذوا به رسول الله ﷺ أن النبي ﷺ قَسَمَ قسما فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، فذكر ذلك للنبي ﷺ فغضب، وقال: (رحم الله موسى فقد أوذي بأكبر من هذا).

وقوله: ﴿وَجِيهًا﴾ اشتقاقه من الوجه؛ لأنه أرفع ما في الإنسان، أي: كان عند الله رفيع المنزلة والمقدار اهـ(١).

وقيل: ذا جاه، فلذلك كان يزيل عنه التهم.

وقيل: نزلت في زيد بن حارثة وزينب، حين تزوجها رسول الله ﷺ، وما سمع فيه من قالة بعض الناس.

ثم أرشدهم إلى ما ينبغي أن يصدر منهم في الأفعال والأقوال فقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠﴾ أي: صوابا عدلا مصيبا للسداد، قال الشاعر:

وإن قال قولا كان فيه مسددا

أو قاصدا إلى الحق. والسداد: القصد إلى الحق. والقول: سدد السهم نحو الرمية: لم يعدل به عن سمتها، والمراد نهيتم عن حديث زينب من غير عدل في القول، ثم صار أمرا عاما بتسديد القول، أي: إصلاحه.

ثم وعدهم على الأمرين بأمرين أحدهما قوله تعالى ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ أي: يقبل حسناتكم، ويثيبكم عليها، أو يوفقكم للمجيء بها صالحة.

(١) انظر البرهان مخطوط ص ٣١٤، وفيه زيادة بعد قوله: بأكبر من هذا [والذي أوذي به موسى فصبر ما رويناه عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أن موسى عليه السلام صعد وهارون الجبل فمات هارون فقالت بنو اسرائيل لموسى: أنت قتلته، كان ألين لنا منك، وأشد حبا وآذوه في ذلك، فأمر الله الملائكة فحملته فمروا به على مجالس بني اسرائيل فتكلمت الملائكة بموته وليس يعرف موضع قبره] وكان عند الله وجيها ... الخ ما ذكر أعلاه.

والثاني: قوله ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ الصغائر باجتناب الكبائر وغيرها بالتوبة.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فطاعة الله هي طاعة الرسول، ولكن جمع بينهما لبيان شرف المطيع، فإنه بفعله الواحد اتخذ عند الله عهدا، وعند رسوله يدا.

وقوله ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ أي: ظفر ظفرا لا أعظم منه، والفوز العظيم جعل عظيما من وجهين، أحدهما: أنه نجا من عذاب عظيم، والنجاة من العذاب يعظم بعظم العذاب، حتى أن من أراد أن يضرب غيره سوطا، ثم نجا منه لا يقال: فاز فوزا عظيما؛ لأن العذاب إذا نجا منه لو وقع ما كان يتفاوت الأمر تفاوتا كثيرا.

والثاني: أنه وصل إلى ثواب كبير، وهو الثواب الدائم الأبدي.

واعلم أن الله تعالى لما أرشد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق، وأدب النبي ﷺ بأحسن الآداب بين أن التكليف الذي وجهه إلى الإنسان أمر عظيم، فقال سبحانه ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ﴾ أي: خفن ﴿مِنْهَا﴾ أن يحملن مأثمها ووزرها وعذابها، وهذا جائز عند العرب قال الشاعر:

قد امتلأ الإناء وقال قطني ... مهلا رويدا قد ملأت بطني

والحوض لا يقول حرفا من هذا، ولكن معناه: أن الحوض لو كان يعقل ويتكلم لقال هذا القول، ونحو هذا الكلام كثير على ألسنة البهائم والجمادات، ومن ذلك قولهم: لو قيل للشحم: أين تذهب؟ لقال: أشفي[1] العوج، وتصوير مقاولة الشحم محال، ولكن الغرض أن السمن في الحيوان مما يحسن قبيحه، كما أن العجف مما يقبح حسنه، فصور أثر

(١) في نسخة (أسوي العوج).

السمن فيه تصويرا هو أوقع في نفس السامع، وهي به آنس، وله أقبل، وعلى حقيقته أوقف، وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها وثقل محملها، والوفاء بها، فعظم أمرها بهذا الكلام.

ثم قال سبحانه ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ وفي هذه الآية وتفسيرها يقول الهادي إلى الحق عليه السلام: هذا مثل مثله الله تبارك وتعالى، يريد سبحانه أنا لو جعلنا في السموات والأرض تمييزا وفهما يفهمن به قدر الأمانة، ثم عرضت عليهن الأمانة لأبينها وأشفقن منها، ومعنى عرض الأمانة عليهن: فهو التكليف لحمل مَوْثِقِها، يقول: لو كلفناهن حمل وثائق الأمانة لأشفقن من نقضها، وأشفقن من خيانة ما فيها، ولم يفعلن بعد المعرفة والتمييز لها ما يفعله الإنسان من الإقدام على نقضها، والغدر بمؤكدات مواثيقها، وحمل إثمها، وجليل سخط الله في نقضها، وحمل الإنسان لها فهو حمل إثم الغدر بها، والارتكاب لسخط الله فيها، ومعنى ﴿ظَلُومًا﴾ يقول: إن الإنسان ظلوم لنفسه، جهول في الإقدام على معاصي الله بما عليه في ذلك عند الله.

قال الحسين بن القاسم عليه السلام: والأمانة فهي أمانة الله التي استودعها خلقه، وعقدها في رقابهم من أداء حقه، والقيام بأمره، وأخذ الحق وإعطائه، ومن ذلك أمانات الخلق فيما بينهم، وما يتظالمون به، ويجترون على الله فيها.

قال في الكشاف: والمعنى أنما كلفه الناس بلغ من عظمه، وثقل محمله أنه عرض على أعظم خلق الله من الأجرام، وأقواه وأشده أن يتحمله ويستقل به، فأبى حمله والإستقلال به، وحمله الإنسان على ضعفه وضمنه، ثم خاس بضمانه، ثم وصفه بالظلم لكونه تاركا لأداء الأمانة وبالجهل لأخطائه ما يستعده مع تمكنه منه، وهو أداؤها.

وقوله ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ تعليل لحمل الأمانة مجازا، ومعنى ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ﴾ حامل الأمانة الذي لم يؤدها، ويخرج عن عهدتها؛ لأن التعذيب نتيجة حملها، وعذابهم بالشرك والنفاق والعصيان والشقاق فائدته الحاصلة بسببه.

ثم قال تعالى ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: يتوب على من أدى الأمانة فلم يحملها بل خرج عن عهدتها، وهم أهل الإيمان والطاعة، أي: يعود عليهم بالفضل، ويرجع بالرحمة لهم، قرئ: (ويتوبُ) بالرفع لتجعل العلة قاصرة على فعل الحامل، ويبتدئ ﴿وَيَتُوبَ﴾ قبل التعليل مجاز، أي: ليكون عاقبة ذلك تعذيب المنافقين، والتوبة على المؤمنين، وقيل: التعليل حقيقة ومعناه: عرضنا الأمانة ليظهر نفاق المنافقين، وشرك المشركين، فيعذبهم الله، ويظهر إيمان المؤمنين ويتوب الله عليهم، أي: يعود عليهم بالرحمة إن وقع منهم تقصير.

قلت: وهذا أولى لظاهر التعليل؛ إذ لا موجب للعدول عنه . والله أعلم.

للتائبين ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ بهم لقبول توبتهم، أي: هو سبحانه منذ تَعَبَّدَ الخلقَ رحيم بهم، والمعنى: والله غفور رحيم، فدخلت كان في اللفظ، إذ خاطب العرب بلغتها فجاز أن يقول: كان لما قد هو كائن، وفي ذلك يقول أبو طالب عم النبي ﷺ: (كان ابن آمنة الأمين محمد عندي بمثل منازل الأولاد) فقال: كان، فخرج قوله على أنه قد زال مما كان عليه عنده، ولم يزل أبو طالب محبا لمحمد ﷺ محاربا لقريش دونه حتى مات أبو طالب، ومحمد ﷺ منه بتلك المنزلة، وإنما أراد بقوله: كان ابن آمنة، أي: ابن آمنة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ فلما أن قال

تبارك وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ خرج المعنى على أنهم قد كانوا ثم غيروا، وليس ذلك كما يتوهم، وإنما معنى ﴿كُنتُمْ﴾ أي: أنتم، وهذا في لغة العرب كثير موجود.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ وإنما معناه: والله بكل شئ عليم، ذكر معنى هذا المرتضى عليه السلام.

سورة الجرز [السجدة]

ثلاثون آية في الحجازي والكوفي، وتسع وعشرون في البصري، مكية، ابن عباس وعطاء، إلا ثلاث آيات فمدنية نزلت في علي -رضي الله عنه- وفي الوليد بن عتبة قال لعلي: أنا أبسط منك لساناً، وأحدُّ منك سناناً، وأرزن للكتيبة، فقال علي: اسكت فإنك فاسق، فأنزل الله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ إلى آخر الآيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾(١) الم مبتدأ إن كان اسماً

(١) **وفي تفسير الإمام زيد بن علي** عليه السلام ما لفظه:
حدثنا أبو جعفر، قال: حدثنا علي بن أحمد، قال: حدثنا عطاء بن السائب، قال: عن أبي خالد، عن الإمام زيد بن علي عليهما السلام [في قوله تعالى]: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ معناه: أم يقولون اختلقه من قبل نفسه.
وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ معناه: تعرج الملائكة إلى السماء وتنزل في يوم من أيام الدنيا، وهو مسيرة ألف سنة. وقال عليه السلام: الستة الأيام التي خلق فيها السموات والأرض.
وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ السلالة: صفوة الماء. وقال: مما خرج هراقته. ومهين: ضعيف رقيق
وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أحسن: معناه أتقن.
وقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ معناه: تتنحى وترتفع
وقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ قال عليه السلام: العذاب الأدنى: هو عذاب القبر. وقال: هو سنون أخذوا بها. وقال: هو يوم بدر. وقال: =

. . . .

= مصائب يصابون بها في الدنيا. وقال: هي الحدود التي تقام عليهم في الدنيا
وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ معناه: يتوبون.
وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ قال الإمام زيد بن علي عليهما السلام: لا تزال الأئمة منها -أهل البيت- يدعون إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حتى يتقارب وقت الآخرة.
وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ معناه: يبين لهم.
وقوله تعالى: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ معناه: البلقع، ومعناه الأرض الغليظة اليابسة التي لم يصبها مطر. وقال: هي الأرض التي ليس فيها نبات، وقال: هي أرض اليمن.
وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ معناه: يوم القضاء.
وفي تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام ما لفظه :
تفسير غريب سورة الجرز [السجدة]

بسم الله الرحمن الرحيم

تأويل قول مولانا عز وجل ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: استوى على الملك، وهو الخلق جميعا في هذا الموضع خاصة، قال الشاعر:
قد استوى بشر على العراق بغير سفك ودم مهراق
من غير ما زور ولا نفاق
وقال آخر:
تداركتما الأحلاف قد ثل عرشها وذبيان إذ زلت بأقدامها النعل
أي: سقط ملكها.
ومعنى ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: يحكم الأمر ويهبطه إلى محمد على جبريل عليه السلام ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ يعني جبريل، ومعنى ﴿يَعْرُجُ﴾ أي: يطلع إليه، ومعنى ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى طاعته ومحل عبادته ﴿فِي يَوْمٍ﴾ واحد يقطع مسيرة ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ لو سار غيره من الآدميين في مقدار ذلك ـ والله أعلم.
ومعنى قوله: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أي: جعل كل خلقه حسنا في الحكمة والمعقول، وإتقان الصفة التي لا تنكرها العقول ﴿وجعل نسله﴾ أي: ولده ﴿مِن سُلَالَةٍ﴾ أي: من مالين ينسل من صلبه، وينزل ، قال الشاعر:
سلالة بكر جدرتني وأمه ذمول إذا ما القيص صرَّت جنادبه
أي: ولد حمل جدريا ونسله.
ومعنى قوله: ﴿أإذا ظللنا في الأرض﴾ الضلال في الأرض هو الهلاك والتلاشي والامتحاق. =

للسورة وخبره ﴿تَنزِيلُ﴾ وإن جعلته تعديدا للحروف ارتفع ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بأنه خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لوجه أن يرتفع ﴿تَنزِيلُ﴾ بالابتداء، وخبره ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراض فاصل للتأكيد، والضمير في ﴿فِيهِ﴾ راجع إلى مضمون الجملة كأنه قال: لا ريب في ذلك، أي: في كونه منزلاً من رب العالمين، وإنما ذكره بلفظ رب العالمين؛ لأن كتاب(١) مَنْ يَكُونُ ربَّ العالمين يكون فيه عجائب العالمين، فيدعو النفس إلى مطالعته ومعرفته، وإنما نفى الريب فيه

= ومعنى قوله: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: يتوفى أنفسكم كلها، ويستوفي أرواحكم جميعا، يقال: توفينا حقنا كله، أي: أخذناه وافيا غير ناقص، قال الشاعر:

ليسوا إلى قيس وليسوا من معد ... ولا توفاهم قريش في العدد

أي: لا تحسبهم، ولا توفي عددها بهم ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي: ترتفع جنوبهم بالليل عن الفراش، ويقومون ويقعدون خوفا من العذاب، قال الشاعر:

جنبي تجافى عن الوساد ... مخافة البعث والمعاد

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي: ليس تعلم النفوس، ولا يخطر على القلوب ما أخفينا لهم يوم القيامة من الحور والجنان والنعيم والإحسان.

ومعنى قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ أي: لنذيقنهم من العذاب الأقرب الذي في الدنيا قبل العذاب الأكبر الذي في الآخرة، والعذاب الأدنى هو الحدود والموت والقتل والأمراض، والغموم، والرزايا والمصائب ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: ليرجعوا إلى الحق ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي: فلا تكن في شك من لقائه يوم القيامة، المخاطب النبي، والمراد غيره؛ لأن رسول الله لا يشك ولا يمتري في لقائه، مثل قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ وقد علم الناس جميعا في ذلك الوقت أن أبويه لم يبلغا عنده، ولا أحدهما، بل ماتا وهو صغير، ولكن هذا تأديب من الله تعالى لغيره على لسانه ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ أي: ألم ندلهم ونبين لهم، وهو مأخوذ من الهداية إلى الشيء والدلالة عليه، ومعنى قوله: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ أي: اليابسة ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ أي: يوم فتح القبور والجنة والنار ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: ذرهم واتركهم فقد أنذرتهم، وأبلغت في الخطاب والنصيحة لهم.

(١) فكتاب أسم إن، وهو مضاف، وما بعده مضاف إليه، وخبر إن يكون فيه عجائب العالمين.

وقد قالوا فيه ما هو أطم من الريب من قولهم: افتراه؛ لأن معنى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا مدخل للريب في أنه تنزيل الله، ولا يرتاب فيه من ينصف الحق؛ لأن نافي الريب ومميطه معه لا ينفك عنه، وهو كونه معجزاً، ومثله أبعد شيء من الريب، ولا اعتداد بقولهم: افتراه؛ لأنه إما عن تعنت أو جهل قالوه قبل النظر.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ يعني كفار قريش ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: بل أيقولون كذبه على الله، وهذا إنكاراً لقولهم، وتعجيباً منه لظهور عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أضرب عن الإنكار، وأكد كونه أي: القرآن حق نزل عليك من رب العالمين، والمعنى فيه أتعترفون به أم تقولون هو مفترى، ثم أجاب وبين أنه حق من ربه، ثم بين فائدة التنزيل، وهي الإنذار، فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ أي: قريش، وقيل: من العرب ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ لأن قريشاً لم يبعث الله إليهم رسولاً قبل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولم تكن عليهم حجة من جهة الشرائع، وإنما كانت بمعرفة الله وتوحيده وعزله؛ لأن العقل كاف فيها، كذا في الكشاف، والأولى ما ذكره بعض علماء العترة الأعلام - عليهم الصلاة والسلام - حيث قال: لابد أن يكونوا متعبدين بشريعة لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ولأن قريشاً كانت تذبح الأضاحي، وتأكل لحم الأنعام وتحج.

قال عبد المطلب وغيره: أنا على دين إبراهيم، فدل ذلك على أنهم كانوا متعبدين بشرع، ولكن لما أهملوا الشرائع ودرست عندهم، وطالت المدة، واتبعوا أهواءهم حسن الإرسال إليهم، وصح أن يقال: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أي: الأقربين، أي: لم يُرسَل إليهم رسولٌ جديدٌ، وإن كانوا قد دخلوا في حكم من أرسل إلى آبائهم الأبعدين، وأمروا باتباع شريعتهم؛ لأن الفترات الواقعة بين الأنبياء - عليهم السلام - لم يكن أهلها مهملين عن الشرائع، انتهى.

فالمعنى لتنذر قوماً ما أتاهم بعد الضلال الذي كان بعد الهداية نذير، والله أعلم.

ثم قال سبحانه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ استعار لفظ الترجي للإرادة، أي: لإرادتنا أن يهتدوا بما في التنزيل.

وقيل: الترجي له ﷺ وغيره، كما كان الترجي لموسى وهارون في ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ومعناه: تنذرهم راجياً أنت اهتداءهم.

ثم لما ذكر الرسالة بين ما على الرسول من الدعاء إلى التوحيد وإقامة الدليل، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الحيوانات والنباتات والجمادات ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قيل: من أيام الآخرة كل يوم ألف سنة، إذ لم تكن شمس فيتصور اليوم والليل والنهار، والظاهر أنها من أيام الدنيا، أي: مدة مقدرة بهذه الأيام، والله تعالى قادر على خلقها في لحظة، لكن لحكمة وإن خفيت علينا، كجعله أصحاب النار تسعة عشر، أو تعليماً لخلقه الرفق والتأني في الأمور.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ هو في الأصل سرير الملك، والاستواء عليه كناية عن الملك الكامل؛ لأن استواء الملك على سريره من توابع الملك، فهو أدل على الملك من قولكم: ملك، والمعنى: استولى على الملك، وهو الخلق جميعاً في هذه المواضع خاصة، قال الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... بغير ما زور ولا نفاق

ويروى: بغير سيف ودم مهراق. وقال آخر:

تداركتما الأحلاف وقد ثل عرشها وذبيان قد زلت بأقدامها النعل

أي: سقط ما يحملها.

ثم قال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾ أي: ناصر لكم، أو متول مصالحكم ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ يشفع لكم، المعنى: إذا جاوزتم رضاه لم

تجدوا لأنفسكم ولياً ناصراً، ولا شفيعاً يشفع، أو بمعنى: الله وليكم الذي يتولى مصالحكم وشفيعكم؛ لأنه لا يشفع أحد إلا بإذنه.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ إنكار عليهم، أي: فلا تتفكرون في عاقبتكم وقبحها.

ثم لما بين الله تعالى الخلق بين الأمر كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ والعظمة تتبيين بهما فقال سبحانه: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يريد المأمور به من الأعمال الصالحة، أي: ينزله مدبراً ﴿مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ﴾ أي: يصعد ﴿إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ معناه ينزل الأمر، أي: الوحي المنزل على أنبيائه والشرائع والأحكام، قاله السدي، ومثله في القرآن، أو القضاء قاله مقاتل، أو أمر الدنيا.

قال القاسم بن إبراهيم - عليهما السلام -: أخبر سبحانه أن تدبيره وصنعه من العرش لما بعد عنهم كتدبيره وصنعه لما قرب في الأمر منهم، وأن بعد ما بين العرش وهو ذرأ السماء العلا وبين ما تحتهن مما ترى أعينهم من الأرض الأولى مقدار ألف سنة كاملة مما يعدون، وأن الأشياء كلها لا تبعد عليه كما يستبعدون، انتهى.

والعروج: الصعود، أي: : ينزل الأمر من السماء مع جبريل والملائكة إلى الأرض، ثم تعرج إليه أي: : إلى موضع حكمه، وهو السماء في يوم واحد من أيام الدنيا، فيكون الملك قد قطع في يوم واحد من أيام الدنيا في صعوده ونزوله مسافة ألف سنة للآدمي؛ لأن مسافة ما بين السماء والأرض خمسمائة سنة.

قال الحسن: ولو أراد الله أسرع من ذلك لكان، فإن جبريل كان ينزل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أقرب وقت.

وقيل: يقضي الله تعالى أمر ألف سنة من أمر الدنيا وهو يوم واحد من أيام الله، ثم يلقيه إلى الملائكة، إلى كل ملك ما هو موكل به، فإذا

انقضت هذه المدة قضى الله إليهم ألف سنة أخرى، ثم كذلك حتى يقضي مدة الدنيا.

وقيل: يدبر أمر الدنيا كلها من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة، ثم يعرج إليه ذلك الأمر، أي: يصير إليه ليحكم فيه في يوم كان مقداره ألف سنة وهو يوم القيامة.

قلت: أما هذا القول الأخير فقد أبطله قوله تعالى في سورة سأل: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو يوم القيامة، والصحيح هو الأول، وهو الموافق لتفسير أئمتنا ـ عليهم السلام.

من ذلك قول الهادي ـ عليه السلام ـ حيث قال: معنى ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ فهو ينفق ما يريد من الأمور من السماء إلى الأرض مع جبريل ـ صلى الله عليه ـ إلى أنبيائه ـ عليهم السلام ـ في أرضه، ثم يعرج جبريل إليه من بعد إنفاذ ما أمر به في مقدار يوم، فيقطع في مقدار ذلك اليوم ما لو كان مبسوطاً في الأرض لم يقطعه العالمون في مسير ألف سنة، ومعنى ﴿يَعْرُجُ﴾ فهو يصير إلى الموضع الذي بعث منه وهو محل جبريل وموضعه الذي يعرج إليه جبريل راجعاً، انتهى. ومثل هذا ذكر الحسين بن القاسم ـ عليه السلام ـ .

وأما الفرق بين هذه الآية وآية سأل فقد أوضح ذلك نجم آل الرسول القاسم بن إبراهيم ـ عليه السلام ـ حيث قال في هذه الآية: وأما ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فأنبأ الله لا شريك الله أنه يكون في يوم واحد من أمره فيما ينزل من سمائه إلى أرضه، من تقديره ما مقداره عند غيره لو دبره من المقدرين من الآدميين ألف سنة في التدبير، وأخبر في ذلك عن قدرته التي ليست لقدير.

وأما قوله تعالى في سورة المعراج: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فإنما هو أيضاً خبر عما له تعالى من القدرة في تعجيل القضاء والحكم إذا فصله،

ولا يفعله غيره في خمسين ألف سنة، انتهى.

قال بعض المفسرين: أما قوله في المعراج: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فإنما هو في النزول بفصل القضاء، والعروج إلى سدرة المنتهى في السماء السابعة، والنزول منها والعروج إليها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

وقال في المقاليد: أراد خمسين ألف سنة مدة القيامة على الكافرين، وفيها خمسون موقفاً كل موقف ألف سنة.

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الموصوف بهذا الوصف العظيم ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ ما غاب عن العباد وخفي عنهم ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المشاهد الحاضر ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ القادر الذي لا يمتنع عليه شيء، ولا يفوته ما أراد، كان بلا كلفة ولا مشقة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بخلقه، القابل توبة عباده.

ولما بين الدليل الدال على الوحدانية من الآفاق بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وأتمه بتوابعه ومكملاته، ذكر الدليل الدال عليها من الأنفس، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾.

قال في البرهان: يعني أحسن إلى كل شيء خلقه، فكأن خلقه إحسان إليه، أو جعل كل خلقه إحساناً في الحكمة والمعقول، واتقان الصنعة التي لا تنكرها العقول، والمعنى أحسن جميع مخلوقاته، إذ ما من شيء خلقه إلا هو مرتب على مقتضى الحكمة، فكل مخلوقاته حسنة، وإن تفاضلت في الحسن، وفي خلقه قراءتان:

إحداهما: بفتح اللام على أنه فعل ماض صفة للشيء.

الثانية: بتسكينها وهو منصوب بدلاً من ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾.

ثم قال سبحانه: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ هو آدم ـ عليه السلام ـ .

قال في البرهان: روينا عن آبائنا ـ عليهم السلام ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((إن الله خلق آدم من قبضة أمر جبريل أن يأخذها من جميع الأرض،

فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأبيض والأسود والأحمر، وبين ذلك الحزن والسهل)) ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ﴾ سلالة الشيء خلاصته، يسل من أجوده، أي: النطفة تسل من صلب الإنسان، أي: تخرج، سميت الذرية نسلاً؛ لأنها تنسل منه، أي: تنفصل.

وقوله: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ أي: حقير؛ لأنه أحقر الأمواه.

وقوله: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ بدل من قوله: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ أو غير بدل، إذا كانت السلالة مأخوذة من الماء ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ قوّمه وعدَّله وأَصْلَحَهُ.

قوله: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ عبارة عن إحيائه، ودل بإضافة الروح إلى ذاته أنه خلق عجيب لا يعلم حقيقته إلا هو، كأنه قال: ونفخ فيه من الشيء الذي اختص هو به وبعلمه.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ يريد آلة استماع الحق، وآلة ابصار الاعتبار، وآلة التفكر والتدبر وهي القلوب.

ثم قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ما زائدة لتأكيد القلة وهي في معنى العدم.

واعلم أنه تعالى لما ذكر الرسالة بقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلى قوله ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ وذكر الوحدانية بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ إلى قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ ذكر سبحانه الأصل الثالث وهو الحشر بقوله: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لما قال سبحانه: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ بين عدم شكرهم بإتيانهم بضده وهو الكفر، وإنكار قدرته على إحياء الموتى، قالوا تعجباً من إعادتهم، وإنكاراً لبعثهم: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يجدد خلقنا، ويعاد كما كان، أي: يبعث، والقائل أُبيٌّ بن خلف، ورضي الباقون بقوله، فأسند إليهم الكل، كأنه أراد: أنا ابتدأنا الخلق من عدم، وعلى غير مثال، ومع ذلك قال الجاحدون: إنا لا نقدر على إعادتهم، وقالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: صرنا تراباً، واختلطنا

بترابها لا نتميز منه، كما يضل الماء باللبن، أو معناه: غبنا فيها بالدفن، والعرب تقول كل شيء غلب عليه غيره حتى غاب: قد ضل، قال الأخطل:

كنت القذى في موج أكدر مزبد قذف الإناء به فضل ضلالا

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ جعل اللقاء عبارة عن الوصول إلى العاقبة من تلقي ملك الموت وما بعده، أضرب عن كفرهم بالأشياء إلى أبلغ منه في الكفر، وهو كفرهم بكل ما يكون في العاقبة لا الإنشاء وحده.

قال في البرهان: وهذه الآيات نزلت في أُبي بن خلف كما مر.

ثم بين لهم ما يكون من الموت إلى العذاب، فقال سبحانه: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي: أمر بقبض أنفسكم، التوفي: استيفاء النفس وهو الروح، أي: تقبض الأرواح كلها لا يبقى شيء منها، من توفيت حقي من فلان إذا أخذته وافياً، [وعن]مجاهد: حويت أي: زويت لملك الملك الأرض كالطشت يتناول منها ما شاء، [وعن] قتادة: معه أعوان من الملائكة.

وقيل: يدعو الأرواح فتجيبه، ثم يأمر أعوانه بقبضها.

وقال الهادي ـ عليه السلام ـ : المعنى في ذلك أن توفي ملك الموت لم يتوفى هو بأمر الله، فملك الموت يقبض النفس، والله يخرجها من البدن، وما كان من ملك الموت فإنما هو بالله ومن الله، وبإذنه وأمره، وتقديره وحكمه، وتقوية ملك الموت على ذلك في خلقه.

قال في البرهان: وروينا عن آبائنا ـ عليهم السلام ـ ، عن جعفر بن محمد ـ عليه وعلى آبائه السلام ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله (أنه نظر إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: ((ارفق بصاحبي فهو مؤمن)).

فقال ملك الموت: يا رسول الله طب نفساً، وقر عليناً، فإني بكل مؤمن رفيق، واعلم أيما من أهل بيت مدر ولا شعر في بر ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم كل يوم خمس مرات، حتى لأنا أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم، والله يا رسول لو أردت أن أقبض بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها) انتهى.

وقوله: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ ينبي عن بقاء الأرواح، فإن التوفي الاستيفاء والقبض وهو الأخذ، والإعدام المحض ليس بأخذ، ثم إن الروح الزكي الطاهر تبقى عند الله مثل الشخص بين أهله المناسبين له، والخبيث الفاجر يبقى عندهم كالأسير بين قوم لا يعرفهم، ولا يعرف لسانهم.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: إلى جزائه، فيجازيكم بأعمالكم.

ولما ذكر أنهم يرجعون إلى ربهم بين ما يكون عند الرجوع على سبيل الإجمال بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يجوز أن تكون للتمني، كأنه قال: وليتك ترى، والتمني لرسول الله ﷺ كما كان الترجي لهم في نحو لعلهم يهتدون؛ لأنه تجرع منهم الغصص، فتمنى له أن تراهم على تلك الحال الفظيعة ليشمت بهم، ويجوز لو امتناعيه وجوابها محذوف، أي: لرأيت أمراً عظيماً، أو لرأيت ما يسرك، والخطاب لرسول الله ﷺ، ويجوز أن يكون لكل مخاطب، ثم أخبر عن وقت تلك الرؤية بقوله: ﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ﴾ من الخزي والغم والندم، على ما كان من تفريطهم، في أمر الله وطاعته.

قال الهادي ـ عليه السلام ـ : هذا إخبار من الله عما يكون من المجرمين في يوم الدين، ومن تنكيس رؤسهم يوم الحشر، ووقت النشر عند الحساب، وتنكيس الرؤس فعل يفعله النادم المتحسر الموقن بالعقاب، المؤيس من الثواب، المستسلم المبلس، ومعنى ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فهو عند

المصير إلى آخرتهم، والوقوف بين يدي خالقهم في موضع جزائه، يستغيثون بقولهم: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا﴾ ما كنا نكذب به بالمعاينة ﴿وَسَمِعۡنَا﴾ بكل ما كنا نخبر به، فجاء كل ما كنا نسمع من قولك، وقول أنبيائك على ما كنا نسمع سواء سواء ﴿فَٱرۡجِعۡنَا﴾ أي: ردنا إلى الدنيا حتى ﴿نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ غير الذي كنا نعمل؛ إذ كان عملنا في الدنيا أولاً بوراً، وهو اليوم إذ قد عاينا فقد أصبح عندنا معلوماً مخبوراً ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ يقولون: إنا اليوم بما كنا نكذب به من قبل مؤمنون، إذ قد رأيناه عياناً، وواقعناه إيقاناً، ثم أخبر عز وجل عن قدرته فقال سبحانه: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾ يعني لو أراد أن يجبر الخلق على الاهتداء، ويدخلهم كلهم في الطاعة والهدى بالقسر منه لهم جبراً، والجبر لهم في ذلك قسراً لفعل سبحانه بهم ذلك، ولكانوا في جميع الأمور كذلك، غير أن الله سبحانه، لم يرد إدخالهم في طاعته وهداه جبراً، ولم يرد إخراجهم من معاصيه جل جلاله قسراً، بل أمرهم سبحانه تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلفهم يسيراً، وأعطاهم على قليل كثيراً، أراد أن يطيعوه مختارين بالاختيار لا بالجبر لهم، وكذلك معاصيهم بالاختيار منهم، كانت فيهم ومنهم لا بقضاء شيء من ذلك سبحانه عليهم حكم من الحكيم الرحمن الرحيم، ورأفة منه في ذلك لكل إنسان، وتمييز منه بذلك بين أهل الطاعات والعصيان، ليستحق كل باختياره جزاء فعله، وليجد ما قدم من خير أو شر باختياره غداً عند ربه قطعاً منه جل جلاله، عن أن يحويه قول، أو يناله لحجج خلقه عنه ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ انتهى.

قاله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي﴾ أي: وقع وعيد الله، أو وجب مقتضاه ومعناه، وفسر القول بما بعده وهو قوله: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ على عصيانهم، وتركهم لطاعة خالقهم الذي خلقهم وأقدرهم، ومكنهم من الأفعال.

قيل: ويحتمل أن المراد بالقول عبارة عن التكليف المبني على

الاختيار المقتضي للجزاء، أي: ولكنا بنينا أمر التكليف على الاختيار لا الاضطرار، فاستحبوا العمى على الهدى، فحقت كلمة العذاب على أهل العمى دون البصر بدليل قوله: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ فأضاف النسيان إليهم أي: فذوقوا بما تركتم من العمل للقاء يومكم هذا من ترككم لطاعتي، وتكذيبكم لبعثي وجزائي.

وقيل: النسيان خلاف الذكر، يعني أن الانهماك في الشهوات ينهاكم عن تذكرة العاقبة، وسلط عليكم نسيانها.

وأما قوله: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾فهو تركناكم في العذاب، والنسيان من الله بمعنى الترك.

وقيل: على مقابلة النسيان بالنسيان، أي: جازيناكم جزاء سيئاتكم ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: الدائم الذي لا انقطاع له ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من المعاصي في دار الدنيا، وقد يعبر بالذوق عما يطرأ على النفس، وإن لم يكن مطعوماً لإحساسها به كإحساس المطعوم بالمذوق، قال عمرو بن أبي ربيعة:

رشاد ألا يا رب ما كذب الهجر فذق هجرها إن كنت تزعم أنه

ولما بين حال المجرمين بين حال المؤمنين: فقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: يصدق بحجتنا ومعجزاتنا، وينتفع بمواعظنا ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا﴾ أي: وعظوا بآيات الله ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ أي: سجدوا لله خاضعين طائعين، وكل من سقط على شيء فقد خر عليه، قال الشاعر:

كأن جبينه سيف صقيل وخر على الآلات ولم يوسد

ومعنى: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: نزهوه عن نسبة القبائح إليه، وأثنوا عليه حامدين له، أي: سبحوه متلبسين بحمده، وبمعرفته وطاعته ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته، كما يفعل من يصر مستكبراً كأن لم يسمعها.

ثم قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ هي الفرش ومواضع النوم، أي: تقع وتتنحى عنها بالليل، ويقومون ويقعدون خوفاً من العذاب، قال الشاعر:

جنبي تجافى عن الوساد مخافة البعث والمعاد

وقال ابن الزبعرى:

يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا اشتغلت بالمشركين المضاجع

قال في التجريد: واختلف منهم فقيل: المتهجدون عن الحسن، ومجاهد، وعطاء، وأبي العالية وقتادة أنها في قيام الليل.

وعن ابن عباس: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ لذكر الله، إما في الصلاة وإما في قراءة أو غيرها من الذكر.

وقيل: هم المصلون ما بين المغرب والعشاء عن أنس بن مالك.

وقيل: في الذين يصلون العشاء ولا ينامون عنها عن ابن عباس.

وقيل: في الذين يصلون العشاء والصبح في جماعة، عن أبي الدرداء، والضحاك.

ثم قال سبحانه فيهم: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ في رحمته.

قوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ يحتمل أن يكون مفعولاً، ويحتمل أن يكون حالاً أي: خائفين طامعين، كقولك: جاؤني زوراً، أي: أي: زائرين.

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم في تفسيرها (قيام العبد من الليل).

قال في البرهان: وروينا عن آبائنا ـ عليهم السلام ـ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ : ((إن شئت أخبرتك بأبواب الخير كله، الصوم جنة، والصدقة تطفئ الحطيئة، وقيام الرجل في جوف الليل)).

وإنما هذه الصلاة المرغب فيها هي صلاة الليل، وهي ثمان ركعات بأربع تسليمات بعد التهجد، إما في ثلث الليل أو نصفه أو في طلوع الفجر، انتهى.

قال الهادي ـ عليه السلام ـ : بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((من صلى ثمان ركعات في الليل سوى الوتر يداوم عليهنَّ حتى يلقى الله بهنَّ فتح الله عليه اثنى عشر باباً من الجنة)

وقال: ((صلاة الليل ثماني ركعات)) صح لنا ذلك عن رسولنا صلى الله عليه وآله وسلم.

وروى أبو طالب ـ عليه السلام ـ بإسناده المعروف في أماليه عن زاذان، عن سلمان، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ((من صلى ثمان ركعات من الليل والوتر يداوم عليهنَّ حتى يلقى الله بهن فتح الله له اثنى عشر باباً من الجنة يدخل من أيها شاء)) وروي هذا الخبر في أمالي أحمد بن عيسى.

وقال الهادي عليه السلام في (الأحكام) أيضاً: بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((ركعتان في نصف الليل الآخر أفضل من الدنيا وما فيها، ولولا أن أشق على أمتي لفرضتهما عليهم)) انتهى.

وهذا الخبر أيضاً في أمالي أحمد بن عيسى.

و عن زيد بن علي في مجموعه، عن أبيه، عن جده، عن علي ـ عليهم السلام ـ قال: ركعتان في ثلث الليل الأخير خير من الدنيا وما فيها.

ثم قال عز وجل: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: الزكاة، أو هي وغيرها.

وفي البرهان: هذا الإنفاق في وجوه البر كله سوى الزكاة.

وقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ يريد أيَّ نفس كانت لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، أي: ليس تعلم النفوس ولا يخطر على القلوب ﴿مَّآ أُخْفِيَ لَهُم﴾ ليوم القيامة ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ ما تقربه أعينهم من الثواب من الحور والجنان،

والنعيم والإحسان، ولا مزيد على هذه العدة ولا مطمع وراءها.

قال في البرهان: روينا عن آبائنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ((قال تعالى: إني أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ما أطلعتهم عليه وأقرأوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ ((الآية))، ثم قال تعالى: ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من فعل الطاعات، واجتناب المعاصي، انتهى.

وفي هذا قطع لأطماع المتمنين بغير عمل.

قال الحسن: هذا في جزاء أعمال السر، أخفوا أعمالهم في الدنيا فأخفى الله لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

ثم قال: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ أراد علياً عليه السلام ﴿كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ﴾ يعني الوليد بن عقبة.

وقيل: عقبة بن أبي معيط.

قال في البرهان: لما روينا أن عقبة سابَّ أمير المؤمنين عليه السلام فقال: أنا أبسط منك لساناً، وأحد منك سناناً، وأبلى منك حشوا، فقاله له أمير المؤمنين - عليه السلام - ليس كما تقول يافاسق، فنزل تصديق قول أمير المؤمنين عليه السلام من السماء ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ في الجزاء عند الله تعالى.

قال في التجريد: نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام، وفي الوليد بن عقية بن أبي معيط، شجر بينهما كلام يوم بدرٍ فقال الوليد: اسكت فإنك صبي، وأنا والله أبسط منك لساناً.

فقال له علي: اسكت فإنك فاسق، تقول الكذب، فنزلت، ثم تناولت كل مؤمن وفاسق، وقد شهدت هذه الآية لعلي كرم الله وجهه في الجنة بالإيمان، وأنه في جنة المأوى.

ولما بين حال المجرم وحال المؤمن، قال للعاقل: هل يستوي الفريقان، ثم بين أنهما لايستويان.

ثم بين عدم الاستواء على سبيل التفضيل فقال سبحانه ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ سميت بذلك لأنها تأوي إليها أرواح الشهداء، وهي نوع من الجنان، أو المراد الجنة نفسها؛ لأنها مأوى لأهلها، أي: مسكن موطأ لهم، ثم قال ﴿نُزُلًا﴾ أي: عطاء ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ والنزل: عطاء النازل، ثم صار عاماً في كل عطاء ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ﴾ أي: فملجأهم ومنزلهم ﴿ٱلنَّارُ﴾ ويجوز أن يريد فجنة مأواهم النار تهكماً بهم ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ معنى إرادة الخروج وإعادتهم ما يروى عن الحسن أن النار تضربهم بلهبها فترفعهم حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفاً ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ توبيخاً وذماً ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا.

ثم قال تعالى تهديداً لهم: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ هو عذاب الدنياء من القتل والأسر، وقحط قريش سبع سنين ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾.

قال في البرهان: العذاب الأدنى هو الانتقام في دار الدنيا، والعذاب الأكبر عذاب جهنم، ومعناه: ولنذيقنهم من العذاب الأقرب الذي هو الدنيا قبل العذاب الأكبر الذي في الآخرة، والعذاب الأدنى هو الحدود، والموت والقتل، والأمراض والغموم، والرزايا والمصائب.

ثم قال سبحانه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: ليرجعوا إلى الحق ويتوبوا من الكفر والفسق، أو لعلهم يريدون الرجوع إلى الدنيا ويطلبونه أن أريد بالأدنى عذاب القبر، وسميت إرادة الرجوع رجوعاً، كما سميت إرادة القيام قياماً في ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾.

قاله في الكشاف وفي التجريد: إذا حمل العذاب الأدنى على القتل أو عذاب القبر، فالمراد لعل من بقي منهم يرجع.

وقيل: لعلهم يرجعون في الدنيا إذا سمعوا أنهم يعذبون في قبورهم إذا ماتوا والأول أولى، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحد أكثرظلماً ﴿مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أي: وعظ بها ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ ثم لاستبعاد الإعراض عن آيات الله مع وضوحها وإنارتها وارشادها إلى السعادة والهدى، كما تقول لصاحبك وجدت مثل تلك الفريصة ثم لم تنتهزها استبعاداً لترك الإنتهاز.

ثم قال سبحانه ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ هم كفار مكة أنتقم الله منهم ببدر، فضربت الملائكة ـ عليهم السلام ـ وجوههم وأدبارهم.

ولما قرر الأصول الثلاثة على ما بيناه عاد إلى الأصل الذي بدأ به وهو الرسالة المذكورة في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿فَلَا تَكُن﴾ يامحمد ﴿فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾.

قال في البرهان: يعني من لقاء أذى قومه كما لقى موسى عليه السلام من قومه انتهى.

والمعنى فلا تكن في شك من أمرك لأجل لقاء الأذى من قومك فقد لقى موسى من الأذى مثل ما لقيت مع كونه نبياً رسولاً.

وقيل: معنى ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي: لقاء الكتاب، أي: أتينا موسى كما أتيناك من الكتاب، وألقيناه ما ألقيناك من الوحي، وأنك لتلقى القرآن فلا تكن في شك من أنك لقيت مثل ما لقي من الكتاب والوحي.

وقال الحسين بن القاسم ـ عليه السلام ـ : فلا تكن في شك من لقائه يوم القامة، المخاطب النبي، والمراد غيره؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لايشك ولا يمتري في لقائه مثل قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ وقد علم الناس جميعاً في ذلك الوقت أن أبويه لم يبلغا عنده ولا أحدهما بل ماتا وهو صغير، ولكن هذا تأديب من الله أخبره على لسانه انتهى.

ويحتمل أن تكون الآية واردة لا للتقرير بل لتسلية النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فإنه لما

أتى بكل آية وذكر بها وأعرض عنها قومه حزن ﷺ فقيل له ألا تذكر حال موسى، ولا تحزن فإنه لقى مالقيت وأوذى كما أوذيت، وعلى هذا فاختيار موسى عليه السلام لحكمة وهي أن أحداً من الأنبياء لم يؤذه قومه إلا الذين لم يؤمنوا به، وأما الذين آمنوا به فلم يخالفوه غير قوم موسى فإن من لم يؤمن أذاه مثل فرعون وغيره، ومن آمن به من بني إسرائيل أيضاً أذاه بالمخالفة وطلب أشياء منه مثل طلب رؤية الله جهرةً، ومثل قولهم ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ ثم بين له أن هدايته غير خالية عن المنفعة كما أنه لم تخل هداية موسى، حيث جعل الله كتاب موسى هدى، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٢٣ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ﴾ يقتدى بهم ﴿يَهۡدُونَ﴾ الناس ﴿بِأَمۡرِنَا﴾ أي: إلى ما في التوراة من دين الله تعالى.

ثم أخبر أن ذلك يحصل بالصبر، فقال تعالى: ﴿لَمَّا صَبَرُواْۖ﴾ أي: حين صبروا على إظهار الحق بنصرة الدين، واحتمال أذى الخلق فاستحقوا لجميل صبرهم منزلة الإمامة ودرجة الزعامة، والجعل هنا بمعنى الحكم، أي: حكمنا لهم بالإمامة، والأئمة هم الرؤساء في الخير البرءاء من الشر، القادة إلى الهدى، والمانعون من الهلكة والردي، ذكره في البرهان.

ثم قال: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أي: لايشكون في صحتها. وفي وجوب الإهتداء بها، وقرئ (لما) بكسر اللام، أي: لصبرهم وإيقانهم، والمعنى: أنا أتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب، ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحي، وجعل الكتاب المنزل على موسى هدى لقومه، وجعل من قوم موسى أئمة يهدون بالحق الناس، ويدعونهم إلى ما في التواراة لصبرهم وإيقانهم بالآيات، وكذلك يا محمد لنجعل الكتاب المنزل عليك هدى ونوراً، ولنجعلن من أمتك من أهل بيتك وذريتك أئمة يهدون بأمرنا؛ لما صبروا عليه من الدين، وثبتوا عليه من اليقين، كما جعلنا في كتاب موسى وأمته.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ أي: يقضي بحكمه ﴿بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يريد الأنبياء والأئمة وخلفهم، ومعنى يقضي يحكم بتبليغهم ما أمرو به وجحدان قومه لما دعوا إليه ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ﴾ من الحق ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز الحق في دينه من المبطل، وهذا يصلح جواباً لسوأل، وهو أنه لما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ﴾ كان لقائل يقول: كيف كانوا يهدون وهم اختلفوا وصاروا فرقاً وسبيل الحق واحد؟ فقال فيهم هداة، والله بَيَّنَ المبتدع من المتَّبع، كما بَيَّنَ المؤمن من الكافر يوم القيامة.

وفيه وجه آخر وهو أن الله تعالى بين وأخبر أنه يفصل بين المختلفين من أمه واحدة، كما يفصل بين المختلفين من الأمم، فينبغي أن لا يأمن من آمن ولم يجتهد، فإن المبتدع معذب كالكافر، غاية ما في هذا الباب أن عذاب الكافر أشد.

ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الضمير لكفار قريش، أي: أو لم يدل ويبين لهم صدقك وهو مأخوذ من الهداية إلى الشيء والدلالة عليه ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ وكان أهل مكة يمرون في متاجرهم على مساكن القرون المهلكة نحو عاد، وثمود، وقوم لوط.

قال في الكشاف: الواو للعطف على محذوف الفاعل ما دل عليه ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي: ألم يبين لهم و يهديهم كثرة إهلاكنا؛ لأن كم لا يقع فاعله، لا يقال: جاني كم رجل، أولم يهد لهم هذا الكلام كقولك: تعصم لا إله إلا الله الدماء والأموال، انتهى.

وقوله: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ زيادة في آياته، أي: مساكن المهلكين دالة على حالهم، وأنتم تمشون فيها وتبصرونها فلا تعتبرون بمصارعهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي شاهدوه ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: دلائل وعبر تهدهم إلى اتباع الحق ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ آيات الله وعظاته بأذان واعية.

ولما بين الإهلاك وهو الإماتة بين الإحياء ليكون إشارة إلى أن الضر

والنفع بيد الله فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أهل مكة ﴿أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ أي: الأرض اليابسة التي جرز نباتها، أي: قطع إما لعدم الماء أو لأنه رعي وأزيل، ولايقال للسباخ: جرز بدليل ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ﴾ أي: الماء ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ﴾ أي: من علفه ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ من حَبِّهِ، ابن عباس هي أرض اليمن.

وقيل: هي أَبْيَن وهي في اليمن أيضاً.

﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ بصر اعتبار، ولأن الأمر مرئي بخلاف الماضين، فإنها كانت مسموعة، ومن نعمة الله أن جعل أرزاق أنعامهم التي لا غنى لهم عنها في فضلات رزقهم دون الحب.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ أي: النصر والحكومه، كان المسلمون يقولون إن الله سيفتح لنا على المشركين، فيقول المشركون متى هذا الفتح، أي: في أي: وقت يكون ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنه كاين استعجالاً على وجه التكذيب والاستهزاء.

قال في البرهان: المراد به فتح مكة، يعنى من قتله رسول الله ﷺ من كفار كنانة، انتهى.

وقيل: هو يوم بدر، وقيل: يوم القيامة، أي: يوم تفتح القبور والجنة والنار ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾كما نظروا واستعجلوه تكذيباً، أي: لا يؤخرون بالعذاب إذا جاء الوقت، وهذا ظاهر إن أريد به يوم القيامة، و إن أريد به يوم بدر أو يوم فتح مكة، والمراد لا ينفع المقتولين حال القتل، و إلا فقد نفع الطلقاء يوم فتح مكة، ونفع ناس يوم بدر.

وفي تفسير هذه الآية يقول المرتضى عليه السلام: كذلك حكم الله عز وجل في أعدائه إذا جاء الفتح عليهم، والنصر منه فيهم لم تنفعهم عند العُلُوِّ منه عليهم توبة، ولا يقالوا زلة ألا تسمع كيف يذكر سبحانه عنهم فيما كانوا فيه يقولون إذا أخبر رسول الله ﷺ بفتح: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

يقول ذلك للنبي ﷺ استبطاء منهم وتكذيباً به، فأخبر عز وجل أن يوم الفتح عند الظهور عليهم، وهو فتح مكة الذي وعد الله نبيه ﷺ.

وقد قيل أن يوم الفتح يوم هلاك الله عز وجل لهم وإنزاله الموت بهم.

وقد قيل أنه يوم القيامة، والقول الأول أصوب وأصح؛ لأنه إنما تقبل التوبة من قبل المقدرة، ألا تسمع كيف يقول سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُوا۟ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ فجعل التوبة لهم من قيل المقدرة، ولم يجعلها عند المقدرة عليهم بعد رد الحق والصدق عنه، فلما كان السيف قائماً، والحرب ثابتة فليس إلا القتل لأعداء الله فأما إذا و قعوا في الأسر فليس يحل قتلهم، ولا يسع عند الله سبحانه إهلاكهم إلا أن يقاتلوا وهم مأسورون، فتحل بذلك دماؤهم.

وفي قتل الظالمين سير مذكورة وأخبار صحيحة، فمنهم من يقتل أسيره ومنهم من لا يقتل، وكل ذلك بين أهل العلم والفهم واضح، عند من شرح الله صدره، ونور بالحكمة قلبه، انتهى.

ولما بين المسائل وأتقن الدلائل ولم تنفعهم قال تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ أي: ذرهم واتركهم فقد أنذرتهم وأبلغت في الخطاب والنصيحة.

ثم قال ﴿وَٱنتَظِرۡ﴾ النصر عليهم ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ النصر عليكم، أو معناه: وانتظر هلاكهم فإنهم منتظرون هلاكك، وعلى هذا فرق بين الانتظارين؛ لأن انتظار النبي ﷺ بأمر الله تعالى بعد وعده، وانتظارهم بتسويل أنفسهم، والتعويل على الشيطان.

روى بفتح الظاء أي: فإنهم أحقاء بأن تنتظر هلاكهم أي: هم هالكون لا محالة والملائكة تنتظر هلاكهم، والله أعلم.

سورة لقمان

أربع وثلاثون آية في العراقي والحجازي وقيل: ثلاث في الحجازي والمكي، مكية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله: ﴿الٓمٓ﴾ قيل: اسم للسورة أي: هذه ﴿الٓمٓ﴾ وقد مر الكلام في ذلك.

قال في المقاليد: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو إما السورة أو القرآن ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾(١) أي: ذي الحكمة لما فيه من العلوم، أو وصفه بصفة الله مجازاً.

---

(١) وفي تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن علي عليه السلام ما لفظه:
أخبرنا أبو جعفر، قال: حدثنا علي بن أحمد، قال: حدثنا عطاء بن السائب، عن أبي خالد، عن زيد بن علي عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ معناه: الغناء، والمغنيات.
وقوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ معناه: تحرك بكم يميناً وشمالاً.
وقوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ معناه: فرق فيها.
وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ معناه: الفقه، والإصابة في القول.
وقوله تعالى: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ معناه: يجازي بها الله.
وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ معناه: لطيف باستخراجها خبير بمكانها.
وقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا﴾ معناه: ضعف.
وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ معناه: طريق من رجع. =

= وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ معناه: زنة حبة
وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ﴾ معناه: تعرض عنهم تكبراً. وقال: هو التشديق
وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ يعني بطراً وكبراً.
وقوله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ معناه: تواضع فيه.
وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ معناه: أقبحها. وقال: أشد الأصوات
وقوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ معناه: قول لا إله إلا الله ظاهرة باللسان، باطنة في القلب.
وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ معناه: سحائب سود كثيرة الماء
وقوله تعالى: ﴿كُلُّ خَتَّارٍ﴾ معناه: غدار.
وقوله تعالى: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ معناه: أمر الله قال الإمام زيد بن علي عليهما السلام: يقول لو كان البحر وسبعة أبحر فيها مداد، لأملى الله عليهم من خلقه حتى تفنى الأقلام، وتيبس البحور.
وقوله تعالى: ﴿لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ﴾ يعني لا يغني.
وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ معناه: الشيطان.
وفي تفسير الإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام ما لفظه :
تفسير غريب سورة لقمان عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

تأويل قول مولانا عز وجل ﴿وَقْرًا﴾ أي: صمما.
وتأويل قوله: ﴿رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يريد أن لاتميد بكم، معنى ﴿تَمِيدَ﴾ أي: تحرك وتسير.
ومعنى قوله: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي: نشر فيها، وكثر.
ومعنى قوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أي: فساد لمن فعله عظيم. قال الله عز وجل: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وأي قلب أشد فسادا أو غيارا، أو جرما من قلب مشرك متحير عن الله عز وجل.
ثم قال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي: ضعفا بعد ضعف.
ومعنى قوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي﴾ أي: اعمل لي وبطاعتي ﴿وَلِوَالِدَيْكَ﴾ بالمكافأة والبر واللطف ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ﴾ أي: اجتهدا في ردك عن الإسلام ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ ومعنى ﴿لِتُشْرِكَ بِي﴾ أي: لكي فقامت اللام مقام كي، لام الأفعال المستقبلة.
ومعنى قوله: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي: لا تعاقبهما، ولكن أنفق عليها، =

= وألبسهما إذا عريا، واحتاجا، ولا تشتمهما ولا تؤذهما، ولكن أعرض عنهما، واحتج عليها، وعظهما وعظا حسنا، ولا تركن اليهما، ولا تحبهما، ولا تقبل شهادتهما، ولا تأكل ذبيحتهما، واكتم منهما أسرارك، وأخمل عندهما أخبارك، فهذا ما يجب لك وعليك فيهما إذا أشركا وكفرا بربهما.

ومعنى ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ هذا دليل يتوصل به إلى علم الله عز وجل وحفظه لكل صغير وكبير من الأمور، ويمكن أن يكون أراد به المثل لحفظ الله للجزاء على العمل اليسير من أعمال البر أنه لا يضيع لعامله عند الله عز وجل ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: من الجزم والعزيمة في الأمور كلها ﴿ولا تصاعر خدك للناس﴾ أي: لات حرف وجهك شقا عن الناس كبرا وتجبرا، قال الشاعر:

وكنا إذا الجبار صعر خده أقمنا له من ميله فتقوما

والمرح في لغة العرب: هو البطر والأشر، والطرب، والخيلاء. والبطر، والمختال: الفخور المتياه المتعظم الصلف.

﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾ أي: أشدها ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أدأ

ولم يعب على الحمير؛ لأنها لا تذم على ذلك، ولكن يعاب على ذوي الألباب إن تشبهوا بالحمير التي لا عقول لها، فصيروا في سوء الأدب مثلها .﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ أي: تواضع وأقصر عن التخبط، والضرب الشديد بالقدم، وامش بوقار، وفكر وخضوع ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾ أي: وسعها عليكم ﴿ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ فالنعم الظاهرة التي بين للناس، والباطنة: هي التي لا تبين، ومعنى قوله: ﴿يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: يخاصم المؤمنين في توحيد الله ويذمهم في تركهم للشرك به بلا علم ولا دلالة إلا تقليدا لآبائه، وحياطة مذهبه وبجاحته ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: يقبل إلى الله بالطاعة له، والتسليم لحكمه، والرضاء بجميع فعله ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: بالدين الوثيق.

ومعنى قوله: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: ثم نلجئهم إلى عذاب شديد ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ يقول عز وجل: ولو أن الشجر كله أقلام، والبحر يمده، ويكثر من ورائه سبعة أبحر مدادا للأقلام والكتاب ما نفدت كلمات الله، أي: لما انقطعت عجائب حكمة الله التي يعلمها، ويحيط بها، وهذا القرآن جزء من كلمات الله نزله على عباده رحمة منه لهم، وعائدة بالفضل عليهم، فليس يدرك باطن أغواره، ولا يحاط بعجائب أسراره؛ لأن تحت كل كلمة كلاما متصلا لا يحصى، وعجائب عظيمة لا تستقصى، فنحن على كل حال مقصرون عن أغوار بحوره، منحسرون عن غايات أموره إلا أنا =

وفي البرهان: الحكيم الذي أتقن فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ثم قال: ﴿هُدًى﴾ يعني: من الضلالة، ويجوز هدى إلى الجنة ﴿وَرَحْمَةً﴾ بالنصب على الحال من الآيات المشار إليها، و قرئ برفعهما خبر مبتدأ محذوف.

وفي معنى رحمة وجهان: رحمة من العذاب لما فيه من الزجر عن استحقاقه.

والثاني: نعمة بالثواب لما فيه من البعث عل استحقاقه.

= سنجتهد بقدر طاقتنا، ونتكلم على مبلغ قدر عقولنا.
ومعنى قوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ﴾ في قدرة الله ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ ومعنى ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ هو القادر. ومعنى قوله: ﴿مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ أي: ما يتحرك، مثل البيوت التي تظلل من الحر والبرد، واحدها ظلة، وإنما سمي الموج موجا لموجانه وحركاته، وجولانه، قال الشاعر يصف جملا من الإبل:

(وفريت مواج اليدين هميلعا)

أي: جوال اليدين. وقال آخر:

دع ذا وعد البعث في سواهما ... في بكرتين مائج رجلاهما

أي: متحرك رجلاهما، ثم قال في شعره:

إذا زجرت زجرة إحداهما ... عن الطريق ماجتا كلاهما

أي: جالتا وتحركتا، وماجتا.
ومعنى قول سيدنا عز وجل: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: مقتصر عن الشرك، ومعتبر ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ أي: غادر خسيس، لا وفاء له بعهد، ولا تمام له في عقده، قال الشاعر:

وما أنا بالخب الختور ولا الذي ... إذا استودع الأسرار يوما أذاعها

وقال آخر:

وبالملك الرحمن أحلف صادقا ... وأقسم أني ما خترت عن العهد

ومعنى قوله: ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ أي: لا يفدي عنه العذاب، قال الله سبحانه ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ أي: فداء ما قتل، فأخبر أن الفداء لا يكون يوم القيامة، ولا يمكن، وأن الوالد والولد لا يغني، ولا ينفع واحد منهما صاحبه شيئا.

ثم قال: ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ وهم الذين أحسنوا إلى نفوسهم بخلاصها من النار.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يفعلونها كاملة، ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي: لا يشكون فيها.

ثم قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ أي: توفيق في الطريق الموصل إلى الفوز ﴿مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: السعداء الظافرون عند الله بكل مطلوب، ثم قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ الإضافة للبيان بمعنى من كباب ساج.

ولما بين أن القرآن كتاب حكيم يشتمل على آيات حكمية ـ بين حال الكفار أنهم يتركون ذلك ويشتغلون بغيره، ثم أن فيه ما يبين سوء صنيعهم من وجوه.

الأول: أن ترك الحكمة والإشتغال بحديث آخر قبيح.

الثاني: هو أن الحديث إذا كان لهواً فلا فائدة فيه كان أقبح.

الثالث: هو أن اللهو قد يقصد به الأحماض كما ينقل عن بن عباس أنه قال: حمضوا.

ونقل عن النبي ﷺ ((روحوا ساعة فساعة)) والعوام يفهمون منه الأمر بما يجوز من المطالب، والخواص يقولون: هو أمر بالنظر إلى جانب الحق، فإن الترويح به لا غير، فلما لم يكن قصدهم إلا الإضلال بقوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ليغوي ويلهي عن دين الله أو القرآن على القولين كان فعله أدخل في القبح.

وفي تفسير هذه يقول الهادي عليه السلام: هذا إخبار من الله سبحانه عن من يشتري لهو الحديث، ولهو الحديث فهو الغناء و الملاهي كلها من شطرنج أو نرد، أو وتر يضرب به، أو شيء من الملاهي التي حرمها على عباده،

ومعني ﴿ يَشْتَرِى﴾ فهو يختار ويؤثر ويجتبي هذا اللهو على غيره من الخير ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ معناه: يشتغل ويشغل بذلك نفسه وعباده عما سوى اللهو من سبيل الله، وسبيله فهي طاعته، واتباع مرضاته، فأخبر الله سبحانه أن من الناس من يؤثر الشر على الخير، يطلب بذلك التلهي والطرب في أرض الله بما يصده وغيره عن سبيل الله، انتهى.

قال الزجاج: من قرأ بضم الياء فمعناه: ليضل غيره، وإذا أضل غيره فقد ضل، ومن قرأ بفتح الياء فمعناه: ليصير أمره إلى الضلال، وإن لم يكن مشترياً وهو عام في الحديث وغيره كاللعب والميسر، ومن ذلك السمر بما لا أصل له، والتحدث بالخرافات والمضاحك.

قيل: نزلت في النضر بن الحارث كان يتجر إلى فارس، فيشتري بها كتب الأعاجم ويقول لقريش: كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود، فأنا أحدثكم بحديث رستم وبهرام، فيحدثهم فَيَسْتَحْلُونَ حديثَه ويتركون استماع القرآن.

وقيل: كان يشتري المغنيات يستميل من أراد الإسلام بالغناء والطعام وشرب الخمر، ويقول: هذا خير لكم مما يدعوكم إليه محمد من الصيام والقيام، والقتال بين يديه، ومعنى ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: بغير حجة ورواية، يريد أنه جاهل فيما يفعل، وقيل: بغير علم بالتجارة بحيث يشتري الضلال بالهدى ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ أي: يتخذ سبيل الدين مهزوءا بها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يهينهم ويذلهم ويخزيهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ﴾ أي: أعرض عنها ولايبالى بها ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ عن سماعها ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي: يشبه حالة من لم يسمعها وهو سامع.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أدخل في الإعراض أي: صماً، وثقلاً يمنعه عن السماع، والوقر ثقل السمع ثم قال: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

أي: له عذاب مهين، فبشِّرْه أنت به وأَوْعِدْه، وَضَعَ البشارة بالعذاب موضع البشارة بالثواب، استهزاء به.

واعلم أنه تعالى لما بَيَّنَ حال من إذا تتلى عليه الآيات ولى بين حال من يقبل على تلك الآيات ويقبلها، وكما أن ذلك له مراتب من التولية والاستكبار، هذا له مراتب من الإقبال والقبول، والعمل به.

فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وقد تكرر تفسير مثل هذا، وقوله سبحانه: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ مصدران مؤكدان، الأول: مؤكد لنفسه، والثاني: مؤكد لغيره؛ لأن ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ في معنى: وعدهم الله جنات النعيم، فأكد معنى الوعد، وأما ﴿حَقًّا﴾ فدال على معنى الثبات أكد به معنى الوعد، ومؤكدهما جميعاً قوله ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر الذي لا يعجزه شئ، فهو يعطي النعيم من يشاء، والبؤس من يشاء ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لايفعل إلا بعدل وحكمة.

ثم بين عزته وحكمته بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ الضمير راجع للسماوات استشهد برؤيتهم لها غير معمودة، أي: ترونها بغير عمد كما تقول لصاحبك: أنا بغير سيف تراني، وإنما يمسكها بقدرته وزعم بعضهم بعمد لا ترى، وأنكره أبو علي، وجوز أبوهاشم الأمرين، وعلى زعمهم هذا الضمير راجع إلى العمد أي: بغير عمد مرئية، قلنا: وإن كان هناك عمد غير مرئية، فهي قدرة الله وإرادته لا غير.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالاً ترسيها وتسكنها ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يريد أن لا، أو لئلا تميد بكم.

وقيل: كراهة أن تضطرب بكم؛ لأنها كانت تحرك فأرساها بالجبال.

ثم قال تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ أي: نشر وكثر ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ وهي الحيوان، سمي بذلك لدبيبه على الأرض، ودبيبه: حركته.

وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ التفات من الغيبه إلى التكلم، وفيه فصاحة وحكمة، وهذه نعمة أخرى أنعمها الله على عباده، وتمامها سكون الأرض؛ لأن البذر إن لم ينبت لم يكن يحصل الزرع، ولو كانت أجزاء الأرض متحركة كالرمل لما حصل النبات، ولما كمل الثبات، ولما كان إنزال الماء نعمة ظاهرة متكررة في كل زمان ومكان، أسنده إلى نفسه سبحانه صريحاً ليتنبه الإنسان لشكر، نعمته فيزيد له من رحمته.

وقوله تعال: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي: صنف من النبات ﴿كَرِيمٍ﴾ مرضي في منافعه، والكريم وصف لكل ما يرضي ويحمد.

قال في البرهان: الناس نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم، انتهى.

ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ وهم آلهتكم حتى استوجبوا العبادة وهذا تبكيت لهم.

ثم قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بين أو مبين للعاقل أنه ضلال، أي: ذهاب وبعد عن الطريق بَيِّنٌ، ليس بعده ضلال، أضرب عن تبكيتهم إلى وصفهم بالضلال.

ولما بين الله فساد اعتقادهم بسبب جهلهم وعنادهم في إشراك من لا يخلق شيئاً بمن خلق كل شيء بين أن المشرك ظالم ضال، ذكر على ما يدل على أن الحكمة لمن وعاها بسبب النجاة من الضلال فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ وهي العلم والعمل، وقيل: إنها النبوة وهو لقمان بن باعوراء ابن أخت أيوب عليه السلام وابن خالته.

وقيل: كان من أولاد آزر، وعاش ألف سنة وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه، فأكثر الأقاويل أنه كان حكيماً، وقيل: كان نبياً.

وفي البرهان: كان عبداً حبشياً راعياً فرأه رجل يعرفه قبل ذلك فقال:

ألست عبد بني فلان الذي كنت ترعى بالأمس؟ قال: بلى، قال: ما بلغ بك ما أرى؟ قال طاعة الله عز وجل، وأداء الأمانة، وصدقي في الحديث، وتركي ما لا يعنيني، والحكمة التي أوتيتها هي العقل والإصابة في القول، انتهى.

قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة عليه السلام في حديقة الحكمة: إن لقمان الحكيم عليه السلام كان في بعض مقاماته ذات يوم وهو ينطق بالحكمة والناس محدقون به يأخذون من كلامه، فجاء رجل من أعداء الحكمة قد غاظه ذلك يريد نقصه عليه السلام فقال: أنت لقمان عبد آل فلان الذي كنت ترعى لهم الحمر، فقال ـ عليه السلام ـ : أن ذلك الرجل، وكان ـ عليه السلام ـ في أول الأمر عبداً حبشياً، فلما ظهرت حكمته اعتقه مولاه في قصة طويلة، فقال له عدو الحكمة ما أبلغ بك هذه المنزلة؟

فقال عليه السلام: تركي لما لا يعنيني، فصارت نادرة على ذلك الرجل ودونت في مهاريق الحكمة، انتهى.

ابن عباس كان عبداً أسود راعياً فرزقه الله العتق، ورضي قوله فقص أمره في القرآن ليتمسكوا بوصيته، ثم فسر إيتاءه الحكمة بقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ﴾ أي: قلنا له: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِ﴾ أي: نعمه.

وفي شكره وجهان: أحدهما: هو حمده على نعمه.

والثاني: هو طاعته على ما أمره، ﴿أَنِ﴾ مفسره لأن إيتاء الحكمة في معنى القول.

قال مقاتل: ﴿ ٱشۡكُرۡ لِي﴾ إذ هديتك للإسلام ﴿وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ بما أولياك من الإحسان.

وعن سفيان بن عيينة: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله، ومن دعى لوالديه في ادبارهما فقد شكر لوالديه.

ثم إن الله تعالى بين أن بالشكر لاينتفع إلا الشاكر فقال ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأن منفعة شكره لا تعود إلا عليه، وشكره عبادته، والعمل بموجب حكمته، وبين أن بالكفر لا يتضرر غير الكافر بقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ فلم يشكر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾ عن شكره ﴿حَمِيدٌ﴾ مستحمد إلى خلقه، أي: حقيق بأن يحمد وإن لم يحمده أحد، ويحوز أن يكون المعنى غني عن خلقه، حميد في فعله.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾ عطف على معنى ما سبق، أي: واذكر حين قال لقمان لابنه كان اسمه أنعم، وقيل: أشكم، وقيل: كان ابنه وامرأته كافرين فمازال بهما حتى أسلما.

ومعنى ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ أي: يُذَكِّرُهُ ويؤدِّبُهُ، ثم إنه في الوعظ بدأ بالأهم وهو المنع من الشرك فقال سبحانه حاكياً عنه: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أي: فساد لمن فعله عظيم؛ لأن التسوية بين من لا نعمة إلا منه وبين من لا نعمة له منه البتة ظلم لا يُكْتَنَهُ عِظَمُهُ يعني: عند الله، وسماه ظلماً لأنه قد ظلم نفسه.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (البقرة ٥٧) ثم قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أن يبرهما ويعاهدهما تحنناً عليهما، وهذه الآية عامة وإن جاءت بلفظ خاص فالمراد به جميع الناس، ثم بين السبب فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي: حملته تهن وهناً على وهن، أي: تضعف ضعفاً فوق ضعف، وكلما ازداد الحمل وعظم ازدادت ثقلاً وضعفاً، ذكر ما تكابده في المشاق في حمل الولد وفصاله ليكون حثاً على الإحسان إليها.

قال في البرهان: يعني جهداً على جهد قال الشاعر:

هل للعواذل من ناه فيزجرها إن العواذل فيها الأفن والوهن

يعني: ضعف الولد حالاً بعد حال، فضعفه نطفة، ثم علقه، ثم مضغة، ثم عظماً، ثم سوياً، ثم مولوداً، ثم رضيعاً، ثم فطيماً، انتهى.

ومعنى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ أي: فطامه من رضاع اللبن؛ لأنه فصل عن الرضاع ﴿فِى عَامَيْنِ﴾ أي: هذه المدة غاية الرضاع، وفيما دونها إلى اجتهاد الأم، واختلف في حكم الرضاع بعد الحولين، هل يكون في التَّحَرُّمِ كحكمه في الحولين؟ فعندنا أنه لا يحرم بعد الحولين لتقدير الله تعالى له بالحولين، ولقول رسول الله ﷺ: ((لا رضاع بعد الحولين)) ذكره في البرهان.

وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ تفسير للوصية بهما، أي: أطعني ببرهما والإحسان إليهما، والمعنى اشكر الله بالحمد والطاعة، واشكر الوالدين بالبر والصلة.

ولما أمر بالشكر لنفسه وللوالدين قال سبحانه: ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ فأجازيكم على الشكر أو تركه، وفيه وعيد على ترك الوصية.

قال في البرهان: يعني فيجازي المحسن على إحسانه بالجنة، والمسيء بالنار، وقد روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((رضى الرب مع رضاء الوالدين، وسخط الرب مع سخط الوالدين)) انتهى.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ أي: أبلغا جهدهما فيك وحملاك ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يعني لا تعرف له شريكاً، أراد بنفي العلم نفي المعلوم، كأنه قال: على أن تشرك بي ما ليس شيء أي: الأصنام، كقوله: ﴿مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ لأنها كالمعدوم الذي لا ينفع ولا يضر ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في الشرك والكفر وإن كنت مأموراً ببرهما، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي: صحاباً معروفاً حسناً، بخلق جميل، وحلم وبر وصلة، تعودهما إذا مرضا، وتتبعهما إذا ماتا، وتواسيهما مما أعطاك الله عز وجل.

ومعنى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ أي: واتبع في دينك طريق من أناب إليَّ من المؤمنين، يعني أقبل عليَّ بقلبه مخلصاً ولا تتبع سبيلهما ﴿إِلَىَّ ثُمَّ

﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أنت وهما ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأجازيكم على إيمانكم، وأجازيهما على كفرهما، وأخبركم بجزاء ما عملتم من حسن وقبح، والمعنى: لا تَجْفُهُمَا لأجل شركهما، وتجعل عقوقهما عقوبة في كفرهما.

قيل: نزلت في سعد بن أبي وقاص حلفت أمه من الطعام والشراب حتى يكفر ولدها سعد بمحمد ﷺ، وكان أحب ولدها إليها، فأبى سعد.

وفي رواية كان براً بأمه، فلما أسلم قالت: غيرت دينك، لتدعن هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فَتُعَيَّرَ بي، فيقال: يا قاتل أمه، ومكثت ثلاثاً لا تطعم ولا تشرب، فشكا سعد إلى النبي ﷺ فنزلت هذه الآية، والتي في العنكبوت، والتي في الأحقاف، فأمره رسول الله ﷺ يداريها ويحسن إليها.

وفي رواية أنه قال لها: يا أُمَّه تعلمي والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا، فإن شئت فكلي وإن شئت فلا تأكلي، فلما رأت ذلك أكلت، وهذا الكلام اعتراض فاصل بين وصية لقمان لتأكيد النهي عن الشرك.

ثم قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ وهذا مثل ضربه الله تعالى بمثقال حبة من خردل في الوزن ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾ أي: في جبل ﴿أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أي: يعلمها الله فيأتي بها إذا شاء، كذلك قليل العمل من خير أو شر يعلمه الله، فيأتي به يوم القيامة فيجازى عليه، ذكره في البرهان .

وهذا دليل ليتوصل به إلى علم الله عز وجل وحفظه، لكل صغير وكبير من الأمور، والمراد به المثل لحفظ الله للجزاء على العمل اليسير من أعمال البر أنه لا يضيع لعامله عند الله عز وجل.

قيل: إن ابن لقمان قال لأبيه: أرأيت لو كان حبة في قعر البحر أكان

يعلمها الله ؟ فأجابه بهذه الآية، ومعناه: أن الله يعلم أصغر الأشياء في أخفى الأمكنة؛ لأن الحبة في الصخرة أخفى منها في الماء.

قال في الكشاف: وعلى القراءة بنصب ﴿مِثْقَالَ﴾ الضمير للهيئة من الإساءة أو الإحسان، أي: إن كانت في الصغر والحقارة في أخفى موضع وأحرزه كجوف الصخرة، أو حيث كانت في العالم العلوي أو السفلي.

وعلى قراءة رفع ﴿مِثْقَالَ﴾ الضمير للقصة، وإنما أنث مثقال لإضافته إلى الحبة كما قال:

كما شرقت صدر القناة من الدم

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ باستخراجها ﴿خَبِيرٌ﴾ أي: عالم بمكانها.

قال في التجريد: وروي أن لقمان لما قال: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ إلى آخر الآية، انفطرت قلبه هيبة لله من هذه الكلمة فمات، فكانت آخر حكمته.

ثم قال تعالى حاكياً: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ظاهره الصلاة المعروفة.

وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عام فيهما.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ قال أكثر المفسرين: يعني بسبب الأمر والنهي، فيكون عاماً في كل محنة ومصيبة، أو لأن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يُؤْذَى فأمره بالصبر عليه، ثم قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي وصيت به ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: معزومات الأمور ومقطوعاتها، وواجباتها، وحقيقته أنه من تسمية المفعول بالمصدر، أي: عزمة الله أي: قطعه قطع إيجاب، ومنه قول الملك لمن تحت يده: عزمت ألا فعلت كذا، فلا يكون للمعزوم عليه بد من فعله، ويجوز أن يكون مصدراً في معنى الفاعل أصله من عزمات الأمور، من قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ كقولك: جد الأمر، وصدق القتال على المجاز، ولما أمره بأن يكون كاملاً في نفسه مكملاً لغيره، وكان يخشى بعدهما من أمرين:

أحدهما: التكبر على الغير بسبب كونه مكملاً له.

والثاني: التبختر في النفس بسبب كونه كاملاً في نفسه، فقال: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ وقرئ ﴿وَلَا تُصَعِّرْ﴾ ومعناها واحد، أي: تعرض عنهم تكبيراً، والمعنى أقبل على الناس بوجهك، ولا تولهم شقه، كما يفعله المتكبرون، والصعر داء يصيب البعير، يلوي منه عنقه.

ثم قال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: مختالاً، أي: لا تمش تمرح مرحاً، وأوقع المصدر موقع الحال بمعنى مَرِحاً، ويجوز لا تمش لغرض المرح، أي: لا يكون غرضك في المشيء البطالة والأشر كما يمشي كثير من الناس، كذلك لا لكفاية مهم ديني أو دنيوي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ أي: متكبر ﴿فَخُورٍ﴾ يفتخر على الناس.

والفخور: المتطاول على الناس بنفسه، المفتخر عليهم بما معه من مناقبه، ولما قال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ وعدم ذلك قد يكون بضده، وهو الذي يخالف غاية الاختلاف وهو مشي المتماوت الذي يُرِي نفسه الضعف تزهداً، فقال: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: كن وسطاً بين الطرفين المذمومين، وامش بالوقار والسكينة، أي: لا تسرع فيه، لما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((سرعة المشي تذهب ببهاء الرجل)).

وقيل: معناه لا تختل في مشيتك، وقيل: توسط لا تدب دبيب المتماوتين، ولا تثب وثب الشطار، جمع شاطر الذي أعيا أهله خبثاً، قاله في الجوهري.

ومعنى: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ فهو أخفضه وأنقص منه.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ﴾ أي: أوحشها وأقبحها ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ ولم يعب على الحمير؛ لأنها لا تذم على ذلك، ولكن عاب على ذوي الألباب، أن يتشبهوا بالحمير التي لا عقول لها، فيصيروا في سوء الأدب مثلها، فجعل الرافعين أصواتهم حميراً، وأصواتهم نهاقاً، مبالغة في تهجير رفع الصوت.

قال في البرهان: والحمار مثل في الذم البليغ والشتيمة، وكذلك نهاقه أقبح في النفس، وأنكر في السمع؛ لأن أوله زفير وآخره شهيق، وهو عند العرب مضروب به المثل، والسبب في ضرب الله تعالى صوت الحمار مثلاً، لما روينا عن الحسين بن علي ـ عليه السلام ـ أن المشركين كانوا في الجاهلية يتجاهرون ويتفاخرون برفع الأصوات، فمن كان منهم أشد منهم صوتاً كان أعز، ومن كان أخفض صوتاً كان أذل، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أي: لو أن شيئاً يهاب لصوته لكان الحمار، فجعلهم في المثل بمنزلته، انتهى.

وفي تفسير هذه الآية يقول الهادي إلى الحق ـ عليه السلام ـ: وهذه وصية من لقمان ـ رحمة الله ـ لابنه يأمره أن لا يصاعر خده للناس، ومعنى ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ﴾، فهو تعرض بوجهك عن الناس، وتصفح لهم خدك، وتعصره لهم استخفافاً بهم، وإعراضاً عنهم عند إقبالهم عليك، ومسألتهم لك، وأمره أن يقبل بوجهه إليهم، ويبسط وجهه لهم، ولا يعرض به عنهم، وهذا فعال يفعله جبابرة الأرض بالناس، ومتكبروها إذا أقبل الناس إليهم وعليهم، أعرضوا بوجوههم عنهم وأعطوهم خدودهم فكلموهم وخدودهم مصعرة عنهم، ومعنى مصعرة فهي ملوية منحرفة، ومعنى ﴿مَرَحًا﴾ فهو لا تمش في الأرض أشراً وبطراً، ساهياً لاهياً، وامش متذللاً متصعراً متفكراً، ناظراً في أثر صنع الله فيها متدبراً، ولا تكن عند مشيتك فيها عند ذلك معرضاً، ولا له تاركاً، انتهى.

ولما بين الله أن المعبود لعظمته بخلق السماوات بلا عمد، وإلقائه في الأرض الرواسي، وذكر بعض النعم بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ذكر بعده عامة النعم، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾

قال ـ عليه السلام ـ: معناه فهو جعل وقدر لكم ما في السماء من المنافع، من الأمطار والشمس والقمر، والنجوم في دورانها مرة وغروبها مرة، وطلوعها أخرى ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مما سخره وقدره وجعله من معايشها

ومنافعها، وما جعل الله سبحانه من الخيرات لبني آدم، فهذا معنى ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ .

ومعنى قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ﴾ فهو أكثَرَ لكم من نعمه وعطائه ومنته ﴿ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ فالظاهرة في ذلك ما ظهر وعُلِم وأُبصِرَ بالعين وفُهِم، والباطنة فهو ما لا يُرى بالعين ولا يُعرف سبَبُه مما يوليه الله عباده، ولا يوقف عليه بحاسة، ولا يعلم إلا بالمعرفة بالله، والإيقان من دفع نوازل الشرور عن العباد في آناء الليل والنهار، وما يصرف عنهم من البلوى، ويقيهم من آفات الدنيا وهم لا يعقلون ذلك، ولا يفهمونه ولا تنال رؤيته بحاسة من حواسه فيفهمونه، والله يفعله لهم من حيث لا يعلمون، ويتولى لهم الصنع فيه وهم غافلون.

ثم أخبر سبحانه بخبر من يجادل في الله فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فهي مجادلة الجهال للعلماء في أمر الله، ومعارضتهم لهم فيما لا يعقلونه من قول الله، فيخبطون أكثر مما يصيبون، ويأثمون ولا يؤجرون، إذ كانوا في أمر الله يحكمون وينطقون بما لا يعرفونه ولا يعقلونه، وهم يخطئون فيه بجهالتهم، ويتكلمون فيه بمجادلتهم، فيثبتون ما نفى الله، وينفون ما يثبت الله، ويحكمون بغير حكم الله، ويُجَهِّلُون العلماء بالله، و يزعمون أن الصواب في خطأ قولهم، وأن الخطأ ما جاء به العلماء، فذمهم الله على ذلك تبارك وتعالى، وأخبر بجهلهم وسوء نظرهم لأنفسهم، انتهى.

قال الحسين بن القاسم ـ عليه السلام ـ: وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يريد يجادل في الله بغير علم ولا بصيرة في دينه وتوحيده، أي: يخاصم المؤمنين في توحيد الله، ويذمهم في تركهم للشرك به بلا علم، ولا دلالة إلا تقليداً لآبائه، وحياطة مذهبه ولجاجه، انتهى.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي: نظر واستدلال يهتدي به ﴿وَلَا كِتَٰبٍ﴾ أي: وحي ﴿مُّنِيرٍ﴾ يستنير به الحق

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ الكفار ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: القرآن الذي يقضي بالتوحيد ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ من عبادة الأصنام، والشرك بين أن مجادلتهم مع كونها من غير علم فهي في غاية القبح؛ لأن النبي ﷺ يدعوهم إلى كلام الله، وهم يأخذون بكلام آبائهم، وبين كلام الله تعالى وكلام العلماء بون عظيم، فكيف ما بين الله وكلام الجهال.

ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾ أي: أيتبعونهم في حال دعاء الشيطان إياهم ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ النار الحامية، استفهاماً على سبيل التعجب في الإنكار، يعني الشيطان يدعوهم إلى العذاب والله إلى الثواب، وهم مع هذا يتبعون الشيطان.

ولما بين حال المشرك والمجادل في الله بين حال المسلم المستسلم لأمر الله فقال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ﴾ يريد نفسه أي: يقبل ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ بالطاعة له، والتسليم لحكمه، والرضاء بجميع فعله ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عمله، وهو شرط في صحة هذا التوكل والتفويض ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ العروة: ما يمسك به الإناء ونحوه، ومعنى بالدين الوثيق، شبهت حالُ المتوكل بحال من يتدلى من شاهق، فاستمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه، والعروة الوثقى هي كتاب الله عز وجل، والهداة من ولد الرسول ﷺ؛ لأنهما السبب بين الله وبين الخلق.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: صائرة إليه، وعنده ثواب ما صنعوا.

ثم لما بين حال المسلم رجع إلى بيان حال الكافر، وقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ وكيده الإسلام، فإن الله دافع كيده في نحره، ومعاقبه عليه ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ أي: نخبرهم بجزاء أعمالهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بما في صدور عباده، فيعاملهم بحسبها، ثم فصل ذلك وقال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾ بمنافع الدنيا ﴿قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي:

نلجئهم في الآخرة ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ استعار الغلظ من الأجرام العظيمة للعذاب، والمراد الشدة في عذاب النار الذي لا يجدون عنه محيصا.

واعلم أنه تعالى لما استدل بخلق السماوات بغير عمد، وبنعمه الظاهرة والباطنة، أخبر سبحانه أنهم معترفون بذلك غير منكرين له فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أمره بالحمد إلزاماً لهم على إقرارهم بأن الذي خلق السماوات والأرض هو الله وحده، فيجب له الحمد والشكر دون الأصنام، وأن لا يعبد معه غيره.

ثم أخبر سبحانه أنه لا شريك له في خلقه فقال: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ خلقاً وملكاً، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن جميع الحامدين ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: المستحق للحمد وإن لم يحمد.

ولما قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ وكان ذلك موهماً بتناهي ملكه لانحصار ما في السماوات وما في الأرض فيهما، وحكم العقل بتناهيهما بين أن في قدرته وعلمه عجائب لا نهاية لها، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ﴾ المعنى: لو أن أشجار الأرض أقلام، والبحر الأعظم أي: المحيط بالأرض ممدود سبعة أبحر مملوءة مداداً، وكتبت كلمات الله بتلك الأقلام، وبذلك المداد حتى نفدت الأقلام والمداد، لما نفذت كلماته أي: كلمات علمه وحكمته.

قال في الكشاف: فإن قلت كان مقتضى الكلام أن يقال: ولو أن الشجر أقلام والبحر مداد، قلت: أغنى عن ذكر المداد قوله: يمده؛ لأنه من قولك مد الدواة وأمدها، جعل البحر الأعظم بمنزلة المداد، وجعل الأبحر السبعة مداداً فهي تصب فيه مدادها صباً لا ينقطع.

قال في التجريد: بفتح الياء، وضمها، والفتح من مَدَّ الداوة، والضم من أمدها.

وقال ابن الجوزي: قال اليزيدي: ﴿يَمُدُّهُۥ﴾ بفتح الياء يزيد فيه، يقال: مد دواتك زد في مائها مدادها، وكذلك قال ابن قتيبة: يمده من المداد لا من الإمداد، يقال: مددت دواتي بالمداد وأمددته بالمال والرجال، انتهى.

قال في البرهان: وفي سبب نزولها قولان:

أحدهما: أن المشركين قالوا: إنما هو أي: القرآن كلام يوشك أن ينفد، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

والثاني: ما روي أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة قالت له أحبار اليهود يا محمد: أرأيت قولك ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾﴾ إيانا تريد أم قومك؟ فقال: ((كل لم يؤتى من العلم إلا قليلاً، أنتم وهم)).

قالوا: إنك تتلو فيما جاءك من الله أنا قد أؤتينا التوراة، وفيها تبيان كل شيء؟ فقال: رسول الله صلى الله عليه وآله: ((إنها في علم الله قليل)) وأنزل الله تعالى هذه الآية، انتهى.

قال الحسين بن القاسم- عليه السلام-: وهذا القرآن جزء من كلمات الله نزله إلى عباده رحمة منه لهم، وعائدة بالفضل عليهم، فليس يدرك باطن أغواره، ولا يحاط بعجائب أسراره؛ لأن تحت كل كلمة كلام متصل لا يحصى، وعجائب عظيمة لا تستقصى، فنحن على كل حال مقصرون عن أغوار بحوره، منحصرون عن غايات أموره، إلا إنا سنجتهد بقدر طاقتنا، ونتكلم على قدر مبلغ عقولنا، انتهى.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يعجزه شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفعاله، ولما ذكر أن ملكوته كثير أشار إلى ما يحقق ذلك فقال: إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ أي: كامل القدرة، فتكون له مقدورات لا نهاية لها، وإلا لانتهت القدرة إلى حيث لا تصلح للإيجاد، وهو حكيم كامل العلم، ففي علمه ما لا نهاية له، فتحقق أن البحر لو كان مداداً لما نفد ما في علمه وقدرته.

ولما بين كمال قدرته وعلمه ذكر ما يبطل استعبادهم للحشر فقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: ما خلقكم في الدنيا، ولا بعثكم في الآخرة إلا كنفس واحدة وبعثها، أي: سواء في قدرته القليل والكثير، إذ لا يشغله شأن عن شأن.

قال في البرهان: يقال: نزلت في أبي بن خلف، وابن الأسد بن يغوث، ومنبه ونبيه ابني الحجاج، قالوا للنبي ﷺ: إن الله خلقنا أطواراً ثلاثة: علقة، ثم مضغة، ثم عظماً، ثم يقول: أنا نبعث خلقاً جديداً ونجمع في ساعة واحدة، فأنزل الله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ الآية.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: عالم بكل مسموع ﴿بَصِيرٌ﴾ عالم بكل مبصر في حالة واحدة، لا يشغله إدراك بعض عن بعض، وكذلك الخلق والبعث وهو وعيد لهم.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الاستفهام لتقرير الرؤية، أي: ألم تعلم ﴿أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ فتحصل ظلمة الليل في مكان ضياء النهار بمغيب الشمس ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: يحصل ضياء النهار في مكان ظلمة الليل بطلوع الشمس.

وقيل: الإيلاج زيادة في أحدهما ما ينقص من الآخر، يعني ما ينقص من النهار بجعله في الليل، وما ينقصه من الليل يجعله في النهار.

ومعنى ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ فهو ذللهما بالطلوع والأفول تقديراً للآجال، وإتماماً للمنافع، ثم قال: ﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر ﴿يَجْرِي﴾ في فلكه ويقطعه ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معناه: إلى وقت معلوم.

قيل: وهو آخر السنة في الشمس، وآخر الشهر في القمر.

وقال في البرهان: يعني إلى وقته في طلوعه وأفوله، لا يعدوه ولا يقصر عنه.

قلت: وقول قدماء أئمتنا - عليهم السلام - وغيرهم أن الأجل المسمى هو يوم القيامة؛ لأنه لا ينقطع جريهما إلا حينئذٍ، فدل بهذا سبحانه على عظيم قدرته، على كل شيء من البعث وغيره.

ولما كان الليل والنهار محل الأفعال، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ بالليل والنهار ﴿خَبِيرٌ﴾ فهو يجازيكم عليه.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي وصف به من عجائب قدرته، وباهر حكمته ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: بسبب أن الله هو الحق الثابت الإلهية ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ﴾ أي: يدعونه إلهاً ﴿مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ أي: باطل إلاهيته ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ في برهانه ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ في سلطانه، فهو العلي الشأن، الكبير السلطان، أو ذلك الذي أوحي بسبب أن الله هو الحق إلى آخره.

ولما ذكر أية سماواته ذكر أية أرضه فقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ﴾ وهي السفن ﴿تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ على عباده، أي: إحسانه ورحمته.

وفي البرهان: يعني وفائدتكم منه أو برحمة الله لكم بخلاصكم منه، انتهى.

وقوله: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: بعض قدرته وعلامات نعمته، وقال: فيه . يعني: جري السفن فيه، وقيل: مفتاح البحر السفن، ومفتاح السماء الدعاء.

والثاني: ما يرون فيه من قدرة الله، انتهى.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ أي: دلائل على قدرته ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾ على بلائه ﴿شَكُورٖ﴾ لنعمائه، أو صبار على الطاعة، شكور على الجزاء؛ لأن المؤمن متذكر عند الشدة والبلاء، وعند النعم والآلاء، فيصبر إذا أصابته نقمة، ويشكر إذا أتته نعمة، وورد في كلام

النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((الإيمان نصفان، نصف صبر ونصف شكر)) إشارة إلى أن التكاليف أفعال وتروك.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ في البحر ﴿مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ يرتفع موج البحر حتى يكون كالظلة، وهي ما أضلك من جبل أو سحاب أو غيرهما ﴿دَعَوُا اللَّهَ﴾ بفزع ينجيهم ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: في صورة المخلصين غير المشركين يعني: موحدين له، لا يدعون لخلاصهم سواه ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: متوسط في الظلم والكفر، يريد أن ذلك الإخلاص لا يبقى لأحد، بل ذلك الإخلاص بل الأمثل مقتصد خفض غلوائه، وانزجر بعض انزجار سبب النجاة، أو ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: في الإخلاص أي: نقص إخلاصه بعد ما أمن، وقيل: مؤمن قد ثبت على ما عاهد عليه الله في البحر.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على القدرة والنعمة، أي: ما يكفر بها ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غدار، والختر: أشد الغدر، وخَتَّار مبالغة فيه، قال:

ملأت يديك من ختر وغدر فإنك لو رأيت أبا عمير

وقوله: ﴿كَفُورٍ﴾ شديد الكفر.

قال الحسين بن القاسم- عليهما السلام-: ختَّار أي: غدَّار خسيس، لا وفاء له بعهده، ولا تمام له في عقده، قال الشاعر:

وأقسم أني ما خترت من العهد وبالملك الرحمن أحلف صادقاً

وقال آخر:

إذا استودع الأسرار يوماً أذاعها وما أنا بالخب الختور ولا الذي

والمعنى: أنه يعترف بالنعمة الصبَّار الشكور، ويجحدها الختَّار الكفور، والصبَّار في موازنة الختَّار لفظاً ومعنى، والكفور في موازنة الشكور إما لفظاً وإما معنى.

ولما ذكر الدلائل من أول السورة إلى آخرها، وعظ التقوى فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ أي: غضبه وعقابه ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ أي: لا يقضي عنه شيئاً.

قال في البرهان: يقال جزيت عنك أي: أغنيت، والثاني لا يحمل، قال الراعي:

إلا ليجزي كامل وابن كامل   وأجزيت أمر العالمين ولم يكن

وقال الحسين بن القاسم ـ عليه السلام ـ: معنى لا يجزي أي: لا يفدي عنه العذاب.

قال الله سبحانه: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ أي: فداء مثله، فأخبر أن الفداء لا يكون يوم القيامة، ولا يمكن، وأن الوالد والولد لا يغني ولا ينفع واحد منهما صاحبه شيئاً، انتهى.

وقوله: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ آكد من قوله: ولا ولد؛ لأن الولد يقع على الولد وولد الولد بخلاف المولود، فإنه الذي يليك، وإذا لم ينفع الأب والأقرب فأولى أن لا ينفع الأبعد، ولا يشفع الولد لوالده إلا بشرط الإيمان، والخطاب لمؤمنين مات آباؤهم على الكفر.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ وهو البعث للجزاء ﴿حَقٌّ﴾ ثابت واجب الوفاء، فقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون تحقيقاً لليوم يعني اخشوا يوماً هذا شأنه، وهو كائن لوعد الله به ووعده حق.

والثاني: أن يكون تحقيقاً لعدم الجزاء، يعني لا يجزي والد عن ولده؛ لأن الله وعد بأن لا تزر وازرة وزر أخرى، ووعد الله حق فلا يجزي، والأول أحسن وأظهر.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ إذا كان الأمر كذلك

فلا تغتروا بالدنيا، فإنها زائلة لوقوع اليوم المذكور بالوعد الحق، ولا يغرنكم الإمهال على الانتقام ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ﴾ أي: بوعده، والقيام بطاعته ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ أي: عظيم الغرور، وهو الشيطان.

وقيل: الدنيا، وقيل: يمنيكم المغفرة مع المعصية يعني: الدنيا لا ينبغي أن تغركم بنفسها، ولا ينبغي أن تغتروا وإن حملكم من محبتها غار من نفس أمارة أو شيطان، وكان الناس على أقسام، منهم من تدعوه الدنيا إلى نفسها فيميل إليها، ومنهم من يوسوس في صدره الشيطان، ويزين في عينه الدنيا، ويؤمله، ويقول: تحصل بها الآخرة، وتلتذ بها، وتتوب فتجمع لكل الدنيا والآخرة، فنهاهم عن الأمرين، وقال: كونوا قسماً ثالثاً، وهم الذين لا يلتفتون إلى الدنيا، ولا إلى ما يحسن من الدنيا في الأعين.

قال في البرهان: تقرأ بفتح الغين وضمها، فمن ضمها أراد غرور الدنيا وخدعها، ومن فتحها أراد بها الغار من الأمل وغيره.

وفي التجريد: الغرور. بفتح الغين. فعول يستوي فيه المذكر والمؤنث، بمعنى فاعل، نحو صبور وهو بناء مبالغة، وبضم الغين مصدر غره غروراً، جعل الغرور غاراً كما قيل: جد جده، أو أريد به زينة الدنيا.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: وقت القيامة ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ في إبَّانِه من غير تقديم ولا تأخير، والمراد العلم بنزول الغيث في زمانه ومكانه ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أذكر أم أنثى، أتام أم ناقص، أمعمر أم لا، أشقي أم سعيد ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ﴾ برة أو فاجرة ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من خير أو شر، وإن عزمت على أحدهما ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي: في أي: أرض ولا أي: وقت يكون موته.

وروينا عن رسول الله ﷺ: ((إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة)) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أي: مختص بعلم الغيب، ومن جملته هذه الأمور.

وقوله: ﴿خَبِيرٌ﴾ تأكيد إذ معنى الخبير والعليم واحد.

وعنه ﷺ: ((مفاتيح الغيب خمس)) وتلا هذه الآية، روى أن الحارث بن عمرو المحاربي أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أخبرني عن الساعة متى قيامها، وإني قد ألقيت حباتي في الأرض، وأبطأت عني السماء فمتى تمطر؟ وأخبرني عن امرأتي فقد شملت -أي: لقحت- ما في بطنها أذكر أم أنثى، وإني علمت ما عملت أمس فما أعمل غداً؟ وهذا مولدي قد عرفته فأين أموت؟ فنزلت، وجعل العلم لله والدراية للعبد لما في الدراية من معنى الحيل والحيلة، والمعنى أن هذه الخمس لا تعلم، و إن أعملت الحيلة فيها.

وعن ابن عباس: من ادعى علم هذه الخمسة فقد كذب.

وعنه: لا يعلم هذه الخمسة ملك مقرب، ولا نبي مرسل.

وقال بعضهم: ما معنى أن الله تعالى نفى علم نحو هذه الأمور بهذه الآية من غيره، وهو كذلك، لكن المقصود ليس ذلك؛ لأن الله يعلم ما هو أخفى من ذلك، ولا يعلمه غيره فلا وجه للاختصاص، هذه الأشياء بالذكر، وإنما الحق فيه أن يقول: لما قال الله: ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ وذكر أنه كائن بقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ كأن قائلا قال: فمتى يكون هذا اليوم؟ فأجيب بأن هذا العلم ما لم يحصل لغير الله، ولكن هو كائن.

ثم ذكر الدليلين الذي ذكرهما مراراً على البعث:

أحدهما: إحياء الأرض بعد موتها كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾ ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾

وقال تعالى: ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ وقال هاهنا: ياأيها السائل إنك لا تعلم وقتها، ولكنها كائنة والله قادر عليها، كما هو

قادر على إحياء الأرض، حيث قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾، ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ﴾.

وثانيهما: خلق الخلق ابتداء كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم ٢٧] وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ﴾ [العنكبوت ٠٢٠] إلى غير ذلك، فقال هاهنا: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ﴾ إشارة إلى الساعة، وإن كنت لا تعلمها، ولكنها كائنة، والله قادر عليها، كما هو قادر على الخلق في الأرحام، ثم قال لذلك الطالب علمه: ((ياأيها السائل إنك تسأل عن الساعة أيان مرساها، ولك أشياء أهم منها لا تعلمها، فإنك لا تعلم معاشك ومعادك، فلا تعلم ماذا تكسب غداً مع أنه فعلك وزمانك، ولا تعلم أين تموت مع أنه شغلك ومكانك، فكيف تعلم قيام الساعة متى تكون، فالله ما علمك كسب غدك مع أن لك فيه فوائد، تبني عليه الأمور من يومك، ولا علمك أين تموت مع أن لك فيه أغراضاً تهيء أمورك بسبب ذلك العلم، وإنما لم يعلمك لكي تكون بكل وقت بسبب الرزق راجعاً إلى الله متوكلاً على الله، ولا عّلَّمَك الأرض التي تموت فيها كي لا تأمن الموت، وأنت في غيرها، فإذا لم يعلمك ما تحتاج إليه كيف يعلمك ما لا حاجة لك إليه، وهو الوقت، وإنما الحاجة بأنها تكون فقد علمك الله على لسان أنبيائه ـ عليهم السلام ـ .

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ لما خصص أولاً علمه بالأشياء المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ ذكر أن علمه غير مختص به، بل هو عليم مطلق بكل شيء، وليس علمه علماً بظاهر الأشياء فحسب بل هو خبير، علمه واصل إلى بواطن الأشياء، والله أعلم بالصواب.

سورة الروم

ستون آية، وخمسون وتسع آيات في المدني الأخير قاله أبو عمرو، في التبيان مكية.

قال في البرهان: اتفاقاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ إن قيل: ما الحكمة في افتتاح هذه السورة بحروف التهجي؟ أجاب عنه بعض المفسرين فقال: إن كل سورة افتتحت بحروف التهجي في أوائلها ذكر الكتاب، أو التنزيل أو القرآن، كما في قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ ﴿تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ﴿حمٓ ۝١﴾ ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ إلا هذه السورة وسورتين آخرتين ذكرناهما في العنكبوت، وقد ذكرنا الحكمة فيهما فنقول والله أعلم: ما يتعلق بهذه السورة وهو أن السور التي في أوائلها التنزيل والكتاب والقرآن في أوائلها ذكر ما هو معجز، فقدمت عليها الحروف، وهذه في أوائلها ذكر ما هو معجزة وهو الإخبار عن الغيب، فقدمت الحروف التي لا يعلم معناها لينبه السامع، فيقبل بقلبه على الاستماع، ثم ترد عليه المعجزة وتقرع الأسماء، انتهى كلامه، وسيأتي إن شاء الله تعالى باقي الكلام في العنكبوت[(١)].

---

(١) **وفي تفسير الإمام زيد بن علي عليه السلام ما لفظه:** =

= أخبرنا أبو جعفر، قال: حدثنا علي بن أحمد، قال: حدثنا عطاء بن السائب، عن أبي خالد، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ فالبضع: ما بين الثلاثة إلى التسعة. وقال: ما بين ثلاثة وخمسة.

وقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ معناه: معاشهم، ومصالحهم، ومتى يعرشون.

وقوله تعالى: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ معناه: استخرجوها.

وقوله تعالى: ﴿يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ معناه: يندمون.

وقوله تعالى: ﴿فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ فالروضة: موضع فيه ماء ونبات. ويحبرون: معناه يسرون.

وقوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ قال الإمام زيد بن علي عليهما السلام: التسبيح في هذه الآية الصلوات الخمس. فحين تمسون: صلاة المغرب، وصلاة العشاء الآخرة، وحين تصبحون: صلاة الفجر.

﴿وَعَشِيّٗا﴾: صلاة العصر. وحين تظهرون: صلاة الظهر

وقوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ معناه: يخرج المؤمن من الكافر، ويخرج الكافر من المؤمن. وقال: يخرج الرجل وهو حي من النطفة الميتة، والنخلة من النواة، والنواة من النخلة، والحبة من السنبلة، والسنبلة من الحبة، والدجاجة من البيضة، والبيضة من الدجاجة.

وقوله تعالى: ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ معناه: مطيعون.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ معناه: ذلك هين عليه. وقال: وهو أهون عندكم؛ لأن الإعادة أهون عندكم من الابتداء.

وقوله تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ معناه: خلقتهم التي خلقهم عليها، وقال: الإسلام

وقوله تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ معناه: لدين الله. ويقال: لا إخصاء.

وقوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ أي تائبين إليه راجعين عن ذنوبهم

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ معناه: جماعة وفريق.

وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ في البر: ابن آدم الذي قتل أخاه. وفي البحر: الغني الذي كان يأكل السفينة غصباً. وقال: البحر كل قرية عامرة، وكانت العرب تسمي الأمصار بحراً.

وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾ معناه: يتفرقون. =

. . . .

= وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ معناه: يتوبون.
وقوله تعالى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي يعملون
وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [معناه] بالغيث.﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ معناه: تهيجه.
وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ معناه: المطر .﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ معناه: وسطه.
وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ معناه: صغارٌ أطفال، والضعف يجيء بعد الكبر بفتح الضاد.
وفي تفسير الغريب للإمام الحسين بن القاسم العياني عليه السلام ما لفظه :
تفسير غريب سورة الروم

بسم الله الرحمن الرحيم

تأويل قوله مولانا عز وجل: ﴿ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۞ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: في أقربها وأدناها إلى بلاد الإسلام، والروم هم على مذهب النصارى لعنهم الله وأخزاهم ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ وقتلهم لجعفر بن أبي طالب صلوات الله عليه ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ ويقتلون ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ أي: سنوات ما بين الثلاث إلى السبع فيما قيل والله أعلم ـ وأما الذي يعرف ويستعمل في لغة العرب فإن البضع هو الجانب من الشيء، والقطع، وكانت هذه فيما روي أحد معجزات رسول الله عليه وعلى آله السلام ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي: له القوة والقهر، ونفاذ الحكمة والأمر من قبل أن يخلق الخلق، ومن [بعد] خلقهم.
ثم قال: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ ويصدقون وعد نبيه بذلك النصر قبل أن يكون ببضع سنين ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ في هذا النصر ولا غيره ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعرفون الله فيصدقون، ثم قال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۞﴾ يريد عز وجل أنهم يعلمون ما ظهر من المعيشة والمأكل والمشرب، والمنكح، واللعب، والطرب، والمزاح وغير ذلك من المصائب والغم، والترح ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ أي: ساهون ذاهلون.
ومعنى قله: ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: حرثوها وبنوا فيها أكثر من عمران هؤلاء، وحرثهم لها ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ الذي افتتحوا القبيح أنهم كذبوا، وذلك عاقبة أمرهم، وآخر قبائحهم، قال الشاعر:

ويكتم منه الصالحات وإن يسئ   يكن ما أساء النار في رأس كبكب

أي: يكن ما قبح من فعله مشهورا.
ومعنى ﴿يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: ييئس الكافرون، والإبلاس هو الأياس، وقيل: أيضا أنه يخرج في لغة على معنى السكوت. =

. . . .

= ومعنى قوله عز وجل ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ أي: يسرون ويفرحون، قال الشاعر:
وأراك تحبر إن بدت لك دارها ويعود نفسك إن نأتك سقامها
﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أي: سبحوا الله في هذه الأوقات، وصلوا.
ومعنى ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ قيل: إنه عنى إخراج الكافر من صلب المؤمن، والمؤمن من صلب الكافر، وزعموا أن الكافر هو الميت، وأن الحي هو المؤمن، وأما أنا فأقول: إنه عنى بذلك إخراج الحيوان من النطف الأموات، وإخراج النطف الميتة من الحيوان، وقولهم حسن غير منكر ـ والله أعلم وأحكم.
ومعنى قوله: ﴿بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ أي: تكثرون، ومعنى قوله: ﴿أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ القيام: هو الوقوف منهن، والثبات، وقلة الزوال بأمر ذي العظمة والسلطان والجلال.
﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ أي: كل إليه داعون، أما الكافر فلا يدعو إلا عند الحاجة والضرورة، وخوف الهلكة، والمصيبة.
وأما قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي: وهو هين عليه غير عسير ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ قيل: إنه الصفة العليا. ومعنى قوله: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: بأنفسكم ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ يقول عز وجل: هل لكم عبيد مماليك شركاء فيما رزقناكم تخافونهم كخيفتكم أنفسكم، أي: كخوف بعضكم لبعض، وهل يكن العبد والسيد شريكين فلا بد أن تنكروا ذلك، وإذا كان منكرا عندكم فكيف لا تنكرون قولكم إذا زعمتم أن لله شريكا من خلقه المملوكين، فكيف يكون الصنم شريكا إذا كان عندكم ذليلا مملوكا.
ومعنى ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي: من أضله الله، ومعنى أضله، أي: سماه بالضلالة لما ضل عن الهدى؛ لأن الله لو أضله وأجبره على الضلالة لما ذمه ولا عذبه بحال من الأحوال فكيف يعذبه على غير فعله، أو يعاقبه بغير كسبه، هذا ما لا يجوز على الرحمن؛ لبعد هذا عن العدل والإحسان.
﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي: معتدلا خاشعا، قال الشاعر:
أبعد حلم المسلم الحنيف راقتك ذات العقد والشنوف
وقال آخر:
حمدت الله حين هدى فؤادي إلى الإسلام والدين الحنيف
﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ يريد خلق الله الذي خلق الناس له خلقا، وأوجدهم له إيجادا ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي: لا تغيير لدين الله ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ يقول: هذا =

= الدين الثابت، ففي ذلك يقول رسول الله ﷺ: (كل مولود يولد على فطرة الإسلام ثم أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه) يريد ﷺ أن الولد أنما يخلق لفطرة الإسلام حتى يعلمه آباؤه دينهم وكفرهم، فإن قبل ذلك فهو مثلهم، وإن عقل فهو يتيمهم، ولا يقلدهم حتى ينظر لنفسه حقيقة أمرهم، فإذا نظر في ذلك تبين له أمرهم، ولم يخف عليه عند الفحص كفرهم.

ومعنى ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ أي: فرقا ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: كل جماعة بما عندهم راضن، وأكثرهم عن الحق معرضون، ولكبرائهم في ذلك مقلدون.

ومعنى قوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي: راجعين إلى دينه، ومعنى ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي: جماعة منهم، والفريق: هم الجماعة، قال الشاعر:

ودرعي كالأضاه وحول بيتي فريق من بني عبس مطيع

ومعنى ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أي: حجة وبرهانا على وجه التكذيب لهم والتقريع ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: لتزدادوا في بيع التأخير من أموال الناس ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: فلا يزيد، ولا يحكم الله بجوازه، ولا هو عنده بجائز، ولا في حكمه بنافذ، ثم قال في الزكاة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي: المكثرون من فضل الله، الذين يؤتون أجرهم ضعفين، أي: مرتين.

ومعنى قوله: ﴿مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ ذلك هو خطاب الجماعة، وخطابك للواحد ذلك، والاثنين ذلكما، وخطابك للنساء ذلكن، وخطابك للواحدة بكسر الكاف، قال الله عز وجل في قصة يوسف وامرأة العزيز، وخطابها للنسوة ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾.

ومعنى قوله: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ليرجعوا إذا أذاقهم منه العقوبة؛ لأن العاقل إذا ناله تعب أو مرض، أو مصيبة خاف أن يموت على ذلك فيهلك عند الله، فربما كان ذلك سببا للتوبة، وسلما إلى الإنابة، ومن الناس من لا يعتبر ولا يفلح فيكون ذلك الأدب حجة لله عليه، واعتذارا من خلقه إليه ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ أي: أقم نفسك وقصدك إلى الدين المستقيم ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي: في ذلك اليوم يصدعون، فقامت التشديدة التي في الصاد مقام التاء، فقس على ذلك ما كان من شكله، ومعنى ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ أي: يتفرقون، وينقطعون، والانصداع هو التفريق والانقطاع فيهم، فمنهم من يتقطع في الجحيم، وتتقطع أمعاؤه من شرب الحميم، ويتفرق لحمه من برد السموم، وينصدع قلبه من الهول العظيم ﴿ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ أي: مبشرات للعباد بخيرات؛ لأن الرياح تبشر أهل البحر بسرعة مسيرهم في الأسفار، وتبشر أهل البر بالسحاب والأمطار.

ومعنى قوله ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي: ترفعه وتظهره، قال الإمام صلوات الله عليه:

علي من الزعف ماذية وتحتي ظهر يثير العما =

= أي: يرفع الغبار ويظهره، والعرب تقول: أثار العير قائما إذا ارتفع واستقل عن مبركه.
ومعنى قوله: ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ البسط هو التمديد والنشر، والبساط مأخوذ من ذلك. قال الشاعر:

منطويا كما انطويت وقد يقتص بعد انبساط السبب

ومعنى قوله: ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ أي: قطعا ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ الودق هو المطر، قال الشاعر:

فلا مزنة ودقت ودقها ولا الأرض أبقل إبقالها

ومعنى قوله: ﴿مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ من بينه ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي: فضل الله ورزقه، ونعمه.
ومعنى قوله: ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ أي: يابسا ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ أي: لا يشكرون ولا يحمدون على المحنة، ولا يصبرون؛ لأن الله عز وجل أوجب الشكر على السراء والضراء، والشدة والرخاء، وهذا أحسن ما أراد وأقربه إلى معنى التفسير، والله سبحانه يدرك ما لا ندرك من الأمور.
﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ أي: من نطفة ضعيفة، فإن قال قائل: والضعف عرض لا يخلق منه شيء؟ قيل له: كما جاز أن يسمي العدد والسلاح قوة، والقوة عرض، وذلك قوله: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أي: عدة، وهو على المجاز، وهي أجسام على الحقيقة، والعرب تسمي ذلك في لغتها، وهم لا يفرقون بين جسم ولا عرض، فخاطبهم بما يعرفون ويفهمون عندهم، ويستعملون، والحكيم لا يحمل أحدا ما لا يحتمل، ولا يكلف كلا من الخلق إلا ما يصل ويهون عليه فهمه ولا يثقل، وفي ذلك ما يروى عن سيدنا المسيح عيسى بن مريم صلوات الله عليه وسلم (إنا معاشر الأنبياء أمرنا بأن نخاطب كلا على قدر عقله) وقال العالم صلوات الله عليه: "فإن مداوي الجرحى قد يحميهم ما لا يحمي منه الأصحاء" وقال: " ليس بالرفيق من أمر من الدواء بما ليس له المأمور بالمطيق".
﴿مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ أي: أقاموا، واللبث في اللغة هو الإقامة ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كانوا يصرفون عن الحق، ويقلدون، ويطيعون رؤساءهم، ويتبعون ولا ينظرون لأنفسهم، ولا يميزون، ولا يرحمون أنفسهم من العذاب ولا يفلحون.
﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ يعني سادتنا الملائكة وغيرهم من أهل اليقين ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ أي: في علم الله إلى يوم القيامة والحسرة والندامة.
ومعنى قوله: ﴿مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: عذرهم ومعاذيرهم ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ يريد أنك إن جئتم بدلالة لم يصدقوك، وننسبوك إلى المحال =

قرئ (غلبت) -بضم الغين . وفتح الياء - في (سيَغلبون) ومعنى ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أقرب الأرض العرب من الروم؛ لأن الأرض المعهودة أرضهم وهي أطراف الشام، أو أراد أرضهم على إنابة اللام مناب المضاف إليه، أي: في أدنى أرضهم إلى عدوهم.

قال مجاهد: هي أرض الجزيرة، وهي أدنى أرض الروم إلى فارس.

وعن ابن عباس: الأردن وفلسطين.

قال في البرهان: وسبب ذلك أنه كان بين الروم وفارس حروب، وكان المسلمون يومئذٍ يحبون ظهور الروم على فارس؛ لأنهم أهل كتاب، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم؛ لأنهم كانوا عبدة أوثان ونيران، فغلبت فارس الروم، فسر بذلك المشركون وقالوا للمسلمين: إنكم

= الباطل، وكذبوك؛ لأنهم لا ينصفون عقولهم، ولا يجاهدون على النجاة أنفسهم، بل يحكمن أنفسهم على عقولهم، ولا يفرقون بين يقينهم وجهلهم ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٩﴾ الطبع هو الختم، والران، والعمى، والصمم، وهو مثل مضروب لمن عمي قلبه عن الحق، ومال إلى الضلال والفسق، فإذا فعل العبد ذلك تركه الله من التوفيق والتسديد حتى يصدى قلبه ويعمى بكثرة الذنوب، أو طبعه الله على ذلك وركبه وصنعه كذلك، فإذا جلاه صاحبه من الذنوب، وتاب إلى الله من القبائح والعيوب، وسلم قلبه من العمى، وأبصر حينئذ طريق الهدى، وأما ما قال به أهل المحال، ونطقوا به على الله من أقبح المقال من أن الله ابتدأهم بالضلال، وختم على قلوبهم الأقفال، وحال بينهم وبين الإيمان، وجبرهم على الفسوق والعصيان، فحاشا الله من ذلك، وتعالى سيدنا من أن يكون كذلك، وكيف يعميهم وهو يريد هداهم، ويزجرهم غاية الزجر وينهاهم، ويتهددهم على ظلمهم وعنائهم، ولو فعل ذلك على الحقيقة لكان أولى بفعله، ولكان أحق بالذم على عمله؛ لأنهم لو كانوا كذلك غير مسببين، ولا مستحقين للذم ولا ظالمين، وكيف يذمون على شيء لم يفعلوه، أو يعذبون على ما يكسبونه، أرأيتم لو أن أحدكم ألزم عبده بالوثاق، وكلفه العمل قبل الإطلاق، أليس إذا كان عندكم عبثا في فعله ظالما متعديا على عبده، فكيف تكرمون أنفسكم عن العبث والمحال، وتضيفون ذلك إلى الله ذي الجلال.

ومعنى قوله: ﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: احذر أن تخف معهم، ولا تطعهم إلى جهلهم، بل أنفذ أحكام الله فيهم أحبوا ذلك أم كرهوه، شاؤه مختارين أم سخطوه.

تزعمون أنكم ستغلبوننا لأنكم أهل كتاب، وقد غلبت فارس الروم والروم أهل كتاب، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فساؤه، فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين، فلما قال: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ سر بذلك المسلمون، والبضع من العدد ما بين الثلاث، والعشرين، روينا ذلك عن رسول الله ﷺ.

وأما النيف ففيه قولان: أحدهما: أنه ما بين الواحد والتسعة.

والثاني: أنه ما بين الواحد والثلاثة.

وفي السنة التي غلبت فيها الروم فارس قولان:

أحدهما: أنه عام بدر، ظهر الروم فيه على فارس، وظهر المسلمون فيه على قريش، وكان يوم بدر، وأخرج الترمذي عن أبي سعيد قال: لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين، فنزلت: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ الآية.

والثاني: عام الحديبية، وكان ظهور المسلمين على المشركين في الفتح بعد مدة الحديبية.

وأما ظهور فارس على الروم فقد كان قبل الهجرة بسنتين.

وأما قوله: ﴿ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ طرف الشام، انتهى.

وقال الحسين بن القاسم ـ عليه السلام ـ: تأويل قول الله عز وجل: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أقربها وأدناها إلى بلد الإسلام، والروم هم على مذهب النصارى ـ لعنهم الله وأخزاهم ـ ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ وقتلهم لجعفر بن أبي طالب ـ صلوات الله عليه ـ ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ ويقتلون ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ أي: سنوات ما بين الثلاث إلى التسع، فيما قيل، والله أعلم.

وأما الذي يعرف ويستعمل في لغة العرب فإن البضع هو الجانب والقطع، كانت هذه فيما روي أحد معجزات رسول الله ﷺ، انتهى.

وفي تفسير هذه الآية يقول أبو عبد الله محمد بن القاسم بن إبراهيم - رحمة الله عليه وعلى آبائه - : هذا خبر من الله سبحانه عن غلبة كانت للروم غلبوها في أدنى الأرض، وقد يمكن والله أعلم أن تكون الغلبة التي غلبت الروم ما كان من نصر الراية التي بعث بها رسول الله ﷺ إلى أرض مؤتة من الشام، وهي أدنى الأرض كانت تلي أرض الإسلام في أيام رسول الله ﷺ؛ لأن الله بعد إكرامه يوم مؤته لجعفر وزيد، وعبد الله بن رواحة لما أكرمهم به من الشهادة، نصر راية رسول الله تلك يومئذٍ وهي بيد خالد بن الوليد فيما ذكروا، فانهزم الروم وغُلِبُوا، وفرح المؤمنون بنصر الله إذ نصر؛ فكان هذا غلب الروم، والغلب هاهنا الذي غلبوه هو والله أعلم غلب المؤمنين في ذلك الروم، ورؤية الذي أحبوه.

ثم رجع الخبر من الله والله أعلم بالإضمار في المعنى واللسان العربي إلى الاختصار للكلام والقصص، والإيجاز، فقال سبحانه: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ يعني والله أعلم في هذه المرة سيغلبون مرة ثانية، ثم أخبر عن وقت الغلب الثاني بآية عجيبة كانت مخبرة عن علم غيب قبل وقوع الغلب الثاني بأنه ستكون غلبة ثانية.

ثم أخبر الله في قوله بضع سنين بما هو أكبر في الدلالة على عجيب الآية واليقين، وكانت البضع سنين مدة ما بين وقعة مؤتة وبين فتح الشام، ففرح المؤمنون بنصر الله في تلك الأيام لنبيه ﷺ، ولدعوة دينه وما أظهر الله من أمر الإسلام بالغلب والقهر لأهل البلدان من ملوك الروم وفارس، بأرض المشرق والعراق، فهذه آية من آيات الرسول في نبوته، إخباره بظهور أصحابه يوم مؤتة على عدوهم من الروم بعد وفاته، وما كان من غلبتهم لهم في ذلك اليوم، ثم أخبر عن غلب يأتي ستغلبه الروم في بضع سنين، فرأى

المؤمنون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله حقيقة ما أخبر به، وصدَّقه بأيقن اليقين، وعاينت ذلك منهم العيون أيام فتح الشام، وغلبة الروم الثانية كخبر النبي ﷺ عن ذلك، إذا لا يخبر ـ عليه السلام ـ إلا عن الله علام الغيوب، ولا يكون إخباره سبحانه إلا صدقاً وحتماً.

ثم أخبر سبحانه أن لله القهر والقوة والقدرة قبل أن تغلب الروم وبعد أن غلبت فقال تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي: القوة والقهر، ونفاذ الحكمة والأمر، من قبل أن يخلق الخلق، ومن بعد أن خلقهم.

وقيل: من قبل الغلبة ومن بعدها، أو من قبل هذه المدة وبعدها.

ومعنى قوله: ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم تغلب الروم على فارس ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ ويصدقون وعد نبيه بذلك النصر، قبل أن يكون ذلك ببضع سنين.

قال في البرهان: يعني بنصر الروم على فارس، وفي سرورهم بذلك ثلاثة أقاويل:

أحدها: لتصديق خبر الله وخبر الرسول أن الروم تظهر على فارس.

والثاني: لأنهم أهل كتاب مثلهم.

والثالث: لأنه مقدمة لنصرهم على المشركين.

قوله تعالى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ يعني من أوليائه؛ لأن نصره مختص بغلبة أوليائه لأعدائه.

وأما غلبت أعدائه لأوليائه فليس بنصر، وإنما هو ابتلاء، ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: القادر على النصر والتغليب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأوليائه فهو

ينصرهم على أعدائه؛ لأن العاقبة للمتقين فهي المعتمدة في النصرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: وعد ذلك وعداً وهو تأكيد لما قبله؛ لأنه في معنى وعد ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ في هذا النصر ولا في غيره ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعرفون الله فيصدقون وعده ووعيده، ولا يخافون عقابه، ولا ينظرون في صلاح آخره، والمراد الكفار لأنهم أكثر من المؤمنين.

قال في التجريد: يريد كفار مكة لا يعلمون أنه وعد الله، ثم وصف كفار مكة بأنهم عقلاء في أمر الدنيا بله في أمر الدين، من حيث أنهم يعمرون دنياهم، ويخربون آخرتهم، فقال عز وجل: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا﴾ واحداً ﴿مِّنَ﴾ جملة ظواهر ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يريد عز وجل أنهم يعلمون من المعيشة والمأكل، والمشرب والمنكح، واللعب والطرب والمرح، وغير ذلك من المصائب والغم والترح، وهو بدل من ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أبدله منه، وجعله قائماً مقامه ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل، وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا، وقد أفاد أن للدنيا ظاهراً وباطناً، فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها وباطنها، وحقيقتها أنها طريق إلى الآخرة يتزود منها إليها بالطاعة، ومعرفتهم بالظاهر أنهم كانوا أهل بصر في التجارات والمكاسب، ولقد بلغ من علم أحدهم بالدنيا أنه ينقر الدرهم بظفره فيخبرك بوزنه.

قال في البرهان: في ذلك وجهان:

أحدهما: يعلمون أمر معايشهم متى يزرعون ومتى يحصدون، وكيف يغرسون وكيف يبنون.

والثاني: ظاهر الحياة الدنيا لا يسعهم جهله من التكاليف من غير تحقيق منهم لها ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: عما أعد الله لهم في الآخرة من

ثواب على طاعة، وعقاب على معصية، أو عما أمرهم الله تعالى به من طاعة، وألزمهم إياه من عبادة ﴿هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ أي: ساهون ذاهلون، ثم ذكر تعالى دليل الأنفس فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ أي: في قلوبهم؛ لأنها مواضع التفكر، أو أراد تعدية التفكر إلى الأنفس أي: الذوات التي هي أقرب إليهم من غيرها، فتدبروا ما أودعها الله ظاهراً وباطناً من غرائب الحكم الدالة على القدرة والعلم، وعلى العدل، ثم يستدلوا على صحة النبوة وعلى البعث والجزاء، ويحتمل ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ أي: خالين؛ لأنه أوقع للفكر فينظروا بقلوبهم وفكرتهم الصادقة فيقولوا: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ما خلقها عبثاً، وإنما خلقها مقرونة بالغرض الصحيح، وهي أن تكون مساكن لعباده ودلائل على قدرته وتقديره ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ﴾ وهو قيام الساعة والبعث، والجزاء والثواب والعقاب؛ لأنها لا تبقى خالدة، أو معناه أجل كل مقدور له ما قدر، فدل على أمرين دل به على الفناء، وعلى أن لكل مخلوق أجل، والتقدير: أو لم يتفكروا فيقولوا هذا القول.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم الكفار ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ أي: بلقاء الجزاء، جزائه وهو الأجل المسمى.

ثم أنه لما ذكر الدليل الذي لا يمكن الذهول عنه، وهو السماوات والأرض؛ لأن من البعيد أن يذهل الإنسان من السماء التي فوقه، والأرض التي تحته. ذَكَرَ ما يقع الذهول عنه وهو أمر أمثالهم، وحكاية أشكالهم، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ من عاد وثمود، وغيرهم من المهلكين بعصيانهم، والهمزة لتحقيق مسير قريش في البلاد، ونظرهم في آثار المدمرين فَذَكَّرَهُم بحال أمثالهم ووبال أشكالهم، ثم ذكر أنهم أولى بالهلاك؛ لأن من تقدم من عادٍ وثمود ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: حرثوها، ومنه الثور لإثارته

الأرض، والبقرة؛ لأنها تبقرها أي: تشقها بالحرث ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: أهل مكة لم يكن لهم إثارة ولا عمارة إذ هم أهل وادٍ غير ذي زرع، وما هو إلا تهكم بهم، وتضعيف لحالهم، وكذا أشد منهم قوة، إذ هم ضعاف القوى فهو من التهكم والاستهزاء.

ثم قال: ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ﴾ أي: المهلكين ﴿رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ أي: بالمعجزات، وأمروهم ونهوهم فلما كذبوا أهلكوا فكيف أنتم ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ بتدميرهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ حيث فعلوا ما أوجب هلاكهم من الكفر والتكذيب، ودل هذا على أنهم لم يؤمنوا فأهلكوا، ثم أخبر عن عاقبتهم فقال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أي: العقوبة السوءى، والسوءى تأنيث الأسوى أي: العقوبة التي هي أسوى العقوبات، وهي جهنم، وكل ما يسوءهم من أليم العقاب، كما قال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ وقوله: ﴿أَن كَذَّبُواْ﴾ تعليل، أو لأن كذبوا ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وفي تكذيبهم وجهان:

أحدهما: تكذيبهم برسول الله ﷺ، وما أنزل عليه من القرآن.

والثاني: تكذيبهم بما أوعده أهل المعاصي من النار والعذاب، قاله في البرهان.

ثم قال: ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: لأجل تكذيبهم واستهزائهم بها، وفي المعنى قولان:

أحدهما: أن ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ خبر كان، أي: كان عاقبتهم الخصلة أو العاقبة السوءى.

والثاني: أن السوء مفعول لأساء، وإما مفعول مطلق، وإما مفعول به، وخبر كان ﴿أَن كَذَّبُواْ﴾.

والمعنى ثم كان عاقبة المسيئين التكذيب، أي: ماتوا على ذلك، وطبع على قلوبهم بسبب إسائتهم.

وعن سفيان بن عيينة في هذه الآية أن لهذه الذنوب عواقب سوء لا يزال الرجل يذنب فينكت على قلبه حتى يسود الذنب القلب كله فيصير كافراً.

واعلم أنه لما ذكرهم أن عاقبتهم إلى الجحيم، وكان في ذلك إشارة إلى الإعادة والحشر لم يتركه دعوى بلا بينة، بل قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾ أي: يوجد المخلوقات من عدم في الدنيا ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ في الآخرة ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يعني من خلق القدرة والإرادة لا يعجز عن الرجعة والإعادة، فإليه ترجعون أي: لا ترجعون إلا إلى جزائه من ثوابه وعقابه، ثم بين ما كان وقت الرجوع إليه فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يسكتون متحيرين لانقطاع حجتهم، والإبلاس: السكوت بتحير.

وقيل: الإبلاس اليأس من كل خير حين يعاينون العذاب، وقيل: هو الندامة والحسرة.

ثم قال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ الذين عبدوهم من دون الله ﴿شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ عند الله كما زعموا أنهم يشفعون لهم يوم القيامة ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أي: يكفرون بآلهتهم يوم القيامة، ويجحدونها، أو كانوا في الدنيا كافرين بسببهم.

ثم بين أمرا آخر يكون في ذلك اليوم وهو الافتراق فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ أي: يتفرق الأشقياء والسعداء بعد الحساب، فيكون المؤمنون بالجنة والكافرون في النار لدلالة ما بعده عليه، عن الحسن هؤلاء إلى عليين وهؤلاء إلى أسفل سافلين، قتادة فُرقة لا اجتماع بعدها، وأعاد قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ لأن قيام الساعة أمر هائل

مكروه . تأكيدا للتخويف، ومنه اعتاد الخطباء تكرير يوم القيامة في الخطب لتذكير أهواله.

ثم بين كيفية التفرق فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ﴾ في بستان وهي الجنة، والتنكير للإبهام والتفخيم، والروضة عند العرب كل أرض ذات نبات وماء، ومعنى ﴿يُحۡبَرُونَ﴾ أي: يسرون ويكرمون، يقال: حبره إذا سره سروراً، تهلل له وجهه، وظهر فيه أثره، والحبرة عند العرب هي السرور والفرح، قال الشاعر:

وأراك تحبر إن بدت لك دارها   وتعود نفسك إن نأتك سقامها

وقال العجاج: الحمد لله الذي أعطى الحبر

وأما الروضة: فهي البستان المتناهي منظراً وحسناً وطيباً، ولم يكن عند العرب أحسن منها منظراً، ولا أطيب منها ريحاً، قال الأعشى:

ما روضة من رياض الخير معشبة   خضراء جاد عليها مسبل هطل
يضاحك الشمس منها كوكب شرق   مؤزر بعميم النبت مكتحل
يوماً بأطيب منها نشر رائحة   ولا بأحسن منها إذ دنى الأصل

دلت على أن العمل الصالح شرط في صحة الإيمان.

قيل: وإنما بدأ بالذين آمنوا مع أن الموضع موضع ذكر المجرمين؛ لأن المؤمن يوصل إليه الثواب قبل أن يوصل إليه الثواب قبل أن يوصل الكافر إلى العقاب حتى يرى ويتحقق أن المؤمن وصل إلى الثواب، فيكون أنكى، والله أعلم

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: لقاء ثوابها وعقابها ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ أي: نازلون لا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم، ومخلدون فيه.

ولما بين الله عظمته في الابتداء بقوله: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وعظمته في الانتهاء، وهو حين تقوم الساعة، ويفترق الناس فريقين، هؤلاء إلى الجنة وهؤلاء إلى النار أمر بتنزيهه عن كل سوء، وبحمده على كل حال فقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: سبحوا الله تسبيحاً لما ذكر الوعد والوعيد أتبعه ذكر ما يوصل إلى الوعد، وينجي من الوعيد، وهو التسبيح في هذه الأوقات، فقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ صلاة المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر.

وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اعتراض فاصل بين ما قبله وما بعده، لتأكيد وجوب حمده على جميع أهل سماواته وأرضه ﴿وَعَشِيًّا﴾ صلاة العصر، وهو متصل بقوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ صلاة الظهر، أو المراد بالتسبيح ظاهره الذي هو تنزيه الله من السوء، والثناء عليه في هذه الأوقات لما يجدد فيها من نعمه الظاهرة.

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: ((من قال حين يصبح ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ إلى ﴿تُخْرَجُونَ﴾ أدرك ما فاته في يومه، ومن قالها: حين يمسي أدرك ما فاته من ليله)).

قال في البرهان: فسبحان الله فيه قولان:

أحدهما: معناه فسبحوا الله حين تمسون وحين تصبحون.

والثاني: معناه فصلوا.

وفي تسمية الصلاة بالتسبيح وجهان:

أحدهما: لما تضمنتها من التسبيح والركوع والسجود.

والثاني: مأخوذ من السبحة، والسبحة هي الصلاة لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((تكون لهما سبحة)).

وقوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ عنى به صلاة المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الصبح ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الحمد لله على نعمه.

والثاني: الصلاة لله لاختصاصها بقراءة الحمد في الفاتحة ﴿وَعَشِيًّا﴾ يعني صلاة الصبح ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ يعني صلاة الظهر، وإنما خص صلاة الليل بالتسبيح، وصلاة النهار باسم الحمد؛ لأن الإنسان في النهار متقلب في أحوال توجب حمد الله عليه، وفي الليل على خلوة توجب تنزيه الله من الأسواء فيها، ولذلك صار الحمد في النهار أخف، فسميت به صلاة النهار، والتسبيح بالليل أخص فسميت به صلاة الليل، والفرق بين المساء والعشاء أن المساء بدو الظلام بعد المغيب، والعشاء آخر النهار، وعند ميل الشمس للمغيب وهو مأخوذ من عشا العين وهو نقص النور من الناظر لنقص نور الشمس، فكانت هذه الآية جامعة لأوقات الصلاة الخمس.

ثم قال الإمام الناصر لدين الله أبو الفتح - عليه السلام - فيه كل صلاة ذكرت في كتاب الله عز وجل قبل الليلة التي أسري برسول الله ﷺ فيها فليست من الصلوات الخمس؛ لأنها فرضت في الليلة التي أسري به فيها، وذلك قبل الهجرة بسنة، وهذه الآية نزلت ليلة الإسراء، وقبل الهجرة، انتهى.

ثم قال تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ الآدمي من النطفة، والطير من البيضة، وقيل: المؤمن من الكافر ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ عكس ما تقدم ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ﴾ بإخراج النبات؛ لأنها حياة أهلها، فصارت كالحياة لها ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بالجدب.

ثم قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم وتبعثون، كما أحيا الأرض بإخراج النبات، كذلك يحييكم بالبعث والنشور.

ولما أمر الله بالتسبيح عن الأسواء، وذكر أن الحمد له على خلق جميع الأشياء، وبين قدرته على الإماتة والإحياء بقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ ذكر ما هو حجة ظاهرة، وآية باهرة على ذلك فقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: دلائل قدرته على إعادتكم ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾ أي: أصلكم آدم - عليه السلام - ﴿مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ في الأرض فاجأتم وقت ذلك، ثم قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ يعني آدم، خلقت من طينته حواء.

والثاني: أنه خلق سائر الأزواج من أمثالهم من الرجال والنساء، أي: من شكل أنفسكم، وجنسها لما بين الجنسين من الإلف والسكون دون المختلفين، ولذلك قال: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ بالمعاشرة أي: لتستأنسوا إليها؛ لأنه جعل بين الزوجين من الأنسة ما لم يجعله بين غيرهما، ثم قال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ المودة المحبة، والرحمة الشفقة، والرحم بين الزوجين بعصمة الزواج بعد أن لم يكن بينكم سابقة معرفة، ولا سبب يوجب ذلك.

وعن الحسن: المودة كناية عن الجماع، والرحمة عن الولد كما قال: ﴿وَرَحْمَةً﴾ منا ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾ أي: دلائل وعبر ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في البعث بعد الموت.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ يحتمل أن يقال: المراد إن في خلق الأزواج لآيات، ويحتمل أن يقال: إن في جعل المودة بينهم آيات.

أما الأول فلابد له من فكر؛ لأن خلق الإنسان من الوالدين يدل على كمال القدرة، ونفوذ الإرادة، وشمول العلم، لمن يتفكر، ولو في خروج الولد من بطن الأم، وأن دون ذلك لو كان من غير الله لأفضى إلى هلاك الأم وهلاك الولد أيضاً؛ لأن الولد لو أرسل من موضع ضيق بغير إعانة الله لمات.

وأما الثاني فكذلك أن الإنسان يجد بين القريبين من التراحم ما لا يجده بين ذوي الأرحام، وليس ذلك بمجرد الشهوة، فإنها قد تنتفي وتبقى الرحمة من الله.

ولما بين دلالة الأنفس، ذكر دلائل الآفاق وأظهرُها خلق السماء والأرض، فقال عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: دلالات يعجز الخلق عن إحداث مثلها، ثم لما أشار إلى دلائل الأنفس والآفاق ذكر ما هو من صفات الأنفس فقال تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ المراد به الكلام فللعرب كلام ولقريش كلام، وللفرس كلام، وللروم كلام، والمعنى لغاتكم المختلفة حتى لا تسمع منطقين متفقين، وإنما فعل ذلك حكمة منه جل جلاله، دل بها على قدرته حتى لا يشتبه الناس في المعارف والمناكح والحقوق.

ثم قال: ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ أبيض وأسود وأحمر، ونحوه وكذا الصور وتخطيطها، ولولا ذلك لوقع التباس بعضهم ببعض، ولبطلت مصالح كثيرة، ووقع الفساد.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ بفتح اللام أي: دلالات ظاهرة من الصانع الحكيم العليم، وعلى أن هذا باختيار قادر حكيم، وتدل أيضاً على اتساع المقدورات، وعظمة القادر حيث تفرعوا من أصل واحد وهم على الكثرة التي لا يعلمها إلا الله، مختلفون متفاوتون، ولما كان خلق السماء والأرض، لم يحتمل الاحتمالات البعيدة التي يقولها أصحاب الطبائع، واختلاف الألوان كذلك والأصوات كذلك قال: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لعموم العلم بذلك.

قال في البرهان: روينا عن علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ أنه قال: الجن والإنس، وقد قرئ (للعالِمين) بكسر اللام، وهو جمع عالم وهم علماء العترة - عليهم السلام -، انتهى.

ولما ذكر بعد العرضيات اللازمة وهو الاختلاف ذكر الأعراض المفارقة فذكر من اللوازم أمرين ومن المفارقة أمرين، فقال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ يحتمل أنه من باب اللف أي: من آياته منامكم بالليل، وابتغاؤكم من فضله بالنهار، إلا أنه فصل بالزمانين لأنهما طرفاهما، ويجوز أن يراد منامكم في الزمانين، وابتغاؤكم فيهما، والظاهر الأول، لتكرره في القرآن، وأسد المعاني ما دل عليه القرآن، وابتغاء الفضل التصرف والعمل فجعل النوم بالليل دليلاً على الموت والتصرف في النهار دليلاً على البعث.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع اعتبار وتدبر، بأذان واعية، وعقول صافية، يسمعون الحق فيتبعونه، ويمر بهم الوعظ فيخافونه، فلما ذكر العرضيات التي للأنفس اللازمة والمفارقة ذكر العرضيات التي للآفاق، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ أنزل الفعل منزلة المصدر، أو هو بإضمار إن، وبهما فسر المثل: (تسمع بالمعيدي خيراً من أن تراه) ومعناه: يريكم البرق ﴿خَوْفًا﴾ من الصاعقة، أو من الاختلاف، وقيل: خوفاً من المسافر ﴿وَطَمَعًا﴾ من الحاضر، أو أراد خوفكم من الصاعقة وطمعاً في الغيث.

وقيل: خوفاً من البرد وطمعاً في المطر.

قال في الكشاف: فإن قلت: من حق المفعول له أن يكون فعلاً لفاعل الفعل المعلل، والخوف والطمع ليسا كذلك ؟ قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن المفعولين فاعلون في المعنى؛ لأنهم راؤون، وكأنه قيل: يجعلكم رائين البرق خوفاً وطمعاً.

والثاني: أن يكون على تقدير حذف المضاف أي: إرادة خوف، وإرادة طمع، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، ويجوز أن يكونا حالين أي: خائفين، وطامعين انتهى.

ثم قال: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ بالجدب ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ بقلوب معتبرة، وذلك أن البرق لما كان أظهر في العقل دلالة على الفاعل المختار قال: هو آية لمن له عقل إن لم يتفكر تفكرا تاما.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ يريد قيامها واستمساكهما بغير عمد ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: وقوفهما وثباتهما وقلة الزوال، بأمر ذي العظمة والسلطان والجلال، أي: بتدبيره وحكمته، وهو مثل عن مشئته لذلك وإرادته، ثم أخبر عن عظيم قدرته ونفاذ أمره وإرادته، بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً﴾ يقول: يا أهل القبور قوموا فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بيان المكان المدعو؛ لأن قولك: دعوته من مكان كذا كما يجوز أن يكون مكانك يجوز أن يكون مكان صاحبك، تقول: دعوت زيداً من أعلى الجبل فنزل إليَّ، وقوله: ﴿دَعَاكُمْ﴾ بمنزلة قوله: ﴿يُرِيكُمُ﴾ في إيقاع الجملة موقع المفرد على المعنى، كأنه قال: ومن آياته قيام السماوات والأرض، ثم خروج الموتى من القبور إذا دعاهم دعوة واحدة، والمراد سرعة ذلك من غير توقف ولا تلبث، وهو معنى قوله: ﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ من قبوركم سراعاً مبعوثين للقيامة، فصار إخراجهم بمنزلة دعائهم، وإن لم يكن هناك دعاء كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ وفي الآية تقديم وتأخير كأنه قال: ومن آياته قيام السماوات والأرض وخروج الموتى من قبورهم، إذا دعاهم دعوة، عطف هذا بثم بياناً لعظم ما يكون من ذلك الأمر، واقتداره على مثله، وهو أن يدعوهم فيجيبوا كما ذكر وإذا الأولى للشرط، والثانية للمفاجأة وهي تنوب مناب الفاء في جواب الشرط، ولما ذكر الآيات وكان مدلولها القدرة على الحشر وهي الأصل الأول أشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي: كل إليه داعون.

أما الكافر فلا يدعو إلا عند الحاجة والضرورة، وخوف الهلكة والمصيبة وقيل: منقادون.

قال في البرهان: يعني مطيعون.

وروينا عن النبي ﷺ أنه قال: ((كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة)).

والثاني: يقرون بالعبودية قانتون بالشهادة أنهم عباد الله تعالى، انتهى.

ثم ذكر المدلول الآخر فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ في الآخرة ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ أي: أسهل وأيسر على مقتضى عقولكم؛ لأن من أعاد منكم صنعته كانت أسهل من إنشائها، ولذلك يذم المعاود في الصنعة إذا أخطأ، ويعذر المبتدئ.

وهاهنا فائدة ذكرها في الكشاف وهي أن الله تعالى قال في موضع آخر: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ وقال هاهنا: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ فقدم هناك كلمة على وأخرها هنا، وذلك لأن المعنى الذي قال هناك: إنه هين هو خلق الولد من العجوز، وأنه صعب على غيره، وليس بهين إلا عليه، فقال: ﴿هُوَ عَلَيَّ﴾ يعني لا على غيري.

وأما هاهنا المعنى الذي ذكره أنه أهون عليه هو الإعادة، والإعادة على كل مبدأ أهون فقال: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ على سبيل الحصر في التقديم هناك كان للحصر.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ﴾ أي: الوصف ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ الذي ليس غيره مثله ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: أنه قد عرف ووصف بذلك فيهما على ألسنة الخلائق، وعلى ألسنة الدلائل، وهو أنه القادر الذي لا يعجز عن

شيء من إنشاء وإعادة وغيرها، دل عليه قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ يعني في قدرته وانتقامه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيره لأموره، وإعذاره للخلق وإنذاره.

ولما بَيَّنَ الإعادة والقدرة عليها بالمثل بعد الدليلين بَيَّنَ الوحدانية أيضاً بالمثل بعد الدليل فقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: انتزع المثل منها؛ لأنها أقرب شيء إليكم.

قال الهادي - عليه السلام - في معنى قوله وهو أهون عليه يخبر تبارك وتعالى أن من عمل شيئاً وابتدعه فأعاده إلى الصورة التي ابتدعها مرة ثانية أهون عليه من ابتدائها واختراعها أولاً، وإنما هذا مثل ضربه الله للخلق مما يعقلونه ويفهمونه من أفعالهم لا أن شيئاً يمتنع على الله، ولا أن شيئاً أصعب عليه من شيء﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

وأما قوله: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ وإنما هذا مثل مثله الله للخلق يريد سبحانه إن كان يجوز أن تكونوا أنتم ومماليككم في أموالكم وفي ما رزقتموه سواء أمركم وأمرهم، وإرادتكم وإرادتهم، حتى تخافوهم في أموالكم فيما تنفقون، وتقبضون وتبسطون كما يخاف بعضكم بعضاً في ماله، فقد يجوز أن يكون سواء شركاً لسيدكم في خلقه وعباده وملكه، وإن كان لا يجوز هذا أن يكون العبد والسيد سواء في مال سيده، فلم يكن أحد منكم لله شريكاً في عباده، ولا أمره ولا ملكه، انتهى.

والمعنى فلا بد أن تنكروا ذلك إذا كان منكراً عندكم فكيف لا تنكرون قولكم إذ زعمتم أن لله شريكاً في خلقة المملوكين، فكيف يكون الصنم شريكاً إذا كان عندكم ذليلاً مملوكاً.

ثم أخبر سبحانه بوضوح الدلالات فقال عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي:

مثل ذلك التفصيل ﴿نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: نبينها بالدلائل والبرهاين القطعية، ونوضح معانيها بالأمثال المحكيات؛ لأن التمثيل مما يكشف المعاني إذ هو بمنزلة التصوير لها، وإذا صور الشرك بأقبح صورة وهي التسوية بين المالك والمملوك، وإنما قال: ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ لأن المثل لا ينتفع به إلا العقلاء، ولما حكم العقلاء أنه لا يكون العبد وسيده سواء فكيف يكون ما هو مخلوق لله تعالى مثله حتى يعبد كعبادته، ثم قال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ أي: شهواتهم، ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾ أي: أشركوا، لقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ وبل للإضراب، أي: بل اعرض الذين ظلموا عن هذا المثل واتبعوا أهواؤهم ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾ وأثبتوا شركاء من غير دليل، جاهلين لا يردعهم علم، كالعالم ربما يردعه علمه إن ركب هواه ويكفه عنه ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ أي: خذله، ولم يلطف به، لعلمه أنه لا يقبل اللطف، أو سماه بالضلالة لما ضل عن الهدى؛ لأن الله سبحانه لو أضله وجبره على الضلالة لما ذمه ولا عذبه بحال من الأحوال، وكيف يؤدبه على غير فعله، أو يعاقبه بغير كسبه، هذا ما لا يجوز على الرحمن لبعد هذا من العدل والإحسان ﴿وَمَا لَهُم﴾ أي: المشركين ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يقدرون على هدايتهم بعد إضلال الله، وفيه دليل على أن المراد بالإضلال الخذلان، ومن ناصرين يدفع العذاب عنهم، ثم قال: إذا تبين الأمر وظهرت الوحدانية، واتضح سبيل الهدى، ولم يهتد الضال ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي: قوم وجهك له، وَعَدِّلْه غير ملتفت عنه، يميناً ولا شمالاً، وهذا تمثيل لإقباله على الدين، واهتمامه بأسبابه، فإن من اهتم بالشيء سدد إليه نظره، وقوم وجهه مقبلاً به عليه، وقوله: ﴿حَنِيفٗاۚ﴾ أي: مائلاً إليه، عن كل دين وهو حال من المأمور أو من الدين.

وفي البرهان وغيره: ﴿حَنِيفٗاۚ﴾ أي: مستقيماً مخلصاً، ومعتدلاً خاشعاً، قال الشاعر:

أبعد حلم المسلم الحنيف　　راقتك ذات العقد والشنوف

وقال آخر:

حمدت الله حين هدى فؤادى　　إلى الإسلام والدين الحنيف

ثم قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ يريد خلق الله الذي خلق الناس له خلقاً، وأوجدهم إيجادا، بدليل قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أو المعنى الزموا فطرة الله وهو التوحيد والدين.

قال في البرهان: الفطرة الدين.

وروينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((من فطرة إبراهيم السواك)).

قال كعب بن مالك:

إن تقتلوه فدين الله فطرتنا　　والقتل في الحق عند الله تفضيل

وإنما قال تعالى: ﴿ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ لأنه خلقهم قابلين لدين الإسلام، غير منكرين له؛ لكونه مطابقاً للعقل، مساوياً للنظر الصحيح، حتى لو تُرِكُوا ما اختاروا عليه غيره، ومن غوى فمن شياطين الجن والإنس.

قال ﷺ عن الله تعالى: ((كل عبادي خلقت حنيفاً فاختالتهم الشياطين عني دينهم)) أي: أضلتهم.

وقوله ﷺ: ((كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه ويمجسانه)) يريد ﷺ أن الولد إنما خلق لفطرة الإسلام حتى يعلمه آباؤه دينهم وكفرهم، فإن قبل ذلك فهو مثلهم، وإن عقل فهو يتهمهم ولا يقلدهم، حتى ينظر لنفسه حقيقة أمرهم، فإذا نظر في ذلك تبين له أمرهم، ولا يخفى عليه عند الفحص كفرهم.

ثم قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا ينبغي أن تبدل تلك الفطرة، أو لا تغيير لدينه.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الدين الحنيف ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ يعني التوحيد المستقيم الثابت ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأن ذلك هو الدين القيم، أو بأن لا تبديل لخلق الله، فلذلك بدلوا الخلقة بمساعدة الشياطين، ثم قال تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي: فأقيموا وجوهكم منيبين إليه، أي: راجعين إليه في كل أمرٍ تائبين إليه وهو حال من الضمير في الزموا المقدر.

وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ إلى ﴿مُنِيبِينَ﴾ فاصل؛ لأن ما قبله وما بعده لتأكيد الدين.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ فهو خافوه إذا أقبلتم عليه وتركتم الدنيا، فلا تأمنوا فتتركوا عبادته، بل خافوه، وداوموا على العبادة ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: الظالمين؛ لأن الشرك أعظم الظلم، وأفرد الخطاب في أقم؛ لأنه خطاب لرسول الله ﷺ وخطابه خطاب لأمته مع ما فيه من التعظيم، وجمع آخر للبيان.

ثم قال: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ أي: جعلوه أدياناً مختلفة لاختلاف أهوائهم، وهو بدل من ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ أي: فرقاً، كل فرقة تشايع أي: تتابع إمامها الذي أضلها.

قال في البرهان: ﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ أي: أوقعوا فيه الاختلاف حتى صاروا فيه فرقاً، وقرئ (فارقوا دينهم) أي: تركوه، وهذه القراءة رويناها عن أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ في الرافض لأئمة الهدى - عليهم السلام- وفي الخوراج عليهم، انتهى.

﴿كُلُّ حِزْبٍۭ﴾ أي: فرقة ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ يحسبون باطلهم حقاً.

وروي عن النبي ﷺ (أنهم أهل البدع والضلالة في هذه الأمة).

ولما بين التوحيد بالدليل وبالمثل، أخبر أن لهم حالة يعرفون بها، وإن كانوا ينكرونها في وقت وهي حالة الشدة، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ أي: شدة من مرض أو هزال أو قحط أو نحو ذلك ﴿دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ تائبين مخلصين مقبلين إليه، قال قيس بن الأسلت:

فإن تابوا فإن بني سليم وقومهم هوازن قد أنابوا

وفي الإنابة قولان:

أحدهما: أن أصله القطع، ومنه أخذ الناب لأنه قاطع، فكأن الإنابة هي الانقطاع إلى الله تعالى بالطاعة.

والثاني: أصله الرجوع مأخوذ من تاب يتوب إذا رجع مرة بعد مرة، ومنها التوبة؛ لأنه الرجوع إلى عادة ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ أي: رحمة بالخلاص من ذلك الصبر ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ إذا للمفاجأة وهي دالة على مبادرتهم على الشرك حال الخلاص لا يؤخرونه، والمعنى: أنهم يضعون الكفر موضع الشكر ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ من النعم، اللام للتعليل المجازي، كأنه أشركوا للكفر بما آتاهم من نعمة الخلاص، كما يطاع للشكر، فكفرهم بالنعمة مسبب عن الشرك.

وقوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ سوء عاقبتكم، التفات إليهم بالوعيد، وأمر تخلية وتهديد.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا﴾ أي: بل أنزلنا ﴿عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ أي: رسولاً ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ أي: يحتج عليهم به، يعني بصحة شركهم بالله، وإصابتهم فيه، أو معنى سلطاناً حجة وبرهاناً، فهي تكلمهم أي: تدلهم، وكلامها مجاز كما تقول: كتاب ناطق بكذا، وما مصدرية أي: بكونهم مشركين، أو موصولة ويرجع الضمير إليها، وفائدة الاستفهام الإنكار لإنزال السلطان على وجه التكذيب لهم والتقريع، وأم

منقطعة، ولما بين الشرك الظاهر شركه بين حال الشرك الذي هو دونه فقال: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ من مطرٍ أو صحة أو سعة ﴿فَرِحُواْ بِهَا﴾ أي: بالرحمة والفرح هو البطر الذي لا شكر فيه ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ أي: بلاء من جدب أو مرض، أو ضيق أو عقوبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بذنوبهم وشؤم معاصيهم ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ والقنوط اليأس من الرحمة والفرج، ذمهم بالمسارعة إلى اليأس من الرحمة، وإن كان السبب شؤم معاصيهم، وهذا خلاف وصف المؤمن فإنه يشكر عند النعمة، ويرجو عند الشدة.

وقوله: ﴿إِذَا هُمْ﴾ إذا للمفاجأة، أي: لا يصبرون على ذلك قليلاً، لعل الله يفرج عنهم، وأنه يذكرهم به.

ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: ألم يعلموا أن الله يوسعه ﴿لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيق على حسب المصلحة أنكر عليهم أنهم قد علموا أنه القابض الباسط، فما لهم يقنطون من رحمته.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يصدقون بصحتها، ومعنى لآيات أي: دلائل على حكمته في إصابة البلاء بسبب المعصية، وعلى قدرته على إعادة النعمة، فما لهم لا يرجعون إليه تائبين من المعاصي التي عوقبوا بسببها حتى يعيد عليهم رحمته.

واعلم أن الله تعالى لما بين أنه يبسط الرزق ويقدر، فلا ينبغي أن يتوقف الإنسان في الإحسان، فإن الله إذا بسط الرزق لا ينقص بالانفاق، وإذا قدر لا يزداد بالإمساك، بين تعالى من يجب الإحسان إليه بقوله: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾.

قال في البرهان: هم ذو قربى رسول الله صلى الله عليه وآله الذين لهم الخمس، انتهى.

وقيل: صلة الرحم، وقد احتج بها في وجوب نفقة الرحم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ يعني من ذوي القربى، وسيأتي تفسيرهما إن شاء الله تعالى.

وقيل: المسافر، وقيل: الضعيف، وحقهما نصيبهما من الزكاة، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإيتاء ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ﴾ أي: ذاته أو جهة التقرب إلى الله ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الظافرون بالمطلوب ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا﴾ أي: ما أعطيتم أكلة الربا من ربى.

ثم قال تعالى: ﴿لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: ليربوا في أموالهم.

وقيل: لتزدادوا في بيع التأخير.

﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ قال في البرهان: فيها تأويلان:

أحدهما: أن الرجل يهدي هدية ليكافأ عليها بأفضل منها.

والثاني: أنه في رجل يهب رجلا من ذي قرابته مالاً، ليصير به غنياً ذا مال، ولا يفعله طلباً لثواب الله تعالى ﴿فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ أي: فلا يكون لكم ثواب . اهـ . ولا يبارك فيه، أي بالخلف والتضعيف.

وفي الكشاف فليست تلك الزيادة بحرام، لكن لا يثاب صاحبها عليها.

وقالوا: الربا ربوان، والحرام كل قرض يؤخذ به أكثر منه أو يجر منفعة، والذي ليس بحرام أن يستدعي بهبته أو بهديته أكثر منها، قرأ نافع لتربوا بالتاء أي: لتزيدوا في أموالهم، كقوله: ﴿وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ أي: يزيدها.

وقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ﴾ يعني الصدقة المفروضة ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ خالصاً لا مكافأة ولا ربا، ولا سمعة.

وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة وهو مدح لهم من أن يقول: فأنتم المضعفون.

قال في البرهان: فيه وجهان:

أحدهما: يضاعف لهم الحسنات؛ لأن من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها.

والثاني: في تضاعف أموالهم في الدنيا بالزيادة، انتهى.

ومعنى المضعفون أي: ذووا الأضعاف من الحسنات، ونظير المضعف المقوي والموسر لذي القوة، واليسار أي: يضاعف بالواحدة عشرة وسبعين وسبعمائة.

ثم قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ يوم القيامة، أي: فاعل هذه الأفعال الخاصة التي لا يقدر على شيء منها غيره ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أي: الأصنام وغيرها ﴿مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم﴾ المذكور ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ حتى يصح قولكم: إنها شركاء له.

ثم قال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: تنزيهاً له ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ ارتفع حاله ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به من خلقه.

ثم قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أراد بالفساد قلة المنافع فيهما، والمَحْقَ، وكثرة المضار، وارتفاع البركات في البر، والجدب والقحط، وقلة الريع في الزراعات، والربح في التجارات، وبالموت في الناس والدواب، وفي البحر بالغرق، وهلاك الأموال، ونحوه ذكره في الكشاف.

قال: ويجوز أن يريد ظهور الشر والمعاصي ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ أي: بسبب ذنوبهم ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ بكفران نعم الله، وارتكاب المعاصي وبال ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ قبل أن يعاقبهم بجميعه في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ لأن للمعصية جزاء معجلاً في الدنيا، وجزاء مؤجلاً في الآخرة، فصار عذاب الدنيا بعض الجزاء، واللام في ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ على هذا التفسير مجاز على معنى أن ظهور الشرور بسببهم مما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم، فكأنهم إنما أفسدوا وتسببوا لفشو المعاصي في الأرض لأجل ذلك.

ثم قال سبحانه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: يرجعوا عن المعاصي إلى الحق والطاعة، إذا أذاقهم منه العقوبة ؛ لأن العاقل إذا ناله تعب أو مرض أو مصيبة خاف أن يموت على ذلك فيهلك عند الله، فربما كان ذلك سبباً في التوبة وسلماً إلى الإنابة، ومن الناس من لا يعتبر ولا يفلح، فيكون ذلك الأدب حجة عليه، وإعذاراً من خالقه إليه، هذا مع بقاء الذين أصابهم البلاء، وإن كان مع هلاكهم فالمراد لعل أمثالهم ممن يأتي بعدهم ﴿يَرْجِعُونَ﴾ أي: يعتبرون.

ولما بين حالهم بظهور فسادهم في أحوالهم بين لهم هلاك أمثالهم وأشكالهم، الذين كان أفعالهم كأفعالهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي: كيف أهلك الله الأمم قبلكم بمعاصيهم ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ دل بقوله: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ على أن الشرك وحده لم يكن بسبب هلاكهم، بل هو وما دونه ففيه تحذير للمسلمين.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ أي: البليغ الاستقامة، يعني استقم للدين المستقيم بصاحبه إلى الجنة، لما نهى الكافر عما هو عليه، أمر المؤمن بما هو عليه، وخاطب النبي ﷺ ليعلم المؤمن فضيلة ما

هو مكلف به، فإنه أمر به أشرف الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يجوز أن يراد يأتي يوم من الله لا يرده أحد، ويجوز أن يراد لا يرده بعد أن يجيء وهو يوم القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي: يتفرقون، لافتراق جزائهم، فريق في الجنة وفريق في السعير، والانصداع هو التفرق والانقطاع، فمنهم من ينقطع في الجحيم، وتتقطع أمعاؤه من شرب الحميم، ويتفرق لحمه من لهب السموم، ويتصدع قلبه من الهول العظيم.

ثم قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي: فعليه عقاب كفره، لا يتجاوزه إلى غيره ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي: يوطؤن مقاعدهم بالأعمال الصالحة، ويسوون بها ما يسويه لنفسه الذي يمهد فراشه أي: يصلحه ويوطئه حتى لا يصيبه فيه ما يؤذيه.

وقوله: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ولم يقل من آمن، وذلك لأن الإيمان لا يتم إلا بالعمل الصالح، فذكره تحريضاً للمكلف عليه.

وأما غير الإيمان إذا جاء فلأنه للعمل معه.

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: صدقوا ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تعليل لـ ﴿يَمْهَدُونَ﴾.

ومعنى: ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ يعني من عطائه، أي: ثوابه؛ لأن الفضول والفواضل هي الأعطية، وقيل: ما يتفضل به بعد توفية الواجب، وتكرير ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وترك الضمير إلى الصريح لتقرير أنه لا يفلح عنده إلا المؤمن الصالح.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تقرير بعد تقرير على الطرد والعكس؛ لأن عدم المحبة من الله غاية العذاب، ولما ذكر ظهور الفساد والهلاك ذكر ظهور الصلاح، ولم يذكر أنه سبب العمل الصالح؛ لأن الكريم لا يذكر

لإحسانه عوضاً، ويذكر لإضراره سبباً، لئلا يتوهم به الظلم فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ أي: بشارات للعباد مخبرات؛ لأن الرياح تبشر أهل البحر بسرعة مسيرهم في الأسفار، وتبشر أهل البر بالسحاب والأمطار، وتبشر أيضاً بصلاح الأهوية والأحوال، فإن الرياح لو لم تهب لظهر الوباء والفساد، والمراد رياح الرحمة وهي الجنوب والشمال والصبا.

وأما الدبور هي ريح المغرب، فريح العذاب ومنه قوله ﷺ: ((نصرت بالصباء وأهلكت عاد بالدبور)). وقوله: ((اللهم اجعلها ريحاً لا رياحاً)).

قال في البرهان: كل شيء في القرآن من الرياح فهي رحمة، وكل شيء في القرآن من الريح فهي عذاب، والرياح ثمانية أربع منها رحمة وأربع منها عذاب، فأما الرحمة فالناشرات والمبشرات، والمرسلات والذاريات، وأما العذاب فالعقيم والصرصر وهما في البر، والعاصف والقاصف وهما في البحر.

وقوله: ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ على المعنى كأنه قال: ليبشركم وليذيقيكم، وأن يكون معطوفاً على محذوف تقديره ليكون كذا وكذا، وليذيقكم من رحمته يعني المطر ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ يعني بقدرته في تسيرها ومشيئته عند هبوبها إذ لا تجري لهم السفن إلا بمشيئته للريح الموافقة، وإلا أرست وربما أعصفت فأغرقت ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بتجارة البحر، وكان هذا بالرياح ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لتشكروا ما عدده من نعمه فتطيعوه؛ لأن طاعة العبد لربه من شكره لنعمته، إذ ليس مع المعصية شكر، ولا مع كفر النعمة طاعة.

ولما بين الله تعالى البراهين ولم ينتفع بها الكفار سلى قلب النبي ﷺ

فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ لينذروهم كما أرسلناك ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات الدالة على صدقهم، أي: فآمن بعضهم وكفر بعضهم ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ للمؤمنين ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ وقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تعظيم للمؤمنين، ورفع من شأنهم، وإظهار لرفع حزبه، حيث جعلهم مستحقين على الله النصر.

قال في البرهان: يعني نصر الأنبياء والأئمة- عليهم السلام- بإجابة دعائهم، على المكذبين لهم من قومهم، انتهى.

وقد يوقف على حقاً أي: وكان الانتقام منا حقاً، وما بعده ابتداء.

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: ((ما من امرء مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم)) ثم تلا الآية.

وفي الحديث: ((المستمع للغيبة أحد المغتابين، والغيبة أشد من الزنا، فمن نصر أخاه برد غيبته نصره الله في الدنيا والآخرة، ومن خذله خذله الله في الدنيا والآخرة)).

ثم بين الله دلائل الرياح على قدرته وحكمته على التفصيل الأول: فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي: تظهره وترفعه، والعرب تقول: ثار البعير قائماً إذا ارتفع، واستقل عن مبركه.

ومعنى قوله: ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: في الهواء الذي سمت السماء، كقوله: ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ والبسط هو التمديد والنشر والبساط مأخوذ من ذلك.

وقوله: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ يعني: ممتداً كثيراً وقليلاً، كثيفاً أو رقيقاً، تارة متصلاً، ثم قال: ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ أي: وتارة قطعاً قد تراكم بعضه

على بعض ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ وهو المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ جمع خلل، أي: من فوقه ومخارجه في التارتين جميعاً، يريد من خلال السحاب أي: من بينه، ثم المطر منه يخرج، والماء في الهواء من عجيب علامة القدرة، وما يقضي إليه من إنبات الزرع، وإدرار الضرع حكمة بالغة.

قال في البرهان: في الودق تأويلان:

أحدهما: أنه البرق، والثاني: أنه المطر، ومنه قول الشاعر:

فلا مزنة ودقت ودقها ... ولا الأرض أثقل إثقالها

ثم إنه لا يعم بل يختص به قوم دون قوم، وهو من علامة الحكمة والمشيئة، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ﴾ أي: الودق ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ المراد إصابة بلادهم بالغيث ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يسرعون الاستبشار مفاجئين له ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ﴾ الغيث ﴿عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي: الغيث ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ أي: آيسين، والمبلس: الساكت المتحير، وتكرير من قبله للتأكيد، كقوله: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ﴾ ومعناه: الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد بَعُدَ فاستحكم بأسُهم، وتمادى إبلاسُهم، فكان به فرحهم على قدر اعتمادهم.

وقيل: ومعنى ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي: من قبل ما ذكرنا من إرسال الريح، وبسط السحاب، وذلك لأن بعد الإرسال يعرف الخبير أن الريح فيها مطر أو ليس، فقيل: المطر إذا هبت الريح لا يكون مبلساً.

ثم لما فصل قال سبحانه: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ وهي الغيث، وأثرها النبات يريد فضل الله ورزقه ﴿كَيْفَ يُحْىِ﴾ الله ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ بالجدب، يعني بالماء حين أنبت شجراً، ومرعى بعد أن كانت بالجدب مواتاً ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: القادر الذي يحيي الأرض بعد موتها ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: يحي الناس بعد موتهم.

لما ذكر الدلائل قال: ﴿لَمُحْيِ﴾ باللام المؤكدة، وباسم الفاعل؛ لأن القادر على إحياء الأرض الموات قادر على إحياء الأموات، استدلالاً بالشاهد على الغائب، ثم قال تأكيداً لما يفيد الاعتراف ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا من المقدورات بدليل الإنشاء، ولما بين أنهم عند توقف الخير يكونون مبلسين آيسين عند ظهوره يكونون مستبشرين بين أن تلك الحالة أيضاً لا يدومون عليها، بل لو أصاب زرعهم ريح مصفر لكفروا، فقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ فضربت بحرها وبردها زرعهم الصغار ﴿فَرَأَوْهُ﴾ أي: أثر رحمة الله والنبات ﴿مُصْفَرًّا﴾ أي: أصفرَّ وجَفَّ.

قال في البرهان: يعني فرأوا السحاب مصفراً؛ لأن السحاب إذا كان كذلك لم يمطر، ويجوز فرأوا الزرع مصفراً بعد اخضراره ﴿لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي: من بعد اصفرار الزرع، يريد أنهم يكفرون ولا يتوبون ويستغفرون، أو المراد أنهم يستمرون على كفر النعمة أي: يجحدون نعمه التي تقدمت بالخصب كقوله: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ذمهم لمقابلتهم النعمة بالفرح، دون الشكر، وبقلة صبرهم على المحنة، وكان عليهم أن يتوكلوا على الله تعالى، ويشكروا على النعما، ويصبروا على البلوى.

قال في البرهان: ومعنى ظل أوقع الفعل في صدر النهار، وهو الوقت الذي فيه الظل؛ لأنه وقت يختص بأهم الأمور، لتقديمه عن نية من الليل، وكذلك قولهم: أضحى يفعل، لكن قد يغير بقولهم: ظل بفعل عن فعل أول النهار وآخره اتساعاً.

وقيل: ما يستعمل أضحى يفعل إلا في صدر النهار دون آخره.

ثم إنه تعالى لما علم رسوله أنواع الأدلة، وأصناف الأمثلة، ووعد وأوعد ولم يزدهم دعاؤه إلا فرارا، وانباؤه إلا كفراً وإصرارا. قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ والموتى هم

الذين يموتون على كفرهم وهم الصم الذين تولوا عن الهدى فلم يسمعوه، وهذا مثل ضربه الله تعالى للكافر بالميت، فكما أن الميت إذا خوطب لم يسمع، والأصم إذا دعي لم يسمع كذلك الكافر لا يسمع الوعظ؛ لأن الكفر قد أماته، والظلال قد أصمه، وإنما قال: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ والأصم لا يسمع الدعاء ولّى مدبراً ليكون أدخل في الامتناع، وذلك لأن الأصم وإن كان يفهم فإنما يفهم بالإشارة فإذا ولى لا يكون نظره إلى المشير فلا يسمع ولا يفهم ولذلك كان حاله مدبراً أسوأ فذكر بأسوء حاله، فشبههم عز وجل في عدم انتفاعهم بالمواعظ بالموتى في عدم فائدة السماع، وبالصم في عِظَمِ بُعْدِهم عن السماع وهو حال إدبارهم؛ لأن الأصم ربما يفهم عند إقباله لمَا يرى من الأمارات وإنما قال: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ ولم يقل في الموتى ذلك؛ لأن الأصم قد يسمع الصوت الهائل كصوت الرعد القوي، ولكن صوت الداعي لا يبلغ ذلك الحد.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ﴾ أي: العمي عن الهدى إذ لا يقبلونه ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ أي: لا يفيد إسماعك ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ﴾ أي: يصدق ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ منقادون للاستماع، منتفعون بالهدى.

قال الهادي عليه السلام: معنى الآية أن تسمع بآياتنا عندما تلقى في آذانهم من وحينا، وتتلو عليهم من وعدنا ووعيدنا، إلا من يؤمن بها، ويصدق بما تتلو من وحيها من المسلمين، فأما من ضل عن الوحي والهدى وجنب عن الحق واتبع الهوى، وكان بذلك كافراً، وفي دين الله فاجراً فلا يسمع ما يراه وينهاه عنه، والسمع هاهنا هو الطاعة والقبول لما جاء به عن الله الرسول، ومن الحجة على أن السمع هو الطاعة ما يقول الله سبحانه: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء ٤٦] انتهى.

ثم قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ يعني: أساس أمركم،

وما عليه جُلَّتُكم وغِبَّتُكم وبنيتكم الضعف، أي: ابتدأناكم من أول الأمر ضعفاء، وذلك حال الطفولية.

وقيل: أراد بالضعف النطفة أي: من ماء ذي ضعف، ومعنى ضعف ذلك الماء: قلته، ومثل هذا ذكر الحسين بن القاسم ـ عليه السلام ـ وهو الذي في البرهان.

فإن قيل: كيف جاز أن يسمي النطفة ضعفاً وهي جسم ضعيف، والضعف عرض لا يخلق منه شيء؟

قيل له: كما جاز أن يسمي العدد والسلاح قوة، والقوة عرض، وذلك قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أي: عدة، وهي على المجاز، وهي أجسام على الحقيقة، والعرب تسمي ذلك في لغتها قوة، وهم لا يفرقون بين جسم ولا عرض، فخاطبهم بما يعرفون ويفهمون عندهم، ويستعملون، والحكيم لا يحمل أحد ما لا يحتمل، ولا يكلف كلا من الخلق إلا ما يصل، ويهون عليه فهمه، ولا يثقل، وفي ذلك ما يروى عن المسيح بن مريم -صلوات الله عليه- قال: إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نخاطب كلاً على قدر عقله.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ إشارة إلى حالة بلوغه وقت الاحتلام والشباب، وذلك حال القوة والاكتهال وبلوغ الأشد وهو أربعون سنة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ إشارة إلى ما يكون بعد الكهولة من ظهور النقصان، ومعناه: رددتم إلى حالكم وهو الضعف بالشيخوخة والهرم.

والشيبة: عبارة عن المشيب والهرم؛ لأن بياض الشيب نذير بالفناء، كما قال الشاعر:

رأيت الشيب من نذر المنايا　　لصاحبه وحسبك من نذير

ثم قال تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: كما خلقكم في هذه الأحوال المختلفة، فبين بقوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أن هذا ليس طبعاً بل هو بمشيئة الله تعالى وحكمته ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل المعلومات ﴿ٱلْقَدِيرُ﴾ على جميع المقدورات التي من جملتها البعث، وهذا الترديد أظهر دليل على الصانع العليم القدير.

ثم لما بين ذكر الإبداء والإعادة كالإبداء ذكَّره بذكر أحوالها فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ هي القيامة سميت بذلك لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا، أو لأنها تقع بغتة، وبديهة، وسريعة، كما تقول لمن تستعجله، ائت في ساعة، وساعة في قوله تعالى: ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ للوقت اليسير، واللبث في اللغة هو الإقامة، أي: ما أقاموا غير ساعة استقلالاً لأَجلِ الدنيا لما عاينوا الآخرة، وأرادوا لبثهم في الدنيا أو في القبور، أو في ما بين فناء الدنيا إلى البعث، ثم جرت الساعة عَلَماً للقيامة كالنجم للثريا.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون عن الحق في الدنيا إلى الباطل، ويقلدون ويطيعون رؤساؤهم، ويتبعون ولا ينظرون لأنفسهم ولا يميزون، أو مثل ذلك الإفك كانوا يؤفكون في الاغترار بما تبين لهم الآن أنه ما كان إلا ساعة، يريد أنهم كانوا في الدنيا يغترون بها، ويرونها طويلة؛ لأنهم لا يقرون بالآخرة، وقد تبين الآن أنها مثل ساعة من الساعات ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ وهم الملائكة والأنبياء والمؤمنون.

وقال في البرهان: هم الشهداء والأئمة من آل الرسول ـ عليهم السلام ـ ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في علمه، وقضائه أو فيما كتبه أي: أوجبه بحكمته، فاللام للقسم المحذوف.

وقال في البرهان: معناه فيما بيانه وتفسيره في كتاب الله، وفي لبثهم أي: إقامتهم في دار الدنيا ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ ردوا قول المجرمين، واطلعتوهم على الحقيقة، ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم: ﴿فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق، والفاء جواب شرط محذوف دل عليه الكلام، كأنه قال: إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث الذي كذبتم به، في دار الدنيا، ولكنكم كنتم لا تعلمون في الدنيا أن البعث حق ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم تقوم الساعة، وتقع هذه الأمور ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ يعني عذرهم الذي اعتذروا به في تكذيبهم؛ لأنهم يعتذرون بالباطل، كأطعنا ساداتنا ونحوه ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يستتابون، ويحتمل ولا يطلب منهم العتبى، وهو أن يردوا إلى الدنيا ليعتبوا أي: ليتوبوا من قولك: استعتبني فعتبته أي: استرضاني فأرضيته، وحقيقة أعتبته أزلت عتبه، والمعنى لا يطلب منهم إرضاء ربهم بتوبة وطاعة لفوات وقتها، ثم أخبر تعالى عن إزالة الأعذار، والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: وأقسم لقد وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة البيان، كقصة المبعوثين يوم القيامة وما يقولون، وما يقال لهم، ولضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر ليس بالخفي في إبراز حقيقات المعاني، ووقع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين، وفي سائر كتبه أمثاله، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ من آيات القرآن ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ جئتنا بزور وباطل ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم فيما جئتم به من الآيات ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ يريد أنك إن جئتهم بدلالة لم يصدقوك ونسبوك إلى المحال والباطل وكذبوك؛ لأنهم لا ينصفون عقولهم، ولا يجاهدون على نجاة أنفسهم، بل يحكمون أنفسهم على عقولهم، ولا يفرقون بين تقيتهم

وجهلهم، ثم أشار إلى خذلان العصاة، وسلبه الألطاف عن الجهلة الطغاة، بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: الجهلة، ومعنى الطبع هو منع الألطاف التي تنشرح لها الصدور حتى يقبل الحق، وإنما يمنعها من علم أنه لا يقبلها، ولا ينفعه كالواعظ يمنع موعظته مَنْ تَبَيَّنَ له أن موعظته تلغو ولا تنجع فوقع ذلك كناية عن قسوة قلوبهم، كأنه قال: كذلك تقسوا قلوب الجهلة، حتى سموا المحقين مبطلين، وهم أعرف خلق الله في تلك الصفة. قاله في الكشاف.

قال الحسين بن القاسم ـ عليه السلام ـ: فإذا فعل العبد ذلك تركه الله من التوفيق والتسديد حتى يصدأ قلبه، ويعمى لكثرة الذنوب، فإذا جلاه صاحبه من الذنوب وتاب إلى الله من القبائح والعيوب سلم قلبه من العمى، وأبصر حينئذٍ طريق الهدى، انتهى.

ثم إنه تعالى سلى قلب النبي ﷺ بقوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ معناه: أن وعد الله في نصرك وتأيدك، والانتقام من أعدائك، وإظهار دينك على الدين كله، حق لابد من الوفاء به.

ومعنى قوله: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ لا يحملنك على الخفة والقلق جزعاً مما يقول: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بالبعث والحساب، أي: احذر أن تخفَّ معهم، ولا تطعهم إلى جهلهم بل انفذ أحكام الله فيهم، أحبوه أو كرهوه.

قال في البرهان: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ أي: لا يستفزنك، ولا يستعجلنك، وروينا أن أمير المؤمني علياً ـ عليه السلام ـ كان في صلاة الصبح وكان خلفه رجل من الخوارج فقال له الخارجي: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر ٦٥] فقال أمير المؤمنين: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم ٦٠].

الفهرس